mngool.com
mngool.com

التـاريـخ العربي وجغرافيته

الجزء الثالث

تاليف
أمين مدني

الطبعة الثانية

دار القوافل للنشر والتوزيع
الرياض : ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر

مدني ، امين عبدالله

العرب في احقاب التاريخ : التاريخ العربي وجغرافيتة / أمين عبدالله مدني - الرياض ، ١٤٢٩هـ

..ص ؛ ..سم

ردمك : ٨-٣-٩٠٠١٦-٦٠٣-٩٧٨

١ - الجزيرة العربية -تاريخ ٢ - الجزيرة العربية - جغرافيا ٣ - العالم العربي - تاريخ أ. العنوان

ديوي ٩٥٢ ١٤٢٩/٢٣٨٠

رقم الإيداع : ١٤٢٩/٢٣٨٠

ردمك : ٨-٣-٩٠٠١٦-٦٠٣-٩٧٨

الإهداء

إلى حماة العرب في أحقاب التاريخ

إلى حفدة الذين خططوا الأرض العربية بدمائهم

إلى الجيش العربي في قلب العروبة

ممثلاً في وزيره الحازم المقدام

سمو الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود

أقدم التاريخ العربي وجغرافيته

أمين مدني

شكر واعتذار

تقديرًا وإكبارًا نشرت في بداية صفحات الحلقتين الأولى : "التاريخ العربي وبدايته" ، والثانية: "التاريخ العربي ومصادره" من هذا المؤلَّف "العرب في أحقاب التاريخ" مقتطفات مما تفضل به الذين كتبوا عن هذا المؤلف متغاضين عن القصور والنقص .

واقتناعًا بملاحظات بعض الإخوان الذين رأوا في نشر مثل ذلك دعاية ومباهاة لا حاجة إليهما – أعتذر للأفاضل الذين أحسنوا الظن فيما نشروه في الصحف، وفيما حرروه في رسائلهم بعد صدور الحلقة الثانية عن تسجيل كلماتهم في هذه الحلقة الثالثة : "التاريخ العربي وجغرافيته".

فحياهم الله، وحيا فيهم الطيبة والنبل .

أمين مدني

المُحتَويَات

التوطئة

١- تعريف الكتاب سبق في مقدمتي الحلقتين الأولى : التاريخ العربي وبدايته، والثانية : التاريخ العربي ومصادره - من هذا المؤلف - العرب في أحقاب التاريخ .

٢- جغرافية الجزيرة العربية كانت - وما زالت - تجذب اهتمام المؤرخ والجغرافي والأثري .

٣- من أهم أهداف هذا الجزء إزالة الشوائب من المفهوم العربي .

٤- الذين لم يذكروا هذين القسمين العربيين : الهلال الخصيب ومصر - مع أقسام الجزيرة العربية الخمسة : الحجاز، ونجد، والعروض، وتهامة، واليمن - هم الذين أدخلوها في إطار حدود الجزيرة العربية.

٥- وجهات الدراسات الجغرافية والتاريخية في الوقت الحاضر .

٦- متاعب البحث .

٧- استقلال كل جزء من بقية أجزاء هذه الموسوعة : العرب في أحقاب التاريخ.

٨- الأخطاء المطبعية وخطرها .

٩- هذه التوطئة تتمها كلمة "نهاية المطاف".

١٠- الأعلام الذين قدموا لنا مصادر التاريخ والجغرافية أكبر من الألقاب.

١- فيما سبق في مقدمة الحلقة الأولى - "التاريخ العربي وبدايته"، وفي مقدمة الحلقة الثانية: "التاريخ العربي ومصادره". من هذا المؤلف: "العرب في أحقاب التاريخ" ما يغني عن تعريف الكتاب، وإيضاح أبعاده، وأهدافه، والبواعث التي دفعتني لتحمل مسئولية التأليف في بحوث لم تنل من عناية الذين شغلوا بالتاريخ العربي المقدار الذي تستحقه بداية التاريخ العربي - لنعرف نقطة البداية في عصوره الجاهلية ولو على وجه التقريب. ولم تنل المقدار الذي تستحقه مصادر التاريخ العربي - لمعرفة من أين جاءت؟ وكيف جاءت أنباء العصور التي تفصلنا عنها آلاف السنين؟

فلمعرفة بداية التاريخ العربي، ولمعرفة مصادره وضعت الحلقة الأولى، والحلقة الثانية من هذا المؤلف.

٢- والآن، أضع جغرافية الجزيرة العربية بين يدي القارئ على صفحات هذه الحلقة الثالثة، وأضع بين يديه جهدًا بذلته في سبيل جمع الأقوال التي تناقلها الذين ألفوا في جغرافية البلاد العربية وتاريخها، والوصول إلى ما يقصده أصحابها.

ففي بحوث المتقدمين حقائق تزيل ما حاول الاستعمار القديم والحديث أن يرسخه في عقول الكثيرين من الذين انصرف فهمهم إلى أن "العراق" و"سورية" ليستا من الجزيرة العربية، وأن "دلتا النيل" و"ضفته الشرقية" لا تمتان بصلة إلى العرب والعروبة.

٣- فلإزالة هذه الشوائب من المفهوم العام وضعت هذا الجزء "التاريخ العربي وجغرافيته"، ولأجل أن يكون القارئ على بينة مما يقرؤه لم أبالغ له في مقدمتي الجزأين السابقين: التاريخ العربي وبدايته، والتاريخ العربي ومصادره، ولم أغمّ عليه النتائج التي توصلت إليها، ولم أدّع أنها كاملة سليمة من كل ما تتعرض له البحوث التاريخية، مما قد يراه القارئ خطأ، فكثيرًا ما بعدت الشقة بين وجهة نظر الكاتب ورأي الناقد، فأنا إذا كنت أدافع عن وجهة رأي، فالقارئ اليوم وفي الغد هو الحكم بيني وبين من اختلف معي في الحاضر، ومن قد يختلف معي غدًا في النتائج التي ذهبت إليها.

لذلك لم أخف عنه الحيثيات التي اعتمدت عليها ، ولم أكتمه أن كل ما لخصته ليس سبقًا علميًّا لم يصل إليه باحث من قبل ، فما استخرجته هنا مستمد من النتائج التي سبقني إليها المؤلفون في تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها ، وإنما كانت المتاعب في فهم تلك النتائج وجمعها متسلسلة وتطبيقها على الواقع في العصر الحاضر ، وفي التنقيب عما يحتاج البحث إلى ذكره من الحدود والمدن والجبال والرمال التي وردت في مؤلفات القدامى ، ومعرفة أين مواضعها في المصورات الجغرافية الحديثة؟!

وفي بحوث القدامى التي وصلت إلينا أقوال لها قيمتها لأن فيها أجوبة عن كثير مما نسأل عنه. ومن هذا الكثير الذي نسأل عنه : هل نحن نعيش على جزيرة؟ أم على شبه جزيرة؟ أقوال لها قيمتها لأنها لم تترك في ظلمات الشكوك أطراف هذه الجزيرة - أمّ البلاد العربية - جنوبًا وشمالاً وشرقًا وغربًا ، وأقوال لها قيمتها لأنها لم تجهل : معالم الحدود الطبيعية لأقسام الجزيرة السبعة ، لاسيما الحجاز ، ونجد ، واليمن ، وتهامة ، والعروض ، هذه الأقسام الخمسة التي كان حظها لدى الجغرافيين العرب أوفر من بقية أقسام الجزيرة : الهلال الخصيب ، ومصر العمليقية ، لأن الاستعمار الفارسي والرومي الذي جثم زمنًا طويلاً على "الهلال الخصيب" و"مصر" جعل الغالبية من جغرافيي العرب ومؤرخيهم في أكثر أقوالهم يعتبرون العراق فارسيًّا ، وسورية رومية ، ومصر جميعها فرعونية خضعت للاستعمار البيزنطي ، مثلما جعل الاستعمار الحبشي الذي تسلط على "اليمن" وكثرة العناصر الأفريقية والهندية التي عاشت على أرض جنوبي الجزيرة العربية واختلاط الأفريقيين بالتبابعة - علماء اللغة العربية يقولون : ما لغة حمير بلغتنا ولا لسانهم بلساننا!!

٤- فغالبية الجغرافيين الذين اختصروا كلامهم على هذه الأقسام ، أدخلوا في حدود الجزيرة العربية : "العراق" و"سورية" الكبرى - سورية ولبنان وفلسطين - والحجاز ونجدًا واليمن وتهامة والعروض و"مصر العمليقية" ، من سيناء شرقًا إلى النيل

غربًا وبلبيس جنوبًا والبحر المتوسط شمالاً. فجعلوا الفرات حدًا شماليًا وشرقيًا للجزيرة العربية ، وجعلوا من النيل تتمة لحدها المائي غربًا ، كما سنوضحه بالنصوص في كلامنا عن حدود الجزيرة العربية ، وعن الهلال الخصيب ، ومصر العمليقية.

وجميع المؤرخين الذين بحثوا في تاريخ البلاد العربية لم يغفلوا كفاح العرب في سبيل العراق العربي، أو يغفلوا تاريخ الشعوب العربية العراقية من عهود : "الأكاديين" إلى عهد "اللخميين"، ولم يغفلوا كفاح العرب في سبيل سورية العربية ، أو يغفلوا تاريخ الشعوب العربية السورية ، من عهود "الكنعانيين" إلى عهد "الغساسنة" ، ولم يغفلوا الشعوب العمليقية العربية في "مصر"؛ فجميعهم يقولون : إن من الأسر الفرعونية الحاكمة أسرًا عربية العنصر واللغة والحضارة.

وكذلك علماء اللغات العربية متفقون جميعهم على أن لغة اليمن لغة عربية امتزجت بلغات سكان "أفريقية" وجزائرها ، وبلغات سكان شرقي خليج "عُمان" وجزره، فأصبحت لهجاتها بعيدة كل البعد عن لهجات سكان قلب الجزيرة العربية ومصطلحاتها ، غير صالحة للاعتماد عليها في ضبط ألفاظ اللغة العربية وقواعدها ومصطلحاتها ، فلذلك قالوا : ما لغة حمير بلغتنا.

٥- والذين ألفوا في تاريخ الجزيرة العربية وفي جغرافيتها ، من المتأخرين، ذكروا الكثير من أقوال القدامى : نماذج للإدراك الجغرافي عند ذلك الرعيل، وذكروا الكثير من عباراتهم : نصوصًا اعتمدوا عليها ، ثم تفرقت بهم الآراء في تفسير النصوص، كما تفرقت بهم مناهج بحوثهم وأهدافها ، فانصرف فريق منهم إلى تاريخ الجزيرة القديم جدًا وجغرافيته، فأخذ يبحث عن الأسماء التي جاءت في "الأسفار" وفي النصوص الآشورية ، والكلدانية ، والفرعونية ، واليونانية ، والفارسية ، والرومانية ، وانصرفت جماعة إلى جغرافية الجزيرة الحديثة وتاريخها ، فمرت مسرعة على أقوال القدامى دون ما تحقيق في الأقوال المختلفة ، ودون البحث عما يقصده الذين وضعوا الجزيرة في

نطاق لا يتجاوز "مكة" و"المدينة" وأعمالهما، وعما يقصده الذين مدوا حدودها إلى مجرى الفرات شمالاً وشرقًا، وإلى مجرى النيل غربًا.

أقول : مرت مسرعة لأن هدفها صفة الجزيرة في الوقت الحاضر، وأقسامها السياسية والإدارية في عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث برزت أقطار على المسرح الدولي لم يكن لها شأن يدفع الجغرافي أو المؤرخ المتقدم إلى أن يتكلم عنها على النحو الذي يتكلم عنها الباحثون في العصر الحاضر، لأن ما توافر من أسباب، وما جدّ من دوافع كانت تنقص القدامى، بقدر ما تزيد اليوم عن حاجة المتأخرين.

٦- ولئن لاقى الذين حددوا جزيرة العرب ووصفوها بالأمس - متاعب لا يستهان بها، إن الذين يبحثون اليوم في حدود جزيرة العرب وفي تاريخها الجغرافي يلاقون الكثير من المتاعب، لأن المصادر التي أصبحت في متناول يد الباحث كثيرة. فمؤلفات جمَّة، عربية اللغة والمنهج والأسلوب، ملأت المكتبات، يسود أكثرها الاكتفاء بحرفية النصوص على ما فيها من غموض وتناقض ومبالغات، فمنها ما جاء فيه أن بلاد العرب عندما غزاها "بختنصر" خمسة أقسام : الحجاز، ونجد، واليمن، وتهامة، والعروض. ومنها ما جاء فيه أن جزيرة العرب : مكة، والمدينة، واليمن، واليمامة، وعن "مالك" في "لسان العرب"[١] (جزيرة العرب - المدينة)، في حديث : "إن الشيطان يئس أن يعبد في جزيرة العرب"، ومنها ما يبحث في "الحجاز" على أنه "جبال السراة" الممتدة من قعرة اليمن إلى أطرار[٢] الشام، ومنها ما يبحث في الحجاز على أنه إقليم يمتد من جنوبي "فلسطين" إلى شمالي "عسير"، ومنها ما يبحث في اليمن على اعتبار أنه من البحر الأحمر غربًا إلى خليج عُمان شرقًا، إلى غير ذلك؛ مما شوش الأمر على بعض الباحثين في الزمن الحاضر.

---

(١) لسان العرب، باب الراء، ومعجم ياقوت، مادة (جزيرة)، ومعجم ما استعجم، ص٥، ٦، ٧.

(٢) أطرار الشام : أطرافها، وقعرة اليمن : أقصاه.

ومؤلفات كثيرة وضعها المستشرقون والأثريون، يغشاها الكثير من الحيرة والتردد والشكوك، منها ما يجعل الصفوية أمة، ومنها ما يجعل الصفوية اسم خط من الخطوط القديمة، ومنها ما يجعل منازل "السراسنيين" في شرقي "السراة"، ومنها ما يجعلها في شماليها، ومنها ما يجعل أقسام الجزيرة ثلاثة : الصخرية والصحراوية والسعيدة.

فاختلاف مناهج المؤلفات، وتفاوت معارف مؤلفيها وقدرتهم على التقصي والاستنتاج وضع أمام الباحث صورًا ذات مقاييس يمكن التعويل عليها، وأخرى خبط عشواء.

ومن المتاعب التي يلاقيها الذين يقتصرون في البحث على جانب من جوانب التاريخ والجغرافية في عصرنا الحاضر - عصر الاختصاص - ملاحظات أبداها الباحث المتأخر لم تخطر على بال القدماء، لأنهم يقصدون شيئًا غير الذي فهمه نقاد اليوم.

ومما يزيد مشاكل البحث تعقيدًا، ما جاء في مقدمة كتاب "ياقوت الحموي" عن المؤلفات اليونانية القديمة التي اطلع عليها ، والتي قال عنها : "لقد جهل أكثر الأماكن التي ذكرت فيها)، وما واجهه ياقوت في معاجم اليونانيين يواجهه الجغرافيون الذين يرجعون إلى معجم ياقوت وغير معجم ياقوت في الوقت الحاضر، ويواجهه الأثريون مما تراه واضحًا فيما نقله "جواد علي" عنهم في كتابه : "تاريخ العرب قبل الإسلام". ومما تراه في مؤلفات المستشرقين التي وضعت في تاريخ الشرق الأوسط القديم، وفي جغرافيته. فلقد تغيرت معالم البلاد العربية الطبيعية وغير الطبيعية، فمثلاً : هذه "قناة السويس" قد بدلت معالم الجزيرة العربية، فأصبحت مياه البحرين: الأحمر والأبيض متصلة لا يفصل بينهما برزخ سيناء، وأنا لا أذهب بك بعيدًا إلى الأماكن التي

ذكرها قدامى اليونانيين، بل هذه سوق "عكاظ" في كلام جغرافيي العرب ومؤرخيهم المتقدمين، اختلفت الآراء في موضعها مع أنها أدركت الإسلام، فسلك الباحثون متاهات لم يبصر فيها الكثير منهم الحقيقة التي ينشدها الجميع.

فمما لا شك فيه أن كل شيء في الجزيرة العربية تطور في أجيال تاريخها الطويل، وأن مسائل كثيرة كانت وما زالت موضع اختلاف ونقاش، وأن نتائج كثيرة تحتاج إلى غربلة وتنقية، وأن استيعاب كل ما حدث في حقب تبتدئ من قبل الميلاد بنحو ألفي سنة من الصعوبة بمكان، فصفة الجزيرة، وطبيعتها، وعقائد سكانها وعناصرهم، وحدود دولها، وماهية نظمها، ومقاييس تقاليدها، ومفاهيمها، إلى غير ذلك مما تبنى عليه حياة الأجيال، ويلوّن حضارتها، كل هذه تتطور مع كل جيل من حال إلى حال، فالأقاليم تمتد وتتقلص جغرافيًّا مع قوة الدول التي تملكها وضعفها، وتاريخ الدول تبرزه حضارة الأمة ومعارفها، وحضارة الأمم هي مرآة عقليتها، وعقلية الأمة تسير مع عجلة التطور، التي تسير بالأمة من غير بطء تارة، وتارة تقف في طريقها عقبات، فكل جيل سطر تاريخًا تختلف ألوانه، فتاريخ لامع، وتاريخ قاتم، وتاريخ بين هذا وذاك، حسب صروف الزمن وتقلباته، وحسب العوامل التي تمنح الأجيال القدرة على الاستفادة مما فوق الأرض، ومما في باطنها وفي بحارها، والتحليق في أجوائها، والعوامل التي تقف في الطريق فتشل حركتها.

فمن المبالغة القول بأن البحث في تراث قدامى الجغرافيين، وتطبيق الأمكنة بأسمائها التي وردت في المعاجم على الأمكنة الموضوعة فوق خريطة الجزيرة العربية بأسمائها الحديثة، سيكون شاملاً وافيًا، فما وصل إليه البحث هنا من النصوص المنثورة على صفحات المؤلفات، ومن نتائج التحقيقات التي عالجت أحداث الشرق العربي، والتي اعتمدت على مختبرات العلم ومقاييسه، لا يزيد على الكفاف الذي يسد بعض حاجة الباحث في جغرافية الجزيرة العربية القديمة.

ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جُلُّه؛ فلسد بعض هذا الفراغ في المكتبة العربية أصدرت الحلقتين، الأولى والثانية من هذا المسلسل : "العرب في أحقاب التاريخ". الأولى: "التاريخ العربي وبدايته"، وبحوثها في بداية التاريخ العربي في عصوره الجاهلية، والثانية : "التاريخ العربي ومصادره" من فجر الحياة العربية، وموضوعها مصادر التاريخ العربي. وها أنا ذا أصدر الحلقة الثالثة :"التاريخ العربي وجغرافيته"، وبحوثها في جغرافية الجزيرة العربية القديمة، راسمًا صورة مصغرة لجغرافية الأرض العظيمة بماضيها وبحاضرها.

وأنا عندما أقول :لسد بعض هذا الفراغ ، أعترف بأن هذا البعض جد ضئيل، فما قدمته لا يعدو البصيص الذي ينتشر في جوانب شاسعة، فجوانب جغرافية الجزيرة العربية من السعة بحيث لا تكفيها مجلدات، فضلاً عن مجلد مضغوطة بحوثه.

وإنني عندما أعترف بسعة البحث، وضآلة النتائج ، أرجو لهذه الصورة التي رسمتها لشرقنا العربي أن تساعد، ولو جزئيًا، على معرفة المعالم الجغرافية لأرض الجزيرة التي كانت من فجر التاريخ - وما زالت - مسرحًا لمختلف أنواع التطور في قصة الإنسان.

ولإيضاح هذه الصورة رأيت لزامًا على أن ألخص للقارئ الكريم ما رأيته مفيدًا من أقوال جغرافيي العرب القدامى، وما رأيته مفيدًا من نتائج الدراسات الحديثة التي عنيت بتقويم البلدان، كلما دعت الحاجة إلى ذلك؛ ليكون على بينة مما بدا لي من حقائق وشكوك، فكثير من الحقائق منزو في حنايا تحتاج إلى أضواء تسلط عليها، وكثيرة هي الظنون التي برزت في صورة نصوص يستند إليها الذين لا يسبرون الغور.

٧- وهنا أسترعي انتباه القارئ إلى أن تقسيم هذا الكتاب إلى حلقات لا يعني ارتباط بعضها ببعض على نحو ارتباط أجزاء الموسوعات التاريخية التي تسلسل تاريخ

العصور : العصر الجاهلي ، والسيرة النبوية ، فعصر الخلفاء الراشدين، فالأمويين ... إلخ ، فبحوث حلقات هذا الكتاب بحوث منفردة بموضوعاتها ، فبحوث التاريخ العربي وبدايته لا ترتبط ببحوث مصادره ، كما لا ترتبط بحوث التاريخ العربي ومصادره بالبحث عن جغرافية الجزيرة ارتباط الحوليات التاريخية لابن جرير الطبري ومن سار على دربه.

فلاستقلال كل حلقة عن الأخرى تراني أعود إلى البحوث التي سبقت في الأجزاء المتقدمة في كل حلقة صدرت، فمثلاً لقد كان "الشعر العربي عريق مثل لغته" بحثًا فرضه عليّ تتبع بداية التاريخ العربي، فكان من موضوعات الجزء الأول "التاريخ العربي وبدايته" ، فلما ألزمني البحث في مصادر التاريخ العربي بذكر الشعر العربي مصدرًا من مصادر التاريخ، لم أكتف بما تقدم في الحلقة الأولى ، بل أفردت للشعر العربي في الجزء الذي صدر بعنوان "التاريخ العربي ومصادره" ، بحثًا خاصًا بعنوان : "الشعر الجاهلي وصلته بالتاريخ" طرقت فيه الجوانب التي تخص مصادر التاريخ العربي.

ولاستقلال هذا الجزء تراني في هذه التوطئة ألخص البحث الذي وضعته في الحلقة الثانية : "التاريخ العربي ومصادره" ، بعنوان"جغرافيو العرب ورحالتهم" ، وأختصر ما قلته عن بداية علم الجغرافية ، وهل الذين بدؤوه هم الكلدانيون الذين كانوا يرصدون الأفلاك ويخططون المسالك لجيوشهم التي وصلت إلى البحر المتوسط؟ أم هم اليونانيون؟ فمما لا شك فيه أن اليونانيين جاءوا بعد الكلدانيين، وأن لليونانيين أسبقية البحث في أقاليم الأرض طولاً وعرضًا ، على العرب ، ولكن العرب الذين جاءوا من بعدهم منهم أبناء الذين درسوا صفة الجزيرة العربية على الطبيعة ، وأطلقوا على كل جبل وواد وهضبة اسمًا ، لا تزال معاجم اللغة والبلدان وشروح الشعر العربي تحتفظ بالكثير من تلك الأسماء إن لم تكن بجميعها ، ولا يزال بعض هذه الأسماء بل أكثرها معروفًا إلى الآن.

ولقد قلت : "إن علماء العرب الجغرافيين لم يقفوا عند النهاية التي وصل إليها اليونانيون بل انتقلوا بمعلومات اليونانيين ومقاييسهم وتحريرهم خطوط العرض والطول إلى مراحل جديدة. وأشرت إلى "المصور الجغرافي العام" الذي وضعه للخليفة العباسي "المأمون" صفوة من علماء ذلك العصر، فكان على قول "المسعودي" : (صورة عامة للعالم : أفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك)، كما يقول: (إن حُسَّاب بغداد مثل "محمد بن موسى الخوارزمي" و"يحيى بن أبي منصور" و"سند بن علي" و"أبي مقسر" وغيرهم ، وجدوا طول بغداد من المشرق إلى المغرب مائة درجة وعشر درجات، وحققوا طول محيط الأرض، وحققوا طول البحر المتوسط الذي قدره "بطليموس" بـ "١٢ درجة" فأرجعوه إلى "٤٥ درجة"، ثم إلى "٤٢ درجة" أي الصحيح من مقداره تقريبًا)(١) .

واستعرضت الأوائل من الإسلاميين الذين سجلوا أولياتهم في علم الجغرافية. فأول من كتب عن الأقاليم : "الكندي" حوالي سنة ٢٠٠هـ، وأول من عني بإخراج كتاب "المجسطي" هو : "يحيى بن خالد بن برمك" ، وأول من دوّن الجغرافية في العصر العربي الإسلامي، على نحو ما عند اليونان : "أبو زيد البلخي"، وأول من استعمل هذا الاسم "الجغرافية" للدلالة على علم "تقويم البلدان" ، هو : "المسعودي".

وقلت : إن الجغرافيين العرب لم يقتصروا على التأليف في "تقويم البلدان"، بل جمعوا بين التاريخ والجغرافية، مثل : "اليعقوبي" و"المسعودي" ؛ ولقد تحدثت بقدر ما يحتاج إليه البحث في مصادر التاريخ العربي، عن الجغرافيين والرحالة مما لا يلزم ذكره في مقدمة هذه الحلقة مثل : التراجم، والأنساب، والتعريب، إلى غير ذلك من

---

(١) الإسلام والحضارة ١/٢٢٤ .

البحوث التي كانت ضرورية لجزء : "التاريخ العربي ومصادره"، ولسوف نذكر في مقدمة الأجزاء الباقية ما يخصها من الأجزاء التي تقدمتها.

٨- ومما أراه ضروريًّا الإشارة إلى الأخطاء المطبعية ، فلقد ظهرت أخطاء مطبعية في الجزء الأول "التاريخ العربي وبدايته" تدارك معظمها صديقي المرحوم الأستاذ "محمد محمد المدني" عميد كلية الشريعة بالقاهرة الذي تطوع بالإشراف على من كلفته بالمقابلة والتصحيح، كما وقعت أخطاء مطبعية في الجزء الثاني "التاريخ العربي ومصادره" تداركت بعضها ، وفات بعض آخر شوش المعنى أو عكس النتيجة ، وقد استدركت ما استطعت في بعض النسخ التي أهديتها مثل : نقص حرف (لا) في ج ٢/٥١٢ (فإن هذا الخبر لا يتعارض) فلقد طبعت الجملة هكذا (فإن هذا الخبر يتعارض) ومثل : هذه الفقرة : في ج ٢/١٩٢ : (أن ما جمعه "عروة" أو "الزهري" وغيرهما من واضعي أسس التاريخ العربي في العصر الإسلامي لم يصل إلى مرتبة التأليف بمعناه الكامل إلا في آخر العهد الأموي وأول العصر العباسي)، فلقد طبعت الجملة الأخيرة من هذه الفقرة هكذا (إلا في آخر العهد العباسي) ولقد استدركت هذا الخطأ في بعض النسخ التي أهديتها بشطب "آخر" ووضع "أول" فأصبحت الجملة هكذا : (إلا في أول العهد العباسي)، ومثل هذه الفقرة في ج ٢/١٨٣ ما يؤكد : أن ابني "مسعود"، عبدالله وعتبة من حلفاء "بني زهرة" حلفاء القاريين)، فطبعت هذه الجملة هكذا : "ما يؤكد : أن ابني "مسعود" : عبدالله وعتيبة ، من حلفاء "بني زهرة" وأنهما من القاريين)، ومثل: هذه الفقرة ج٢/١٨٠ : (كان يعرض عليه القرآن في كل رمضان مرة إلى سنة وفاته صلى الله عليه وسلم، ففي تلك السنة عرض عليه القرآن مرتين حضرهما عبدالله بن مسعود)، فلقد طبعت هذه الفقرة هكذا : (كان يعرض عليه القرآن في كل رمضان مرة إلى سنة وفاته ، ففي تلك السنة عرض عليه القرآن مرتين) فبذلك ينصرف فهم القارئ إلى أن

الذي كان يعرض عليه القرآن هو : "عبدالله بن مسعود"، وهذا غير صحيح، فالنبي صلى الله عليه وسلم هو الذي كان يعرض عليه القرآن .

فالأخطاء المطبعية إن كانت تبدو تافهة فإنها تبدل المعنى مثل : كلمة (عيرهم) في ج ٧٤/٢، فقد طبعت (غيرهم) بوضع نقطة على العين المهملة فجاءت العبارة هكذا : (وعندما كان القرشيون لا يخافون تسلط المسلمين على غيرهم)، فعيرهم شيء وغيرهم شيء آخر. إلى غير ذلك من الأخطاء التي لا تعزب عن فهم القارئ العليم، والتي أرجو أن تتدارك فيما إذا قدر للجزأين المتقدمين أن يطبعا مرة ثانية، كما أرجو أن أجد القدير الذي أسند إليه مقابلة هذا الجزء عند طبعه، فلا تحدث أخطاء فيه، أو بالأصح لا يصر الصفافون على الخطأ برغم تصحيح المراجع القدير.

٩- وإنني كما أتممت مقدمتي الجزأين : الأول والثاني بكلمة أخيرة تحت عنوان : نهاية المطاف، جعلتها خاتمة لكل جزء، كذلك أكملت مقدمة هذا الجزء بكلمة أخيرة يجدها القارئ في نهايته تحت عنوان : خاتمة المطاف، وفي خاتمة المطاف لكل حلقة من حلقات هذه السلسلة : "العرب في أحقاب التاريخ" يطالع القارئ : أمثالاً من النتائج التي انتهت إليها فصول الحلقة وهو على علم بمواقف البحث ووجهاته.

١٠- ولا يفوتني هنا أن أعيد ما قلته في مقدمة الجزأين السابقين : إنني لم أذكر ألقاب الذين رجعت إلى مؤلفاتهم وناقشت ما جاء فيها، وأخذت عنها؛ لأنني أعتقد أن أسماء أولئك الأعلام أكبر من ألقاب العصر الحاضر : دكتور، وأستاذ، وأكبر من الصفات التي كان القدامى يسبغونها، مثل : العالم الفهامة، فمؤلفاتهم - على ما أعتقد - شهادة تزيد قيمتها على شهادتي الماجستير والدكتوراة.

الفصل الأول

تقويم الجزيرة العربية

المبحث الأول : العرب .. اسم أمة ، والعربية .. اسم أرض.

المبحث الثاني : مهد الساميين .. العرب.

المبحث الثالث : جزيرة العرب وحدودها.

المبحث الرابع : مرآة الجزيرة العربية.

البحث الأول :

العرب .. اسم أمة .. والعربية .. اسم أرض :

١- هل العرب يعيشون على جزيرة؟ أم على شبه جزيرة؟

٢- جغرافيو العرب القدامى يقولون : جزيرة لا شبه جزيرة.

٣- مم اشتق اسم العرب ؟

٤- رأي النسابين .

٥- رأي الجغرافيين واللغويين القدامى .

٦- رأي المتأخرين من المؤرخين .

٧- صلة الساميين بالأمم التي تجاورهم .

٨- أي الاسمين أقدم : عربي أم سامي ؟

٩- اسم "عربي" لم يكن علمًا على جنسية سياسية .

١٠- متى كان الاسمان "عربي وسامي" علمًا على أمة؟

١- لقد كان تقويم هذه الأرض التي تصدرت تاريخ الشرق الأدنى من المسائل التي شغلت الباحثين في التاريخ العربي. ولقد كان اكتشاف حدودها، ومعرفة حقيقتها، هل هي شبه جزيرة؟ أم جزيرة؟ مهمة صعبة لرواد ما قبل الميلاد، مثلما كان اكتشاف القطبين: الشمالي والجنوبي، مهمة خطرة للرواد الأوربيين في القرن العشرين الميلادي. فلقد سار الرواد الذين تصدوا لاكتشاف شواطئ بلاد العرب وحدودها يتبع بعضهم بعضًا، ينتقلون من شاطئ إلى آخر، ومن واد إلى ثان، يبحثون عن الموانئ الصالحة لرسو السفن، ويبحثون عن المسالك الصالحة لسير القوافل التي كان عليها أن تشق طريقها من موانئ الجزيرة الشرقية إلى موانئها الجنوبية والغربية وإلى موانئها المترامية في أقصى الشمال الغربي.

ومن أوائل الذين سمعنا عن اهتمامهم بمعرفة شواطئ الجزيرة الشرقية والجنوبية، من قبل الميلاد: "دارا الفارسي" و"الإسكندر المقدوني"[(١)]، ومن أوائل الذين سمعنا عن اهتمامهم بمعرفة شواطئها الغربية: "البطالسة"[(٢)]، ولكن عوامل لم يكن في قدرة إمكانيات تلك العصور التغلب عليها حدت جهد ملاحي تلك العهود، فلم يستطيعوا الوصول إلى أبعد مما وصلت إليه المحاولات التي قام بها ربابين دارا، والإسكندر، والبطالسة، فليس من الجحود أن نقول: إن تلك المحاولات، على ما قدمته من فوائد جغرافية، لا سيما النتائج التي وصل إليها ربابين البطالسة في "البحر الأحمر"، لم تكن غير بداية بالنسبة إلى ما وصلت إليه معارف اليوم من معلومات ألقت الضوء على كل خليج ورأس كانا في ذلك الماضي سرًا من أسرار الطبيعة!

(١) الإسكندر الأكبر، لعزيز خانكي، ص٩؛ انتصار الحضارة.

(٢) تاريخ جواد علي ٢/٣٧٥.

لذلك لم تذكر هذه الأرض باسم : جزيرة العرب، أو شبه جزيرة العرب في الجغرافية العربية إلا في عصور متأخرة، حيث اكتشف جميع شواطئها ووضحت معالم حدودها.

أما قبل فلقد كان القدامى من "الكلدانيين" و"اليونانيين" لا يقولون : جزيرة العرب، أو شبه جزيرة العرب، وإنما كانوا يقولون : "بلاد العرب" وبلاد "الإرميين"، إلى غير ذلك من الأسماء الآتي ذكرها، ولعلهم كانوا لا يعلمون أجزيرة بلاد العرب التي يتحدثون عنها أم شبه جزيرة؟ والإرميون، في الكتاب المقدس : شعب ينتسب إلى "إرم ابن سام"، من مواطنه "بادية الشام"(1) .

٢- وعندما بدأ العرب يدونون تاريخهم على الصورة التي بين أيدينا أخذوا يطلقون على مهد العروبة : اسم جزيرة العرب. وإطلاق اسم جزيرة العرب على هذا الجزء من الشرق الأدنى لا يقره بعض الجغرافيين في الوقت الحاضر، فاسم الجزيرة في الاصطلاح الجغرافي لا يطلق على غير الأرض التي يحيط بها الماء من جميع أطرافها، لذلك فإن الاسم الجغرافي الجديد ببلاد العرب في رأيهم هو : شبه جزيرة العرب، لأن حدها الشمالي كما يبدو غير مائي، فالبحر جد بعيد عنها في الشمال.

ولكن القدامى من علماء تقويم البلدان مثل : "هشام الكلبي" و"الهمداني" و"ياقوت" وغيرهم ممن أطلق اسم الجزيرة على بلاد العرب، لم تفتهم الشروط التي لابد من توافرها إذا ما أريد إطلاق اسم جزيرة على أرض ما ، لذلك نراهم عندما أطلقوا اسم جزيرة على بلاد العرب أخذوا يؤكدون أن المياه تحيط بها من جميع جهاتها : جنوبًا، وشمالاً، وشرقًا، وغربًا، فهم لإثبات هذه الصفة جعلوا نهر "الفرات" حدًّا شماليًّا وشرقيًّا، وجعلوا نهر "النيل" يتم حدها الشمالي الغربي، وعلى ذلك اعتبروا الضفة

(1) المنجد في الأدب والعلوم، ص١٢ .

الشرقية الشمالية لنهر النيل من الجزيرة العربية، وهم بهذا لم يبعدوا عما قاله "الفراعنة" و"الآشوريون" وغيرهم من أمم الماضي الذين جعلوا "النيل" حدًّا غربيًّا لبلاد العرب وجعلوا "الفرات" حدًّا شرقيًّا، مما ستراه في بحث حدود الجزيرة العربية، ولكن ما ستراه من الأقوال التي تحدث بها قدماء الجغرافيين العرب، والشواهد التي قدمها الذين سبقوهم، لم يقتنع بها المتمسكون بأن بلاد العرب شبه جزيرة، ولم يقتنع بها الذين يقولون : بلاد العرب هي "مكة" و"المدينة" وأعمالهما.

ونحن لا نبخس وجهة نظر الذين يقولون إن بلاد العرب شبه جزيرة. كما أننا لا نخطئ الذين يقولون : إن بلاد العرب جزيرة، فلكل من الرأيين حيثيات تسوّغه، سوف نتحدث عنها في البحث الخاص بشكل بلاد العرب، هل شكلها جزيرة؟ أو شبه جزيرة؟ وإنما الذي يستوقف الباحث هو الفارق بين البلاد العربية وبين الجزيرة، أو شبه الجزيرة العربية، فالبلاد العربية، بعد الفتح الإسلامي، ترامت أطرافها عبر "مصر" إلى شواطئ المحيط الأطلسي متجاوزة الحدود التي بلغها التاريخ العربي القديم فيما وراء البحر الأحمر، وترامت أطرافها عبر العراق متجاوزة الحدود التي بلغها التاريخ العربي القديم فيما حول "الفرات"، فالتاريخ العربي في عهوده السحيقة قبل الإسلام، وفي عهوده الوضاءة بعد الإسلام امتد بعيدًا عن حدود الجزيرة العربية الطبيعية.

٣- وحدود البلاد العربية قبل الإسلام وبعده تستدعي الباحث أن ينقب عن أصل هذا الاسم : "عرب" الذي عرفت به هذه الجزيرة، أو شبه الجزيرة، وعرف به سكانها، ويبحث عن تاريخه، متى ظهر هذا الاسم في وجود التاريخ العربي؟

٤- لقد أخذ الكثيرون يتساءلون عن هذا الاسم : "عرب"، مم اشتق إذا كان مشتقًا؟ ومتى ارتجل إذا كان مرتجلاً؟ لذلك فإن البحث في هذا الاسم : "عرب" ليس بجديد على القارئ، فلقد كان موضوع بحث الكثيرين في الماضي، ولقد تجدد البحث

فيه في الحاضر، فبعض الذين جددوا البحث في هذا الاسم ، رجع إلى المؤلفات في الأنساب ومعاجم القبائل العربية ، فوجد أصحابها مقتنعين بأن كل اسم من أسماء شعوب الجزيرة هو اسم جدها الأعلى ، فالقبائل "الإرمية" يرجع اسمها في اعتقادهم إلى "إرم بن سام" ، وقد تقدم ما نقله "فردينان توتل" في منجد الأدب والعلوم عن الكتاب المقدس في تفسيره الآراميين، وأنهم شعب ينسب لإرم بن سام، والقبائل "العمليقية" ، في رأيهم، سميت باسم "آشور بن سام" ، إلى غير هذه الشعوب من القبائل التي عاصرتها والتي جاءت بعدها ، و"سام" في اعتقاد هؤلاء هو : ابن "نوح" وإليه ينتسب العرب.

بيد أن الذين رجعوا إلى المؤلفات التي وضعت في الأنساب وإلى معاجم القبائل لم يجدوا نسابًا واحدًا ذكر ابنًا لسام بن نوح اسمه : عرب، بل وجدوا جماعة منهم يقولون: إن الشعوب العربية القديمة التي عرفت في التاريخ العربي بالعرب العاربة : "عاد" و"ثمود" و"العماليق" و"طسم" و"جديس" ، ... إلخ ، سموا عربًا لأنهم كانوا يتكلمون بهذا اللسان المضري بطلاقة. واستشهدت هذه الجماعة على صحة رأيها بأن "الإعراب" في اللغة حسن التعبير، ووجدوا بعضًا آخر قد فطن لخروج أصحاب هذا القول على القاعدة التي بنيت عليها بحوث النسابين فاستدرك قائلاً : إن أول من انطلق لسانه بلغة العرب هو : "عمليق - عريب" ، وفي رواية أخرى هو : "يعرب بن قحطان" ، وإنه من هنا أطلق هذا الاسم : العرب العاربة على الذين تكلموا بهذه اللغة من سكان الجزيرة العربية القدامى، فلما استعجمت لغتهم سموا : العرب المستعجمة[(١)] .

٥- ووجدوا بجانب هذه الجماعة فريقًا رجع إلى أسماء المدن والأمكنة ، فعثر على مكان اسمه : "عربة" ، فجزم بأن هذا الاسم "عرب" مشتق من "عربة" ، وأن العرب - في

(١) تاريخ ابن جرير الطبري ، طبع دار المعارف، ٢٠٧/١؛ لسان العرب، مادة (عرب).

رأي أصحاب هذا القول - سموا باسم بلدهم "عربة" باحة أبي الفصاحة "إسماعيل بن إبراهيم"، فإصرار هذا الفريق على أن العرب سموا باسم "عربة" دفع مجددي البحوث التاريخية للبحث عن "عربة" هذه التي سمي باسمها العرب، فوجدوا أن "عربة" اسم أطلق على مواضع منها موضع في أرض "فلسطين"، ومنها موضع في "تهامة"، وكل من الموضعين يمت لإسماعيل بن إبراهيم بصلة، فمسقط رأس "إسماعيل" في عربة فلسطين، وفي "عربة تهامة" عند البيت الحرام نشأ "إسماعيل" يرفع مع أبيه القواعد من البيت، ويتزعم القبائل التي جاورته والتي نسبها المؤرخون إليه وإلى حفدته : "عدنان" و"نزار" و"مضر"، ويستشهد المؤرخون بشعر نسبوه إلى "أبي طالب بن عبدالمطلب" منه :

وعربة دار لا يحل حرامها من الناس إلا اللوذعي الحلاحل

وبقول "هشام بن محمد بن السائب" : جزيرة العرب تدعى "عربة"، ومن هنا سمي العربي عربيًّا ، كما قيل للهندي : هندي، وللفارسي : فارسي[1] .

٦- فعلى هذا النحو تشعبت طرق البحث أمام المحققين، فانصرف بعضهم إلى ما جاء في تحقيقات المستشرقين، فمما جاء فيها : أن أصل لفظة "عرب" السامي - معناه : "البادية"، وهي لا تعين قومية صاحبها، وأن هذا المعنى هو الذي أدته الكلمة عينها في اللغة العبرانية، واستشهد بأن كلمة "الأعراب" في القرآن الكريم تعني : البدو[2] .

وآراء المستشرقين - وإن كانت لها قيمتها؛ لأنها في اللغات تعتمد على نصوص ذات شأن - لا يمكننا أن نتخذها حجة في تفسير القرآن، فتفسير القرآن يحتاج إلى

---

(١) اللسان، مادة (عرب)؛ معجم البلدان، لياقوت ١٣٨/٦ .

(٢) تاريخ العرب، لحتي ٥٣/١ .

الإحاطة بلغة العرب ولهجاتها ، وهذا مما لم يصل إليه المستشرقون الذين بحثوا في اسم العرب في القرآن الكريم .

إن العرب أنفسهم كثيرًا ما غمت عليهم بعض ألفاظ القرآن فأخذوا يبحثون عن معناها في لغات القبائل ومصطلحاتها مثل : "التخوف" ، فالتخوف من لغة "هذيل" ، وفي بعض روايات المؤرخين أن هذليًا فسرها لـ "عمر بن الخطاب".

فالقرآن الكريم ذكر كلمة "أعراب" في موضع ، وذكر كلمة "عرب" في موضع آخر ، ولقد أوضح "ابن منظور" الفرق بين العرب والأعراب ، فقال : "والذي يجمع بين العرب والأعراب ، ربما تحامل على العرب بما يتأوله في الآية : ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً﴾ (التوبة/ ٩٧) ، فكلمة "الأعراب" تعني البدو سواء كانوا من العرب أو من مواليهم"[(١)] .

ومن المتأخرين من بحث في اسم جزيرة العرب على ضوء النصوص التي عثر عليها في تراث الغابرين من الأمم غير العربية ، ومن هؤلاء "جرجي زيدان" ، فقد بحث في كلمة "عرب" وفيما كانت تعنيه في الماضي ، فقال : إن لفظ "عرب" في التاريخ القديم يرادف لفظ "بدو" و"بادية" في التاريخ الحديث ، وهو معنى هذا اللفظ في اللغات السامية ، وقال : والبادية في اللغة العبرانية يقابلها في اللغة العربية "العرابة" في "وادي موسى" ، والأعراب : سكان البادية خاصة ، ولقد تقدم الفرق بين الأعرابي والعربي في "لسان العرب" ، ويقول جرجي استنادًا إلى "هيرودوتس" : (إن "الفراعنة" و"الآشوريين" و"الفينيقيين" كانوا يريدون بالعرب أهل البادية في القسم الشمالي من جزيرة العرب وشرق وادي النيل في البقعة الممتدة بين "الفرات" شرقًا ، و"النيل" غربًا ، وتدخل فيها بادية العراق والشام وشبه جزيرة سيناء ، وما يتصل بها من شرقي الدلتا ، والبادية

(١) لسان العرب ، مادة (عرب) .

الشرقية بمصر بين النيل والبحر الأحمر، وكان وادي النيل هو الفاصل الطبيعي بين "ليبيا" في الغرب وبلاد العرب في الشرق).

أما جنوبي جزيرة العرب بين الخليج العربي[1] والبحر الأحمر ، فبينما نحن نرى قدامى اليونانيين يعدونه من "إثيوبيا" - الحبشة - فيجعلون الحبشة، واليمن، وعمان من جنوبي الجزيرة العربية إقليمًا واحدًا، أسموه : "إثيوبيا - آسية" - نجد في الوقت نفسه أن سكان جنوبي الجزيرة العربية أمم وقبائل كانت تعرف بأسماء خاصة بها أطلقت على شعوبها ودولها وأرضها مثل : "المعينيين" و"السبئيين" و"الحميريين"، ونجد اليونانيين في مكان آخر يطلقون على سكان الجزيرة العربية جمعاء لفظ "سراسين" وهو اسم قبيلة من سكان أعالي الجزيرة، يظن بعضهم أنها منحوتة من "الشرقيين" ، لأن تلك القبيلة كانت تقيم في شرقي "جبل السراة" ثم لم يلبث اليونانيون أن أطلقوا اسم "العرب" على بلاد العرب، وقسموا بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام "الصخرية" و"الصحراوية" و"السعيدة".

وكان العرب عند "السريانيين" يعرفون باسم "طاية"، نسبة إلى "طيىء" القبيلة المعروفة، وكان سكان المدن السامية يسمون سكان بادية الشام الممتدة من العراق إلى سورية - "آراميين" أي أهل الجبال، وكان أهل "ما بين النهرين" يسمونهم "عمورو" أي أهل الغرب، لأن بلادهم واقعة غربي "الفرات"، وهذا هو اسمهم القديم في "بابل"، وقد يراد بالعمورو أهل غربي الفرات من بدو وحضر إلى "البحر المتوسط"، ثم سموهم "عريبي" أي عربيًا، كما سمى اليونانيون على عهد "البطالسة" الجزيرة كلها بلاد

(١) سبق في حلقة "التاريخ العربي ومصادره" أن بينت أن ذلك الخليج الذي أطلق عليه الفرس : اسم الخليج الفارسي، وأطلق عليه العرب : اسم الخليج العربي، هو في الواقع خليج عربي.

العرب، واسم عرب معناه في اللغة السامية الأصيلة "الغربيون"، وأيضًا يطلق على البدو، فالعرب هم الغربيون، وهم سكان البادية في اعتقاد السومريين، وقدامى اليونانيين.

وكان المصريون القدامى يطلقون هذا الاسم "شاسو" أو "الهكسوس" على البادية العربية، ففي لغتهم "هيك" تعني الملك، وشاسو تعني البادية، وأخيرًا عرفوا باسم العرب عماليق مصر، على أن البلاد العربية لم تكن جميعها بادية في عهد قدماء العرب الذين عرفوا باسم "العرب العاربة"، فلقد كانت بلادًا حافلة بالمزارع والقصور قبل عهد الجفاف، فمن لم يصدق بما جاء في القرآن الكريم، فلينظر إلى صحارى شرقي الجزيرة كيف تبدل صمتها وظلامها إلى ضجيج ونور، ليعلم أن أرض قدماء العرب تبدل حالها من زراعة وعمران إلى خلاء قفر ثم إلى حركة ونور.

وأول من قال إن : "الشاسو" عرب هو المؤرخ الإسرائيلي "يوسف" نقلاً عن المؤرخ الإسكندري "مانثون" المتوفى في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد.

فالذي ظهر من كلام "جرجي زيدان" الذي وجدناه منشورًا في كتابه "العرب قبل الإسلام[1]" أن اسم "العرب" يعني البادية، ويعني الغرب في اللغة السامية، وأن اسم "العرب" عرف من عهود ما قبل الميلاد، ولكنه لم يكن علمًا بمثل هذا الشيوع، فلقد شاركت هذا الاسم "العرب" فيما يعنيه أسماء أخرى أطلقتها الأمم المجاورة لهم على أرض الجزيرة وسكانها، مثل "سراسين" و"طاية" و"إرميين" و"عماليق".

وجاء بعد جرجي زيدان "جواد علي" و"فيليب حتي" يبحثان من جديد في لفظ "عربي"، فعلى كلمة "عرب" كما يقول "جواد علي" يتوقف البحث في جزيرتهم. والنتائج

(١) العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان، ص٣٩ وما بعدها، وص٦٩ وما بعدها.

التي وصل إليها الاثنان تعتبر شرحًا لما جاء مجملاً في كلام "جرجي زيدان"؛ فلقد جاء بحث "جواد علي" على النحو الآتي :

أولاً : إن أقدم نص ورد فيه اسم "عرب" هو نص آشوري يعود إلى أيام الملك "سلمنصر. الثاني ملك آشور سنة ٨٥٤ ق. م. وإن نص سلمنصر يقصد مشيخة عربية كانت على صلات سيئة بالآشوريين ، ونقل عن "فيليب حتي" : (أن "تغلث بلاصر" الثالث ذكر العرب : "أربي" ٧٤٥ - ٧٢٧ق.م)[١] .

ثانيًا : وردت في الكتابات البابلية جملة "ماتو أريبي" ، وكلمة "ماتو" في الآشورية والبابلية تعني الأرض، فماتو أريبي معناها أرض العرب.

ثالثًا : إن اسم العرب عرفته فارس من عهد "دارا" الكبير (٥٢١-٤٨٥ ق.م)[٢] ، ففي النص الفارسي المكتوب باللغة "الأخمينية" وردت كلمة "أربايَة" .

رابعًا : وردت كلمة "عربي" بعد ذكر "بابل" و"آشور" ، وقبل ذكر مصر وهذا مما يدل على أن مفهوم "العربية" في ذلك الوقت كان يشمل : منطقة واسعة تمتد من إقليم "آشور" و"بابل" حتى حدود "مصر".

خامسًا : تدل لفظة "عربي" في العبرانية على البداوة، وهي لا تعين قومية صاحبها، وهذا هو المعنى الأصلي لهذه الكلمة في جميع فروع اللغات السامية، ولم تخصص كلمة عربي عند العبرانيين إلا في العهود المتأخرة.

سادسًا : أول من ذكر العرب في آداب اليونانيين هو "إسكيلوس" (٥٢٥-٤٥٦ق.م.) عندما أشار إلى ضابط عربي اشتهر في جيش "أحشويرش" ، وفي تحقيق "جواد علي" أن

---

(١) تاريخ العرب، لحتي ٤٥/١.

(٢) ذكر جواد علي : "دارا" باسم "داريوس" ، وداريوس هو : دارا الكبير.

"إسكيلوس" لم يكن يعرف شيئًا عن بلاد العرب، فتصورها على مقربة من "القفقاس"، ثم تلاه "هيرودوتس" (٤٨٤-٤٢٥ق.م.) وقد قصد بالعرب شبه الجزيرة كلها، وقد أدخل فيها جزءاً من الأرضين المصرية التي هي في شرقي وادي النيل، وعلق "جواد علي" على "إسكيلوس" بقوله : إنه يقصد الأرض التي تتصل بإمبراطورية البارثيين[١] .

سابعًا : ثم ذكر "جواد علي" بعض الأسماء المرادفة لاسم عربي في الزمن القديم. مثل "ساراسين" وقال : إن المعنيَّ بهذا الاسم هو قبائل كانت تقيم في بادية الشام وفي سيناء، ومثل اسم "طاية - طي" الذي أطلقه الإيرانيون على قبيلة "طيىء" التي تسكن على مقربة منهم، (وأول إشارة إلى هذه القبيلة تعود إلى القرن الثالث للميلاد)، فلا يبعد أن تكون طيئ التي ورد ذكرها في التاريخ القديم : شعبًا منازله تمتد إلى الحدود الإيرانية، فهضبة نجد تمتد من "بلاد طيىء" إلى العراق، وأن تكون نجد عند قدماء الإيرانيين هي طيئ .

ثامنًا : لم ترد كلمة "عرب" في النصوص الجنوبية بمعنى العرب، أي القومية الخاصة، وإنما ورد في النصوص الجنوبية كلمة "أعرب" أو "أعراب"، وورد "أعراب - ملك حضرموت" و"أعراب - ملك سبأ"، أما أهل المدن فكانوا يعرفون بمدنهم وقبائلهم.

تاسعًا : أقدم نص شمالي ذكر هو نص "امرئ القيس بن عمرو" سنة ٣٢٨م، وهو الكتابة التي وجدت على قبر امرئ القيس في النمارة.

---

(١) البارثيون : شعب عاش بين بحر "قزوين" و"إيران. خراسان" لم تقو الدول الكبرى في الماضي على إخضاعه، المنجد ص٥٨ من قسم العلوم ، مؤلفه (فردينان توتل)، في كلام "جورجي زيدان" الذي مر : أن "الساراسين" كانوا يعيشون في أعالي الجزيرة وفي شرقي "جبل السراة"، فعليه أن اسم ساراسين قد كان مرادفًا لاسم العرب.

عاشـرًا : لا يجـزم أحـد بتعيين الوقت الذي استعمل فيه العرب أنفسهم كلمة العرب علمًا عليهم بدوهم وحضرهم ، فالنص الوحيد الذي لا يمكن للشك أن يصل إليه هو : القـرآن الكـريم، ولـذا رأى "د.هـ. ملر" : (أن الرسـول صلى الله عليه وسـلم هـو أول مـن خصص الكلمـة وجعلها علمًا لقومية سكان الجزيرة)[١] ، واستعان"جواد علي" للوصول إلى هذه النتائج بالمستشرقين، وبالدكتور "فيليب حتي"[٢] .

٧- بيد أن "فيليب حتي" انتقل إلى آفاق غير التي حصـر "جـواد علـي" بحثه فيها، فحتي أشـرك في بحثه اسم "سـامي" مع اسم عـربي، و"حـتي" أيضًـا ذهـب إلى العصـور الغارقـة في القـدم، إلى العصـور الـتي وصـل فـيها السـاميون إلى "النـيل"، وإلى سـورية، وإلى العراق، وفي رأي جواد علي أن اسم "سامي" مرادف لاسم عربي.

٨- ونحـن إذا أردنـا أن نخـرج بنـتيجة تجلـو لـنا حقـيقة الاسمـين : عـربي وسـامي، وتاريخهمـا ، وهـل همـا اسمـان متـرادفان؟ نجـد الـبحث عـن حقـيقة الاسمـين يلـزمنا بتلخيص مـا قـيل عـنهما وعـن تاريخهمـا ، ونحـن إذا رجعنا إلى مـا قـيل عنهما نجد اسم "سـام" في مـؤلفات المـؤرخين العـرب القدامـى أطلـق علـى أحـب أبـناء "نـوح" إلى نـوح، ونجـدهم ينسـبون العـرب إلى "سـام بـن نـوح"، ونجـد في مـؤلفات المستشـرقين السـامية اصـطلاحًا حـديث العهـد جدًا بالنسبة لـتاريخ الأمـم الـتي يعنـيها هـذا الاسـم : سـامي، أطلقه "شلاستر" سنة ١٧٨١م[٣]، ونجد السامية في رأي أكثرهم لا تشير إلى جنس، بل إلى جماعـة مـن الـناس يـتكلمون اللغـات السـامية، كمـا يقـول مؤلـف "موسـوعة تـاريخ

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي ، ط١ ، ١/١٦٩-١٨٤.

(٢) تاريخ العرب، لحتي، طبع دار الكشاف ، ١/٣٩ وما بعدها.

(٣) تاريخ اللغات السامية ، لإسرائيل ولفنسون، ص٢ .

العالم"[١]، وتقول "دائرة المعارف الإسلامية" : (وكثيرًا ما يضاف إلى الساميين : الفرس والرومان واليهود)[٢]، وقد تعني "دائرة المعارف الإسلامية" بإضافة هذه الأمم إلى الساميين اشتراك الفرس وبعض الروم، واليهود الذين هم من غير أبناء يعقوب في أصل اللغات السامية.

٩- ونجد اسم "عربي" الذي سبق الكلام عنه يدل على قوم ترجع أنسابهم إلى أرومة واحدة، اختلطت بهم عناصر أصبحت عربية بلغتها وتقاليدها، ولكنه لم يكن في يوم من الأيام علمًا على جنسية سياسية، فكما كانت الدول العربية تنسب إلى الأرض التي قامت عليها الدولة أو إلى الجد الذي ينسب إليه مؤسسها مثل الآشوريين والحمورابيين في الماضي القديم، ومثل اللخميين والغساسنة في جاهلية ما قبل الإسلام، ومثل الأمويين والعباسيين فيما بعد الإسلام، كذلك أصبحت الجنسية في الزمن الحاضر إما أن تكون يمنية أو سورية أو سعودية، ولقد حاولت "جمهورية مصر العربية" أن تختصر اسمها وجنسية شعبها على هذا الاسم "عرب" فأعلنت أن اسمها هو الجمهورية العربية المتحدة، وأشارت إلى جنسية كل فرد من جمهورها باسم "عربي" ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، فسرعان ما تبدل اسمها فأصبح رسميًا "جمهورية مصر العربية".

١٠- ونحن إذا ما رجعنا إلى تاريخ الاسمين : عربي وسامي لنرى هل ذكر نسابة أو مؤرخ اسم سامي على أنه علم على أبناء "سام" الذين يقال عنهم : إنهم في فجر تاريخهم سكنوا ما بين "الكوفة" و"الشام"، فإنا لا نجد فيما وصل إليه البحث نسابًا أو مؤرخًا من العرب ذكر السامية والساميين، وكذلك لا نجد فيما وصل إليه البحث نصًا غير عربي يشير إلى أن مؤرخًا من مؤرخي الكلدان أو اليونان ذكر اسم "الساميين"،

(١) موسوعة تاريخ العالم ٥٣/١ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، حرف (س) .

فالسامية اصطلاح حديث يرجع تاريخه إلى سنة ١٧٨١م، كما تقدم؛ فليس أمام البحث غير ظنون تقول : قد يكون العرب نسبوا إلى "سام بن نوح" ، ففقدان مثل هذا النص يثبت أن اسم "عربي" أقدم من اسم "سامي" ، فلقد ذكر "اسم عربي" في نصوص يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد بقرون، أما ما قيل عن الساميين وأنهم أبناء سام فهو مثل ما قيل عن حام وأنه أبو السود - الحاميين.

وإذا نحن رجعنا إلى معاجم اللغة نجد أن اسم "سامي" له معان تسوغ تسمية العرب به، فالسامي المرتفع، والعربي مرتفع بأخلاقه؛ فهو أبي النفس، فقيرًا كان أو غنيًا ، والسامي : الذي يلبس جوربي شعر ويعدو خلف الصيد ، والعربي هو الذي ينتعل حذاء من جلد شعر ويعدو خلف ماشيته وصيده.

والسماوة هي بادية العراق، أما بادية الشام فتسمى "الحماد"[(١)] ، والسماوة "ماءة" بالبادية كانت "أم النعمان" سميت بها ، فسمتها العرب "ماء السماء" وأسمت ابنها "ابن ماء السماء" ، وفي حديث هاجر (تلك أمكم يا بني ماء السماء)، وفي تفسير هذا الحديث قيل : إنه يقصد العرب لأنهم يعيشون بماء المطر، ولكن مع هذا لا يمكننا أن نقول : إن اسم "سامي" بمعناه اللغوي أطلق على العرب، أو نفترض أن اسم السامي منحوت من السماوة، فالسامية بها اعتبارات غير هذه .

فالنتيجة التي سعى وراءها البحث وصلت به إلى تاريخ هذين الاسمين "عربي" و"سامي"، وبالرجوع إلى تاريخهما ظهر لنا : أن كلمة "عربي" نعتًا لأمة متقدم تاريخها بكثير على تاريخ كلمة "سامي" بذلك المدلول، وأن اسم "سامي" أعم من اسم عربي، فالحبش والإسرائيليون ساميون، ولكنهم ليسوا بعرب، فاسم عربي يعني أمة من الأمم

---

(١) تاريخ العرب المطول، لحتي ١/١٧.

السامية، فعليه لا بد للبحث هنا أن يعلق على قول "ابن منظور" : (إن كل من سكن بلاد العرب وجزيرتها، ونطق بلسان أهلها، فهم عرب[1] يمنهم ومعدهم)، فاسم عربي في كلام ابن منظور شمل كل من سكن الجزيرة العربية، وليس كل من سكن الجزيرة العربية جنسًا واحدًا، فأجناس مختلفة الدماء عاشت في الجزيرة العربية وتكلمت بلسان أهلها فأصبحت عربية بطول الإقامة وبالتوالد، ولكن التاريخ لم يعترف بعروبتها مثل الفرس والروم وغيرهم في التاريخ العربي، فالكلمتان : كلمة سامي وكلمة عربي في مدلولهما وفي حقيقتهما متشابهتان، فكل من الاسمين أصبح علمًا لأمم ليست جميعها من أرومة واحدة، فإن كانت السامية في الأصل اصطلاحًا حديثًا له معناه الذي تقدم الكلام عنه، فإن العرب الخلص هم بقايا العرب العاربة، والعرب العاربة هم الذين ذكرناهم في بحوث هذا المؤلف باسم قدماء العرب.

ولقد تقدم أن اسم عرب - وإن كان قد ظهر في نصوص يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد - لم يكن علمًا لقومية سكان الجزيرة إلا بعد نزول القرآن، أما قبل ذلك فلقد كانت شعوب الجزيرة تحمل مع اسم "عربي" أسماء أخرى كانت تعرف بها، ولقد جاء في تاريخ الطبري : (وكان يقال لعاد في دهرهم "عاد إرم"، فلما هلكت عاد قيل لثمود : "ثمود إرم"، فلما هلكت ثمود قيل لسائر "بني إرم" : "إرمان" فهم النبط)[2].

(١) لسان العرب، مادة (عرب).

(٢) تاريخ الطبري ١٤٣/١.

البحث الثاني :

مهد الساميين :

١- الروايات العربية الواردة في مهد الساميين تتفق مع الأسفار .

٢- رأي المستشرقين .

٣- أسباب تعدد الآراء في مهد الساميين .

٤- جزيرة العرب هي مهد الساميين .

١- تتفق الرواية المنسوبة لـ "ابن عباس" والتي ذكرها "الطبري" في كتابه "تاريخ الأمم والملوك" مع رواية "وهب بن منبه" التي ذكرها "ابن قتيبة" في كتابه "عيون الأخبار" على أن "سوق ثمانين" بالعراق هو أول بلد سكنه ولد "نوح"، فلما ضاقت بهم تحولوا منها إلى "بابل"(١). وجاء في تاريخ "اليعقوبي": (أن "ماش بن إرم بن سام" صار إلى أرض "بابل" فولد "نمرود الجبار" و"نبيط" وهو أبو النبط، وأن أبناء "نوح" تقسموا الأرض، فصار لولد سام "الحجاز" و"اليمن" وبقية الأرض)(٢).

وجاء في تاريخ الطبري: ونزل بنو سام "المجدل" سرة الأرض وهي ما بين "ساتيدما" إلى البحر وما بين "اليمن" إلى "الشام"(٣).

وما جاء في رواية "ابن عباس" ورواية "ابن منبه" عن "سوق ثمانين" و"بابل" يتفق مع ما يقوله أصحاب التوراة عن مهد الإنسان وأنه في "العراق"، ما بين النهرين فاشتق من الساميين: "الآشوريون" و"البابليون" في "العراق"، و"الآراميون" في "الشام"، و"الفينيقيون" في "لبنان" وعلى شواطئ "سورية"، و"العبرانيون" في "فلسطين"، والعرب في جزيرة العرب(٤)، ولقد تقدم الكلام على السامية والساميين.

٢- وقد اقتنع بعض المستشرقين، منهم: "فون كريمر" و"جويدي" و"هومل"، بأقوال العرب والإسرائيليين، فقال هذا البعض: إن إقليم "بابل" هو وطن الساميين الأول، وذهب آخرون إلى أن قلب الجزيرة هو مهد الساميين، فمن هؤلاء: "سبرنجر"

---

(١) تاريخ الطبري، طبع القومية، ١/١٤٠؛ عيون الأخبار ٢/٢١٤.

(٢) اليعقوبي ١/٢٢، ٢٣.

(٣) تاريخ الطبري ١/١٤٤، والمجدل: اسم بلد في "الخابور" والخابور: اسم نهر بين "رأس عين" و"الفرات" نسبت إليه عدة مدن، و"ساتيدما": اسم جبل وردت فيه أقوال في "معجم ياقوت" أقربها إلى الموضع الذي نبحث عنه هو قرب "الموصل"، معجم ياقوت، باب (س) و٣/ ٣٨٣، و٧/ ٣٨٧ و٦/٥، وراجع بابي الخاء والجيم.

(٤) العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان، ص٤١؛ الدولة العربية الكبرى، لمحمود كامل المحامي، ص٥٢، ٥٣.

و"إيلينو جاردنر" و"سميت"، وكثير غيرهم من المستشرقين الذين بحثوا في عناصر الشرق الأوسط، فقال فريق من هؤلاء: إن أواسط بلاد العرب ولا سيما منطقة "نجد" هي المكان الذي يجب أن يكون وطن الساميين، وقال آخرون: إن "العروض" ولا سيما "البحرين"، أي منطقة "الأحساء" - هو مهد الساميين[1]، وقال آخرون: إن جنوبي الجزيرة العربية هو مهد الساميين.

فهذه المناطق التي افترضها المستشرقون مهدًا للساميين هي المناطق التي تحدث عنها "صاعد" في طبقاته وغيره من المؤرخين العرب.

وفي رأي بعض المستشرقين أن الحبشة هي مهد الساميين، وإخال أن الذين يرون الحبشة مهدًا للساميين اشتبه عليهم الأمر؛ لأن الحبشة عرفت عند اليونانيين بإثيوبيا، ولأن "إثيوبيا" في مؤلفات بعض اليونانيين منطقة تمتد من منابع "النيل" في أفريقية إلى "عُمان" في جزيرة العرب، ولأن أقوامًا ساميين هاجروا من اليمن إلى الحبشة من أقدم عصور الجزيرة عربًا، فتأقلموا هناك في أفريقية، ولأن أقوامًا من الحاميين هاجروا إلى جنوبي الجزيرة من أقدم عصورهم حبشًا فتأقلموا هنا في جزيرة العرب، فأقام أولئك في الحبشة وتركوا آثارًا عربية، كما أقام هؤلاء في اليمن وتركوا آثارًا حبشية، حتى خيِّل لبعض الذين اكتشفوا آثارًا عربية في الحبشة أن الحبشة هي مهد الساميين، وخيل لبعض الذين اكتشفوا آثارًا حبشية في اليمن أن "الحاميين" سبقوا الساميين إلى جنوبي الجزيرة، كما جاء في هامش كتاب "تاريخ العرب المطول"[2]: (أن "توماس" يذكر ثلاث قبائل قد تكون من أصل "حام" في قلب الجزيرة الجنوبية، وأن "أرتجانس" يرتئي أن نواحي الجزيرة الجنوبية ربما كان يسكنها في الألف الثالث والثاني ق.م. شعب حامي ثم قدم الساميون).

---

(١) العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان ص٤٠ ؛ تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي ١٤٨/١ وما بعدها.

(٢) تاريخ العرب، لحتي، ص٩؛ الهامش على تاريخ العرب، لجرجي زيدان، بقلم حسين مؤنس، ص١٢٥ .

٣- فمن بواعث الشك عند بعض الباحثين في مهد الساميين : هجرات شعوب الجزيرة وتنقلهم بين العراق وسورية ومصر والحبشة ، فهجرات الشعوب العربية فرقت ظنون الباحثين في مهد الساميين، فانتقلت مع المهاجرين هنا وهناك، ومن بواعث الشك أيضًا اختلاف أسماء الأمكنة التي وردت في المصادر، واختلاف أسماء القبائل بالنسبة لما في المؤلفات العربية إذا ما قوبلت بما في النصوص الأثرية، فهناك أسماء في "التوراة"، وهناك أسماء في مؤلفات اليونانيين، وهناك أسماء وردت في تحقيقات المستشرقين بعيد نطقها عن نطق الأسماء التي وردت في المؤلفات العربية، فكل هذا جعل الباحث الذي يكتب اليوم عن مكان أو قبيلة دفنها الزمن تحت سنيه يلف ويدور مع العديد من التخمينات والظنون، فكيف بمن يبحث عن مهد الساميين؟!

ومما زاد في بلبلة الباحثين اختفاء معالم الكثير من الأمكنة التي ذكرت في النصوص الأثرية وفي تراث الغابرين، واختفاء أسماء الشعوب القديمة حيث حلت موضعها أسماء جديدة غطت عليها، أضف إلى ذلك تقادم العهود الذي أرغم البعض على أن يفضل التريث لعل التنقيب عن الآثار يظهر نصوصًا أكثر إيضاحًا يمكن الاعتماد عليها في المسائل المشكوك فيها، فلو لم يكشف التنقيب عن آثار "الآشوريين" و"الحمورابيين" لما عرفنا عنهم أكثر مما نعرف عن "طسم" و"جديس".

٤- على أنه مهما تكاثفت الشكوك، ومهما اختلطت المساكن، فإن تحقيقات الباحثين في مهد الساميين تكاد تجمع على أن جزيرة العرب هي مسقط رأس الساميين ومهد أم اللغات السامية، وعلى أن الجزيرة عرفت باسم العربية قبل أن يولد اصطلاح السامية بمئات السنين، وعلى أن العرب العاربة هم قدماء العرب، وهم أجداد الذين عمروا أطراف الجزيرة العربية : العراق وسورية الكبرى ومصر العمليقية، وعلى أن حفدة قدماء العرب مع من خالطهم فاستعرب بالإقامة والتوالد واللغة والتقاليد، عرفوا جميعًا بالعرب المستعربة، أما الجاليات مثل اليهود من غير العرب والحبش والفرس والروم؛ فهذه مثلها مثل الجاليات التي تعيش في أقاليم الجزيرة بين ظهراني العرب في هذا العصر.

البحث الثالث :

جزيرة العرب وحدودها

١- الجزيرة، أو شبه الجزيرة، كلاهما سيان .

٢- الحدود الطبيعية لا تحصر السكان .

٣- ما قيل في حدود الجزيرة العربية .

٤- حدود جزيرة العرب المائية .

٥- أقسام جزيرة العرب سبعة لا خمسة .

٦- قناة "أمنيس ترایاني" وصلت النيل بالبحر الأحمر، وقناة "الدار" وصلت الفرات بالبحر المتوسط .

٧- ما قاله الأقدمون لا يمكن أن يضرب به عرض الحائط .

٨- أقسام الجزيرة في القاموس الكلاسيكي .

٩- العرب واليونانيون متفقون على أن الجزيرة العربية ليست هي : الحجاز وتهامة ونجداً والعروض واليمن فحسب .

١٠- رأي "فيليب حتي" و"جواد علي" .

١١- الحدود السياسية تحتاج إلى أطلس سنوي، ومواضع الأمكنة وأسماؤها تحتاج إلى دائرة معارف خاصة بها .

١٢- بلاد العرب أكبر من جزيرة العرب .

١٣- مقابلة النصوص ونتيجة البحث .

١- جاء في "لسان العرب" : الجزيرة أرض يحيط بها الماء من جميع جهاتها ، سواء كانت تلك الأرض كبيرة أم صغيرة ، وسواء كان الماء الذي يحيط بها ماء بحر أو نهر أو واد[١]. والجزيرة أيضًا اسم يطلق تشبيهًا على ما يماثل الأرض التي تحيط بها المياه ، فـ (حريرة عكاظ) هي حرة بجانب "عكاظ" وبها كانت الواقعة الخامسة من وقائع حرب الفجار[٢] .

وشبه الجزيرة هي أرض يحيط بها الماء من ثلاث جهات فحسب : ينطبق عليها ما قلناه عن الجزيرة ، فليس من المهم نوع الماء الذي تمتد فيه؛ ماء بحر كان ، أو ماء نهر ، وقد يكون لشبه الجزر في البحار نظائر في البراري ، مثل حرة تحيط بها سباخ من ثلاث جهات ، أو حقول ممتدة في الرمال!!

٢- ومن المعروف أن كل قطعة من الأرض : جزيرة ، أو شبه جزيرة ، أو سلسلة جبال ، وأغوار ، وسواحل ، وهضاب = لها إطار من المعالم الطبيعية لا تتجاوزه إلا في حالات جد نادرة تحدث من صنع الإنسان مثل قناتي "السويس" و"بنما" اللتين أحدثتا في البرزخين : البرزخ الذي كان يربط بين آسيا وأفريقية ، والبرزخ الذي كان يربط الأمريكتين : أو بحادث طبيعي يحدث في فترات تتجاوز الألوف من السنين أحيانًا مثل التقلصات الأرضية وأثرها في تبديل معالم الأرض ، أما الشعوب فعلى اختلاف أجناسها وألوانها ، فهذه لا تحصرها الحدود الطبيعية ، فليس كل من سكن داخل حدود جزيرة العرب عربًا ، وليس كل من سكن خارج حدودها غير عرب ، فهذا العنصر "الإسكندنافي" لم تحصره شبه جزيرة "إسكندنافيا" داخل إطارها ، فـ "الدانمركيون" هم أيضًا إسكندنافيون.

---

(١) لسان العرب ، مادة (جزر) .

(٢) معجم ياقوت ، مادة (جزيرة) .

٣- هذا ونحن إذا أردنا أن نعرف أبعاد بلاد العرب التي كانت تنحصر فيما بين النهرين : "الفرات" و"النيل"، ونعرف هل هي جزيرة؟ أو شبه جزيرة؟ تقابلنا مجموعة من الأقوال منها ما يشتمل على بلاد العرب قبل الإسلام من "الفرات" شمالاً إلى "البحر العربي" جنوبًا، ومنها ما يقتصر على بعضها، ففي "لسان العرب"[(١)] ينقل "النويري" عن "التهذيب" : جزيرة العرب ما بين "عدن إبرين" إلى أطرار[(٢)] الشام، وقيل إلى أقصى اليمن في الطول، وأما في العرض فمن "جدة" وما والاها من شاطئ البحر إلى "ريف العراق" وقيل : ما بين "حفر أبي موسى"[(٣)] إلى أقصى "تهامة" في الطول، وأما العرض فما بين "رمل يبرين" إلى منقطع "السماوة"، وكل هذه المواضع إنما سميت بذلك لأن مياه الخليج العربي والبحر الأحمر ودجلة والفرات قد أحاطت بها.

٤- ولعل ما جاء في معجم البلدان عن "هشام بن محمد بن السائب الكلبي" مرفوعًا إلى "ابن عباس"[(٤)] هو القول الذي وضع الجزيرة العربية داخل حدود مائية استعرضها "ابن الكلبي" عندما قال : (إنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها، فصار منها مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك أن "الفرات" أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية "قنسرين" ثم انحط على أطراف "الجزيرة" و"سواد العراق" حتى وقع في البحر في ناحية "البصرة" و"الأبلة" وامتد إلى "عبادان" وأخذ البحر في ذلك الموضع مغربًا مطيفًا ببلاد العرب منعطفًا عليها فأتى منها على "سفوان" و"كاظمة" إلى "القطيف" و"هجر" و"أسياف البحرين" و"قُطَين" و"عُمان" و"الشحر"، ومال منه عنق إلى "حضرموت" وناحية "أبين" و"عدن" وانعطف مغربًا نصبًا

(١) لسان العرب، مادة (جزر).

(٢) أطرار الوادي : نواحيه.

(٣) حفر أبي موسى هي : ركايا حفرها "أبو موسى الأشعري" على طريق (البصرة - مكة).

(٤) معجم ياقوت، باب الجيم، ١٠٠/٣.

إلى "دهلك"[١]، واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن إلى بلاد فرسان" و"حكم" و"الأشعريين" و"عك"، ومضى إلى "جُدة" ساحل "مكة" و"الجار" ساحل "المدينة" ثم ساحل "الطور" وخليج "أيلة" وساحل "راية" حتى بلغ "قلزم مصر" وخالط بلادها، وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً ومعارضًا للبحر حتى دفع في بحر مصر والشام[٢]. ثم أقبل ذلك البحر من "مصر" حتى بلغ بلاد "فلسطين" فمر بـ "عسقلان" وسواحلها، وأتى "صور" ساحل "الأردن" وعلى "بيروت" وذواتها من سواحل "دمشق"، ثم نفذ إلى سواحل "حمص"[٣] وسواحل "قنسرين" حتى خالط الناحية التي أقبل منها "الفرات"[٤] منحطًا على أطراف "قنسرين" والجزيرة إلى "سواد العراق"؛ فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة على خمسة أقسام: الحجاز، ونجد، وتهامة، والعروض، واليمن)[٥]، وقد ذكر "البكري" هذه الحدود نفسها نقلاً عن "الحربي"[٦].

فالذي يأخذ بما جاء في مقدمة هذا التحديد: (وإنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها، فصار منها مثل الجزيرة) قد يفسر قوله: (مثل الجزيرة) أنه يقصد فصار منها شبه جزيرة، لأن تحديد "هشام الكلبي" تنقصه الحلقات التي تربط بين "نهر النيل" و"البحر الأحمر" وبين "الفرات"

---

(١) دهلك: مرسى بين بلاد اليمن والحبشة. معجم ياقوت، باب الدال.

(٢) يقصد البحر المتوسط.

(٣) لعله يقصد بساحل حمص: "طرابلس" و"بانياس".

(٤) أكثر الجغرافيين يقولون عن نهري دجلة والفرات: الرافدين، فالفرات الماء العذب، ولقد أصبح اسم بلاد ما بين النهرين يرادف اسم العراق، وعلى ذلك فقد يكون المعنى بالحد الشمالي هو "نهرا الفراتين"، كما سيأتي تفصيل ذلك في مبحث العراق من هذه الحلقة.

(٥) معجم ياقوت، مادة (حجر) ٢١٩/٣.

(٦) معجم ما استعجم، للبكري ٦/١.

و"البحر المتوسط" ، أما الذين يأخذون بما جاء في نهاية هذه الرواية (فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التي نزلوها وتوالدوا فيها على خمسة أقسام) فأولئك الذين اقتنعوا بأن بلاد العرب جزيرة، ولقد سبق أن بينا الأسباب التي جعلت كلاً من الاسمين جزيرة وشبه جزيرة، صحيحًا.

٥- والذي لا يتمعن في قول "ابن الكلبي" (فصارت بلاد العرب على خمسة أقسام : هي الحجاز، ونجد، واليمن، والعروض، وتهامة) يظن أن "ابن الكلبي" أخرج "الهلال الخصيب" و"مصر العمليقية" من الجزيرة العربية، والحقيقة أنه لم يخرجهما، فالذي يبدو على قوله : (فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة على خمسة أقسام) أن بلاد العرب اقتصرت على هذه الأقسام، فابن الكلبي عندما حدد جزيرة العرب جعل الهلال الخصيب ومصر العمليقية داخل حدودها، هذا وإن لكلمة "صار" معناها المعروف.

فبلاد العرب كانت على خمسة أقسام في عهد "بختنصر" كما نقل عن ابن عباس[(١)] ، ولذلك اقتصر الكثيرون في كلامهم عن بلاد العرب على هذه الأقسام الخمسة، ولذلك نجد أقوالاً صريحة تعتبر جزيرة العرب الأرض التي لم يطبعها الاستعمار الفارسي والرومي بطابعه، فمما يجب الانتباه إليه أن من أقوال القدامى أقوالاً لا تقصد بها الحدود الطبيعية، وإنما قصد بها الواقع السياسي، فهذا "الأصمعي" يقول : جزيرة العرب ما لم يبلغه ملك فارس من "عدن أبين"[(٢)] إلى "أطرار الشام" ومن "جدة" إلى "ريف العراق"، وقد فسر "مالك بن أنس" الحديث (إن الشيطان يئس أن يعبد في جزيرة العرب)[(٣)] أن المراد بجزيرة العرب المدينة.

(١) صفة الجزيرة، ص٤٦؛ معجم ما استعجم ، للبكري ، ص٥، ٦، ٧.

(٢) معجم ما استعجم، للبكري ١/ ٥ .

(٣) لسان العرب، مادة (عرب) .

فهكذا تجد في معاجم البلدان وتقاويمها، وفي معاجم اللغة ومصطلحاتها أقوالاً متناثرة أسندت إلى "عمارة" و"ابن عقيل" و"الأصمعي" و"ابن الأعرابي" و"المبرد" و"ابن عباس" و"الشعبي" و"المغيرة" و"أبي عبيدة" و"الخليل" و"ابن إسحاق" و"الليث بن سعد" و"الإصطخري" و"ابن خرداذبة" و"أبي الفداء" و"المسعودي" و"الهمداني" وغيرهم من علماء الجغرافية والتاريخ واللغة والشعر الجاهلي.

ففي "المسالك والممالك" يقول "الإصطخري" : (ويتصل بأرض العرب بناحية "أيلة" برية تعرف بتيه بني إسرائيل وهي وإن كانت متصلة بديار العرب فليست من ديارهم، وإنما هي برية بين أرض العماليق واليونانية وأرض القبط، وليس للعرب بها ماء ولا مرعى، فلذلك لم ندخلها في ديارهم[1]، فالأرض التي عرفت بتيه بني إسرائيل هي في قول الإصطخري : أرض ليست بعربية ولا قبطية ولا يونانية، وإنما هي أرض مستقلة تقع بين أراض عربية وقبطية ويونانية! ولقد عزلها "الإصطخري" عن بلاد العرب لأنها لا ماء فيها ولا مرعى للعرب، كما أخرج "الأصمعي" من بلاد العرب كل أرض بلغها سلطان الفرس !! فلو أن أرض "حسمى" لا ماء فيها للعرب ولا مرعى لأخرجها "الإصطخري" من "ديار العرب"، ولو أن سلطان الفرس بلغ نجدًا لأخرجه "الأصمعي" من بلاد العرب!!

والذي اتضح - فيما تقدم - يؤكد أن حدود الجزيرة أو شبه الجزيرة تضم الهلال الخصيب ومصر العمليقية داخل إطارها، فالهلال الخصيب ومصر العمليقية في المؤلفات الجغرافية والتاريخية عربية جغرافيًا وعنصريًا وحضاريًا، فمن ذا الذي يشك في عروبة "الإرميين" و"الكنعانيين" و"اليبوسيين" و"العماليق" وغيرهم من القبائل التي توارثت العراق وسورية وسيناء والدلتا والصحراء الشرقية من وادي النيل؟

---

(١) المسالك والممالك، للإصطخري، ص٢٠ .

فالهلال الخصيب ومصر العمليقية، كلاهما وضع داخل إطار الجزيرة العربية حسب تحديد "هشام الكلبي" عن "ابن عباس".

٦- والإطار الذي رسمه "هشام الكلبي" يدل على تعمق وسعة اطلاع بالتاريخ القديم وجغرافيته، فلا يبعد أن يكون "أبو المنذر هشام الكلبي" قد ترامى إليه شيء من أنباء "قناة أمنيس ترایاني" التي سبقت "قناة السويس" بآلاف السنين عندما قال: (وأقبل "النيل" في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضًا للبحر حتى دفع في بحر مصر والشام)، يقصد البحر المتوسط، فلا يتم الحد الغربي المائي إلا بقناة "أمنيس ترایاني".

فقناة "أمنيس ترایاني"[(١)] احتفرتها السلالة الفرعونية الثانية عشرة فيما بين سنة ٢٠٠٠ وسنة ١٧٨٨ ق.م. فوق "بلبيس" المدينة المصرية التي تبعد عن "الفسطاط" عشرة فراسخ[(٢)]، فبهذه القناة اتصل البحر الأحمر بالنيل الذي اتخذ مجراه إلى البحر الأبيض، وأعاد قدامى الفرس الملاحة إلى هذه القناة في عهد "دارا"[(٣)]، ثم جدد عهدها "البطالسة"، وأخيرًا أعاد الحركة إليها الخلفاء الراشدون بعد الفتح الإسلامي، ولكن هذه القناة التي كانت المنفذ الوحيد الذي ربط البحرين: الأحمر والمتوسط ما فتئت في كل عصورها عرضة للإهمال مرة بعد أخرى إلى أن أطبق عليها أخيرًا عندما تطورت الملاحة وكبر حجم السفن، فاتجهت ربابينها أخيرًا إلى "رأس الرجاء الصالح" سنة ١٤٩٧م فقضوا بذلك على نشاط الملاحة في البحر الأحمر العربي، فلم يعد نشاطه إلا بعد أن نفذ "الخديوي إسماعيل" مشروعه الجبار فوصل البحرين بقناة السويس.

---

(١) تاريخ العرب، لحتي ٤٠/١؛ تاريخ العرب، لجواد علي ٢٨٥/٢؛ دائرة المعارف الإسلامية ٢٩٩/١٢.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦١/١: ولقد أعطيت "بلبيس" لآل يعقوب.

(٣) انتصار الحضارة؛ ترجمة أحمد فخري، ص٢٦٢.

فبقناة "أمنيس ترایاني" اتصل النيل بالبحر الأحمر قبل أن يصب في البحر المتوسط؛ فلقد أقبل النيل غربي ذلك العنق الذي أشار إليه "ابن الكلبي" مستطيلاً معارضًا للبحر الأحمر حتى دفع في البحر المتوسط.

وكما كانت "قناة أمنيس ترایاني" حلقة وصل بين النيل والبحر الأحمر، كذلك قيل : إن هناك في الشمال قناة، كانت حلقة وصل بين الفرات و"البحر المتوسط"، والذي تحدث عن هذه القناة هو محرر مجلة "الزهراء"[1] التي كان يصدرها "محب الدين الخطيب" في القاهرة. فلقد نشر في الجزأين (١ و ٢) اللذين دمجا في مجلد واحد : المجلد الرابع الصادر سنة ١٣٤٦هـ؛ فقال المحرر الفاضل تحت عنوان : (صفحة من التاريخ العربي المجهول : مدينة "الدار") ننقل منه الفقرات التي تعني البحث :

(على الضفة الغربية من "الفرات" في الجهة الواقعة في غرب ديار "ربيعة" وفي جنوب ديار "مضر"، وبين "صفين" شمالاً، و"عانة" جنوبًا، بلدة تسمى الآن "الصالحية"، وكان في موقعها قبل خمسة آلاف سنة مدينة عربية عظيمة تتصل بمملكة "الآثوريين"[2] وكانت تسمى "الدار" بمعنى المنزل أو بمعنى الحصن. وقد دلت آثارها وكتاباتها المكتشفة أخيرًا على أنه كان يومئذ دولة قوية ذات حضارة وعلوم وبسطة ونفوذ. وكان فيها لبني عمنا الآثوريين مركز حربي يشرفون منه على الديار الشامية. لم تكن "الدار" قائمة بمهمتها الحربية فقط، بل كانت أيضًا بمنزلة القلب من حركة الإيراد والتصدير التجاريين بين القطرين الشقيقين : "العراق والشام، لأن "الفرات" الذي كان متصلاً من "الدار" إلى "الخليج العربي " كان يكمل اتصاله هذا إلى ساحل "طرابلس الشام" بقناة تتفرع من الفرات وتشق البادية شقًا إلى الغرب حتى

---

(١) هذا المقال بلا توقيع ولذلك نسب لمحرر المجلة.

(٢) لعله يقصد : "الروثانو" أو الآشوريين .

تنصب في البحر الأبيض المتوسط، وكانت على طول مجراها مزدانة بالمراكب الشرعية البيضاء اللامعة بأشعة الشمس والمنحدرة في نور القمر.

بقيت هذه المدينة عروس الصحراء العربية وواسطة الارتباط بين العراق والشام، وعلامة التنفس الحربي والسياسي بين الدول المجاورة هنالك يومئذ. فاستمرت الحال على ذلك نحو ثلاثة آلاف عام إلى أن بدأت "المسألة الشرقية" بمجيء "الإسكندر المقدوني"، فلفتت "الدار" نظر المقدونيين، ودعاهم مركزها إلى العناية بأمرها، فأنشأ "سلفكس نيكاتورو" أي الظافر بين سنتي (٣١٢ و٢٨٠) قبل الميلاد مباني جديدة إلى جانب مباني "الدار" القديمة وسماها : "دار أرويوس".

وجاء في كتاب ألفه الأثري المعروف "فرتز كومون" وصف ما اكتشف حتى الآن من آثار "الدار"، وزال الحكم "المقدوني" باستيلاء الرومانيين على مصر والشام، فكانت "الدار" ثابتة على عهدها في مناوأة الحكم الأجنبي، فاكتفى الرومان ومن قبلهم اليونان بأن تكون قناة الفرات الواصلة إلى ساحل البحر المتوسط تحت سيادتهم إلى أن فكر الرومانيون بإنشاء طريق برية بين الشام والعراق، فجعلوا "تدمر" القاعدة التجارية الكبرى.

وكان "الفرس" في القرن الثاني من الميلاد يرون أنهم خلفاء "الآثوريين"، فحاولوا استلحاق "الدار"، ولكن أهلها العرب أبوا عليهم، فقنعت الدولة الفارسية بالسيادة فقط وأباحت للبلاد أن تحكم نفسها إلى أن أتم الله على العرب وحدتهم الشاملة تحت راية التوحيد. فعظمة مدينة "الدار" التاريخية ترجع إلى مركزها المتوسط بين دول متعددة، وإلى القناة التي كانت تمر بها، والتي لا تزال آثارها باقية إلى اليوم، والتي انقطعت عن مجراها بين "الفرات" و"البحر المتوسط" من قبل الإسلام بعهد طويل.

فخبر هذه القناة - كما تراه - غريب، وإخال أن "مجلة الزهراء" انفردت به، فلقد بحثت عنه في المصادر التي بين يديَّ فلم أجد له أثرًا.

فأولاً : لم أجد فيما اطلعت عليه من تقاويم البلدان ومعاجمها مدينة باسم "الدار"، بل وجدت قرى في سوريا ولبنان تسمى "داريّا" بتشديد الياء، منها قرى في قضاء زغرتا بلبنان، ووجدت مدنًا تسمى "دارا"، إحداها مدينة في لحف "جبل ماردين"، ولكن "دارا" هذه في الجزيرة التي تقع بين "دجلة" و"الفرات"، كما ورد في تقويم أبي الفداء، و"طرابلس" التي تصل إليها "قناة الدار" التي تحدثت عنها مجلة محب الدين الخطيب : "الزهراء" قال عنها "أبو الفداء" في تقويمه : "طرابلس" مدينة رومية داخل البحر لها نهر، أهملها العرب وأنشأوا بجانبها مدينة طرابلس المعروفة، فهل وصل القدامى من سكان طرابلس الرومية نهرها بالفرات؟

ثانيًا : لم أجد في تاريخ "الروثان" الذين تغلب عليهم "الحثيون" : أنهم أو خلفاءهم الحثيين فتحوا قناة من الفرات إلى البحر المتوسط، و"الروثان" و"الحثيون" هما من أقدم الأمم التي بنت حضارة في شمال سورية، وعلى ضفاف الفرات، وأقدم مدينة تنطبق عليها بعض أوصاف مدينة "الدار" التي ذكرتها "مجلة الزهراء" هي مدينة تقع على "الفرات" اختلفت الظنون في حقيقتها، فأكثرها اقتنع بأنها هي مدينة "كركميش" التي كانت عاصمة "الحثيين" خلفاء "الروثان"، وفي هذه المدينة بنى "آثار سرغون" ملك آشور سنة ٧٢١ق.م. قصرًا[1]، وكذلك لم أجد في تاريخ الآشوريين إشارة إلى هذه القناة، فلقد تحدث "غوستاف ليبون" في كتابه "بابل وآشور" كثيرًا عن الآشوريين ولكنه لم يشر إلى هذه القناة؛ أما مدينة الصالحية التي تظهر على المصورات الجغرافية فهذه تقع قريبًا من شرق سورية.

(١) تاريخ سورية، للمطران الدبس ١٩١/١ وما بعدها .

ثالثًا : وعندما تكلم "جيمس هنري برستد" عن العاهل الفارسي "دارا" تحدث عن اهتمامه بالطرق المائية النهرية، فقد اكتشف بأمره بحار من ربابين البحر المتوسط هو "سكيلاس" شواطئ "آسية" الجنوبية من مصب نهر "السند" إلى "خليج السويس"، وذلك حوالي سنة ٥٠٠ ق.م. وقال "برستد" : إن "دارا" حفر القناة المصرية القديمة التي كانت تربط النيل بالبحر الأحمر، يقصد قناة "أمنيس ترایاني"، ولكنه لم يذكر شيئًا عن قناة "الدار" التي تحدث عنها الباحث الأثري "فرتزكومون" الذي نوهت به مجلة الزهراء(١) .

ولكن اختفاء كل أثر لهذه القناة : "قناة الدار"، فيما اطلعت عليه من المؤلفات التي وضعت في الشرق العربي، وفي تاريخه القديم، لا يعني عدم وجود هذه القناة التي تحدثت عنها مجلة الزهراء بكل ثقة ويقين، فلربما يكون "فرتز كومون" الذي اعتمد عليه بحث "مجلة الزهراء" وصل إلى معلومات لم تصل إليها مراجعي، ولقد قال "هشام بن محمد السائب الكلبي" : وأقبل بحر مصر والشام، يقصد البحر المتوسط، فبلغ "فلسطين" و"بيروت" و"حمص" وسواحل "قنسرين" حتى خالط الناحية التي أقبل منها "الفرات" منحطًّا على أطراف "قنسرين" والجزيرة إلى سواد العراق)(٢). فلعل "قناة الدار" هي الحلقة المفقودة في الشمال التي تصل الفرات بالبحر الأبيض كما كانت "قناة أمنيس ترایاني" هي الحلقة المفقودة التي تصل النيل بالبحر الأحمر.

٧- ومع هذه الملامح التي نستشفها مما قيل عن هاتين القناتين لا يمكننا أن نجزم بأن بلاد العرب جزيرة تحيط بها مياه البحر والأنهار من جميع أطرافها، ولذلك نحن لا نتقيد بواحد من الاسمين : جزيرة، وشبه جزيرة، فالحد الشمالي كما نراه يجعل كلاًّ من الاسمين جائزًا للباحث، فهما من وجهة نظر البحث سيان.

---

(١) انتصار الحضارة؛ ترجمة أحمد فخري، ص٢٦٢ .

(٢) معجم ياقوت ١٠١/٣.

ولكن المهم في البحث الفارق الكبير في الحدود والمساحة الذي يترتب على فهم بعض المتأخرين الذين يجعلون بلاد العرب في عصور ما قبل الإسلام شبه جزيرة يمكن اعتبار حدها الشمالي خطًا وهميًا يتجه شرقًا من رأس "خليج العقبة" إلى حد "الفرات" غربيًا، فهذا الخط الوهمي يخرج الهلال الخصيب من شبه الجزيرة في الوقت الذي يؤكد فيه البعض الآخر أن بلاد العرب في عصورها الجاهلية جزيرة حدها الشمالي يبدأ من جنوبي نهر الفرات في شمال سورية، وعلى هذا أن الهلال الخصيب بكامله داخل في الجزيرة العربية، وكذلك الحال في حدها الغربي عند من يجعل النيل يتم حدها الغربي، فإن مصر العمليقية تدخل في حدود الجزيرة أو شبه الجزيرة العربية.

فلا بد هنا بعد الأدلة التي سبق ذكرها فيما تقدم، وقبل الأدلة التي سيفرض البحث ذكرها فيما سيأتي، لابد هنا من وضع النقاط على الحروف كما يقولون، والنقاط هنا هي المعالم الطبيعية لحدود بلاد العرب، والمعالم الطبيعية لحدود بلاد العرب لم تكن خطًا وهميًا، بل هي معالم حقيقية نص عليه القدامى، فسيان كانت بلاد العرب قبل الإسلام جزيرة عند من اقتنع بأن نهري الفرات والنيل يتمان شكل الجزيرة، أم كانت غير جزيرة عند من لم يقتنع بذلك، فإن معالم الحد الشمالي للجزيرة أو شبه الجزيرة هي الفرات وجبال طوروس، وأن معالم الحد الغربي هي النيل والبحر الأحمر.

وسواء أكانت بلاد العرب جزيرة أم شبه جزيرة فإن القدامى من اليونانيين والعرب ومن سبقهما إلى البحث في جغرافية بلاد العرب وسكانها يؤكدون أن الهلال الخصيب الذي يجمع "العراق" و"سورية"، وأن مصر العمليقية التي تتكون من "شبه جزيرة سيناء" و"دلتا النيل" و"الصحراء العربية"، هما قسمان من أقسام جزيرة العرب أو شبه جزيرة العرب، فلقد تواضع المحققون، قدامى ومتأخرين، على أن ما بين الفرات والنيل بلاد عربية، أرضًا وسكانًا من أقدم العصور، كما وضح ذلك في مبحث "العرب والعربية".

٨- فاليونانيون الذين قسموا بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام : "العربية السعيدة" و"العربية الصحراوية" و"العربية الصخرية" كانوا كما يظهر يقصدون بالعربية السعيدة: القسم المستقل عن النفوذ الأجنبي في عهد "التبابعة الحميريين" حتى أصبح هذا النعت "السعيدة" يوصف به "اليمن" فيقال : اليمن السعيدة ، ويقصدون بالعربية الصخرية "مملكة الأنباط" التي صمدت أمام الاستعمار الروماني زمنًا طويلاً ، ويقصدون بالعربية الصحراوية باديتي "الشام والعراق".

٩- ولجرجي زيدان بحث مركز في جزيرة العرب وحدودها يظهر منه أنه استعرض وناقش الأقوال التي تقدم الكلام عنها ، فمما قاله : (إذا أريد ببلاد العرب جزيرتهم فقط فحدودها الطبيعية أربعة : شرقي شمالي يبدأ في الجنوب بالخليج العربي، من شواطئ "عُمان" فـ "البحرين" إلى مصب الفرات إلى أعالي سورية ، وغربي شمالي يبدأ من "الفرات" شرقي "سورية" و"فلسطين" إلى خليج "العقبة" ، وشرقي جنوبي[١] على طول البحر الأحمر إلى "باب المندب" ، وجنوبي غربي هو : "بحر العرب" المطلة عليه شواطئ "اليمن" و"حضرموت" و"الشحر" إلى شواطئ "عمان").

وهذا التحديد الذي ذكره "جرجي" يعتمد على أقوال جغرافيين غير عرب؛ لأنه قال : (أما العرب فكانوا يدخلون في جزيرتهم برية "سيناء" و"فلسطين" و"سورية")، ثم يذكر "جرجي" حدود الجزيرة التي ذكرها "هشام الكلبي" والتي تقدمت، ويتحدث عن أقسام الجزيرة الخمسة التي وردت في النصوص العربية : الحجاز ونجد واليمن وتهامة والعروض.

(١) لعله أراد : غربي جنوبي ، وهذا هو الأصح.

ويقول "جرجي زيدان" : (على أننا إذا أردنا بجزيرة العرب البلاد التي يسكنها العرب على الإطلاق، فنرى حدودها تختلف باختلاف الأعصر والدول، فقد كانت في الزمن القديم من ضفاف الفرات الشرقية إلى ضفاف النيل الغربية)[١] .

١٠- ويرى "فيليب حتي" : (أن حدود الجزيرة الشمالية غير واضحة المعالم، ويمكن اعتبارها خطًا وهميًا يتجه شرقًا من رأس "خليج العقبة" حتى الفرات. أما من الناحية الجيولوجية، فإن صحارى الشام والعراق بكاملهما تعد جزءاً من الجزيرة العربية)[٢] . فهذا الخط الوهمي الذي افترضه فيليب حتي، لا يجعل بلاد العرب جزيرة بل هي بموجبه: شبه جزيرة.

ويرى "جواد علي" : أن بلاد العرب شبه جزيرة تحيط بها البحار من أطرافها الثلاثة[٣]. وأورد "عمر رضا كحالة" في متن كتابه "جغرافية شبه الجزيرة العربية" وفي هامشه ما جاء في "صفة جزيرة العرب" للهمداني، وما جاء في "معجم البلدان" لياقوت الحموي، وما جاء في "المسالك والممالك" للإصطخري، وما قاله أبو الفداء والأصمعي وغيرهما من الذين ألفوا في جغرافية الجزيرة ونقل عنهم المتأخرون، ولكنه لم يقابل ويحقق، وإخال أن مؤلفه يستهدف الأوضاع السياسية وما صارت إليه اليوم أقاليم الجزيرة لا سيما التي صعدت إلى القمة في عصر البترول، لذلك تراه يدلي برأيه مستعجلاً دون أن يبين الحيثيات التي بنى عليها قوله : (وإذا أنعمنا النظر في تحديدات جغرافيي العرب لشبه الجزيرة يمكننا أن نقول : إن شبه جزيرة العرب تقع في الجنوب الغربي من آسيا، ويحدها من الغرب البحر الأحمر، ومن الجنوب المحيط الهندي،

(١) العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان، ص٣٧.

(٢) تاريخ العرب، لحتي ١٥/١ وما بعدها .

(٣) تاريخ العرب، لجواد علي ٧٦/١ .

ومن الشرق بحر عمان والخليج العربي، ومن الشمال العراق وشرقي الأردن!!(١)، وتراه كذلك يسرع عندما نقل عن "أكسنفون" قوله : إن حدود جزيرة العرب الشمالية تبدأ من الفرات، وإن قسمًا كبيرًا من العراق يدخل في حدودها، وعندما نقل عن "بطليموس" و"ديودور" و"استرابون" الذين مدوا حدود الجزيرة العربية إلى مدينة "الرقة" الحالية التابعة لمحافظة "دير الزور"، كذلك هو لم يبد رأيًا فيما قالوه في هذا الصدد.

فأقوال اليونانيين عن حدود الجزيرة العربية لم تذهب بعيدًا عن تحديد "هشام الكلبي" الذي سبق الكلام عنه، فهم يدخلون قسمًا من سورية وقسمًا من العراق في نطاق الجزيرة.

ولعل "جرجي زيدان" هو المؤرخ الوحيد بين معاصريه الذي تكلم عن حدود الجزيرة العربية على ضوء روايات القدامى، والذي يبدو على كلام (جرجي زيدان) يدل على أنه مقتنع بأن بلاد العرب : جزيرة تبدأ شمالاً وشرقًا من ضفاف الفرات، وتنتهي غربًا عند نهر النيل، وتنتهي جنوبًا عند البحر العربي.

أما "فيليب حتي" و"جواد علي" فكما رأينا أقوالهما، لم يقتنعا بأن بلاد العرب جزيرة، وقد اقتصر "فيليب حتي" على حدود الأقسام الخمسة عشية ظهور الإسلام : الحجاز، ونجد، واليمن، وتهامة، والعروض، ولكنه مع ذلك أدخل صحارى "الشام" و"العراق" في جزيرة العرب جيولوجيًا، على أن "جواد" و"حتي" لو تفرغا لحدود جزيرة العرب القديمة على نحو تفرغهما للبحث عن اسمها، وشعوبها، ومدنها، ودولها - لانتهيا إلى أن العرب قصدوا بهذه الأقسام الخمسة : الأرض التي لم يصهرها الاستعمار القديم في بوتقته.

---

(١) جغرافية شبه جزيرة العرب، ص١ وما بعدها، ص٦.

١١- فالحدود الطبيعية - كما قلت من قبل - أثبت وأوضح من الحدود السياسية، فالحديث عن الحدود السياسية يمتد مع تاريخ الدول والشعوب، وتاريخ الدول والشعوب السياسي طويل وعريض، فما أكثر ما تبدلت الأصباغ السياسية، وما أكثر ما تغيرت حدود الدول والشعوب، فلكل زمان دولة ورجال وحضارة وتقاليد ولغة ومصطلحات، فكم من شعب تقلصت دياره، وكم من مهاجرين مكن الله لهم في أراض شاسعة انحسر عنها ظل أمم سبقتهم، وكثيرة الأراضي التي سكنت بعد حركة وصخب، وكثيرة الأراضي التي تحركت بعد صمت وسكون، فـ "عربة - فلسطين" لم يكن نشاطها على عهد "إبراهيم" أبي الأنبياء، و"عربة - تهامة" لم يحتضنها الغموض مرة أخرى بعد أن أذّن إبراهيم بالحج، ولم يصبح ذلك الوادي الذي أسكن فيه إبراهيم من ذريته : إسماعيل أبا العدنانيين، واديًا غير ذي زرع، إنه اليوم حافل بالحدائق العامة والخاصة.

وتمشيًا مع الجزر والمد السياسي أخذ المؤرخون والجغرافيون اليوم، بعد أن عرب العرب المسلمون سواحل "أفريقية" الشمالية إلى "المحيط الأطلسي" فارتبطت مع الجزيرة العربية الأم بروابط الشعب الواحد من حيث اللغة والثقافة ودين الأكثرية = يعتبرون الأرض الممتدة من "الخليج العربي" إلى المحيط الأطلسي جميعها بلادًا عربية جغرافيًا وتاريخيًا.

١٢- فعلى ذلك : أن البحث في جغرافية أرض العرب إما أن يكون موضوعه جزيرة العرب، وإما أن يكون موضوعه بلاد العرب، فإذا كان خاصًا بجزيرة العرب تقيد الباحث بالحدود الطبيعية لهذه الجزيرة التي تقدم الكلام عنها.

أما إذا كان البحث يشمل البلاد التي وحدها الإسلام فاصطبغت بالصبغة العربية الإسلامية تقاليد وأخلاقًا، وتواشجت أنسابًا وأملاً، فتوحدت قوميتها وتوحدت

مقدراتها وتوحدت أهدافها، فبلاد العرب اليوم هي جميع بلاد دول الجامعة العربية، فالمؤرخ والجغرافي في العصر الحاضر يعتبران شواطئ أفريقية الشمالية عربية مثل شواطئ الخليج العربي الغربية، فلا فرق بين "موريتانيا" وبين "عُمان".

١٣- وأخيرًا فإن المخطط الذي تقيدت به بحوث هذا الكتاب "العرب في أحقاب التاريخ" في كل جزء من أجزائه يلزمنا بأن نقدم للقارئ خلاصة كل بحث، فالحصيلة التي خرجنا بها بعد الإلمام بما تقدم من أقوال المتقدمين وتحقيقات المتأخرين، تؤكد لنا: أن ليس هناك خلط في أقوال العرب عندما تحدثوا عن جزيرتهم وحدودها، فكل قول من تلك الأقوال التي جمعها المؤلفون في التاريخ العربي وفي جغرافيته يعني حقيقة من حقائق التاريخ العربي، وجانبًا من جوانبه الجغرافية، فهم عندما قالوا: فصارت جزيرة العرب إلى خمسة أقسام: الحجاز، ونجد، واليمن، والعروض، وتهامة، يقصدون البلاد التي لم يلونها الاستعمار بصبغته، كما صرح بذلك "الأصمعي": (جزيرة العرب هي التي لم يبلغها ملك فارس)[1]، و"مالك بن أنس" عندما قال: (جزيرة العرب هي المدينة) قصد الأرض التي يئس الشيطان أن يعبد فيها.

إن الذين يضعون: العراق وباديته، وسورية وباديتها، وفلسطين وجبالها، وأوديتها بما فيها: وادي عربة وسيناء، والصحراء الشرقية من وادي النيل، خارج حدود شبه جزيرة العرب، هم أولئك الذين وقعوا في شباك المزاعم الاستعمارية التي تحاول بتر "فلسطين" و"سيناء" من البلاد العربية، مستغلة الأقوال التي جعلت: "تبوك" في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حدًا لبلاد العرب[2]، فالأخذ بحرفية تلك الأقوال يقضي ببتر كل جزء من الأرض العربية اصطبغ مجتمعه بلون المستعمرين.

---

(١) معجم ما استعجم، للبكري ٦/١.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة (تبوك) ٥٧٥/٤.

فلو أن ملك فارس استتب في "اليمن" و"العروض" كما استتب ملك الروم في مصر وسورية، لأخرج : "اليمن" و"العروض" من جزيرة العرب، وها نحن أولاء نسمع : "المغيرة" يقول : (جزيرة العرب مكة والمدينة واليمن وقرياتها)[1].

حقًا لقد كاد يمحى كل ما هو عربي في سورية، وينصهر في المجتمع الروماني برغم بروز بعض الشخصيات العربية في الدولة الرومانية، وجلوس بعض العرب على عرش القيصرية، ولقد كادت تطمس كل آثار العرب في "سيناء" وفي "دلتا" النيل وصحرائه العربية، ولكن ذلك لا يكفي لبتر هذه الأقطار العربية من شبه الجزيرة.

ولسوف نعود إلى هذه الحقيقة عندما نبحث في الهلال الخصيب ومصر العمليقية في الفصل الخاص بهما من هذا الجزء.

(١) معجم البكري ١/٥.

البحث الرابع :

مرآة الجزيرة العربية :

١- وجه الشبه بين شبه جزيرة العرب وشبه جزيرة الهند والفوارق .

٢- بحيرة في الربع الخالي ، ماؤها أقل ملوحة من ماء بحيرة لوط في الشمال .

٣- أنهار الجزيرة العربية وأوديتها .

٤- حرار الجزيرة العربية .

٥- النخيل من أهم أشجار الجزيرة العربية وأكثرها .

٦- الجمال هي سفن الصحراء .

٧- مصايف الجزيرة العربية .

٨- الفرق بين سكان الجبال وبين سكان الأغوار .

٩- وصف دقيق للهلال الخصيب .

١٠- صفة مصر .

١١- شواطئ الجزيرة العربية ذات إستراتيجية في الماضي والحاضر.

١٢- الفارق بين شبهي الجزيرتين يتجسد في السكان والعمران .

١٣- مناخ الجزيرة العربية بين الماضي الزمردي المدفون والحاضر الشاحب الملموس

١٤- ما قاله علماء الجيولوجية اليوم أشار إليه القرآن الكريم قبل ألف وأربعمئة عامٍ .

١٥- خصب "تهامة عسير" نادر المثيل .

١٦- ثروات الجزيرة العربية وعطاء أرضها .

١٧- الاكتشافات الأثرية أيدت الروايات العربية التي تحدثت عن ثروات الجزيرة.

١- إننا إذا نشرنا أمامنا خارطة مكبرة لقارة آسيا نرى أرضين عظيمتين متجاورتين، على شكل شبه جزيرة، يمكن اعتبار كل واحدة منهم قارة قائمة بذاتها، وهاتان الأرضان هما شبه الجزيرة العربية، وشبه الجزيرة الهندية، وإنّا إذا أنعمنا النظر في شبهي الجزيرة هاتين اللتين يفصل بينهما الخليج العربي، نلاحظ أن شبه الجزيرة الهندية تكثر فيها مدن مكتظة بالسكان ليس لها مثيل في أختها العربية التي تتناثر في فيافيها الشاسعة مدن لا يزدحم فيها السكان تقبع الواحدة بعيدة عن الأخرى، ما خلا الأجزاء الجنوبية والشمالية فإن المدن المزدحمة بالسكان تكثر فيها، ونلاحظ ظاهرة هي بحران من الرمال أحدهما، رمال "النفود" في الشمال، والثاني وهو الأكبر رمال "الدهناء" ومن بعدها "الربع الخالي" في الجنوب، ويصل بين هذين البحرين الزاخرين بالرمال مضيق طويل، ويعلل الجيولوجيون قلة المدن والسكان وكثرة الرمال والصحارى بالجفاف الذي منيت به الجزيرة العربية.

ففي شبه جزيرة العرب أكثر من (٢٥٣،٠٠٠) ميل مربع: رمالاً غير مأهولة تقريبًا، وهي: الربع الخالي، وقدرت مساحته بنحو (٢٥٠،٠٠٠) ميل مربع، والنفود بنحو (٢٢٠٠) ميل مربع، والدهناء بنحو (٨٠٠) ميل مربع، فالصمان وحده يقدر عرضه فقط من (٥٠) إلى (١٥٠) ميلاً، هذا غير رمال الحجاز وقفاره، وغير فيافي نجد التي يضيع فيها بصرك دون أن يقع على قرية مأهولة أو حقول مزروعة.

٢- ولقد اكتشف "بترام توماس"(١) عندما قطع رمال الربع الخالي من "بحر العرب" على "خليج عمان": بحيرة مالحة الماء في طرف الربع الخالي، وقد علل "توماس" هذه البحيرة بأنها من متفرعات الخليج انفصلت عنه، أما "بحيرة لوط - البحر الميت" وغيرها من بحيرات شبه الجزيرة العربية في الشمال فقد عرفها الناس جميعًا.

---

(١) تاريخ العرب، لحتي ١٧/١.

ونلاحظ في شبه الجزيرة الهندية أن جبال "هملايا" تجثم على شمالها تفصل بينها وبين بقية مناطق قارة آسية، أما في شبه الجزيرة العربية، فجبال "السراة" تمتد من شمال الجزيرة العربية إلى جنوبها تشبه العمود الفقري في الإنسان يبلغ ارتفاعها في الشمال أكثر من تسعة آلاف قدم وتبلغ عواليها في الجنوب أكثر من اثني عشر ألف قدم تنحدر بالتدريج نحو الشرق نظرًا لارتفاع أراضي نجد، ويكون انحدارها حادًا نحو الغرب بالنسبة لانخفاض تهامة، وعلى ما بلغه ارتفاع جبال "السراة" في شبه جزيرة العرب لم يبلغ أحدها ما بلغته قمم "الهملايا" في شبه جزيرة الهنود.

٣- ونلاحظ أن الأنهار التي تنساب من جبال هملايا في شمال شبه الجزيرة الهندية أكثر من التي تنبثق من هضاب آسية وتجري في شمالي شبه الجزيرة العربية، ونلاحظ أن الأنهار في شبه الجزيرة الهندية تروي أكثر الأراضي الهندية، أما أنهار شبه الجزيرة العربية في "العراق" فإنها تسرع إلى مصابها في الخليج العربي، ولا تلتفت أنهار "سوريا" إلى الجنوب كأنما هي تخشى أن تتلاشى في أحشاء الصحراء، وفي قلب الجزيرة أودية يقال: إن بعضها كان أنهارًا نراها اليوم جافة تتلظى لا تنساب فيها المياه إلا نادرًا عندما ينهمر المطر مدرارًا، وما أكثر أودية الجزيرة العربية، وما أكثر ما تكون هذه الأودية جافة، وعلى العكس فإن أودية الهند تسيل في كل صيف تقريبًا.

٤- ونرى الحرار منتشرة في شبه جزيرة العرب لا سيما في الحجاز، فلقد أصبحت الحرار من معالم الحجاز، وتتمتع أكثر المناطق ذات الحرار بالخصب وكثرة المياه، وبين حرار المدينة حرة النار التي سمع بها العالم، والتي أضاءت أعناق الإبل على بعد أميال(١).

(١) راجع صفة الحجاز في هذه الحلقة ففيها تفصيل عن حرار الحجاز.

٥- وكما نرى شجر الجوز الهندي ناميًا على أرض شبه الجزيرة الهندية نجد "النخيل"[١] منتشرًا في شبه الجزيرة العربية في "الأحساء" وفي "خيبر" وفي "المدينة" و"العلا" وفي "وادي القرى" و"رابغ" و"حائل" و"وادي حنيفة" و"القصيم" و"بيشة" وغيرها من المناطق الزراعية.

٦- وليست الفيلة في بلاد الهند بكثرة الجمال في بلاد العرب، على أن بعض علماء الطبيعة يقول : إن الفيلة كانت موجودة في البلاد العربية[٢] قبل الجفاف الذي منيت به، فلقد اشتهر شبه جزيرة العرب بكثرة الجمال، واشتهرت جمالها بأنها سفن الصحراء، ولقد عرف العرب في شبه جزيرتهم كيف يربون الخيل، وكيف يحافظون على نسل الأصيل منها، فامتازت الخيل العربية على غيرها.

٧- وإذا كان الهندي يتغنى بجبال "هملايا" ومصايفها وجوها النقي، وإذا كان الهندي يتمتع في "كشمير"[٣] و"ميسوري" و"شملا" بصيف ممتع، فإن العربي يتغنى بجبال "لبنان" وبجبال "الطائف" و"حائل"، ويتمتع بصيف ممتع في "بحمدون" و"بلودان" و"الطائف" و"أبها" و"صنعاء" وغيرها من مدن السراة، ولولا الأحداث التي مرت بشبه الجزيرة العربية، لكان لجبل "الفقرة" القائم على مقربة من "المدينة المنورة" ، وجبل "رضوى" القائم على مقربة من "ينبع" وجبلي "أجأ وسلمى" القائمين على مقربة من "حائل"، وجبال "عسير" باليمن = شأن لا يقل عن جبال "لبنان"، على أنني أرجو أن نقطف قريبًا ثمرة العناية بتطوير مصايف المملكة .

---

(١) أول من غرس النخلة في جزيرة العرب : (البابليون) في (العراق).

(٢) راجع الجزء الأول من تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي، ص١٦٠.

(٣) مصايف الهند وقد كانت حكومة الهند في عهد الاستعمار الإنجليزي تصطاف في شملا .

ولقد قمت برحلة في جبال السراة من "مكة" إلى "الطائف" إلى "بيشة" إلى "أبها"، وهبطت إلى "تهامة" من "عقبة ضلاع"[1]، وتنقلت في جبال "عسير" وأودية "تهامة" سنة ١٣٦٢هـ، عندما كانت وسائل الانتقال هي الجمال والحمير والخيل، فشاهدت في جبال السراة كل ما رأيته في جبال "هملايا" عندما صعدت من "راول بندي" إلى "كشمير" ما عدا نهرها، وإنني أتذكر في كل صيف قضيته في "لبنان" جبال السراة؛ فجبال عسير لا تنقصها الخضرة التي تتحلى بها جبال لبنان وكشمير، ولكن تنقصها أساليب الزراعة الحديثة وآلتها التي استعملها اللبنانيون والكشميريون منذ زمن طويل، على أن بداية النشاط الزراعي اليوم تعتبر خطوة واسعة إلى القمة التي بلغتها الزراعة الحديثة، فأرجو الله لها التقدم والاستمرار، ورأيت في سكان جبال عسير النضرة الطبيعية التي تتلألأ على وجوه اللبنانيين واللبنانيات، فالسيدات في عسير لا ينقصهن شيء غير الأصباغ التي تضعها اللبنانيات على وجوههن، وغير ترصيف الشعر واللباس المنسق، فبنات السراة كما رأيتهن لا يعرفن المساحيق ولا يعرفن عن أزياء باريس كثيرًا ولا قليلاً، فالفرق الذي رأيته واضحًا بين اللبنانيات في المدن والدرزيات في الجبال هو الفرق نفسه بين اللبنانيات والعسيريات.

٨- وكما وجدت الفرق بينًا بين سحنة البنغاليين في منطقة "كلكتا" وبين سحنة الكشميريين والبنجابيين، وجدت الفرق بينًا بين سحنة سكان عسير وسحنة سكان تهامة، فالتهامي في "جازان" لا تختلف سحنته عن البنغالي، كما أن حياته لا تختلف كثيرًا عن حياته.

ولا فرق بين شمالي شبه الجزيرة الهندية، وشمالي شبه الجزيرة العربية، فإن كانت جبال هملايا تطل على المناطق الخصبة في الهند فإن جبال "طوروس" تطل على الهلال الخصيب من شبه الجزيرة العربية.

---

(١) عقبة ضلاع: هي طريق ينحدر من أبها في (عسير) إلى (درب بني شعبة) في (تهامة).

٩- ويصف "جيمس هنري" في كتابه "انتصار الحضارة" الهلال الخصيب وصفًا جغرافيًا دقيقًا : (إن أهم مكان سكنه الإنسان في غربي آسيا هو ذلك الجزء المحصور بين الجبال في الشمال والصحراء في الجنوب، وهو يكاد يكون حدودًا تفصل هاتين المنطقتين، وساعدتها الطبيعة لأن تصبح أرضًا منزرعة، وذلك المكان هو ما نسميه الهلال الخصيب؛ لأنه يكوِّن شكلاً نصف دائري على وجه التقريب ويرتكز حرفه الغربي في جنوب شرقي البحر الأبيض المتوسط ووسطه فوق شبه جزيرة العرب، ويرتكز حرفه الآخر عند الخليج العربي، وخلف ظهر هذا الهلال تقوم الجبال المرتفعة، وعلى ذلك تكون "فلسطين" عند نهاية الجزء الغربي منه، وبلاد "بابل" في الجزء الشرقي - منطقة البصرة - في حين تكون بلاد "آشور" جزءاً كبيرًا من وسطه. وهذا الهلال الخصيب ليس إلا امتدادًا لصحراء العرب وهو يشبه شواطئ جون صحراوي تحيط به الجبال، ولكن هذا الجون ليس مملوءاً بالمياه، ولكنه مملوء برمال الصحراء التي تمتد نحو خمسمائة ميل) [(١)].

١٠- أما مصر فيصف "جون ويلس" [(٢)] وادي "النيل" الممتد بين صحراوين عن يمينه وعن شماله وصفًا يصور لك الطبيعة كما هي بدون مغالاة أو نقص : (وأكثر ما يستلفت النظر ذلك التباين الكبير بين خضرة المزروعات على جانب النهر "النيل" وبين الهضبة الصحراوية، ذلك التباين بين الأرض السوداء الخصبة، وبين رمال الصحراء ذات اللون الأحمر، فيرى الناظر الاثنين عند تلاقيهما كأنه خط واحد هو آخر مدى يصل إليه ماء النيل، ومن الممكن لأي شخص أن يقف واضعًا إحدى قدميه في الأرض الخصبة المنزرعة ويضع قدمه الأخرى فوق رمال الصحراء الجدباء).

(١) كتاب انتصار الحضارة وتاريخ الشرق القديم ، ص١٤٣ .

(٢) الحضارة المصرية ، ص٣٥ وما بعدها .

١١- وشواطئ البلاد العربية تطل على بحار عرفت أهميتها الاقتصادية من بداية التاريخ؛ فالخليج العربي، والبحر العربي، والبحر الأحمر، والبحر الأبيض المتوسط كلها بحار استفاد الإنسان منها في ملاحته، فلقد ركبتها سفنه من قبل التاريخ؛ فسفن الكنعانيين كانت تجري في الخليج العربي من قبل التاريخ. ولقد انتقل مع الكنعانيين الذين هاجروا إلى "سورية" في الألف الثالث قبل الميلاد ربابين "عُمان" و"دلمون - البحرين" على البحر المتوسط بخبرتهم البحرية وقدرتهم على استخدامه وتسخيره لمرافقهم، فكما تتحدث أساطير الهند عن التجارة البحرية في شواطئ بحار الهند تتحدث أساطير التاريخ العربي بأن سكان شواطئ الجزيرة العربية ركبوا البحر تجارًا، وركبوه محاربين قبل أن تعرف بداية التاريخ الهندي، ولقد ساد الأسطول التجاري الفينيقي أساطيل دول حول البحر المتوسط، حينًا غير قصير.

١٢- ومن الواضح أن الفرق بين شبهي الجزيرة : العربية والهندية في المساحة والسكان جد كبير. فإن كان شبه الجزيرة العربية أكبر مساحة من شبه الجزيرة الهندية فإن عدد العرب أقل بكثير من عدد الهنود، فالفرق بينهما في السكان كبير جدًا، ونسبة الفرق بين شبهي الجزيرة في عدد المدن والقرى هي مثل نسبة الفرق بين عدد السكان في شبه الجزيرة العربية وشبه الجزيرة الهندية، بيد أن شبه الجزيرة العربية حظيت بمدن لا مثيل لها في شبه الجزيرة الهندية، فمن المدن العربية القديمة : "مكة جرهم" و" حجر ثمود" و"بابل الكلدانيين" و"يثرب عبيل" و"أورسليم اليبوسيين"، و"صان العماليق" و"سبأ التبابعة".

فمكة أقدم مدينة مقدسة عرفت في التاريخ، واسم مكة ـ أقدم اسم أطلق على مدينة البيت الذي رفع قواعده "إبراهيم" و"إسماعيل"، واسم مكة آشوري، فلفظ "مكا" في اللغة الآشورية والبابلية معناه : البيت، وفي مكة البيت الحرام، ومن معاني "مكا" في

معاجم اللغة العربية : الصفير بالفم، وفي التنزيل العزيز : ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ (الأنفال/ ٣٥) المكاء : الصفير. ولذلك يظن أن هناك من يقول : إن مكا هي موضع المكاء التعبدي !! وأما (مكربا) الاسم الوارد في أطلس "بطليموس"؛ فهذه الكلمة لها أصل في اللغة العربية، فهي في معاجم اللغة بمعنى القرب، والملائكة الكروبيون أقرب الملائكة إلى حملة العرش، ويفسر "ابن منظور" مكرب في قول الشاعر: (**لها رسغ أيد مكرب**) فيقول : إنه رسغ ممتلئ، و"البك" و"المك" في لسان العرب معناهما : الازدحام، فليس من الغريب أن تسمى "مكة" مكربا، أي ممتلئة مزدحمة، وليس من شطط القول أن قيل : إن "بطليموس" لم يذهب بعيدًا عندما أطلق على البيت الحرام اسم مكربا، فكلمة مكربا لها معان في اللغة العربية تنطبق على مكة التي تكتظ بالحجاج من عصور ما قبل الإسلام.

و"يثرب" اسم يقول عنه بعض المؤرخين العرب : إنه في الأصل اسم لابن من أبناء "سام" أو من حفدته، سميت "المدينة" باسمه، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يقال للمدينة يثرب، فالثرب : فساد في كلام العرب[1]. ويثرب المعروفة في تاريخ "المدينة المنورة" هي : الضاحية الشمالية المعروفة اليوم باسم "العيون".

ومثلما تلف وتدور الآراء حول اسم "مكة" ، تدور وتلف حول اسم كل مدينة من المدن التاريخية في شبه الجزيرة العربية : "بابل" و"نينوى" و"تانيس" و"خيبر" و"ينبع" و"دومة" و"مدين" و"ظفار" و"مأرب" و"معين" و"نجران" و"حضرموت" و"قرية" و"سبأ" و"صنعاء" و"تدمر" و"الرقيم"، إلى غير هذه من المدن التي عاصرت التاريخ العربي من بدايته.

(١) لسان العرب ، مادة (ثرب).

١٣- ومن الفوارق بين شبه جزيرة العرب وشبه جزيرة الهند التي تلاحظ واضحة : الخصب ومواسم الأمطار، فشبه الجزيرة الهندية تعمها الأمطار الموسمية تقريبًا، فيكثر خصبها. أما شبه الجزيرة العربية فتختلف مواسم أمطارها زمنًا وكثرة، ففي تهامة باليمن وعسير تكاد الأمطار تكون موسمية في زمن الصيف، ولكن الحجاز ونجد لا ينعمان بالأمطار إلا في فصل الشتاء، على أن أمطار جزيرة العرب حتى في تهامة وجبال السراة اليمنية لا يمكن أن تسمى موسمية، ونادر جدًا أن يحظى قلب الجزيرة بمطر في فصل الصيف.

فهل كانت البلاد العربية منذ عصورها الأولى على مثل هذا المناخ وفي مثل هذا الجفاف؟ أم كانت بلادًا خصبة ذات أنهار وغابات؟ إن ما وصل إليه الباحثون في التاريخ القديم وجغرافيته قد حدثنا به القرآن الكريم :

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ (الأنعام/ ٦).

في هذه الآية الكريمة موعظة وعبرة، وإشارة واضحة إلى حقيقة علمية وصل إليها العلم بعد لأي وجهد، فبعد أكثر من ألف عام ينقل "ول ديورانت" رأي علماء الجيولوجية[١] : (لو أخذنا بما يقوله الجيولوجيون لكانت المناطق القاحلة في آسيا الوسطى ذات ماض فيه ماء وفيه اعتدال في حرارة الجو، وفيه ما يزهره من بحيرات عظيمة وأنهار كثيرة، ثم تراجعت عنها آخر الموجات الجليدية فجفت شيئًا فشيئًا حتى لم يعد ما يسقط على ذلك الإقليم من المطر كافيًا لقيام المدن والدول، فأخذت المدائن

---

(١) قصة الحضارة ١/١٨٦ وما بعدها .

تقفر من أهلها واحدة في إثر واحدة حين هرب الناس غربًا وشرقًا وشمالاً وجنوبًا - سعيًا وراء الماء، ولا تزال ترى أنقاض مدن مثل "باكرا" غائصة في الصحراء إلى نصفها).

ويرى "فنكلر" و"كيتاني" : أن بلاد العرب كانت في العصور الأولى خصبة، ثم حل بها المحل شيئًا فشيئًا إلى أن صارت إلى الحال التي توجد عليها اليوم، ويقول : "شيدر" : (ويؤيد هذا الفرض وجود أودية كانت في الأصل مجاري أنهار جفت مما يحمل على افتراض حدوث شيء يشبه ما حدث في الصحراء الكبرى وصحراء وسط آسيا، وجنوب غربي الولايات المتحدة. ففي هذه المناطق جميعها بدأ عصر الجفاف والمحل بعد ظهور الإنسان نظرًا لوجود حفريات تشير إلى أن هذه الأمكنة القاحلة اليوم كانت معمورة في عصر ما، غير أننا - ويا للأسف - لا نملك دليلاً على تاريخ ابتداء هذا الجفاف وعلى أقدم استيطان بشري لبلاد العرب)[1].

ويتحدث "حتي" عن مناطق آسيا التي تطورت طبيعة أرضها، وتبدل وجهها من خصب ونضارة إلى جدب وعبوس، ويجعل منها المناطق الوسطى في جنوب شبه الجزيرة العربية، وينقل في كتابه "تاريخ العرب المطول" عن الجيولوجيين : (ويرى علماء الجيولوجية أن الجزيرة العربية عبارة عن تكملة طبيعية لصحارى أفريقية، وكانت الرياح الغربية التي تروي غيومها الآن مرتفعات سورية وفلسطين تصل في الأزمنة الغابرة إلى الجزيرة قبل أن تفقد هذه الغيوم رطوبتها، وفي أثناء شطر العصر الجليدي كانت هذه الصحارى مروجًا خضراء آهلة بالسكان)[2].

(١) روح الحضارة العربية، هانز هيترش شيدر، ص١٢٧، ١٢٨.

(٢) تاريخ العرب المطول، ص١٥.

وبعد أن نقل لنا "جواد علي"[1] نظرية علماء الجيولوجية التي استعرضت أسباب خصب البلاد العربية القديم قال : (وتعد المنطقة الواقعة بين "العلا" و"معان" من المناطق الصحراوية في الوقت الحاضر، وقد كانت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار والوحوش المفترسة)، ونقل عن بطليموس[2] : (وذكر بطليموس اسم نهر عظيم سماه : "لار" زعم أنه ينبع من منطقة "نجران" من الجانب الشرقي من السلسلة الجبلية، ثم يسير نحو الجبهة الشمالية الشرقية مخترقًا بلاد العرب حيث يصب في الخليج العربي، ولا يعرف من أمر هذا النهر شيء في الوقت الحاضر)، ويقول عن نجد : (وكانت نجد - حتى القرن السادس للميلاد - ذات أشجار وغابات لا سيما في جنوب وادي الرمة)[3]، ثم هو يتحدث عن رأي[4] علماء طبقات الأرض الذين جابوا أنحاء شبه الجزيرة فيقول : (ويميل العلماء إلى تأييد القائلين بظهور الجفاف في الألف الثاني قبل الميلاد أو قبل ذلك)[5] ويتحدث عن "تويجل" فيقول : (إن مستوى سطح الماء قد هبط في شبه جزيرة العرب زهاء (٢٧) قدمًا في خلال ألف عام، وإنه كان لهذا الهبوط أثر فعال في سطح الأرض وفي تاريخ العرب) ويقول : (إن من رأي العلماء أن جبال شبه الجزيرة كانت تغطيها الثلوج وأن الأمطار كانت تتساقط بغزارة على شبه الجزيرة وشمالي أفريقية).

واستعرض "عبدالواحد وافي" في كتابه "فقه اللغة" ما قيل عن خصب بلاد نجد والحجاز واليمن فنقل عن "كيتاني" اقتناعه بأن هذا القسم من البلاد العربية كان في

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ، لجواد علي ١/١٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ١/٩٨ .

(٣) المصدر نفسه ١/١٤٧ .

(٤) المصدر نفسه ١/٣٧٥ ، وراجع المصدر نفسه ٣/٣٧٠ .

(٥) تاريخ جواد ١/١٠٥ .

العصور السابقة للتاريخ كثيف السكان، خصب الأرض، موفور الخيرات تخترقه ثلاثة أنهار كبيرة على الأقل[١].

ويؤكد "ج. ل. مايزر"[٢] : أن البلاد العربية كانت غنية بمسارب المياه، ويعلل السبب في جفافها مع بقاء نهري "دجلة" و"الفرات" بقوله : (وثمة في بلاد العرب مسارب أخرى عظيمة لكنها الآن خالية من الماء، والسبب الذي من أجله ظل نهرا الفرات ودجلة يجريان بعد أن جف ماء الأنهار الأخرى : هو أن منابعهما استطاعت أن تستولي على المياه الغزيرة الناشئة من ذوبان ثلوج جبال "أرمينية"، ونهر "دجلة" أغزر من "الفرات" لأنه يتلقى فوق ذلك مياه أنهار عظيمة تنبع من المرتفعات الشديدة الانحدار الواقعة في الغرب من ضفته اليمنى والتي يتوجها الثلج).

١٤- فعلى هذا النحو أخذ المستشرقون يصدقون القصص القرآني، وعلى هذا النحو أخذ الذين كانوا يسخرون من الرواية العربية يتحدثون بمثل ما تحدث به المؤرخ العربي عن خصب الجزيرة العربية في قديم زمانها، فمما قاله المؤرخ العربي الرواية التي نقلها "الطبري" عن "ابن الكلبي" والتي تصف "اليمامة - جوّ" وخصبها في عهد "طسم" و"جديس"[٣]، والرواية التي نقلها "ابن خلدون" عن "المسعودي" والتي تحدثت عن خصب الحجاز وعن أرضه التي كانت أشجر بلاد الله وأكثرها ماء[٤].

وهكذا انقشعت غيوم الشكوك عن الصورة التي رسمها لنا القرآن وتحدث بها مفسروه، والتي يرجع تاريخها إلى العصور الغابرة، إلى ما قبل الجفاف الذي أخذ

---

(١) فقه اللغة، ص١٠ .

(٢) تاريخ العالم، مج١، ص٢٨١ .

(٣) تاريخ الطبري ٢٠٤/١، ٦٢٥ .

(٤) تاريخ ابن خلدون ٨٣/١ ، ٨١/٢ .

يمحو ألوانها إلى أن أصبحت على هذا الجدب الذي لا يكاد يفارقها إلا في الأعوام التي تجود السماء فيها بمائها، وما أندر ما تجود سماء قلب الجزيرة بمائها!!

على أن في البلاد العربية مناطق ما زالت محتفظة بخصبها وتعتبر تربتها من أجود الأراضي الزراعية، ولا إخالني مبالغًا إن قلت: إن من أرض البلاد العربية مناطق لا يقل خصبها عن أخصب مناطق الأرض جميعها.

١٥- لقد زرت: "الهند" و"برما" و"الأفغان"، وتنقلت في مقاطعات الهند: "بمباي" و"دلهي" و"البنجاب" و"البنغال" و"بشاور" و"كشمير" و"لكنو" و"بهوبال" وبلاد الدكان - "حيدر آباد دكن"، وزرت من بلاد "برما": "رانقون"، وزرت من بلاد "الأفغان": "كابل"، وشاهدت الإنتاج الزراعي الهائل الذي تنتجه الأرض الهندية بفضل الأنهار والأمطار الموسمية، وما يملكه الهنود من إمكانات ضخمة، وشاهدت الريف الإنجليزي، والفرنسي، والسويسري، والإيطالي، والأمريكي. فلم أجد في أرض الهند وبرما والأفغان وأوربا وأمريكا أرضًا تفضل "تهامة عسير" في خصبها وعطائها، ولم أسمع عن أرض من هذه الأراضي أن البذرة الواحدة التي تسقى بماء المطر تحصد أربع مرات في العام الواحد !! ولم أسمع عن أرض في "الهند" أو في "برما" أو في "الأفغان" أو في "أوربا" أو في "أمريكا" أن واحدة منها تحتفظ بماء المطر فتزرع بعد هطوله بما يزيد على ستين يومًا؛ ولكنني رأيت ذلك في أرض تهامة وسمعت عنه.

أقول: إنني رأيت هذا وأنا جد متأكد مما أقول؛ فلقد جبت "تهامة عسير" على رأس هيئة مالية، وقضيت أيامًا في حواضرها: في "صبيا" وفي "أبي عريش" وفي وادي "بيش" الذي نوه بخصبه "ياقوت" في معجمه. وحاسبت جباة زكاة الأذرة والدخن والسمسم على زكاة أربعة مواسم في السنة الواحدة، ولقد قيل لي وأنا في "بيش" و"الشقيق" وغيرهما من الأودية: إن الفلاحين الذين لا يستطيعون زراعة أرضهم

جميعها في موسم الأمطار يحرثونها جميعها ثم يزرعون ما يستطيعون زراعته، ويتركون الباقي إلى ما بعد حصاد الغلة الأولى[1]، فبعد الحصاد يقومون بزرع ما لم يزرع من الأرض، وقد تتجاوز المدة التي يستأنفون بعدها حرث القسم الثاني وبذره شهرين أو أكثر، أي أنهم يزرعون على مطر نزل قبل شهرين.

ولقد زرت منابع البترول في "الظهران" مرتين بدعوة من شركة "أرامكو" فأعجب ما لفت نظري في منطقة "القطيف" كثرة مائها، وكذلك "الأحساء" المكتظة بالنخيل، فما أجمل الماء والخضرة في أطراف رمال الصحراء القفر من كل شيء ما عدا البترول.

ولقد رأيت كيف دب النشاط الزراعي في سكان كثير من الأودية ذات المياه الجوفية في المملكة العربية السعودية، مثل القصيم، بعد أن وفرت لهم الدولة وسائل الزراعة الحديثة وأزالت متاعب المواصلات وربطت مناطق المملكة بالطرق المعبدة بالإسفلت التي تجاوزت حدود المملكة إلى الخليج العربي وشرقي الأردن.

وما زالت بلاد "اليمن" - على ما علمت - تحتفظ بكثير من ماضيها الزراعي، ومن أهم زراعتها : "البن" المعروف بجودته، والفواكه والخضار التي تزيد على حاجة السكان فتصدر إلى "جازان" وغيرها، وما زال سكان جبال "عمان" ينعمون في "الجبل الأخضر" بخصب الجبل وعطاء الأرض .

وكما أن "مصر" هبة النيل، كذلك "الفرات" و"دجلة" و"بردى" و"العاصي" وغيرها[2] من أنهار "سورية" العديدة هي هبة الله للعراق وسورية، فعلى الأنهار تعتمد الزراعة،

---

(١) إن للأذرة والدخن والسمسم أربع غلات في تهامة عسير، فبعد حصاد الغلة الأولى تنمو البذرة وتثمر فتحصد مرة أخرى، ثم ثالثة ورابعة.

(٢) راجع الأنهار في سورية في الفصل الخاص بسورية.

وعلى الزراعة يقوم اقتصاد سورية، وفي العراق الذي تدعمه في الوقت الحاضر موارد البترول.

ومن الطبيعي أن تتأثر الأجواء بخصب المناطق وتوافر المياه مثلما تتأثر بارتفاعها عن سطح البحر، فمدن أعالي السراة يتمتع سكانها بمناخ ممتع بنسماته العليلة في الوقت الذي يكابد فيه سكان تهامة وسفوح السراة والصحارى الرملية جوًا يكاد يشتعل ورمضاء تكاد تستعر.

١٦- أما ثروات الجزيرة العربية فإن لقطع الأرض المتجاورة مؤهلات طبيعية مثلما للإنسان مميزات فطرية، وكما أن تفاوت عقلية الإنسان وأهليته نشأت عنه الفوارق التي جعلت أبناء المجتمع الواحد بعضهم فوق بعض درجات، كذلك اختلاف طبيعة الأرض وعطائها جعل بعضها أفضل من بعض، ولقد توافرت في شبه الجزيرة العربية أهم المؤهلات التي تعتز بها المناطق الغنية في قارات العالمين : القديم والجديد، فإذا كانت ثروة البلاد ترتفع نسبتها بموقعها الجغرافي، فإن موقع شبه الجزيرة الجغرافي جد ممتاز، وإذا كانت ثروة البلاد تقدر بما تكنزه أرضها من معادن ثمينة، فإن البلاد العربية تحتضن أغلى المعادن التي عرفها الإنسان في جميع عهوده، وإذا كانت البلاد تفخر بما يجعلها بلدًا سياحيًا فإن شبه الجزيرة غني بمقدساته التي يحج لها المتعبدون، وغني بآثاره وتاريخه الحضاري الذي يجتذب السياح.

وإن توسط الجزيرة العربية بين أوربا وأفريقية وبقية قارة آسيا رفع مستواها التجاري في الماضي، وجعل لطرقها شأنًا كبيرًا في اقتصاديات العالم القديم، فظلت طرقها البرية دهرًا طويلاً حلقة الوصل بين الشرق والغرب، ثم أخذت طرقها المائية تسلب طرق الصحراء قيمتها، وأخذت أساطيل الفراعنة التجارية التي شقت طريقها إلى البحر المتوسط عبر النيل عن طريق "قناة أمنيس ترایاني" تفقد القوافل البرية

أهميتها، فأصبحت سفن الصحراء (قوافل الجمال) في المرتبة الثانية بالنسبة للجواري المنشآت في بحار الجزيرة العربية كالأعلام. وطرق البحار العربية في ماضي الزمن وحاضره لها شأنها في الاقتصاد العالمي.

على أن نشاط قريش التجاري لم يتأثر بهذا التحول، فلم تزل لرحلات قريش: رحلة الشتاء ورحلة الصيف، قيمتها في اقتصاد البلاد العربية، ولا تزال طرق السيارات في الجزيرة العربية ذات قيمة في تبادل التجارة، وها نحن أولاء نرى خط التبلاين واسطة جديدة في حركة النقل التجاري.

١٧- ولقد كان العرب في قلب الجزيرة العربية في طليعة الشعوب التي استفادت من خصب أرضها، ومن ثروة معادنها، فالعرب من أقدم الشعوب التي استنبتت القمح والشعير، وقامت بتربية الدواجن[1]، والعرب صدروا النحاس والأخشاب إلى دولة "السومريين" في الألف الثالث قبل الميلاد، وصدروا الذهب إلى شعوب البحر المتوسط وإلى "مصر"؛ وعن طريق البلاد العربية وصل الحديد إلى دول الفراعنة في وادي النيل.

فكثير من روايات مؤرخي العرب عن ثروة شعوب قلب الجزيرة العربية وجنوبيها التي كانت تعتبر في نظر المستشرقين ضربًا من الخيال الجامح، أيدتها الاكتشافات الحديثة. فما قاله "الهمداني" عن ذهب اليمامة وثروات اليمن، وما جمعه "ابن خلدون" من أقوال المؤرخين عن ثروات "الحجاز" و"نجد" و"تهامة" أصبح حقيقة مسلمًا بها يؤكدها المستشرقون الذين بحثوا في تاريخ العهود القديمة للبلاد العربية على ضوء الآثار المكتشفة في الزمن الأخير.

(١) راجع الجزء الأول من كتاب (العرب في أحقاب التاريخ) الذي صدر بعنوان (التاريخ العربي وبدايته) ١-٥٦ وما بعدها.

ولقد جمع "جواد علي" أقوال وتعليقات الكثيرين من بحاثة الغرب عن "مجان" و"ملوخا" و"أوفير" و"عُمان" المناطق التي كانت تصدر : الخشب والذهب والنحاس، وأقوال هؤلاء تكاد تتفق على أن هذه المناطق هي أجزاء من البلاد العربية، ما خلا بعض الآراء التي تعتبر "أوفير" منطقة خارجة عن البلاد العربية، قد تكون في شبه جزيرة الهند، ولكن الأكثرية تؤكد أن "أوفير" في الجزيرة العربية، ويحدد موقعها البعض : بين "القنفذة" و"عِثود"[1]، ولئن أعادت "قناة السويس" لشبه الجزيرة العربية أهمية طرقها البحرية التجارية - بعد أن انتزعها "رأس الرجاء الصالح" الذي أصبح بعد اكتشافه طريق الهند الوحيد لعابرات المحيط إلى أن شقت قناة السويس - لقد أعاد "البترول" الذي اكتشف في الجزيرة نشاط سكانها وغناهم وعرج بهم إلى مصاف الأمم المرموقة، ولئن كشف المنقبون عن البترول آثارًا ذات قيمة تاريخية وجغرافية، إن ما اكتشف من التراث القديم هو قليل من كثير سوف يظهره التنقيب بما يجد من وسائل ولما يجد من أسباب : شيئًا بعد شيء في مستقبل الأيام، ولسوف يخدم اكتشاف ذلك التراث الثقافة التاريخية، ويغير الكثير من الآراء والنظريات، وقد يصل التنقيب عن المعادن إلى ثروات لا تقل عما وصل إليه البحث في الماضي والحاضر، فكما كان العالم على زمن قريب لا يصدق أن هذه الصحراء الخلاء من كل أسباب الحضارة كانت في الماضي مناطق عامرة بالحضارة مكتظة بالسكان، كذلك كان لا يصدق بأن هذه الصحراء الرهيبة بصمتها المطبق سوف تنبض بحضارة وعمران، فتخرج من سكونها وظلامها إلى الحركة والنور، فما هي عليه اليوم لم يكن في حسبان الإنسان قبل اكتشاف البترول.

فسبحان الذي يغير ولا يتغير !!

(١) جواد ١/١١٠ ، و"عتود" اسم موضع بالحجاز.

الفصل الثاني

أقسام الجزيرة العربية

فصل مؤلف من بحث واحد، هو :

وجهات النظر في أقسام الجزيرة وفي تاريخها

١- الهلال الخصيب، ومصر العمليقية : قسمان من جزيرة العرب.

٢- نقاط اتفق عليها العرب واليونانيون .

٣- التاريخ العربي ينقسم إلى قسمين : جاهلي وإسلامي، وكذلك جغرافيته.

٤- أقسام الجزيرة العربية سبعة لا خمسة.

٥- إن مؤلفات أعلام الماضي وتحقيقات أساتذة الحاضر لم تنر الطريق كله.

٦- "موسل" واحد من القليلين الذين لاحظوا الخلط بين الحدود الطبيعية والسياسية.

٧- بعض آراء "موسل" تحتاج إلى ما يؤكدها .

١- لقد وضح لنا فيما تقدم أن حدود جزيرة العرب تضم مع الأقسام الخمسة التي تحدث عنها الجغرافيون العرب : "الهلال الخصيب" : العراق وسورية الكبرى، و"مصر العمليقية"، وهذه الأقسام الخمسة : "الحجاز" و"نجد" و"اليمن" و"العروض" و"تهامة" ليست إلا أجزاء من جزيرة العرب يتممها الهلال الخصيب، ومصر العمليقية، القسمان اللذان وضعهما جغرافيو العرب داخل إطار حدود الجزيرة العربية الطبيعية. على أن "الإصطخري" لم يفته أن يعتبر بادية العراق والشام من ديار العرب، مثل الحجاز، ونجد، واليمن، وتهامة، والبحرين إلى عمان(١).

وواضح أيضًا أن الأقسام الثلاثة التي ذكرها الجغرافيون اليونانيون : "العربية السعيدة" و"العربية الصخرية" و"العربية الصحراوية" هي كذلك أجزاء من جزيرة العرب لا تشمل جميع بلاد العرب من "الفرات" إلى "النيل"، وإن كان التقسيم اليوناني يمتد إلى أبعد مما تصل إليه الأقسام الخمسة التي عنى بها الجغرافيون العرب، فالعربية الصحراوية هي بادية الشام والعراق. والعربية الصخرية هي شبه جزيرة سيناء والمملكة النبطية. أما العربية السعيدة فهي تشمل كل ما كان جنوبي القسمين السابقين الصحراوي والصخري.

وواضح كذلك أن العرب واليونانيين جميعهم يؤكدون أن "الهلال الخصيب" و"مصر العمليقية" وطن قومي للعرب الذين عمروا ما بين "الفرات" إلى "النيل" من أقدم العصور، وأن أرضيهما أرض عربية تضمها حدود الجزيرة العربية الطبيعية التي تقدم بيانها، ومن الثابت الذي سنوضحه أن "سواد العراق" كان مملكة اللخميين العرب. وأن هذه المملكة اللخمية ورثت الدول العربية التي سبقتها في بلاد ما بين النهرين من عهد "سرجون" و"حمورابي" : العاهلين الساميين العربيين إلى عصر "جذيمة الأبرش"(٢)،

(١) المسالك والممالك، ص٢٠ ، ٢١ .

(٢) العرب قبل الإسلام، جرجي زيدان ، ص١٩٥ .

وأن "مملكة الغساسنة العربية" التي قامت في الشام هي الوريث الشرعي لدول "الكنعانيين" و"العماليق" و"اليبوسيين" و"التدمريين" و"الأنباط"، وغيرها من الدول والإمارات التي قامت في سورية منذ هاجر الكنعانيون من الخليج العربي إلى سورية، إلى عصر "جفنة بن عمرو مزيقياء"، وأن "جابية الجولان" كانت تعرف بجابية ملوك غسان، فلقد جاء في شعر "النابغة"[١] :

بكى حارث الجولان[٢] من فقد ربه وحوران منه خائف متضائل[٣]

وأن "بصرى" التي لمعت في منطقة "حوران" كانت عاصمة الغساسنة[٤]، وأن "العماليق" استوطنوا "دلتا النيل"، واستوطنوا ضفته الشرقية، وأسسوا مجتمعات ودولاً عربية في مصر من "البحر المتوسط" شمالاً إلى جنوبي "بلبيس".

٢- إن هؤلاء العرب وأولئك اليونانيين جميعهم لا ينكرون عروبة "الهلال الخصيب" و"مصر العمليقية" : أرضًا وشعوبًا، فالعربي مؤرخًا وجغرافيًا، يؤكد امتداد حدود الجزيرة العربية الطبيعية إلى وادي الفرات شمالاً وإلى وادي النيل غربًا، واليوناني - مؤرخًا وجغرافيًا - يؤكد أن البابليين والعماليق شعوب سامية هاجرت إلى سورية والعراق من جزيرة العرب، ويؤكد أن بادية الشام والعراق، وشبه جزيرة سيناء، أرض عربية، وقد أدخل الجيولوجيون بادية الهلال الخصيب في أقسام الجزيرة العربية الطبيعية.

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي، ١٥٤/٤؛ كتاب سني الملوك، لحمزة الأصفهاني، ص٩٨، وما بعدها، طبع مكتبة الحياة ببيروت.

(٢) الجولان : جبل وأرض شرقي نهر الأردن، كانت مركزًا لدولة الغسانيين، وكان سكانهما عشية ظهور الإسلام من "بني مرة القيسيين"، حارث الجولان قمة فيه.

(٣) معجم ياقوت ١٧٦/٣ .

(٤) العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان، ص٢٠٧، وتعرف بصرى اليوم باسكى شام، وكان فيها دير الراهب "بحيرا".

ومتفقون أيضًا على أن حدود الأقسام الخمسة هي التي تفصل بين الأقسام التي أنشب فيها الاستعمار مخالبه، وبين الأقسام التي ما زالت طليقة حرة، ولذلك أشار "الأصمعي" بقوله: (جزيرة العرب ما لم يبلغه ملك فارس)[1]. ولذلك وقف "هنري لامانس" بحدود "العربية السعيدة" عند واحة "العلا"؛ لأن العربية السعيدة هي التي سلمت من الاستعمار الروماني، ولم يطبق عليها النفوذ الفارسي.

٣- أما المؤرخون في القرن العشرين، فمتفقون على تقسيم التاريخ العربي وجغرافيته إلى قسمين: القسم الجاهلي، والقسم الإسلامي؛ فالقسم الجاهلي أو كما يعنونونه: "العرب قبل الإسلام" يختصرونه على جزيرة العرب سياسيًّا وجغرافيًّا، أما القسم الإسلامي أو كما يعنونونه: "العرب بعد الإسلام"، فلقد امتد اليوم إلى أن شمل كل قطر من أقطار الجامعة العربية، فاصبح كل واحد منها جزءاً من الأرض العربية ومن التاريخ العربي، فللتاريخ الجاهلي جغرافيته السياسية الخاصة به، وللتاريخ الإسلامي جغرافيته السياسية الخاصة به.

٤- فما دام بحثنا في هذا القسم من كتاب "العرب في أحقاب التاريخ" لا يصل إلى العصور الإسلامية، فإننا نكتفي بما يخص جزيرة العرب داخل حدودها: أنهارًا وبحارًا، وبما يتعلق بأقسامها الموضوعة داخل تلك الحدود: الحجاز، ونجد، والعروض، وتهامة، واليمن، والهلال الخصيب، ومصر العمليقية، فأقسام الجزيرة العربية كما يؤكدها العديد من النصوص سبعة لا خمسة.

أما بقية أقسام البلاد العربية الإسلامية بحدودها الواسعة فهذه سأتركها للقسم الثاني من هذا الكتاب وهو: عصور ما بعد الإسلام.

---

(١) معجم ما استعجم ٦/١.

والبحث في جغرافية الجزيرة العربية وأقسامها قبل الإسلام له متاعبه، ومن أصعب المتاعب تعيين حدود أقسام الجزيرة العربية، فلقد كان على جغرافيي العرب القدامى الذين قسموا الجزيرة أقسامًا طبيعية ألا يخلطوا بين الحدود السياسية والتحديد الطبيعي، مثل كلامهم عن إقليمي الحجاز واليمن اللذين تتألف وحدة كل منهما السياسية من جبال "الحجاز - السراة" ومن "تهامة"، في حين أن الحجاز في بحوثهم الجغرافية يقصد به جبال السراة من قعرة "اليمن" إلى أطرار "الشام" التي تحدها من الغرب "تهامة".

فلقد كان عليهم، وقد قسموا الجزيرة العربية على حسب طبيعتها: جبالاً وسهولاً ونجدًا وغورًا، أن يتذكروا ما قالوه عن "تهامة" إذا ما تكلموا عن الحجاز، وأن يتذكروا ما قالوه عن "العروض" إذا ما تكلموا عن "نجد".

٥- أنا لا أنكر المتاعب التي لاقاها أولئك الأعلام، والخدمة الجليلة التي قدموها لنا، ولكنني أقول: إن الجهد الكبير الذي بذله المتقدمون في سبيل تقسيم الجزيرة العربية تقسيمًا طبيعيًّا: نجدًا وغورًا وجبالاً ورمالاً وأودية وهضابًا ويمنًا وشامًا = لا يزال في حاجة إلى مجهود كبير علينا أن نبذله لمعرفة ما يقصده أولئك الأعلام، إذا نحن أردنا أن نعرف جغرافية الجزيرة العربية على حسب صفتها.

وأنا لا أنكر فوائد تحقيق المتأخرين من أساتذة التاريخ والجغرافية، وإنما أقول: إن الطريق لا يزال طويلاً ووعرًا.

٦- ولعل "موسل" هو واحد من القليلين الذين لاحظوا خلط القدامى - عربًا وغير عرب - الحدود الطبيعية الإقليمية والإدارية، ودمجهم الصفات الطبيعية في التقسيمات السياسية، ففي كتابه "شمال الحجاز" يرفض "موسل" قول "هنري لامانس" الذي جعل حد "الحجاز" الشمالي يبتدئ من جنوبي "واحة العلا" بناء على الوضع

السياسي إبان عصر الإمبراطورية الرومانية، وقال عنه: (إن "لامانس" لم يميز الحدود السياسية من الحدود الجغرافية"، وإنه لم يشرح النصوص العربية بأمانة).

وقال "موسل" عن اختلاف أقوال العرب الذين اعتمدوا في تحديدهم على الأوضاع السياسية: (وقد تغيرت الحدود السياسية للحجاز بتغير التقسيم السياسي والترتيبات الإدارية التي تتبدل مع تبدل الدول، ولكن الحدود الجغرافية لا يمكن أن ينالها التغيير، ومن أمثلة ذلك ما يذكره "المقدسي" في كتابه "أحسن التقاسيم"؛ إذ يشير إلى أن "مدين" تقع في "شراة الشام"، ولكنه في عبارة أخرى يقول: إن "مدين" تقع في "الحجاز"، وإدخال عدد من بلدان "الحجاز" ضمن حدود "سورية" أمر ليس له أهمية كبيرة فيما يتعلق بحدود الحجاز الحقيقية، وذلك مثل إدخال بعض بلدان الحجاز ضمن حدود "مصر" أيضًا كما حدث لياقوت، إذ يدخل "العونيد" ضمن أعمال "مصر"، ويذكر "إبراهيم الحربي" أن "تبوك" وجزءاً من "فلسطين" داخلة في أعمال الحجاز[1] وهذا الرأي ينفرد به "إبراهيم"، وربما كان هذا راجعًا إلى العهود السياسية التي كان فيها الجزء الشمالي من الحجاز يضاف إلى أعمال القسم الجنوبي من فلسطين، فرغبة منه في ألا يجعل أرض الحجاز المقدسة تابعة لأعمال فلسطين، وخاضعة لها، أدخل ضمن حدود الحجاز الجزء الجنوبي من فلسطين حتى مدينة "صغر" الواقعة في أقصى الحدود الجنوبية للبحر الميت).

ولما كان "موسل" حريصًا على مقابلة أقوال المؤلفين العرب بأقوال غيرهم، انصرف إلى التوفيق بين التحديد اليوناني والتحديد العربي فقال: (ومؤلفو اليونان والرومان قد مضوا كذلك على اعتبار هذه الحدود القديمة التي وضعها أهل البلاد:

---

(١) نص ما قاله الحربي في معجم ياقوت: إن تبوك وفلسطين من الحجاز. المعجم ٢١٨/٣، واسم العونيد ضبطه بعض المحققين (ع و ن ي د).

الأصل الذي اعتمدوا عليه، ثم أطلقوا أسماء جديدة على الأقاليم المتفرقة، وإن الحدود الجنوبية لسورية تطابق الحدود الجنوبية لبلاد العرب الحجرية التي عرفت فيما بعد بفلسطين الآمنة).

٧- ولعل كثرة الروايات وتعدد الأصول التي اعتمد عليها الذين تحدثوا عن حدود الحجاز: هو الذي جعل "موسل" يعلق على تحديد "الإصطخري" الذي يجعل "جبلي طيئ" ضمن حدود الحجاز، ويعلل ذلك بقوله: لأن هذين الجبلين من الناحية السياسية يتبعان "مكة"، ولأن "أمير الحج" الذي كان يخرج لضبط الطريق، كان يتخذ مقره في "فيد" وهي تقع على السفح الشمالي الشرقي لجبل "سلمى" ويقول: (إن "ياقوت" الذي مد "الحجاز" من المدينة إلى "واحة فيد" وجبلي "أجأ وسلمى" ينقل هذا عن "الإصطخري"، فهو إنما يعني رقعة الحجاز السياسية، أما من الناحية الجغرافية، فإن حدود الحجاز الشرقية تتكون من الحافة الشرقية الوعرة لسلسلة الجبال التي تمتد قريبًا من "تيماء" متجهة صوب الجنوب).

وما يقوله "موسل" عن حدود الحجاز الشرقية محل نظر؛ فليس "الإصطخري" ولا "ياقوت" وحدهما هما اللذين مدا حدود الحجاز إلى جبلي "أجأ وسلمى". إن هناك شبه إجماع على أن حدود "الحجاز" تصل إلى جنوب غربي "جبلي طيىء" حيث توجد هناك "حرة الهتيمة"، فما احتجزت به الحرار ذلك الشق كله: حجاز، ويقول "الأصمعي" عن "الباهلي": (كل ما وراء خندق "كسرى" فهو "نجد" إلى أن تميل إلى الحرة، فإذا ملت إليها فأنت بالحجاز)[1]، وعن "هشام الكلبي": حدود الحجاز ما بين "جبلي طيئ" إلى طريق "العراق"، فَنَجْدُ في رأي بعض الجغرافيين الذين نقل عنهم "ياقوت": (نجد إذا جاوزت "عذيبًا" إلى أن تجاوز "فيد")، ولسوف نبحث حدود نجد الغربية وحدود الحجاز الشرقية في بحثي نجد والحجاز الآتيين.

---

(١) معجم ياقوت، مادة (نجد) ٢٥٣/٨؛ معجم البكري ١١/١.

ثم إن "ياقوت" قد نقل عن "هشام الكلبي" مقالة في كتاب "افتراق العرب"، أما ما نقله عن "الإصطخري"[1]، فإنني لم أعثر عليه في معجمه[2]، وفي صفة جزيرة العرب رواية ابن الكلبي التي تقول : (وصار ما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحدر إلى ناحية "فيد" وجبلي طيئ إلى المدينة إلى أرض "مذحج" إلى ناحية فيد : حجازًا).

فليس في كلام "ياقوت" على ما يبدو ما يوحي بأنه يعني الحدود السياسية، فكلامه منصرف إلى المعالم الطبيعية، فالأقوال التي جمعها جعلت الحرار من معالم الحجاز الطبيعية، وأما الآخرون فأوضح الحدود التي حددوا بها نجدًا هي : "الرمة"، فما ارتفع من "الرمة" فهو نجد في رأي هؤلاء، والرمة في خريطة "جزيرة العرب" - وضع "أرامكو" - يمتد إلى جنوب غربي فيد ولا يبعد عنها كثيرًا.

فالبحث في جغرافية الجزيرة العربية وأقسامها ليس بسهل كما يظن البعض، فعلى كثرة البحوث التي وضعت، وعلى ما اعتمدت عليه تلك البحوث من أقوال توخت الصحة والإيضاح، وعلى كثرة التعليق والتحقيق في تلك الأقوال لا تزال هناك جوانب غامضة ولا تزال الشكوك تخيم عليها.

وإذًا ؛ فعلينا أن نرجع إلى ما بين أيدينا من مصادر عربية وغير عربية بيقظة وحذر وتحرٍّ، إذا ما أردنا استخراج النتائج من مختلف الأقوال بقدر المستطاع، فلكل قسم من أقسام الجزيرة السبعة معالم جغرافية، وتاريخ سياسي، فلسلامة البحث علينا أن ننبه القارئ إلى الفارق بين المعالم الجغرافية، والحدود السياسية.

---

(١) شمال الحجاز، ص٢٤ ، ٢٩ ؛ معجم ياقوت، مادة (الحجاز).

(٢) صفة جزيرة العرب، ص٤٨ .

الفصل الثالث

"الحجاز – السراة"

القسم الأول من أقسام الجزيرة العربية

البحث الأول : "الحجاز – السراة" اسمه وحدوده .

البحث الثاني : "الحجاز – السراة" جغرافيته الطبيعية والسياسية.

البحث الثالث : ثروات "الحجاز – السراة" وطبيعة الأرض .

البحث الأول :

"الحجاز – السراة" اسمه وحدوده :

١- اسم "الحجاز – السراة" وأبعاد هذا القسم .

٢- البحث هنا يخص حدود "الحجاز – السراة" أحد أقسام الجزيرة العربية .

٣- إن الحدود التي وردت في أقوال جغرافيي العرب القدامى – تعني القطر الحجازي، لا "السراة – الحجاز".

٤- فلاة مأرب – في كلام بطليموس – حد طبيعي بين قطري الحجاز واليمن لم يلتفت إليه أحد .

٥- حدود – "الحجاز – السراة" في أقوال القدامى .

٦- المتأخرون مروا سراعًا على حدود الحجاز وأكثر ما عنوا به الحدود السياسية .

٧- بعض المستشرقين تعمق عندما بحث في حدود "الحجاز – السراة"، والحجاز – القطر.

٨- شكوك دائرة المعارف الإسلامية يزيلها "موسل" في كتابه "شمال الحجاز" .

٩- حدود الحجاز في كتاب "شمال الحجاز" يؤكدها جرجي زيدان .

١٠- حدود "الحجاز – السراة" التي ظهرت للبحث .

١١- حدود "الحجاز – القطر" .

١٢- ليس الحجاز قمم جبال مخروطة الشكل يعيش في كهوفها الحجازيون .

١ - الحجز : الفصل بين الشيئين، وحجازيك كحنانيك، أي احجز بينهم حجزًا بعد حجز، وسمي الحجاز حجازًا لأنه حجز بين "تهامة" و"نجد"، ومنه حديث "حريث ابن حسان" : (يا رسول الله! إن رأيت أن تجعل الدهناء حجازًا بيننا وبين بني تميم)، أي حدًا فاصلاً، ونقل "ياقوت"[١] عن كتاب "افتراق العرب" قول "ابن الكلبي" : (إن جبل السراة وهو أعظم جبال العرب وأذكرها أقبل من قعرة "[٢] اليمن" حتى بلغ أطراف "الشام"، فسمته العرب حجازًا؛ لأنه حجز بين "الغور"[٣] و"نجد"، فما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحاز إلى ناحية "فيد"[٤] و"الجبلين"[٥] إلى "المدينة" ومن بلاد "مذحج - تثليث"[٦] وما دونها إلى ناحية "فيد" فهو حجاز، والعرب تسميه[٧] : نجدًا وجلسًا وحجازًا)، والجلس في معاجم اللغة : ما ارتفع من الأرض، ويقول "أبو الفداء" : (وأما الحجاز فهو جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام وفيه "المدينة" و"عمّان"[٨].

---

(١) "معجم ياقوت"، مادة (حجاز).

(٢) قعرة كل شيء : أقصاه، والقعرة : الشيء الذي يغطي قعر الإناء، اللسان، مادة : (قعر)، وقعرة : قرية من قرى اليمن من ناحية "ذمار" معجم ياقوت، وإخال المقصود هنا من "قعرة اليمن" أقصاه.

(٣) الغور : الساحل المنخفض، وتهامة : سفوح السراة، وقد يطلق لفظ تهامة على الغور والساحل.

(٤) فيد : بليدة إسلامية في نصف طريق "مكة" و"الكوفة"، وبين فيد "وادي القرى" ست ليال. معجم ياقوت، فصل (الفاء). وذكر "حافظ وهبة" في كتابه "جزيرة العرب" : و"فيد" بالكسر، وقال عنها : إنها تبعد (٤٥) ميلاً من شرقي وجنوب شرقي "حائل" على منحدر جبل "سلمى" الجنوبي الشرقي.

(٥) إذا أطلق لفظ (الجبلين) فالمقصود به : جبلا طيئ : أجأ وسلمى.

(٦) تثليث : موضع بالحجاز قرب "مكة". معجم ياقوت، فصل (التاء)، وواد يجري من الشرق إلى الغرب، وبلدة. خريطة المملكة لأرامكو.

(٧) الضمير راجع إلى "جبل السراة" وراجع جلس في صفة جزيرة العرب، ص٤٨.

(٨) تقويم البلدان، لأبي الفداء، طبع باريس، ص٧٨.

فسلسلة السراة كلها حجاز في قول "هشام الكلبي" وفي قول "سعيد بن المسيب" : (السراة أعظم جبال العرب وأذكرها ، أقبل من ثغرة "اليمن" حتى بلغ أطراف "الشام" فسمته العرب حجازًا لأنه حجز بين الغور وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر[1].

وفي صفة جزيرة العرب : (جبال السراة من "عدن" إلى "الشام" قالوا : والسروات ثلاث : سراة بين "تهامة" و"نجد" ، أدناها "الطائف" ، وأقصاها قرب "صنعاء" ، والطائف من سراة "بني ثقيف" ، و"معدن البرم" هو السراة الثانية في "بلاد عدوان" ، والسراة الثالثة أرض عالية وجبال مشرفة على البحر من المغرب ، وعلى "نجد" من المشرق ، وسراة "بني شبابة" ، وبأسفل السروات أودية تصب إلى البحر ، منها "الليث" و"قنونا" و"الحسبة" و"ضنكان" و"عشم" و"بيش" و"مركوب" و"نعمان" وهو أقرب بها إلى "مكة" وأفصح الناس أهل السروات أولها لـ "هذيل" وهي تلي السهل من "تهامة" ، ثم "بجيلة" وهي السراة الوسطى ، وقد شركتهم "ثقيف" في ناحية منها ثم سراة "أزد شنوءة" ، وهم "بنو كعب" : الأزد ، من "عسير"[2] ، بيد أن هذه السروات الثلاث لا تشمل الجبال الممتدة من "عدن" إلى أطراف الشام.

ولقد جمع "ياقوت" في مادة "حجز" وفي مادة "سراة" أقوالاً كثيرة لأكثر العلماء شهرة ، والأقوال التي جمعها تكاد تجمع على أن "الحجاز" هو اسم أطلقه العرب على السروات التي تحجز بين "الغور" وهو هابط ، وبين نجد" وهو ظاهر ، من أقصى "اليمن" إلى "فلسطين" حيث تبدأ "الشراة" الكائنة في أطراف "الشام"[3] .

ويقول "محمد بن بليهد" : (السراة المعروفة في هذا العصر عند أهل "نجد" و"الحجاز" حدها الشمالي : جبال "الطائف" ، وحدها جنوبًا : جبال قريبة من "عدن" ؛

---

(١) معجم ياقوت ٥/٦٠ .

(٢) صفة جزيرة العرب .

(٣) هناك شراة دون (عسفان) وهو جبل شامخ ولكن المقصود الشراة : الجبال التي في أطراف الشام.

وجبال "نجران" تعد منها)، ومدينة "نجران" : حجازية كما يقول البكري(١)، ويقول ابن بليهد : (وما كان من "الطائف" إلى "الشام" فهي معروفة بجبال الحجاز، وينقطع ذكر السراة، وما كان من الطائف جنوبًا إذا توغلت في تلك النواحي يقتوي ذكر للسراة وأما "أزد" السراة فهم "عسير" الموجودون اليوم في مقاطعة أبها، "وأزد شنوءة" هم : "غامد" و"بارق" و"دوس"(٢)، ويستشف من قول "ابن بليهد" التقسيم السياسي الذي قسم "الحجاز - السراة" إلى أقسام ثلاثة : القسم الحجازي من جنوبي "الطائف" إلى "جبل الشراة"، و"بلاد عسير" وهي القسم الثاني، أما القسم الثالث فهو اليمني، فعلى هذا إن ما جاء في المصادر العربية عن الحجاز إما أن يعني سلسلة الجبال التي تحجز بين المرتفع من الأرض - نجد - ، ونجد أحد أقسام الجزيرة العربية، وهي الأرض التي تقع شرقي هذه السلسلة؛ وبين تهامة وهي "الغور" والمرتفعات التي تليه من ناحية البحر غربي سلسلة الجبال، وسلسلة الجبال هذه سميت السراة باسم أعلى جبالها، وأسمى العرب هذه السراة حجازًا؛ لأنها تحجز بين نجد وتهامة، وأسموها نجدًا وجلسًا لأنها ترتفع عن أرض الساحل : تهامة، فالحجاز هذا هو كما يقول "أبو الفداء" : (ما كان بين "تهامة" و"نجد" فهو : حجاز)(٣).

وإما أن يعني إقليم الحجاز الذي اقتصر عليه اسم الحجاز كما اقتصر اسم تهامة على تهامة اليمن، فيكون المقصود من الحجاز هو القطر الحجازي، وحدود "القطر الحجازي" تختلف باختلاف التقسيمات السياسية، فلكل زمان تقسيماته السياسية، وعلى أساس التقسيمات السياسية قال "أبو الفداء" : ("الحجاز" الذي يشتمل على

---

(١) معجم البكري ١٢٩٨/٤.

(٢) صحيح الأخبار ٩٩/٤.

(٣) تقويم البلدان، لأبي الفداء، طبع باريس، ص٧٩.

"مكة" و"المدينة" و"اليمامة")[1]، وكذلك "الإصطخري" اعتبر اليمامة من الحجاز، ولكن "أبا الفداء" رجع فقال: (وقيل اليمامة من الحجاز وقيل من العروض، وهو الأصح).

٢- ولقد بينا في مقدمة الفصل: أن هذا التقسيم الجغرافي القديم لا يقصد به الوحدة القطرية أو السياسية؛ لذلك علينا أن نعين حدود "الحجاز" الطبيعية بصفته قسمًا من أقسام الجزيرة العربية المتقدم ذكرها، وحدود هذا القسم "الحجاز - السراة" على حسب خطوطها العريضة تبدأ من "عدن" جنوبًا وتنتهي في أطراف "الشام" شمالاً، ولقد تقدم أن الأرض المنخفضة المترامية غربًا على ساحل البحر الأحمر أغوارًا ومرتفعات هي "تهامة"، وأن الأرض المرتفعة شرقًا هضابًا وجبالاً هي "نجد"، وأن سلسلة الجبال الفاصلة بينهما هي "الحجاز - السراة"، وأقاليم هذا الحجاز الفاصل بين نجد وتهامة هي من الجنوب إلى الشمال "حجاز اليمن"، وهو القسم الجنوبي من السراة؛ و"حجاز عسير" وهو أواسط السراة، و"القطر الحجازي" وهو شمال السراة، أو حجاز الحرمين، كما يجب أن يسمى، ولكل إقليم من أقاليم السراة حدود تكلمنا ونتكلم عنها في المكان المناسب لها، أما هنا فإننا نلفت النظر إلى ما يلاحظ على أقوال المؤرخين والجغرافيين، فمنهم من خلط حدود الأقاليم الخاصة بحدود السراة العامة، ومنهم من خلط الحدود السياسية بالحدود الطبيعية، وقليل ما هم الذين فصلوا ووضحوا.

فنحن إذا سرنا مع حدود "الحجاز - السراة" التي نص عليها القدامى يجب أن ندخل أقاليمه الثلاثة في نطاق حدوده العامة؛ فندخل "القطر الحجازي" بكامله ما خلا تهامته، ونذكر "بلاد عسير" و"شمال اليمن" سراة اليمن، فاليمن كما قال القدامى من الجغرافيين العرب: هو الأرض الممتدة من "عُمان" إلى "نجران"، ثم يلتوي حدها إلى

---

(١) المصدر السابق، ص٨٠، ٩٦؛ المسالك، ص٢٣.

"عدن"، ولقد عرف "كلاسر" اليمن فقال: (اليمن: كلمة عامة تشمل: الأرضين التي في القسم الجنوبي من "جزيرة العرب" من "باب المندب" إلى "حضرموت")[١]، فما قاله "كلاسر" قريب مما قاله "الأصمعي": ("اليمن" ما بين "عمان" إلى "نجران" ثم يلتوي على "بحر العرب" إلى "عدن")، وسنتكلم عن "اليمن" وحدوده بالتفصيل في البحث الخاص به، وعلى ذلك؛ فإن عسيرًا سراة قائمة بذاتها.

٣- والحدود التي جاءت في مؤلفات أساتذة الماضي - مثل: "أبي الفداء" و"الإصطخري" و"الهمداني" و"البكري" و"الحموي" وغيرهم الذين جمعوا ما وصل إليهم عن أقاليم الحجاز، وما وصل إليهم عن جبال السراة من أقوال الكندي ومن تقدمه ومن جاء بعده. تعتمد على الرواية المتواترة، والرواية المتواترة إما أن تكون مبنية على قصيدة تذكر المنازل والمياه، وإما على رحلات المعنيين بجغرافية الجزيرة ومنازل شعوبها، وأنسابهم، وأيامهم، وأكثر هؤلاء عندما يتحدثون عن الحجاز وحدوده لا يقصدون حدود جبال السراة، ذلك القسم الذي أسماه العرب: حجازًا، وإنما يقصدون حدود "القطر الحجازي" الذي هو قسم من "جبال السراة"، فالحد الجنوبي للحجاز في كتاب "جزيرة العرب" للأصمعي: (من تخوم "صنعاء" إلى "العبلاء" و"تبالة")[٢]، والحد الجنوبي الذي ذكره "الأصمعي" أشار إليه "الهمداني" بقوله: (من "تثليث" إلى ناحية "فيد" - حجازًا)[٣]، لأن "تثليث" و"رنية" و"بيشة" و"يبمبم" و"عقيق تمرة" تقع جميعها في حد "تبالة"، وجميعها لـ "عقيل"، مياهها أحساء يصفها "عرام بن الأصبغ السلمي" بأنها (بثور تجري تحت الحصى على مقدار ذراع ودون الذراع، وربما أثارتها الدواب)[٤] وجاء في صفة جزيرة العرب: (وصار ما خلف "تثليث" وما قاربها إلى "صنعاء" وما والاها إلى

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي ١٣٦/٣، ١٣٧، ١٣٤/١ وما بعدها.

(٢) معجم ياقوت، فصل (الحاء) ٢١٨/٣.

(٣) صفة جزيرة العرب، ص٤٨.

(٤) أسماء جبال تهامة وسكانها، لعرام، ص٤٩.

"حضرموت" و"الشحر" و"عمان" وما يليها : اليمن، وفيها التهائم والنجد، واليمن تجمع ذلك كله)[1]، أي تجمع اليمن وجنوب السراة وجنوب تهامة، فهذا التحديد الذي سنبحث فيه يؤكد أن المقصود منه هو القطر الحجازي، لأن "الحجاز - السراة" سلسلة جبال لا تنتهي عند تثليث أو غيرها من الحدود الإقليمية، بل هي تمتد إلى تخوم الشام.

فعلى هذا إن حدود القطر الحجازي الجنوبية في كلام هؤلاء هي مجاري هذه الأودية "بيشة" و"تبالة" و"رنية" و"تربة" و"تثليث"، فما كان شماليها فهو "حجاز"، وما كان جنوبيها فهو "عسير"، وأرض "عسير" اختلف فيها، فبعضهم يضمها إلى "الحجاز" وبعضهم يضمها إلى "اليمن"، وبعضهم يجعلها سراة مستقلة، ويقول "الهمداني" : (وعسير يمانية تنزرت)[2]، ولسوف يأتي الكلام عن "عسير"، ولتبالة والعبلاء تاريخ جاهلي مشهور سنتكلم عنه بشيء من التفصيل في بحث عكاظ من هذا الفصل.

وجاء في "صفة جزيرة العرب" : ("إن "سراة الطائف" بلد "خثعم"، وأعراض نجد "بيشة" و"ترج" و"تبالة" و"المراغة"، وأكثر سكان "المراغة" قريش و"العبلاء قد خربت")[3].

٤- وجاء في "صفة جزيرة العرب" أيضًا : (ولعل "بطليموس" أراد بفلاة "مأرب" أرض سبأ، فهي فلاة يشرع عليها "بيحان" و"مأرب" و"الجوف" و"نجران" و"الهجيرة" و"أعراض ترج" و"بيشة" و"تبالة"، وكان أشهر هذه المواضع الشارعة على هذه الفلاة مدينة "سبأ")[4]. فعلى ما جاء في "صفة جزيرة العرب" : إن هذه الفلاة تصلح لأن تكون حدًا طبيعيًا فاصلاً بين إقليمي "الحجاز - عسير" وبين اليمن من الجنوب الشرقي.

---

(١) صفة جزيرة العرب، ص٤٨.

(٢) صفة جزيرة العرب، ص١١٨؛ تاريخ جواد ٣/٣٩٧.

(٣) صفة جزيرة العرب، ص١١٩.

(٤) المرجع السابق، ص٢٧.

وكتاب بطليموس "المجسطي"[(١)] في رأي "جواد علي" أفاد الجغرافيون العرب على ما فيه من تشويش وما أصابه من تحريف الأسماء[(٢)]. والسبب في التحريف والتشويش وضحه "ياقوت الحموي" عندما قال: (إن أماكن كثيرة من التي ذكرها اليونانيون درست وجهلت أسماؤها)[(٣)].

٥- فوضع الأقوال التي تخص "الحجاز - السراة" بجانب الأقوال الواردة في حدود "الحجاز - القطر" هو الذي نلفت الأنظار إليه، وهو الذي فرض على البحث أن يفصل بين حدود "الحجاز - السراة" وبين حدود "الحجاز - القطر".

٦- ولتحصيل ما قاله القدامى عن حدود "الحجاز - السراة" نلخص ما قيل عن حدود هذا القسم الذي هو واحد من أقسام الجزيرة العربية الطبيعية على النحو الآتي:

أولاً: الحد الشمالي: وعنه قالوا: إنه تخوم الشام، وقالوا: إن "تبوك" و"فلسطين" من "الحجاز"، ويقول "ياقوت الحموي": (وأحسن الأقوال قول "أبي المنذر هشام الكلبي" في كتاب "افتراق العرب")؛ فالحجاز هو جبل السراة، وجبل السراة أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف بوادي الشام، فسمته العرب: حجازًا[(٤)] وتنتهي أطراف الشام جنوبًا بانتهاء جبل "الشراة" السوري، وفي تقويم "أبي الفداء": "عمّان" من الحجاز.

ثانيًا: الحد الشرقي: ولقد تعددت أقوال جغرافيي العرب القدامى في الحد الشرقي للحجاز - السراة. وأقوال هؤلاء قل أن تتفق وقل أن يتوحد قصدها؛ فلقد قال ابن شبيب: (ونجد من "أوطاس" إلى "القريتين")[(٥)] وأوطاس واد في ديار "هوازن"، وفيه

---

(١) المجسطي: اسم كتاب، معناه: الترتيب الكبير.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي، ٢٩/١ .

(٣) معجم ياقوت، المقدمة.

(٤) المصدر نفسه، مادة (حجاز).

(٥) المصدر نفسه ١٥٤/٦ .

كانت وقعة "حنين"، وفي وقعة حنين قال النبي صلى الله عليه وسلم : "حمي الوطيس"(١). ويقول "هشام الكلبي" : (وصار ما دون الجبل - يعني "السراة" - في شرقيه من صحارى "نجد" إلى أطراف "العراق" و"السماوة" وما يليها : نجدًا)(٢) - وقال "ابن عيينة" : (قال "أهل ذات عرق" : ما نحن بمتهمين ولا منجدين")(٣). وللأصمعي تحديد طريف سمعه من الأعراب، قال : (سمعت الأعراب تقول : إذا خلفت "علجزًا" فقد أنجدت)، وعلجز فوق "القريتين"(٤)، وقال : (ما ارتفع عن بطن "الرمة"، فهو : "نجد" إلى "ثنيات ذات عرق") قال : سمعت "الباهلي" يقول : (كل ما وراء "خندق كسرى"(٥) فهو نجد إلى أن تميل إلى الحرة، فإذا ملت إليها فأنت في الحجاز)، ووادي "الرمة" من أودية الجزيرة طويلة المدى، فطوله يبلغ (٩٥٠) كيلو مترًا، يبدأ من "خيبر" ويصل إلى "بريدة"(٦)، وقال : السكري" : (وحد "نجد" : "ذات عرق" من ناحية الحجاز، كما تدور الجبال معها إلى جبال "المدينة" وما وراء "ذات عرق" من الجبال إلى "تهامة" فهو حجاز)(٧).

ولقد اتفق الأصمعي والهمداني على أنه من "تثليث" غربًا إلى "فيد" والجبلين "أجأ وسلمى" شرقًا - حجاز؛ فما احتجزته الحرار كله : حجاز، والبحث يرجع من هذه الأقوال ما جاء في صفة جزيرة العرب وفي معجم ياقوت عن الحرار، وأن ما احتجزته

(١) المصدر نفسه، ٢٧٥/١، مادة (حجاز).

(٢) المصدر نفسه، ٢١٦/٣ .

(٣) المصدر نفسه، ١٥٤/٦، ولعل المقصود بنجد هنا : الحجاز، فالعرب تسمي السراة حجازًا وجلسًا ونجدًا، و"تهامة" يحدها شرقًا الحجاز - السراة.

(٤) لم يذكر أي القريتين يريد؟ فالقريتان : مكة والطائف، والقريتان . قريبة من (نباج)، ويقال: (قران وملهم): قريتان لبني (سحم) باليمامة.

(٥) خندق كسرى في برية الكوفة .

(٦) تاريخ جواد علي، ٩٩/١ .

(٧) معجم ياقوت، ٢٥٣/٨، ٢٥٤ .

حجاز، لأن الجغرافيين جميعهم متفقون على أن ما كان بعد الحرار فهو حجاز، ولأن الحرار من معالم الحجاز، فالحجاز يبتدئ من حرتي : "الهتيمة" و"الدهامة".

ثالثًا : الحد الجنوبي : يبدأ الحد الجنوبي للحجاز - السراة عند الجغرافيين العرب من "نجران" إلى "عدن"؛ فتكون "عدن" حدًا جنوبيًا للحجاز - السراة. والحد لا يدخل في المحدود.

رابعًا : الحد الغربي : والحد الغربي للحجاز "تهامة" كما يقول "هشام الكلبي" : (وصار ما خلف ذلك الجبل - يعني "السراة" - في غربيه إلى أسياف البحر من بلاد "الأشعريين" و"عك" و"كنانة" وغيرها ودونها إلى "ذات عرق"[1] و"الجحفة" وما صاقبها وغار من أرضها : الغور - "غور تهامة" و"تهامة" تجمع ذلك كله)[2] على أن بعضهم إذا ما ذكر "الإقليم الحجازي" أدخل "تهامة" فيه، وكذلك إذا ذكر : "الإقليم اليمني" أدخل "تهامة" الجنوبية فيه.

والذي يظهر على بحوث المتأخرين الذين تكلموا عن حدود الحجاز أن الكثيرين لم يتعبوا أنفسهم بالتقصي للخروج بنتيجة أعمق من سرد الأقوال، فقد اكتفى الكثير في كلامه عن حدود الحجاز، وعن حدود "جزيرة العرب" بسرد الأقوال دون تحقيق يشير على الصحيح منها والخاطئ، ودون تعيين الحدود التي اقتنع بها.

---

(١) أشير إلى أن الأقوال التي تجعل ذات عرق حدًا لتهامة لعلها لا تقصد "ذات عرق" النجدية، فليس يتهم من يترك نجدًا ، فبين نجد وتهامة : الحجاز، والحجاز يسمى نجدًا وجلسًا فالمقصود هنا الحجاز.

(٢) المعجم ، مادة (الحجز) ٢١٩/٣ .

وإن غالبيتهم لم يعنوا بالحجاز - السراة الذي هو قسم من أقسام الجزيرة العربية التي ذكرها القدامى من الجغرافيين العرب، وإنما هم حددوا القطر الحجازي - فمن هؤلاء : "محمد لبيب البتنوني" في رحلته، و"البستاني" و"وجدي" في دائرتيهما - وتتضح هذه القطرية في كلام "محمد باشا صادق" الذي قال في "دليل الحج" : (الحجاز ولاية واقعة بين "نجد" و"تهامة" ومحدودة من الجنوب ببلاد "عسير" ومن الشرق بصحراء "نجد" ومن الشمال بـ "سورية" ومن الغرب بـ "البحر الأحمر"، و"محمد صادق" عندما جعل البحر الأحمر حدًا غربيًا أضاف تهامة إلى الحجاز، في حين يقول : إن الحجاز واقع بين نجد وتهامة !!!)(١)، ولأن الحدود الشرقية للحجاز كانت مشكلة سياسية بين حكومات الحجاز ونجد انتهت بوحدة القطرين تحت علم واحد؛ تجاوز "أمين الريحاني" : الحدود الشرقية إلى بقية الحدود فقال عنها : (يحد الحجاز شمالاً إمارة "شرق الأردن"، وجنوبًا "القنفذة" و"جبال عسير"، وغربًا "البحر الأحمر".

ويختلف "حافظ وهبة" في كتابه "جزيرة العرب" مع "الريحاني" في الحد الجنوبي، فحافظ يجعله : (نقطة بين "الليث" و"القنفذة" على شاطئ البحر الأحمر)، أما حده الشمالي فيقول عنه : يمتد من "معان" مارًا برأس "العقبة".

ويقول "عبدالحميد العبادي" : (الحجاز يمتد بوجه عام من رأس "خليج العقبة" إلى حدود "اليمن" إذا اعتبرنا "عسيرًا" داخله فيه كما يصنع بعض الجغرافيين).

٧- ولعل المستشرقين كانوا أكثر عمقًا من بعض المتأخرين العرب الذين ألفوا في جغرافية البلاد العربية؛ فمؤلفو "دائرة المعارف الإسلامية" كانوا في كلامهم عن "الحجاز" قسمًا من أقسام الجزيرة العربية، وفي كلامهم عن "الحجاز" قطرًا من

---

(١) جغرافية شبه جزيرة العرب، لعمر رضا كحالة ، ص١٠٨ - ١١٢.

أقطارها = أكثر شمولاً من العرب، فعندما عرفت "دائرة المعارف الإسلامية"[1] : الحجاز على أنه قسم من أقسام جزيرة العرب قالت : (الحجاز صقع في جزيرة العرب على "بحر القلزم" ليس له حدود معينة، وإن كنا نفهم هذه الحدود من فورنا إذا تدبرنا معنى اللفظ "حجاز" وهو يطلق في الخطط عند العرب على "جبال السراة" التي تفصل مرتفعات "نجد" عن السواحل المنبسطة : "تهامة")، وعندما تكلمت "دائرة المعارف الإسلامية" عن "الحجاز" : قطرًا من أقطار الجزيرة العربية قالت : (الحجاز بوصفه اسم ناحية يقتصر على ذلك القسم من الساحل الغربي الذي لا يدخل في "اليمن"، أو هو إذا تحرينا المزيد من الدقة : الأرض الممتدة على "بحر القلزم" من "عكرة" إلى "الليث" وما يناوحها، ولا تدخل "نجاد عسير" في الجنوب، ولا بلاد "مدين" القديمة ولا "حسمى" في الشمال = في الحجاز بمعناه الصحيح، وإن غلب إدخالها فيه، وكان الحجاز في النظام الإداري التركي ولاية قصبتها "مكة"، وقسمت هذه الولاية على ثلاثة سناجق "مكة"، و"المدينة"، و"جدة"، وهذا النظام مفيد لأنه يحدد منطقة الحجاز عينه، ولو أنه لم ينفذ قط تفصيلاً، وظلت النظم الإدارية والقائمون عليها موجودة وموجودين على الورق فقط، على أن "الباب العالي" جعل سنجق المدينة حديثًا متصرفية مستقلة يحكمها "شيخ الحرم"، و"محافظ" وهو قائد جند الترك، والحجاز قسمان مختلفان أشد الاختلاف القسم الساحلي : "تهامة"، والقسم الذي يناوحه : جبلي).

فدائرة المعارف الإسلامية عرفت أولاً : "الحجاز - السراة"، ثم تكلمت عن "القطر الحجازي" وتقسيماته الإدارية، وسنجق المدينة على حسب تعبير دائرة المعارف الإسلامية - يصل إلى نهاية "السراة - الحجاز" شمالاً، إلى "معان" و"العقبة"، فلقد جاء في قرار "المؤتمر السوري العام" سنة ١٩١٩م / ١٣٣٨ هجرية : (إننا نطلب

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة (حجاز).

الاستقلال السياسي للبلاد السورية التي تحدها شمالاً "جبال طوروس"، وجنوبًا"رفح"، فالخط المار من جنوب "الجوف" إلى جنوب "العقبة" الشامية و"العقبة الحجازية" ... إلخ[1]، ولقد تنازل "الملك حسين بن علي" لابنه "الملك عبدالله" عن "العقبة" و"معان" في سنة ١٩٢٤م /١٣٤٣هـ.

٨- ولكن "دائرة المعارف الإسلامية" بترددها في موقع "مدين" ومنطقة "حسمى" وعدم جزمها : هل هما من الحجاز؟ أم لا؟ تثير شكوك البعض القديمة في حجازية "مدين" و"تبوك" وهذا التردد مبعثه الخلط بين الحدود السياسية والطبيعية، ولقد خطأ "موسل" أولئك الذين يخلطون بين الحدود السياسية وبين الحدود الطبيعية، وعلق على رأي "أزيبيوس" الذي يذهب إلى أن مدينة "مديم" أو "مدين" على ما أظن كانت تقع خلف المقاطعة العربية، وعلق على رأي "بروكوبيس" بقوله : (إنا ننتهي بما قاله "بروكوبيس" الذي ذهب إلى أن الجزيرة الصغيرة المعروفة بـ "تاران" كانت تابعة "لفلسطين" الثالثة بالرغم من أن الساحل القريب منها لم يكن شأنه كذلك، وأن الحد الجنوبي لفلسطين الثالثة كان يطابق الحد الشمالي لبلاد العرب السعيدة)[2]، وقال موسل : (ولكن نفوذ "بيزنطة" الحقيقي الثابت لم يكن يمتد وراء الحد الداخلي المحصن الذي كان يقع على طول السفح الجنوبي لجبل "الشراة"، فبهذا نستطيع أن نفسر لماذا كان بعضهم يشير إلى "الحجاز السورية"، ومعنى ذلك : "الحجاز" التي كانت تتبع "سورية"[3] من الناحية السياسية، كما نستطيع أن نفهم لماذا وقع الخلاف بينهم في تحديد الحدود.

---

(١) الثورة العربية الكبرى، ٢٤/٣ و٤٨/٢ .

(٢) شمال الحجاز، ص٢٥ .

(٣) المصدر نفسه، ص٣١ .

٩- ولقد كان "شمال الحجاز" هو موضوع "موسل"، الذي جمع أقوال جغرافيي العرب، وأخذ يلف ويدور معها في شمال القطر الحجازي، فأكثر أقوال القدامى - كما تقدم - تخلط الحدود الطبيعية بالحدود السياسية، ولقد حرص "موسل" على أن يحدد شمال الحجاز على ضوء الأقوال التي جمعها، والأقوال التي جمعها - كما يظهر من بحثه - تجعل شمال الحجاز يبدأ من جنوبي سورية شمالاً إلى "ضبا" جنوبًا، وجنوب "سورية" في بحث "موسل" ينتهي من ناحية الشرق بانتهاء جبل "الشراة"، وينتهي من ناحية الغرب عند "العقبة - أيلة"، فلقد نقل عن "ابن الفقيه" اعتقاده أن "العقبة" هي الحد الجنوبي للشام، واستخلص من كلام "ابن حوقل" و"أبي الفداء": أن الحد الشمالي لشمال الحجاز يبدأ من الغرب قريبًا من ميناء "العقبة" ويتجه نحو الشرق إلى جنوب جبل "الشراة"، ثم قال مستشهدًا بما نقله عن "ياقوت": إن "ممر شتار" يقع في جبل "الشراة" بين إقليم "البلقاء - الشام" وإقليم "المدينة -الحجاز"، وعليه أكد "موسل": أن سفوح "الشراة" يجب أن تكون: الحد الفاصل بين "الحجاز" و"سورية"(١).

(١) جاء في "معجم ياقوت" عن "الحربي": أن "تبوك" و"فلسطين" من "الحجاز" ٢١٨/٢، ولعل الحربي يقصد: ما أدخلته التقسيمات السياسية في "فلسطين" من (شمال الحجاز)، أما (تبوك) فلا شك في حجازيتها.

ولقد أخذ "موسل" يذرع شمال الحجاز من الجنوب إلى الشمال على ضوء ما قاله "الإدريسي" في كتابه "نزهة المشتاق" جاعلاً "تبوك" نقطة الزاوية فنقل عن "الإدريسي" قوله : "إن تبوك" على أربع مراحل من حدود الشام، وقال عنه : وهذا النص يضع الحدود الشمالية عند سفح جبل "الشراة" الجنوبي، وقال "موسل" أيضًا : ويتفق مع "الإدريسي" في رأيه "أبو زيد الأنصاري" الذي يقول في "معجم ياقوت" : إن "تبوك" تقع بين "الحجر" وأول "الشام" على أربع مراحل من "الحجر"، فهي تبعد عن "الحجر" بنحو ٤ مراحل ×٤٥ كيلو = ١٨٠ كيلو، فعلى ذلك تقع "تبوك" في منتصف الطريق بين "الحجر" وجبال "الشراة" ، وما بين "الحجر" وجبال "الشراة" يبلغ تقريبًا (٨ مراحل × ٤٥ كيلو = ٣٦٠ كيلو)[(١)].

أما عن الحد الشرقي لشمال الحجاز فمن رأي "موسل" هنا أن الحد الشرقي يسير قريبًا من جبلي "أجأ وسلمى" في حين يكون "البحر الأحمر" حدًا غربيًا له[(٢)]، ولكنه كما تقدم لم يقتنع بالأقوال التي تؤكد أن "فيد" هي آخر بلاد نجد الغربية، و"فيد" هذه كانت فلاة بين "أسد" و"طيئ" في الجاهلية، أما البلدة فقد نشأت بعد الإسلام[(٣)].

---

(١) لنا عودة إلى شمال الحجاز في البحث عن (مدين) وأين تقع؟

(٢) هنا يجب ألا ننسى أن "موسل" قد علق على قول "الإصطخري" الذي أورده في كتابه "شمال الحجاز" بأن حدود "الحجاز" التي تمتد إلى "فيد" هي : حدود سياسية، ولقد قلت عن تعليق "موسل" هذا : إنه يحتاج إلى نقاش، فليس "الإصطخري" هو وحده الذي وصل بحدود الحجاز إلى قرب "فيد"، وليس الذين وصلوا بحدود الحجاز إلى "فيد" يقصدون الحدود السياسية كما سبق في البحث المتقدم من هذا الفصل، فهناك "حرار" و"الحرار" من معالم الحجاز الطبيعية.

(٣) معجم البكري ١٠٣٣/٣، ويقول "القلقشندي" في "العبر" : (أسد بطن كبير متسع ذو بطون ويقال : إن بلاد "طيئ" كانت لبني أسد، فلما خرج بنو طيئ من اليمن غلبوا على "أجأ" و"سلمى". نهاية الأرب، ص٣٨.

و"موسل" عندما أخذ يبين حد شمال الحجاز الغربي اعتمد على "الإدريسي" الذي مد الحد الغربي من "رأس أبي محمد" الميناء الذي لا ماء فيه شمالاً عند مدخل خليج "العقبة"، ثم يسير في اتجاه "طنا"[1] و"العطوف"، ولقد أخذ "موسل" يبحث عن "رأس أبي محمد"، فقال عنه: (إنه يقع عند الطرف الجنوبي لـ "شبه جزيرة سيناء"[2]، وقال عن موضع "العونيد" إنه يقع في الجنوب الشرقي من "جزيرة نعمان"[3]، وأما "طنا" فقال عنها: (يجب أن تصحح قراءتها إلى "ضبا"[4] وتقع إلى الشمال وليس إلى الجنوب)[5].

ويؤكد "جرجي زيدان" ما قاله "موسل" عن جبل "الشراة" حيث وضع "جرجي" الشراة في الخريطة التي رسمها في الصحيفة رقم (٢٥٥) من كتابه: "العرب قبل الإسلام": شمالي "معان" وإذا نحن طبقنا خريطة "جرجي زيدان" على خريطة أرامكو: مقياس ١/ ٢٬٠٠٠٬٠٠٠ طبع سنة ١٩٦٣م / ١٣٨٣هـ، نجد: "تبوك" تقع في منتصف المسافة بين "الحجر" وبين "الشراة" التي وضعها "جرجي" شمالي "معان".

١٠- وبعد فالنتيجة التي تظهر من وراء ما عرفناه من آراء وتحقيقات تضع "الحجاز - السراة" الذي يفصل بين "نجد" و"تهامة" داخل حدود رجح الاعتقاد صحتها على الشك فيها، وهذه الحدود هي:

---

(١) العطوف وطنا: لم يذكرا في معجمي: ياقوت والبكري.

(٢) رأس أبي محمد: لا يزال معروفًا فقد ذكرته خريطة "أرامكو" التي وضعتها للمملكة العربية السعودية باسم "رأس الشيخ محمد".

(٣) جاء في خريطة المملكة العربية السعودية التي وضعتها "أرامكو": "العويندية" بالتصغير والتأنيث وهي جزيرة تقع جنوبي "جزيرة النبقية" وكلتا الجزيرتين في خريطة أرامكو في جنوبي جزيرة نعمان. وفي خريطة أرامكو عونيد أخرى في نجد قرب "الرياض" بعيدة كل البعد عن الحد الغربي لشمال الحجاز.

(٤) ضبا: ميناء حجازي معروف.

(٥) كتاب "شمال الحجاز"، لموسل، ص٢٥، ٢٦، ٣١.

أولاً : الحد الشمالي للحجاز - السراة: وحدود "الحجاز - السراة" الشمالية تمتد من شمالي "العقبة" مرتفعة إلى الشمال حيث توجد "معان" وفي شماليها "جبل الشراة" ثم تتجه شمالاً إلى نهاية "الحرة - حرة ليلى" التي تمتد داخل حدود "الشام"، ومن نهاية هذه الحرة تبتدئ حدود الحجاز الشرقية.

ثانيًا : حدود "الحجاز - السراة" الشرقية: وتبتدئ من طرف "حرة ليلى" الشرقي إلى حرتي : "الهتيمة والدهامة حيث توجد "فيد" في شرقيهما، ففيد تقع في سفح "سلمى"، وسلمى في منطقة "حائل"[1]، وحائل كما تبدو تحول بين "الحجاز - السراة" وبين "نجد"، ثم تتجه الحدود إلى شرقي حرتي "النواصف والبقوم"، ثم تتجه إلى شرقي "وادي تثليث" حيث نرى : "جبال القهر"، وجبال القهر تعتبر من أسافل الحجاز من ناحية "نجد" ، ثم تتجه إلى "جبل القارة" إلى "حجاز جدعان" فوادي "نجران" حيث تلتوي الحدود إلى "عدن".

ثالثًا : الحدود الجنوبية: والحد الجنوبي للحجاز - السراة "يبتدئ من جنوبي "نجران" إلى "عدن"، ويمتد من "عدن" غربًا إلى مدخل "باب المندب" في البحر الأحمر.

رابعًا : حدود "الحجاز - السراة" الغربية: والحدود الغربية للحجاز - السراة تقبل من رأس "خليج العقبة" وبلاد "مدين" شمالاً حيث تبدأ "تهامة الحجاز"، وفي "تهامة اليمن" إلى "عدن"، فهذه التهائم هي حدود "الحجاز - السراة" الغربية، وليس لتهامة معالم طبيعية، ولذلك اختلف جغرافيو العرب في : هل مكة تهامية؟ أم حجازية؟ فحدودها الشرقية مسألة تخمين واقتناع.

---

(١) لنا عودة للحد الشرقي للحجاز عندما نبحث في حدود نجد الغربية في كلامنا عن نجد في هذه الحلقة، والقول بأن "حائل" تحول بين الحجاز و"نجد" استنتاج عابر.

١١- أما "الحجاز - القطر" فهو : جزء "من جبال السراة" التي حجزت بين "نجد" و"تهامة"، وحدود القطر الحجازي تتغير مع التغيرات السياسية، وتدخل فيه تهامة الحجاز، ففي أواخر "العصر الجاهلي" لم يصل حده الشمالي إلى "تبوك" بل إنه وقف جنوبيها تاركًا في شماليه منطقة "حسمى"، فلقد كان الحد الشمالي يبدأ من ميناء "ضبا" ثم يمتد إلى الشرق مستقيمًا إلى "تيماء"، ومن تيماء يبدأ الحد الشرقي متجهًا جنوبًا إلى "وادي تثليث" حيث ينتهي الحد الشرقي ويبتدئ الحد الجنوبي، فالحد الجنوبي يبتدئ من "وادي تثليث" إلى ميناء "القنفذة" في أقوال بعضهم، وإلى "الليث" في أقوال آخرين ، ويعتبر البحر الأحمر حدًا غربيًا للحجاز، فهذه الحدود التخمينية هي التي تتراءى لك في أقوال المتحدثين عن العصر الجاهلي.

أما في العصور الإسلامية فقد تغيرت الحدود على حسب التقسيمات الإدارية في عهد الأمويين والعباسيين، وفي الفترات التي التحق "الحجاز" فيها بـ "اليمن" تغيرت الحدود تغيرًا واضحًا مثلما تغيرت عندما التحق الحجاز بمصر، وعندما التحق "نجد" بالحجاز، وعندما التحق "الحجاز" بنجد، وكذلك كانت الحدود في عهد الأتراك تتغير تبعًا للتقسيمات الإدارية، فلم يكن التغيير في الحدود يكلف المسئولين غير المراسيم التي كانت تصدرها "دمشق الأموية" و"بغداد العباسية" أو "القاهرة الفاطمية" و"القسطنطينية العثمانية"، لاسيما أن الحدود بين "الحجاز" والأقطار التي تحيط به ليست حدودًا ذات فواصل طبيعية واضحة، وعدم وجود فواصل طبيعية هو الذي جعل الأقوال في حدود "الحجاز" تختلف كما مر بنا، حتى في عهود استقلال دولة "بني الأخيضر" من سنة ٢٥١ إلى سنة ٣٠٥هـ، ثم الدول التي أتت بعدها في الفترات التي كانت تستقل فيها "مكة" إلى أن أصبح الحجاز مملكة فيما بعد الحرب العالمية الأولى.

وأخيرًا استقر الحد الشمالي للقطر الحجازي، قبيل الحرب العالمية الأولى، وبعدها على هذا النحو : شمالاً من شمال "العقبة" وشمال "معان" إلى حدود "العراق"

حيث كانت "العقبة" و"معان" حجازيتين، إلى أن تنازل عنهما "الملك حسين بن علي" لإمارة "شرقي الأردن" سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م فأصبح الحد الشمالي للقطر الحجازي يبدأ من جنوبي "العقبة" ثم يتجه شمالاً إلى جنوب "معان" ثم يمتد شرقًا إلى حدود "بادية العراق".

أما الحد الشرقي للقطر الحجازي فهو يصل شرقًا إلى غربي "فيد في أرجح الأقوال كما تقدم"، وأخيرًا صار موضع خلاف بين "سلطنة نجد" و"مملكة الحجاز" إلى أن وفق الله جلالة العاهل المؤسس المغفور له "الملك عبدالعزيز آل سعود" فوحد "الحجاز" و"نجدًا" وملحقاتهما : دولة عربية عزيزة الجانب.

وكذلك الحد الغربي فلم تنفصل "تهامة" عن "القطر الحجازي"، فالبحر الأحمر يحده غربًا، ولقد كان هناك خلاف في حد الحجاز الجنوبي هل هو : بلاد عسير؟ أم أن بلاد عسير من الحجاز؟ ولكن هذا الخلاف زال على النحو الذي زال به الخلاف على الحدود الشرقية، فأصبحت حدود القطر الحجازي جنوبًا هي حدود "المملكة العربية السعودية"؛ فقد توحدت أقطار المملكة واعتز بعضها ببعض.

١٢- وأخيرًا جدير بالبحث أن يسير بنا من تهامة إلى نجد لنعرف أن الحجاز - السراة، ليس هو رؤوس جبال حلزونية يعيش على رؤوسها الحجازيون، فسطح جبال الحجاز - السراة سهول تشقها أودية، وترتفع عليها جبال، فأنت إذا سرت من "جدة" عن طريق "بدر" فـ "المدينة المنورة" فـ "القصيم" إلى أقصى نجد شرقًا لا تتسلق جبلاً، ولا تستلفت نظرك فوارق طبيعية غير الجبال التي تحيط بك من "بدر"، إلى نهاية حدود الحجاز، وإذا أنت تسلقت جبل "الهدة" أو تسلقت جبل "الغاير" تقابلك سهول تشقها أودية، وترتفع عليها جبال إلى أن تخرج من حدود الحجاز عن طريق "المدينة المنورة" بعد "الغاير"، وعن طريق الطائف بعد "الهدة" إلى نجد، فقمم الحجاز - السراة أرض منبسطة ذات أودية وسهول.

البحث الثاني :

"الحجاز – السراة" جغرافيته الطبيعية والسياسية :

١- لماذا لم يعن المؤرخ، في الماضي والحاضر، بنشاط الحجاز ونجد مثلما عني بنشاط اليمن وشعوب "الخليج العربي"؟

٢- لم يهاجر العرب من قلب الجزيرة صفر اليدين من الحضارة والمعارف .

٣- "الحجاز – السراة" ينقسم إلى ثلاث مناطق .

٤- سراة شمال الحجاز ونشاط شعوبها .

٥- أسباب الشك الذي خيم على أرض "حسمى" .

٦- أين تقع مدين ؟

٧- في سراة القطر الحجازي مدن خمسة مقدسة وتاريخية .

٨- عكاظ : أرضًا وسوقًا .

٩- هل أخطأ من قال : عكاظ بأعلى نجد قريبًا من عرفات ؟

١٠- هل عكاظ أرض أم سوق ؟

١١- مواسم العرب وأسواقها .

١٢- تاريخ "تبالة" و"العبلاء" و"عكاظ" وجغرافيتها .

١٣- أين كانت سوق عكاظ ؟

١٤- "سوق عكاظ" انتهت بعد الحج الأكبر في حياة النبي عليه الصلاة والسلام.

١٥- ما هي "عسير"؟ ومتى سميت؟ وهل هي يمنية أم حجازية؟

١٦- سراة اليمن ليست من اليمن !!

١٧- نشاط "الحجاز – السراة" السياسي .

١٨- مكة في عالم ما قبل الإسلام .

١٩- مركز المدينة السياسي في العصر الجاهلي .

١ - لقد أوقف الكثيرون من الذين تفرغوا لأحداث الماضي القديم بحوثهم على نشاط قدامى الشعوب العربية في اليمن، وسواحل الخليج العربي، والعراق، وسورية، ومصر، ظانين أن شعوب هذه الأقطار هم وحدهم الذين سجلوا التاريخ العربي القديم، ولهؤلاء الحق فيما ذهبوا إليه، فلقد سلطت الأضواء منذ بدأت البحوث التاريخية الحديثة على هاتيك الأقاليم، وشغل المؤرخون والجغرافيون بها أكثر مما شغلوا بأقاليم قلب الجزيرة العربية، فامتلأ السوق العلمي بما قدمه المحققون من كتاب العرب، وبحاثي المستشرقين الذين أخذوا يقابلون ما في أيديهم من تراث علمي على ما وصل إلى أيدي الأثريين من نصوص تاريخية، فانتقل التحقيق بذلك إلى آفاق جديدة واسعة برزت فيها حضارة الشماليين الإرميين في "بابل" و"آشور" من أرض "العراق" و"الكنعانيين" في سورية الكبرى و"العماليق" في مصر العمليقية قبل الإسلام، وبرزت فيها حضارة الجنوبيين "معين" و"قتبان" و"سبأ" و"حمير" في اليمن، و"الجرهائيين" وغير الجرهائيين من شعوب الخليج العربي في العروض.

أما الحجاز ونجد فالذين تعرضوا لتاريخهما قلة من المؤرخين الذين ألفوا الموسوعات التاريخية مثل: "ابن هشام" عبدالملك الحميري، و"ابن جرير الطبري" و"ابن كثير" و"ابن الأثير" و"ابن خلدون". وهذه القلة التي فرض عليها الإسلام وألزمتها دوله بأن تتحدث عن أرض الحرمين، وبالتالي عن "نجد"، لم تجد أمامها غير ما جمعه أمثال "ابن شهاب الزهري" و"ابن إسحاق مولى آل مخرمة" عن الشعر الجاهلي، وعن المخضرمين الذين حفظوا الأخبار أبًا عن جد، وعن الإسرائيليين الذين كانوا يكيلون الأخبار كيلاً باسم الأسفار، لذلك كان ما كتبوه على كثرته غير واف، وكان أكثره موضع تحقيق الذين أخذوا في العصر الحاضر يبحثون عن تاريخ البيوت أو المقابر - كما يقول البعض - التي نحتها "الثموديون" في الجبال، ولولا آثار "وادي القرى" التي

اكتشفها الأثريون لما بحث المتأخرون في تاريخ شمال الحجاز على النحو الذي نراه اليوم في مؤلفاتهم.

فلقد كان كلام القدامى في المسائل التي نتلهف على معرفة حقيقتها لا يعدو لمحات نتبينها في أمهات كتب التاريخ، ولا نجد فيها ما ينير لنا مجاهل الماضي، فلا ينير المسالك المجهولة سوى بحث متسلسل الحلقات واضح النتائج.

على أن هذا الشيء اليسير إذا ما جمع ونقح وأضيف إليه الجديد مما جاء على آثار "الهلال الخصيب" و"مصر" و"اليمن" من نصوص يشير بعضها إلى أمم قلب الجزيرة وإلى حضارتها = يصبح حينذاك مادة تاريخية تمد الباحث ببعض مما تهمه معرفته عن أمم قلب الجزيرة ودولها، ومدى تحضرها ومجالاتها السياسية، على قدر ما اكتشف من آثار "الحجاز" و"نجد"، وما اكتشف منها هو قليل من كثير، ما زال ينتظر من يكتشفه ليزيل الغموض عن ماضي قلب الجزيرة.

٢- فالحجاز ونجد من مواطن الساميين الذين هاجروا إلى الهلال الخصيب وإلى مصر، والساميون الذين هاجروا من قلب الجزيرة تجارًا أو محاربين لم يهاجروا صفر اليدين من كل شيء بل هاجروا بلغتهم، وعقائدهم وفنونهم، فمن العرب تعلم المصريون أنواعًا من فنون النحت، وعن طريقهم وصل إلى مصر الحديد والمركبات، ومع المهاجرين العرب انتقلت الملاحة من الخليج العربي إلى البحر المتوسط، ومن الثابت أن العرب في "بلاد ما بين النهرين" عربوا حضارة السومريين ولونوها بصفتهم.

ومما لا شك فيه أن الحجاز ونجدًا كانا مجالين لحضارة أمم العالم القديم في الشرق الأدنى، فمن الضروري للبحث أن يجمع هنا ما استطاع مما يخص جغرافية الجزيرة العربية، لا سيما قلبها الذي أهمله الكثيرون ممن بحث في التاريخ العربي القديم وجغرافيته، وأن يرسم على ضوء ما يجمعه صورة لنشاط الحجازيين السياسي

والحضاري والاقتصادي في هذا البحث الخاص بالحجاز - السراة، وصورة لنشاط النجديين في البحث الخاص بنجد من هذه الحلقة، مهما يكن المجموع الذي يحصل عليه قليلاً، ومهما تكن الصورة التي يمكن رسمها غير متكاملة، فشيء خير من لا شيء.

والكلام عن مناطق الحجاز، هذا الحجاز الذي أقبل من قعرة "اليمن"، وانتهى عند تخوم "الشام"، يضطرنا إلى تقسيم الحجاز هذا إلى مناطق تتفق وما عليه أشكالها السياسية والاجتماعية، وأقسام "الحجاز - السراة" كما تظهر في مصادر التاريخ فرضها واقع الماضي وخططتها مرافق الأجيال.

٣- وحاضر السروات الحاجزة بين نجد وتهامة يلزمنا بأن نقسمها إلى ثلاث سروات، الأولى : "سراة القطر الحجازي" أو سراة الحرمين، وتبدأ هذه السراة من جنوبي "شراة الشام" شمالاً، وتنتهي عند وادي تثليث جنوبًا، ومن هذه السراة وتهامتها يتألف القطر الحجازي، عند من يقول : "عسير ليست حجازية :، والثانية : "سراة عسير" وتبدأ شمالاً من جنوبي سراة القطر الحجازي وتمتد إلى بداية حدود "اليمن" جنوبًا، والثالثة : "سراة اليمن"، وهي التي، تبدأ شمالاً من نهاية حدود المملكة العربية السعودية، وتنتهي جنوبًا عند "عدن"، وكل هذه السروات أسماها العرب : حجازًا ونجدًا وجلسًا.

٤- ونحن إذا ما بدأنا من شمالي الحجاز نجد "موسل" يشير إلى ما جاء في كتاب "أحسن التقاسيم" للمقدسي المعروف بالبشاري المتوفى سنة ٣٨٠هـ عن منطقة "القرح"- سوق "وادي القرى"- وقصة هذه المنطقة "القرح" وفيها كان مُلْك "عاد" قوم "هود"(١)، كما يقول ياقوت وغيره، ويقول "ابن جرير" في تفسيره : وبين "قرح" و"حجر ثمود" ثمانية

(١) معجم ياقوت ٤٩/٧ .

عشر ميلاد[1]، ولقد سمى "موسل" منطقة القرح المحطة الرئيسة في وادي القرى، وقال: إنها تشتمل على "حجر ثمود" و"العونيد" و"بدا يعقوب" و"ضبا" و"النبك".

٥- ونحن إذا ما بحثنا عن هذه المدن في خريطة شمالي الحجاز نجد بجانبها مدنًا لم يذكرها "موسل" مع مدن منطقة القرح، أو المنطقة الرئيسة في شمالي الحجاز، مثل العلا في وادي القرى، ومدين في ساحل البحر الأحمر وغيرهما، ونجد هذه المدن التي ذكرها "موسل" نقلاً عن "المقدسي" في خريطة الجزيرة العربية منثورة تبعد الواحدة عن الثانية مئات الكيلو مترات، نجد مدينة "النبك" في أقصى حدود الحجاز الشمالية، ونجد مدينة حجر ثمود في منتصفه، ونرى مدينة "العلا" على مقربة منها، ونحن إذا ما بحثنا في خريطة أرامكو عن العونيد، بتقديم النون على الياء، نعثر على جزيرة في شمالي "الوجه" باسم "العويندية" بتأخير النون عن الياء، فهل هذه الجزيرة هي، التي قصدها "الحموي" بقوله[2]: "العونيد" من أعمال مصر قرب "مدين"؟ وإن تحريفًا وقع في الاسم فتقدمت "الياء" على "النون"! لأن "عويند" غير "عونيد"، أو تكون "عونيد" مدفونة في أغوار "تهامة" شمالي الحجاز في جنوبي "مدين"؟؟ أما "العويند" بتقديم الياء على النون، فهذه قرية باليمامة، وقال "أبو زياد": ("مياه" "بني نمير" ببطن كلاب[3])، ونرى: "مدين" و"عينونة" موضوعتين على ساحل منطقة "حسمى" قريبتين من مدخل "خليج العقبة" أو "خليج لحيان" كما كان يسمى، على مسافة كبيرة من جزيرة العويندية التي تقع جنوبًا من عينونة، وفي منطقة "حسمى" التي ظهرت على خريطة أرامكو في

(١) تفسير ابن جرير ١٥٩/٨.

(٢) في معجم ياقوت (العونيد) ضمن أعمال مصر قرب (مدين) بين مصر والمدينة قرب الحوراء ١٦/ ٢٤٣، وقد أخطأ (موسل) حين صحح (العونيد) (بالعويند) أي بتقديم الياء، فالعويند غير العونيد، كما أوضحنا ذلك، راجع شمال الحجاز، ص٧٤؛ معجم ياقوت ٢٤٢/٦، ٢٤٤.

(٣) معجم البلدان ٢٤٤/٦.

شمال غربي الحجاز - كما أثبت التحقيق - آثار تدل على أن هذه المنطقة كانت خاضعة للنفوذ العادي، فقوم "عاد" كما يقول "بطليموس" وغيره من المؤرخين والجغرافيين العرب كانوا يسكنون في منطقة حسمى وفي أعالي الحجاز، وكانت "قرح" القريبة من حجر ثمود في وادي القرى - عاصمة لهم، فهذه المنطقة تمتد من "النبك" التي تجدها في أقصى شمال المملكة العربية السعودية عند "قريات الملح" إلى ما بعد "العلا" جنوبًا، ومن شرقي وادي القرى شرقًا إلى البحر الأحمر غربًا، وهذه المنطقة شهدت شعوبًا انتشرت حضارتها في مصر من "سيناء" إلى "الجيزة"، ووصل نفوذها إلى "فلسطين" وإلى أعالي "سورية"، ولو وصل التنقيب عن الآثار إلى جنوبي "مدائن صالح" وشمالي "يثرب عبيل" لوجد الأثريون في كل ريع آية لعاد الأولى لا تقل عما يفخر به تاريخ "بلاد ما بين النهرين" أرض آشور وكلدان، ويفخر بها تاريخ "وادي النيل" أرض الفراعنة.

وعندما هلكت "عاد الأولى" التي طغت في البلاد وأكثرت فيها الفساد، ملأت مكانها "ثمود"، فمثلما كانت "عاد" تبني المصانع، كانت "ثمود" تنحت من الجبال بيوتًا ما زالت تعبر عما بلغته "ثمود" في فن النحت وحضارة العالم القديم، وكما انتشرت "عاد" في البلاد وامتد نفوذها، ومثلما تمركزت بقاياها في الجنوب فكانت عادًا الثانية، كذلك انتشرت ثمود وخلفت آثارًا في مدائن صالح وفي جبلي طيئ: أجأ وسلمى، وفي منطقة حسمى وفي جنوبي الجزيرة، ثم ورثت ثمود القبائل التي أطلق عليها المؤرخون اسم "النبط" والتي انتقلت من قلب الجزيرة إلى الأردن، ويقال: إن "أصحاب الأيكة" الذين بعث إليهم "شعيب" كانوا في "تبوك" وإن "شعيبًا" من "مدين".

ونحن عندما تكلمنا عن تاريخ العرب وحضارتهم في (وادي النيل) قصصنا شيئًا من تاريخهم في مصر، في الجزء الأول من هذا المؤلف: "التاريخ العربي وبدايته"، وكذلك عندما تكلمنا عن العرب في الهلال الخصيب تكلمنا عن حضارة العراق وسورية

العربية، ونحن عندما تكلمنا عن اللغات السامية وخطوطها بينا كيف تلاقت اللغات السامية وخطوطها في بلاد "الثموديين" و"اللحيانيين" و"الدادانيين"[1]، ولقد كانت لمدين دولة ذات نفوذ في عهد أنبياء بني[2] إسرائيل أقض مضاجع ساستها.

ففي هذه المنطقة برزت قبائل "دادان" و"لحيان" فكان لها شأن في سياسة هذه المنطقة وحضارتها وثقافتها واقتصادها، ويقول "جواد علي": (ومن الباحثين من يرجع تاريخ "مملكة لحيان" إلى ما قبل الميلاد بثلاثة قرون، ومنهم من يرجعها إلى ما بعد الميلاد)، ويذكر أسماء ثلاثة من ملوك "مملكة لحيان" قبل الميلاد آخرهم "مسعود اللحياني" وقد حكم حوالي سنة ٩٠ق.م. ويرى أن الكلام عن هذه المملكة وملوكها ما زال أكثره ضربًا من التخمين والظن[3]، ومما هو ثابت أن خليج العقبة سمي في قديم زمانه باسم لحيان "خليج لحيان".

٦- وقبل أن ننتقل من سراة الحجاز إلى سراة عسير، يجب أن نعرج على ما قيل عن "أرض مدين" و"أرض حسمى" وهل هما من الحجاز؟ فنقول أولاً: إن هذا الشك مبعثه الخلط بين الحدود الإقليمية وبين الحدود الإدارية والسياسية، ولقد سبق أن ذكرنا أن "موسل" خطأ الذين خلطوا بين الحدود الطبيعية والحدود السياسية، فقال في بيانه أسباب هذه الخلط: (فالحاكم القوي في سورية كان في استطاعته أن يمد نفوذه بعيدًا حتى الأماكن المقدسة، ولكن لم يكن في استطاعته أن يحرك الحدود الجغرافية عن أماكنها قيد أنملة)[4].

---

(١) العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان، ص٨٣، ٨٤. وهي مملكة (أدوم) نفسها التي سماها اليهود (سمير). وراجع معجم ياقوت ٥٥/٢.

(٢) شمال الحجاز، ص٧٧ وما بعدها.

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٢٨/٣.

(٤) شمال الحجاز، ص٣١.

فنحن إذا بحثنا في "معجم ياقوت" عن "مدين" نجده يستعين لتعيين موضعها بأقوال غير واحد من جغرافيي العرب[1] ، فهو ينقل عن "أبي زيد" قوله : (مدين على بحر القلزم في محاذاة تبوك على نحو ست مراحل، وهي أكبر من تبوك وبها "البئر" التي استقى موسى عليه السلام لسائمة شعيب) قال : (رأيت هذه البئر مغطاة قد بني عليها بيت). وينقل عن القاضي "أبي عبدالله القضاعي" قوله : (مدين وحيزها من كورة مصر القبلية)، وينقل عن "الحازمي" قوله : (مدين بين وادي القرى والشام)، ويقول "ياقوت" : (وقيل : مدين هي "كفر مندة" من أعمال "طبرية" وعندها أيضًا البئر والصخرة)[2] ، وكفر مندة قرية بين "عكا" و"طبرية" بالأردن.

فالنشاز في هذه الأقوال، قول "القاضي القضاعي" : (إن مدين من كورة مصر القبلية)[3] ، فقد تكون مدين ألحقت إداريًا بكورة مصر القبلية إبان ارتباط الحجاز بعواصم الأمويين والعباسيين والفاطميين، فذكرها القاضي على أنها من كورة مصر القبلية، فلقد شوش على الكثيرين امتداد النفوذ السياسي والإداري، فمن الطريف كما يقول "موسل" : (أن نجد "الطور" و"فاران"[4] على الرغم من وجودهما في شبه جزيرة سيناء يعتبران رسميًا من الحجاز). وأما القول بأن "مدين" بين "عكا" و"طبرية" فقد يكون شعيب قضى فترة من أيامه بين "عكا" و"طبرية" ثم انتقل عنها لسبب من الأسباب التي تدعو العرب لأن ينتقلوا بسائمتهم من بئر لأخرى، وانتقل معه اسم "مدين"، فهذه الأقوال جميعها مبنية على المعلومات التي وصلت إلى الجغرافيين العرب عن المدينة التي كان يقيم فيها شعيب في ذلك الزمن السحيق.

(١) معجم ياقوت، فصل الميم ٤١٨/٧ .

(٢) المصدر نفسه، فصل الكاف.

(٣) في معجم ياقوت وغيره تمتد مصر إلى ما بعد (مدين) و(العونيد)، ولعلهم يقصدون الحدود السياسية.

(٤) (فاران) : هي (تاران)، وفاران في بعض مؤلفات المؤرخين العرب ، هي جبال بأرض مكة المكرمة.

فمما جاء في بحث "المطران الدبس" عن أرض مدين التي التجأ إليها موسى ما يؤكد أنها من بلاد العرب في شرقي البحر الأحمر، وأن هؤلاء المدينيين الذين لجأ إليهم "موسى" - غير المدينيين في شرقي "البحر الميت"[1]. وعن حسمى جمع "ياقوت" أقوال جغرافيي العرب، وهي أقوال تختلف في حسمى مثلما اختلفت في أرض مدين، وفي مكان وقوعها؟

وكما تضاربت أقوال الجغرافيين العرب في "مدين" و"حسمى" تضاربت أقوال المستشرقين، فموسل في كتابه "شمال الحجاز" يقول: (النصوص الآشورية والعبرية تضع أماكن المدينيين ومضاربهم إلى الجنوب والجنوب الغربي من "معان" وإلى الشرق والجنوب الشرقي من خليج العقبة، وأقصى حدودهم من الجنوب - التي وقفنا عليها حتى الآن - هي واحة "ديدان" أو "العلا" الحالية، والقبيلة الرئيسة التي كانوا يسمونها "مدين" كانت تسكن إقليم "حسمى" والتخوم المجاورة لها)، ويقول "موسل"[2]: (وهناك ملاحظة طريفة هي ما جاء في "سفر التكوين": أن أولاد "إبراهيم" من زوجته "قطورة" قد ذهبوا في حياته نحو الشرق، ولما كان إبراهيم وإسحاق يسكنان في الجنوب من فلسطين وفي الجزء الشمالي من شبه جزيرة سيناء، فإن هذه السلالة المذكورة قد تركت شبه جزيرة سيناء وذهبت نحو الشرق في الأرض الشرقية عند البادية، والعهد القديم يشير إلى وجود أهل "مدين" في مكانين منفصلين تماماً يقع كل واحد منهما على مسافة بعيدة من الآخر)[3].

فما جاء في كلام "موسل" منه ما يؤكد لنا ما قلناه عن الذين يرون أن "مدين" في "الأردن"، ومنه ما يؤكد ما قلناه عن الذين يرون أنها في غير "الأردن". وما جاء في كلام

---

(١) تاريخ سوريا، مجلد١، ص٩٢.

(٢) شمال الحجاز، ص٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٧٣.

"موسل" وملاحظاته دفع الكثيرين من المستشرقين إلى إبداء ظنون تجدها منثورة في تاريخ "جواد علي" في أجزائه : الأول والثاني والثالث، وفي غير تاريخ جواد، مما يحير الباحثين ويتعب الذين يحاولون إلقاء الضوء على جغرافية الجزيرة العربية وربط حلقاتها التاريخية.

على أنه مهما اختلفت الآراء فمن المؤكد أن أرض "مدين" ومنطقة "حسمى" اللتين كثر الكلام عنهما واختلفت الآراء فيهما هما في شمالي الحجاز في المكان الذي وضعتهما فيه خريطة "أرامكو" وغيرها من الخرائط، ولا يستبعد أن تكون أماكن سميت باسمهما في "سيناء" وفي "الأردن". ولقد سبق الكلام عن منطقة قرح التي تشمل أرض حسمى ومدين، وسبق الكلام عما قاله "موسل" و"الدبس" عن تلك المنطقة وعن هذين الموضعين، وعن الأسماء التي أطلقت على عدد من الأمكنة.

٧- وتتشرف "سراة القطر الحجازي" باشتمالها على "مكة المكرمة" عند من يقول : إن مكة حجازية، وكذلك تتشرف بها تهامتها عند من يقول : إن مكة تهامية. وعندما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة أحب البقاع إليه صلى الله عليه وسلم إلى "المدينة المنورة" أحب البقاع إلى الله[(١)]، لم يبرح سراة الحجاز. فوجود الحرمين في الحجاز سما به إلى قمة التاريخ العالمي، ولقد اشتهرت سراة الحجاز وسفوحها بفصاحة سكانها وبأسواقها الجاهلية : "عكاظ" و"ذي مجاز" و"المجنة" و"بدر" وأسواق المدينة.

ولا إخال البحث في حاجة إلى أن يثبت أن مدن الحجاز سبقت بداية التاريخ الذي وصلت إلينا أنباؤه. فمن هذه المدن التي سبقت التاريخ : مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وحجر ثمود، والعلا، وتيماء، والطائف، وغيرها من المدن التي عجزت صروف الزمن

---

(١) كشف الخفاء ١٨٦/١ . حديث ضعيف : (اللهم إنك أخرجتني من أحب البقاع إليّ فأسكني أحب البلاد إليك).

عن محوها من جغرافية الشرق العربي طيلة هذه الدهور. ولكن البحث في حاجة إلى الحديث عن أسواق الحجاز التي اشتهرت في العصر الجاهلي، والتي كان للعرب الجاهليين فيها عبادة وتجارة ومنتديات أدبية، ومنافع أخرى.

ومن الضروري للبحث أن يفصل أكثر من ذي قبل في كلامه عن "سوق عكاظ" التي كثر الحديث عنها بعد "مؤتمر عكاظ" الذي دعا له سمو الأمير "فيصل بن فهد" - رحمهما الله - رئيس رعاية الشباب، ومن الضروري للكلام هنا عن عكاظ أن نعيد إلى هذا المبحث المقال الذي استل منه ونشر في جريدة "المدينة المنورة"[(١)] إلى مكانه بعد انتهاء النقاش فيه.

٨- والبحث في "سوق عكاظ" تاريخه وجغرافيته يتجزأ إلى ست فقرات :

(١) لم يخطئ من قال : عكاظ بأعلى نجد قريبًا من عرفات!!

(٢) ما هي عكاظ؟

(٣) مواسم العرب وأسواقها العامة.

(٤) تاريخ "تبالة" و"العبلاء" و"عكاظ" وجغرافيتها.

(٥) أين كانت سوق عكاظ؟

(٦) سوق عكاظ انتهت بعد الحج الأكبر - في حياة النبي صلى الله عليه وسلم.

٩- فأولاً : عكاظ بأعلى نجد قريبًا من عرفات :

ليس بغريب أن يوجد في بحث تاريخي كثرت مصادره، وكثر الكلام فيه مثل البحث في "سوق عكاظ" ما يسترعي الانتباه، فمن المألوف في مثل هذه البحوث اختلاف وجهات النظر. وإنما الذي لا بد من التعليق عليه هو الحيرة من قول "ابن

---

(١) نشر المقال في : عدد ٣٣٨٢ في ١٣٩٥/٥/١٠هـ ، وعدد ٣٣٨٨ في ١٣٩٥/٥/١٧هـ ، وعدد ٣٣٨٩ في ١٣٩٥/٥/١٨هـ.

حبيب" : (عكاظ بأعلى نجد قريبًا من عرفات)[1] حيرة دفعت مرة إلى تغليط كتاب "المحبر"، ومرة إلى الشك في معلومات "ابن حبيب"، وأخيرًا إلى الاعتراض والاستنكار : أين نجد من عرفات[2] ؟!!!

مع أن كلام "ابن حبيب" واضح لا غبار عليه : عكاظ بأعلى نجد قريبًا من عرفات، فكل ما ارتفع عن "تهامة" فهو نجد، فهي ترعى بنجد وتشرب بتهامة، فإذا عرضت لك الحرار وأنت تنجد فتلك الحجاز - والنجود في تحقيق "الأصمعي" كثيرة منها : "نجد كبكب"، وكبكب[3] جبل تجعله خلف ظهرك إذا وقفت مع الإمام بعرفات. والعرب تسمي ما احتجز بجبال السراة - وهي الحجاز وما احتجز بها في شرقيها من الجبال وانحاز إلى ناحية "فيد" و"الجبلين" إلى "المدينة"، ومن بلاد مذحج : "تثليث" وما دونها إلى ناحية "فيد" حجازًا ونجدًا[4] وجلسًا، فابن حبيب عندما قال : عكاظ بأعلى نجد قريبًا من عرفات، لا يقصد نجدًا الذي هو أحد أقسام الجزيرة العربية، والذي ينتهي حده الغربي عند "فيد"، فابن حبيب مؤلف يعني ما يقول، فعكاظ - أرضًا وسوقًا - من الحجاز، فلقد جاء في "صفة جزيرة العرب" : (ثم سراة الطائف غورها مكة، ونجدها ديار "هوازن" من "عكاظ" والعبر)[5] . وجاء في "معجم ما استعجم" : (حد الحجاز مما يلي تهامة "بدر" و"السقيا" و"رهاط" و"عكاظ" وكانت "عكاظ" و"مجنة" و"ذو المجاز" أسواقًا لمكة في الجاهلية)[6]، فسوق عكاظ التي اشتهرت أخيرًا كانت تقام بين "مكة"

(١) معجم البكري ٩٥٩/٣ .
(٢) معجم ياقوت ٢٥٤/٨ .
(٣) معجم البكري ١١١٢/٣ ،معجم ياقوت ٢٥٧/٨ .
(٤) معجم ياقوت ٢١٩/٣ .
(٥) صفة ، ص٧١ .
(٦) معجم البكري ١٠ ، ٩٥٩/٣ .

و"الطائف" حسب رأي الأغلبية الساحقة؛ و"ذو المجاز" قيل: إنها تقام قرب "كبكب"، وقال بعضهم: ذو المجاز في "منى" و"مجنة" كانت سوقها بأسفل "مكة" على قدر بريد منها.

وجاء في "معجم البلدان": (العاليات جمع عالية، والعالية اسم لكل ما كان من جهة "نجد" من "المدينة" من قراها وعمايرها إلى "تهامة"، فهي العالية، وقال قوم: العالية ما جاوز "الرمة" إلى "مكة"، ومن أهل الحجاز من ليس بنجدي ولا غوري)[(١)].

فمثلما قال "ابن حبيب": (عكاظ بأعلى نجد قريبًا من عرفات) قال "ابن خلدون": (الطائف مدينة من نجد قريبًا من مكة)[(٢)]. ولعل قول "اليعقوبي": (عكاظ بأعلى نجد)[(٣)] هو الذي جعل البعض يظن أن سوق عكاظ نجدية لا حجازية ولا يمنية !! لأن النصوص التي تقدمت لم تسترع انتباهه مع أنها ليست ببعيدة عنه، فهي موجودة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها. فاليعقوبي مثل ابن حبيب وابن خلدون وغيرهما لا يقصد "نجدًا" التي تفصلها عن "تهامة" السراة - الحجاز.

ومما لابد للبحث من التعليق عليه ظن بعض الباحثين أن "العويقرين" الجبلين اللذين يشبهان الثديين هما الأثيداء !!!

فنحن إذا رجعنا إلى "معجم البلدان" الذي وجدنا فيه قول "الأصمعي": (تقام سوق العرب بموضع منه - أي من النخل الذي في الوادي - يقال له: الأثيداء)[(٤)] نجد فيه (الأثيداء - بلفظ التصغير - يجوز أن يكون تصغير "الثأد" - بنقل الهمزة إلى أوله - وهو "الثدا والثدي مكان بعكاظ)[(٥)].

---

(١) معجم ياقوت ١٠٠/٦.

(٢) تاريخ ابن خلدون، مطبعة النهضة، ١١٩/٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي.

(٤) معجم ياقوت ١٠٣/٦.

(٥) المرجع السابق ١١٠/٢.

وكلمة الأثيداء التي وردت في قول "الأصمعي" : (إن السوق كانت بموضع يقال له: "الأثيداء) لا تبعد عما أجازه "ياقوت". فلقد جاء في "لسان العرب" : (الثأد : الندى، والثئيد : المكان الندي). وقال "الأصمعي" : (قيل لبعض العرب : أصب لنا موضعًا، أي أطلب لنا موضعًا. فقال رائدهم : وجدت مكانًا ثئدًا مئدًا. وقال "زيد بن كثوة" قال : "عشب ثأد مأد"[1]، فمكان في واد بين نخل لابد أن يغشاه الندى، وينبت فيه العشب.

ويؤكد ذلك اقتناع الذين ظنوا "الأثيداء" هي "العويقرين" بقول "عرام بن الأصبغ" : (عكاظ صحراء مستوية ليس فيها جبل ولا علم إلا ما كان من الأنصاب التي كانت في الجاهلية، وبها الدماء من دماء الإبل كالأرحاء العظام). فهؤلاء اقتنعوا بقول "عرام" : "عكاظ" صحراء مستوية ليس فيها جبل.

ثانيًا : ما هي عكاظ؟ هل هي أرض أم سوق؟

١٠- إن كلمة "عكاظ" تأتي في معاجم البلدان، وفي مؤلفات المؤرخين اسما مضافًا إلى حريرة : "حريرة عكاظ"[2]، وهي حريرة تصغير "حرة"، من عكاظ[3]. وتأتي اسمًا لصحراء منبسطة لا علم بها ولا جبل إلا ما كان من أنصاب الجاهلية[4]. وتأتي اسمًا لنخل في واد بينه وبين الطائف ليلة، وبين مكة ثلاث ليال[5]. وتأتي حدًا من حدود الحجاز مما يلي "تهامة"، ففي "معجم ما استعجم" : (وحده الحجاز - مما يلي تهامة : "بدر" و"السقيا" و"رهاط" و"عكاظ")[6]، ويقول "ابن خلدون" : (عكاظ حجز بين اليمن

(١) لسان العرب ١٠١/٣ .

(٢) معجم ياقوت ١٠٢/٣ .

(٣) معجم البكري ٩٦٢/٣ .

(٤) معجم البكري ٩٥٩/٣ ؛ جبال تهامة، ص٧٩.

(٥) معجم ياقوت ٢٠٣/٦ .

(٦) معجم البكري ١١/١ .

والحجاز)[1] أي بين القطرين . وتأتي اسمًا لسوق من أعظم أسواق الجاهلية ومواسمها وأشهرها.

أما معنى "عكاظ" في معاجم اللغة فلا يخلو اسم من معان، فعن عكاظ قالوا : ("عكاظ" من "عكظ" وتعكظ القوم إذا تحبسوا لينظروا في أمورهم. وتعاكظ القوم تعاركوا وتفاخروا، ومنه سميت عكاظ، فعكاظ سوق العرب كانوا يتعاكظون فيها)[2]، ويقول "الحموي" : (ولو تكلف[3] متكلف تخرج معاني كل الأشياء من اللغة لساغ له أن يقول: "تبالة" من التبل الحقد).

فالذي يبدو من هذه الأقوال : أن كلمة "عكاظ" تعني أرضًا واسعة تمتد من ناحية "تهامة" من "نخلة" إلى "العبلاء" شرق الطائف الجنوبي، فيها : "حرة" و"واد" و"نخل" وأسواق أكبرها وأشهرها عكاظ، وقرى اندثرت. ومنها مواضع اشتهرت في التاريخ الجاهلي : "العبلاء" و"الشمطة" و"الحرة" و"شرب"[4] . وقيل : "ركبة" بلدة تتصل بعكاظ على طريق الناس من مكة إلى "الطائف"[5]. وفي "صفة جزيرة العرب" : "قران" في عكاظ[6].

والذي يظهر أن السوق اشتهرت أكثر من الأرض التي أقيمت عليها إلى درجة جعلت الباحثين يحتارون في أيهما سبق على اسم "عكاظ"؟ هل السوق سميت باسم الأرض؟ أم الأرض سميت باسم السوق؟!

(١) تاريخ ابن خلدون ١١٩/٢ .
(٢) لسان العرب ٤٤٧/٧ .
(٣) معجم ياقوت ٣٥٨/٢ .
(٤) معجم البكري ٩٥٩/٣ ، شمطة بالظاء المعجمة .
(٥) المرجع السابق ٦٦٩/٢ .
(٦) صفة، ص٢٦٦ .

والـذي يـرجحه الـبحث أن كلمـة عكـاظ اسـم أطلـق علـى الأرض، وإلى الأرض أضيفت السوق فقيل "سوق عكاظ"، فأرض عكاظ على قول "البكري" و"الحموي" و"ابن خلدون" تمتد من نخلة إلى "العبلاء" في جنوب "الطائف" الشرقي.

والذي ينشده البحث هو أين موضع السوق من أرض عكاظ؟ فأرض عكاظ واسعة الجوانب، وفي هذه الأرض الواسعة قامت أسواق. فمتى وأين قامت سوق عكاظ؟!

ثالثًا : مواسم العرب وأسواقها العامة :

١١- مما سمعت به عن أمم الماضي، ومما رأيته في شعوب الحاضر أن لكل قرية سوقًا خاصة بها وبالنازلين حولها في الحقول والمراعي وفي مصانع أزمنة الفحم الحجري والبترول والغبار الذري. وأن لكل حاضرة مواسم وأعيادًا تعتبر أسواقًا أعم من أسواق القرى تكتظ بسكان الحقول والقرى والمدن. فأنا لا أتجاوز الواقع إن قلت : إن هذه العادة ما زالت باقية في أرقى الأمم حضارة في هذا الحاضر الذي نعيش فيه. فلقد رأيت في "لندن" وفي غيرها أسواقًا أسبوعية يهبط إليها المتسوقون من الضواحي، ويحرص بعض اللندنيين على التسوق منها، ورأيت كيف تكتظ في الأعياد أسواق أوربا وأمريكا بالقرويين وأبناء المدن الصغرى لا سيما في العواصم الكبرى.

فالعرب في عصورهم الجاهلية كانوا كغيرهم من الأمم لهم أسواق قروية وأسواق في المدن تتفاوت سعة ونوعًا، وسيولة حسب ثروة العاملين ونشاطهم وموقع المدينة والقرية وكثافة السكان، وفي عصور الجاهلية العربية انتشرت الوثنية في الجزيرة، فأصبح في كل حاضرة صنم تتعبد له في المدن وفي الضواحي، ولكل صنم مواسم تقدم له فيها النذور، وأعياد يحتفل بها حوله، وهذه المواسم والأعياد صارت أسواقًا كبيرة لها شأنها في اقتصاد القبائل وتعايشها. ولها قيمتها بالنسبة للمطامح السياسية، فمطامع السياسة كانت وما زالت تستغل الأسواق والعقائد، فسوق "دومة الجندل"

كانت مواسم "ود"[1] . وكان النفوذ الروماني مسلطًا عليها. وسوق "هجر" كان نفوذ فارس مهيمنًا عليها. وفي أسواق العرب العامة التي تحدث عنها الذين عنوا بأسواق العرب، كانت تعرض بضاعة فارس، وبضاعة الروم، وبضاعة اليمن، وما وراء الخليج العربي. وما حول البحر الأحمر، وفي هذه الأسواق كان الشعراء "امرؤ القيس" و"المهلهل" وغيرهما ينشدون أشعارهم، ولقد سميت مدن وقرى باسم السوق مثل "سوق الربوع" وغيرها في جبال السراة. ولقد اتخذ العرب المسلمون أسواقًا بأسماء عربية أقيمت في المدن التي فتحوها.

ومن أهم مواسم الجاهلية وأسواقها : "عكاظ" و"ذو المجاز" و"مجنة"؛ فلعكاظ - وهو أهمها - تاريخ طويل صار جزءاً من تاريخ "سراة الحجاز". ففي تاريخ "سوق عكاظ" - كما يلوح من وراء الأنباء الغامضة التي نجدها محشورة في سطور - خبر قبيلة مثل : "خثعم" و"هوازن"، أو قصة ملك من ملوك الزمن القديم مثل : "امرئ القيس" و"أبرهة". فمن تاريخ هاتين القبيلتين، وهذين الملكين ما هو مرتبط بمواسم العرب الجاهلية في الأرضين المتداخلتين : "عكاظ" و"تبالة"، وبالأسواق العامة التي كانت تقام في سراة الطائف على طريق مكة.

ففي "سراة القطر الحجازي" مدينة تسمى "تبالة"، وفي "تبالة" صنم يسمى "ذا الخلصة" من أشهر أصنام الجاهلية بعد الميلاد، وأعظمها موسمًا، ولذي الخلصة قصة مع "امرئ القيس" تنسبها المصادر العربية لامرئ القيس بن حجر المتوفى سنة ٥٤٠م. وقصة "امرئ القيس" في المصادر العربية جاء فيها أن "امرأ القيس بن حجر" استعان بملوك اليمن للأخذ بثأر أبيه، واستأجر من قبائل السراة رجالاً احترفوا الحرب، فمر مع أنصاره بـ "تبالة"، فاستقسم، أي استشار، "ذا الخلصة" بقداحه

---

(١) السيرة، لابن هشام ١/٧٨.

الثلاثة : الآمر، والناهي، والمتربص متفائلاً، فإذا بالقدح الناهي هو الذي يخرج، فغضب "امرؤ القيس"، وكسر القداح ورمى بها وجه الصنم، فلم يستقسم عند "ذي الخلصة" بعد ذلك أحد[1].

وهذه القصة - وإن كانت غارقة في خيال الرواة - لا تخلو من أصل يستشف مما ورد عن "ذي الخلصة" في "تبالة"، و"ذي الخلصة" في "العبلاء"، ومما ورد "في نص النمارة". ففي "نص النمارة" ما ينبئ بأن "امرأ القيس" آخر كان قائدًا كبيرًا كما يقول : "جواد علي" أخضع قبيلتي "أسد" و"نزار"، وهزم "مذحجًا"، وأخضع "معدًا"، ووزع بنيه في القبائل. وبلغت فتوحاته أسوار "نجران"، فامرؤ القيس هذا توفي سنة ٣٢٨م، وامرؤ القيس هذا يقال إنه تنصر[2]، وامرؤ القيس هذا غير امرئ القيس بن حجر.

فإذا صح جنوح امرئ القيس هذا للنصرانية، وإذا كان "ذو الخلصة" الذي نصبه "عمرو بن لحي" هو ذا خلصة "تبالة" كما ترجحه عصور الرجلين، فإن الذي فعل ما فعله بذي خلصة تبالة هو "امرؤ القيس بن عمرو" لأن عصر "امرئ القيس بن حجر" متأخر عن عصر "عمرو بن لحي"؛ ولأن "امرأ القيس بن حجر" موتور يطلب العون والأنصار. فليس من المعقول أن يهين صنمًا من أكبر طواغيت الجاهلية تتعبد له قبائل لها خطرها. ولامرئ القيس بن حجر الكندي قصة مع الروم غير هذه - في المصادر العربية - لم يصدقها الباحثون في التاريخ الجاهلي؛ فجرجي زيدان يقول عن امرئ القيس بن حجر: (إنه تجول متنكرًا في "اليمن" و"الحجاز" و"نجد")[3].

---

(١) معجم ياقوت ٤٥٨/٣ .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي، ٤-٣٢ وما بعدها.

(٣) العرب قبل الإسلام ، ص٤٦ .

فامرؤ القيس بن عمرو الملك الذي بلغت فتوحاته أسوار "نجران" هو الرجل القادر على إهانة صنم "ذي الخلصة"، أما امرؤ القيس بن حجر فهذا أعقل من أن يتعرض لنقمة خثعم، وعلى ذلك تكون سوق ذي خلصة تبالة تضاءل شأنها بعد قصة امرئ القيس الأول، ليزدهر سوق ذي خلصة العبلاء.

و"العبلاء" أو "العبلات" كما في "معجم البلدان" بلدة كانت لقبيلة "خثعم" كان بها "ذي الخلصة" - بيت وصنم، وهي من أرض "تبالة". وعن "المبرد" أنه في موضع "ذي الخلصة" بني جامع بلدة العبلات[1]، والعبلاء أيضًا صخرة بيضاء بعكاظ.

وما جاء في المعاجم عن "ذي الخلصة" يرجح قول من يرى أن "ذا الخلصة" اسم أطلق على عدة أصنام: على "ذي خلصة تبالة" و"ذي خلصة العبلاء" و"ذي الخلصة" الذي نصب في أسفل "مكة". ويقول "الألوسي"[2]: ("ذو خلصة تبالة" غير "ذي الخلصة" الذي نصبه عمرو بن لحي - هذا إذا لم يكن التباليون نصبوا "ذا خلصة" آخر غير الذي نقله "ابن لحي" إلى مكة. ففي الجاهلية أصنام اشتركت في اسم واحد، على أن هناك احتمالات تلوح من بعد تشير إلى تعدد "ذي الخلصة"، وتنقل سوقها من مكان لآخر، وإلى تبدل اسم السوق، فلقد تقدمت الإشارة إلى الدلائل التي تسوغ الاعتقاد في أن مواسم "ذي الخلصة" بالعبلاء كانت تقام في أرض "العبلاء" - "الصخرة البيضاء" الكائنة بعكاظ، والدلائل التي تقدمت تعتمد على تداخل أرض مدينة "العبلاء" التي قيل إنها من "تبالة" مع أرض "العبلاء الصخرة" التي قيل إنها من "عكاظ" وعلى انتشار منازل "خثعم" من منطقة "الطائف" إلى "نجران".

---

(١) معجم ياقوت ١١٣/٦، ١١٤، ٤٥٧/٣.

(٢) بلوغ الأرب، للألوسي ٣٤٧/١.

وسوق "العبلاء" أو بالأصح مواسم "ذي الخلصة" في العبلاء ازدهرت كما يبدو من سطور الأنباء الغامضة بعد سنة ٣٢٨م. أي بعد الملك "امرئ القيس" صاحب "نص النمارة" وانتهت بعد غزو "أبرهة" صاحب الفيل، ففي سيرة "ابن هشام"[١] : أن قبائل "خثعم" وأنصارها اعترضوا أبرهة وجيوشه لصده عن "مكة" بقيادة نفيل بن حبيب الخثعمي، فانهزمت خثعم، وسار معه أسيره "نفيل الخثعمي" يدله على الطريق. حتى إذا مر بالطائف خرج إليه "مسعود بن معتب" في رجال "ثقيف" متذللين يستعطفون أبرهة ويؤكدون له أن بيت "اللات" ليس هو "بيت مكة الذي يريد أن يهدمه)[٢].

فاستنادًا إلى ما جاء في "سيرة ابن هشام" عن "أبرهة" النصراني المتحمس لكنيسة "القليس"، الذي جاء بجيوشه وفيله ليهدم "البيت الحرام" لا نستبعد أن يكون "أبرهة" بعد انتصاره على خثعم حطم صنمها في "العبلاء" ، فلولا تذلل "ثقيف" وخضوعها لعرج على "الطائف" أو "وج" كما كانت تسمى قديمًا، وهدم "اللات" وبيتها.

ولقد اختلف الذين شغلوا بتحقيق التاريخ الجاهلي في عصر "أبرهة" وفي عام الفيل بالنسبة للتاريخ الميلادي، هل هو في سنة ٥٧٠م؟ أم قبل ذلك؟

فمؤلفو دائرة المعارف الإسلامية يرفضون الرواية التي تجعل عام الفيل سنة ٥٧٠م : (وقد اعترض "نلدكه" بحق على أن يكون عام الفيل سنة ٥٧٠م، لأننا لو قبلنا ذلك لما كانت هناك بين حملة "أبرهة" على "مكة" وغزو الفرس لبلاد العرب الجنوبية عام ٥٧٠م فسحة من الوقت يحكم فيها "أبرهة" وأولاده، وتؤيد النقوش أن أبرهة كان نصرانيًا)[٣].

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٦/١ وما بعدها .

(٢) اللات صنم أهل الطائف .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٦٢/١ .

ويقول "جرجي زيدان" : إن دولة الأحباش بدأت سنة ٥٢٥م، وإن "أبرهة" كان حريصًا على نشر النصرانية في "حمير" فبنى الكنيسة التي اشتهرت باسم "القليس"(١) .

وعلى ضوء هذا التحقيق يمكننا أن نقول : إن مواسم "العبلاء" أصبحت شيئًا لا يذكر في الثلث الأول من القرن السادس الميلادي.

رابعًا : تاريخ تبالة والعبلاء وعكاظ وجغرافيتها :

١٢- إن أسواق العرب في الجاهلية هي في الأصل مواسم أعياد وثنية أكثرها سنوي، وأكثرها تهيأ له الأسواق المحلية في الضاحية أو القرية التي يتسوق منها السكان.

وفي سراة الطائف مدن أصنام تحدث عنه التاريخ منها : "وج- الطائف" التي كان بها صنم "اللات"، ومنها "تبالة" و"العبلاء" ، اللتان اشتهرتا بصنم "ذي الخلصة"، أما عكاظ فقد غطى الحج على أعياد "جهار" صنم "هوازن" الذي كان بجانب السوق، وعلى بقية الحجارة التي اتخذها الجاهليون أوثانًا يطوفون بها أيام إقامتهم بعكاظ.

ومن النصوص التي عرفناها وأشرنا إلى مصادرها يمكننا أن نخمن عصور أسواق سراة الطائف التي قامت على طريق مكة ، والتي منها سوق عكاظ، فعلى ضوء ما تقدم تبين لنا أن لصنم "ذي الخلصة" أعيادًا عامة لقبائل سراة الطائف وتهامتها ، ازدهرت أولاً في "تبالة". ولحادث من الحوادث قد يكون - كما يرجح - هو غزو "امرئ القيس" الملك الذي وصلت فتوحاته إلى أسوار "نجران" ، تقلصت مواسم "تبالة" وأخذت تتسع مواسم "العبلاء" ، وأيضًا لحادث من الحوادث، قد يكون - كما يرجح - هو حملة "أبرهة" التي اجتاحت سراة الطائف حتى بلغت أبواب "مكة" ، انتقلت مواسم السراة إلى "نخلة" قرب "عرفات" حيث اشتهرت باسم عكاظ.

---

(١) العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان، ص١٤٩ .

ولم يقل لنا "البكري" أين تكون "تبالة ذي الخلصة"، ففي "معجم البكري" : تبالة بقرب الطائف على طريق "اليمن". وفيه : "تبالة" من أعمال "مكة"، وفيه : "تبالة" من بلاد "اليمن"، وهذه هي المعنية في قول العرب (ما نزلت تبالة لتحرم الأضياف)[1].

وتبالة التي فيها بيت "ذي الخلصة" في رأي "ياقوت" هي التي في بلاد "اليمن"، وقد بنى[2] "ياقوت" رأيه هذا على أساس أن "بيت ذي الخلصة" هو الكعبة اليمانية التي بناها "أبرهة"، وهذا الرأي ينفيه ما أثبتته التحقيقات الأخيرة، فأبرهة نصراني بنى كنيسة لا صنمًا، ولم يتحقق "ابن منظور" من موضع "ذي الخلصة" فلقد نقل لنا رواية تقول إن "ذا الخلصة" بيت لخثعم كان يدعى "كعبة اليمامة"، ونقل بجانبها رواية أخرى: (وقيل : إنه الكعبة اليمانية التي كانت في اليمن)[3].

ونحن إذا ما فتشنا عن "تبالة" في تراث القدامى، نجدها في "صفة جزيرة العرب" قريبة من "بيشة"[4]. وفي "معجم البكري" : (مخاليف "مكة" النجدية : "الطائف" و"قرن المنازل" و"نجران" و"عكاظ" و"تربة" و"بيشة" و"تبالة" و"الهجر" و"جرش"[5]. ويعين "ياقوت" موضعها فيقول : (وبين "تبالة" و"مكة" اثنان وخمسون فرسخًا، نحو مسير ثمانية أيام، وبينها وبين "الطائف" ستة أيام أي تسعة وثلاثون فرسخًا. وبينها وبين "بيشة" يوم واحد، أي ستة فراسخ ونصف الفرسخ)[6].

---

(١) معجم البكري ٣٠١/١ .

(٢) معجم ياقوت ٣٥٧/٢ .

(٣) لسان العرب ٢٩/٧ .

(٤) صفة، ص٤٩ ، ٧١ ، ٨٤ ، ١١٩ .

(٥) معجم البكري ٣٠٩/١ .

(٦) معجم البلدان ٣٥٧/٢ .

ونحن إذا ما رجعنا إلى مادة "خلص" في معاجم اللغة نجد فيها : (الخالص الأبيض)[1]. وإذا ما رجعنا إلى معاجم البلدان نبحث عن (خلص) نجد : ("ذي الخلصة" مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج، وكانت بتبالة بين "مكة" و"اليمن"، ونجد أيضًا : (كان "ذو الخلصة" بيتًا تبعده "خثعم" وغيرهم، وكانوا سدنته بين "مكة" و"اليمن" بالعبلاء على أربع مراحل من مكة)[2]، ونجد فيها : (وقيل : العبلاء اسم لصخرة بيضاء إلى جانب عكاظ)[3]. وفي بعض الأقوال : (العبلاء من أرض عكاظ)[4]، ونجد ما قيل عن "ذي الخلصة" في تبالة مثل ما قيل عنه في "العبلاء"، حتى ليخيل للباحث أن البلدتين بلدة واحدة، لولا الفرق في المسافة التي تفصل بينهما وبين مكة . ونجد أسماء "تبالة" و"العبلاء" والعبلات وعبلة تتكرر حتى ليخيل للباحث أن هذه الكلمات ليست أسماء خاصة بمدن بل هي صفة عامة، لولا ما نراه في المصور الجغرافي وفي معاجم البلدان ومؤلفات المؤرخين من أسماء أطلقت على مواضع ومدن وجبال هنا وهناك في نواحي الجزيرة العربية مثل، "العوينـد" فهو اسم لمكان في أقصى "نجد"، وهو أيضًا اسم لمكان على ساحل "البحر الأحمر"، ومثل "الطائف" و"الجوف" في الشمال وفي الجنوب.

وإذا ما بحثنا عن "العبلاء" في معاجم اللغة نجد : (العبلاء حجارة بيضاء ، والعبلاء موضع)[5]، ونجدها في معاجم البلدان بلدة سدنة "ذي الخلصة" وبيته، وهي من أرض تبالة، أما العبلاء، الحجارة البيضاء، فهي في أرض عكاظ - كما تقدم - والعبلاء البلدة تبعد عن مكة أربع ليال، وعكاظ التي منها العبلاء تبعد عن مكة ثلاث ليال.

---

(١) لسان العرب، مادة (خلص).

(٢) معجم البلدان ٤٥٧/٣ .

(٣) معجم ياقوت ١١٣/٦ .

(٤) معجم البكري ٩٦١/٣ .

(٥) لسان العرب ٤٢٢/١١ .

فما أوردناه هنا وفيما سبق يظهر أن أرضي "تبالة" و"عكاظ" متداخلتان، وأن أسواق "تبالة" و"العبلاء" و"عكاظ" كانت تقام في منطقة لا يتجاوز طولها اثنين وخمسين فرسخًا ابتداءً من "مكة المكرمة" إلى "تبالة"، وأن أقدم الأسواق - على ما يرجح - هي سوق "تبالة" التي يرجع تاريخها إلى ما قبل سنة ٣٢٨م، وأن سوق "العبلاء" أخذت تحفل بقبائل العرب بعد سنة ٣٢٨م، ومن الثلث الأول من القرن السادس الميلادي انتقلت السوق إلى ما بين "مكة" و"الطائف".

ومن الواضح أن السوق التي كانت تقام في "تبالة" و"السوق التي كانت تقام في "العبلاء" لم تصورها لنا نتائج مستوفية النقاش والتحقيق، وإنما استعرفهما البحث استنتاجًا من غوامض الأنباء التي ترامت إلينا عن "ذي الخلصة" وعن مواسمه التي تتجمع فيها قبائل من "اليمامة" وقبائل من "اليمن" بجانب قبائل خثعم التي تجاورها. فدليل حضور عرب اليمامة واليمن إلى مواسم "ذي الخلصة" الأقوال التي وصلت إلى "ابن منظور" فقال على أساسها: (إن "ذا الخلصة" بيت خثعم كان يدعى "كعبة اليمامة") وقال مرة ثانية: (إنه الكعبة اليمانية التي كانت باليمن)؛ إذن فاليماميون واليمنيون يشتركون في عبادة "ذي الخلصة" كما يظهر.

ومن الواضح أن تواريخ الأسواق التي ذكرناها لم ننقلها من معجم وضع للمواسم والأسواق وسنيها، وإنما هي مستخرجة من النصوص التي تقدم ذكرها، فعلى هذه النصوص رجح البحث انتقال المواسم العامة من "تبالة" إلى "العبلاء" بعد "امرئ القيس"، فمن بعد سنة ٣٢٨م غطت مواسم "العبلاء" على "تبالة".

ومن الواضح أن السوق التي اشتهرت باسم "عكاظ" من أسواق سراة الطائف، وهي السوق التي قامت بين "مكة" و"الطائف"، ولكن الذي لم يصل إليه البحث، وقد يكون هناك باحث وصل إليه، هو أن "اسم عكاظ" يخص هذه السوق التي قامت في

نخل بواد بين مكة والطائف، والتي بلغت شهرتها القمة فغطت عليها دون سواها من الأسواق التي قامت على أرض عكاظ، في عصور أقدم من عصر هذه السوق مثل سوق "العبلاء" التي كانت تقام في "العبلاء" والعبلات شرق الطائف الجنوبي، فالبحث هنا لم يجد ما يثبت أن اسم سوق عكاظ خاص بسوق ما بين مكة والطائف.

ومن الواضح أن سوق عكاظ هي الأصل بالنسبة لأسواق: "ذي المجاز" و"مجنة" و"حباشة"[1]، وأن سوق عكاظ كانت تحتفل بالوافدين من مغارب الجزيرة العربية ومشارقها ومن جنوبها وشمالها عربًا وغير عرب، وثنيين وغير وثنيين. وأن مثل ذلك الاجتماع يغتنم - قديمًا وحاضرًا - فرصة للتفاهم في مختلف المشاكل المستعصية، بيد أن العقلية الجاهلية العامة كانت متحجرة كالأصنام التي تعبدها، لم تصقلها شريعة سمحة، وكل عقلية فجة غير ناضجة يبعث فيها الاحتكاك طبيعة الشر والتحدي، فتفقد حلمها لأتفه الأسباب، لذلك كانت المشاكل التي تنشأ في سوق عكاظ أكثر من المشاكل التي تنتهي فيها.

خامسًا: أين تكون سوق عكاظ؟

١٣- أين تكون سوق عكاظ؟ سؤال من الصعوبة بمكان الجواب عنه، فلم تخل أرض عكاظ على سعتها من الباحثين عن موضع السوق!! فمنهم من وقف بجانب "جهار" صنم "هوازن"[2] أجداد "ثقيف" وقال: هنا عكاظ، فلقد كانت قبائل العرب تطوف حول صخور قائمة في مكان سوق عكاظ، ومنهم من أخذ يتجول بين "نخلة" و"الطائف" يبحث عن موضع يقال له: "العتق"، بالعين؛ لأن "أبا عبيدة" قال: (إنها بين

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٢/٣٨٢.

(٢) تاريخ جواد علي ٥/١١٣؛ أسواق العرب، ص٢٨٧؛ دائرة المعارف الإسلامية، مادة "السوق".

نخلة والطائف إلى موضع يقال له العتق بينه وبين الطائف : عشرة أميال)[1]، ولعل الذي أتعب الباحثين عن "العتق" أن العتق - على ما أعلم - لم يذكره أحد على أنه موضع، غير "أبي عبيدة"، وإنما الذي ذكر في المعاجم والسيرة هو "الفتق" - بالفاء - ولكن الفتق : قرية من قرى الطائف، إذا صليت فيها اتجهت إلى الغرب وجعلت الطائف بينك وبين مكة[2]. و"الفتق" و"العبلاء" كلاهما قريب من الطائف. ولقد جاء في "صفة جزيرة العرب"[3] : (العبلاء والفتق وقد خربت). وآخرون أخذوا يبحثون عن آثار بلدة تسمى "ركبة" بها عين تسمى "خليص" قيل : (إنها تتصل بعكاظ)[4]. فوصلت مسيرتهم إلى صحراء ركبة. وأخذ غيرهم يبحث عن "ماءة يقال لها نقعاء"، فلقد جاء في "معجم ما استعجم" : (وعكاظ على دعوة - أي على قرب - من ماءة يقال لها نقعاء - بئر لا تنكف، أي لا ينزف ماؤها)[5]، وفريق أخذ يبحث عن "الأثيداء" الموضع الذي قال "الأصمعي" عنه : إن سوق عكاظ كانت بموضع يقال له : الأثيداء، ويقف عند كل صخرة قائمة في فضاء حول "غزوان"، فقد قالوا : إن في عكاظ حجارة كان الجاهليون يطوفون حولها. ولقد تقدمت حقيقة اسم "الأثيداء"[6] ، وجماعة أخذت تذهب من مكة إلى الطائف ومن الطائف إلى مكة تبحث عن آثار السوق التي ذكرتها المعاجم، لأن "ابن حجر" قال : (سوق عكاظ بين مكة والطائف وإلى الطائف أقرب)[7]. ونحن إذا ما

(١) معجم البكري ٩٥٩/٣ .

(٢) معجم البلدان ٢٣٨/٦ .

(٣) صفة، ص١٨٧ .

(٤) معجم البكري ٩٦٠/٣ .

(٥) المصدر نفسه ٩٥٩/٣ .

(٦) معجم ياقوت ٣٠٣/٦ .

(٧) فتح الباري ٦٧١/٨ .

وصلنا مع هؤلاء إلى الطائف نرى نفرًا بعد عن الطائف متجهًا إلى "نجد" متجاوزًا "الفتق" مصرًا على أن اليعقوبي في قوله (عكاظ بأعلى نجد) يقصد نجدًا أحد أقسام الجزيرة العربية التي تحدث عنها قدامى جغرافيي العرب، ولقد تقدم الكلام عما يقصده اليعقوبي بقوله : "عكاظ بأعلى نجد".

واستعرض "سعيد الأفغاني" آراء الباحثين أخيرًا عن موضع سوق عكاظ، فقال : إن "الزركلي" جعل مكانه على مرحلتين من "مكة" للذاهب إلى "الطائف" في باحة واسعة الجوانب يسمونها "القانس". وقال : إن "محمد حسين هيكل" جعل موضعه في جنوبي الطائف. وقال : (خرجت بصحبة وجيه الطائف السيد محمد صالح نصيف وعرفت منه أن الذي استقر عليه رأي الباحث المرحوم السيد رشدي ملحس وابن بليهد وسمو الأمير فيصل [جلالة الملك فيصل رحمه الله] أنها متنقلة على أرض تمتد من جنوبي "العشيرة" إلى "المسيل الصغير" و"الحوية - الحاوية")[١].

وبعد؛ فبماذا يجيب البحث عن هذا السؤال : أين تكون سوق عكاظ، بعد كل هذا الذي تقدم؟ إن البحث الذي لاح له من وراء الغموض الذي يحيط بتاريخ عكاظ قبل سنة ١٥ من عام الفيل لا يرفض قول الذين يعتقدون أن سوق عكاظ اتخذت قبل القرن السادس الميلادي، فلعل أنباء غامضة وصلت إليهم تشير إلى وجود أسواق جاهلية قديمة في أرض عكاظ الواسعة - التي تقدم الكلام عنها - مثل : مواسم "ذي الخلصة" في "العبلاء".

وكذلك لا يرفض البحث قول الذين يقولون : إن سوق عكاظ تنقلت من جنوبي "العشيرة" إلى "المسيل الصغير"، فقد يكون هؤلاء عثروا أو قيل لهم عن وجود آثار أسواق من جنوبي "العشيرة" إلى شرقي "الطائف"، فلقد تكرر الكلام عن أسواق سراة

(١) أسواق العرب، ص٢٨٦ وما بعدها.

الطائف التي من أشهرها "تبالة" و"العبلاء" ، فهاتان السوقان تجاهلهما المؤلفون في أسواق العرب، لأن قدامى المؤرخين شغلوا بأعياد "ذي الخلصة" عن أسواق "تبالة" و"العبلاء"، ولأن "سوق عكاظ" غطى عليهما وأصبح عكاظ في "سراة الطائف" مثل "عاد"، فكما نسب كل أثر قديم لعاد، أخذ رواة أيام العرب وأسواقها ينسبون لعكاظ كل قصة وأثر في تلك السراة، فاقتصرت البحوث على السوق التي شهدها النبي صلى الله عليه وسلم بين مكة والطائف بعد عام الفيل، فكل أثر يظهر في تلك المنطقة من جنوبي العشيرة إلى غربي الطائف وشرقها ينسب لسوق عكاظ ما بعد عام الفيل، على أن البحث لم يصل إلى نص يثبت أن اسم عكاظ - أرضًا وسوقًا - لم يعرف قبل عام الفيل، ولم يطلق على غير "السوق التي شهدت حروب الفجار، والجدير بالإشارة إليه هنا أن تنقل السوق لم يكن سنويًا كما فهم البعض، بل كان في حقب تفصل بعضها عن بعض عشرات السنين كما تقدم.

أما "سوق عكاظ" التي شهدها النبي صلى الله عليه وسلم، وخطب فيها "قس بن ساعدة" فتلك بين "مكة" و"الطائف" على مقربة من "عرفات" تحف بها "النخيل" كما تحف بـ "بدر" ، وتروي المتسوقين بئرها التي لا ينزف ماؤها، كما كانت مياه "القلب" تروى المتسوقين في "بدر".

فغالب الأقوال تؤكد أن سوق عكاظ التي خطب فيها "قس بن ساعدة" كانت تقام في "نخلة"، ونخلة كما يقول "البكري" : (نخلة الشامية ونخلة اليمانية، فأما الشامية فهي واد ينصب من "الغمير"، واليمانية أيضًا واد ينصب من بطن "قرن المنازل"، وهو طريق اليمن إلى مكة فإذا اجتمعا فكانا واديًا واحدًا، فهو "المسد" ثم يضمهما "بطن مر"[1]. ووادي نخلة - كما يبدو على خريطة أرامكو - يبتدئ من شمال شرقي موضع

---

(١) معجم البكري ٤/١٣٠٤ .

يسمى "المضيق" غربي "المسيل الكبير" إلى ما بعد "الزيمة"، فالزيمة في "معجم ياقوت" قرية بوادي نخلة[1] من أرض مكة.

وأعالي "نخلة" تعتبر من نجد "مكة" قريبًا من "عرفات". والمسافة بين عرفات وأعالي نخلة يتفاوت طولها بالنسبة إلى الطريق التي كان يسلكها المسافرون. فالطريق من مكة إلى الطائف كانت قبل عصر السيارات في الماضي القريب وبعد عصر السيارات في الوقت الحاضر طريقين: إحداهما طريق "الهدة"، والثاني طريق "السيل" ويقول "الأصفهاني" إن "عمر بن أبي ربيعة" سلك طريق "كداء" وهي أخشن الطرق من مكة إلى الطائف وأقربها[2]. وما أكثر الطرق التي كانت القوافل تقطعها من مكة إلى المدينة. فها نحن أولاء في هذا العهد كنا نسافر إلى مكة من المدينة عن طريق "آبار ابن حصاني"، ثم سلكنا طريق "هرشة". والآن نسلك طريق "بدر"، وهناك طريق يقال لها طريق الغاير، ولأجل أن يكون القارئ على بينة مما جاء في البحث نقلت من خريطة المملكة مقاس ١/٢،٠٠٠،٠٠٠ تحقيق "أرامكو" منطقة ما بين "مكة" و"تبالة"، ووضعت الأماكن التي يدور حولها البحث مثل "تبالة" و"العبلاء" حسبما ورد في النصوص، فمواضعها تقريبية بالنسبة لمقياس الخريطة، فالخريطة تساعد على توضيح الفكرة[3].

فمما لا شك فيه أن "مكة المكرمة" زادت قداستها وحرمتها في قلوب عامة العرب وخاصتهم بعد عام الفيل، فلا غرو إن حرص عرب الحجاز على اتخاذ سوقهم بين "مكة" و"الطائف" على مقربة من "عرفات"، فإن نقلها إلى هناك يضفي عليها حرمة مكة وقداسة مشاعرها. ولا غرو إن حرص عرب الحجاز على أن ترتبط مواسمهم

---

(١) معجم البلدان ٤/٤٢٦.

(٢) الأغاني ١/٢٠٢.

(٣) انظر خريطة عكاظ في الأطلس الخاص بالتاريخ العربي وجغرافيته في آخر هذه الحلقة.

بمواسم الحج حتى أصبحت كأنها جزء من حج الجاهليين. فإن هذا التوقيت يجعلها متجرًا للحجيج جميعه، فأكثر الجاهليين لا يبيع ولا يشتري في حرم مكة وعرفات ومنى في أيام الحج؛ لذلك اعتبر رواد التاريخ القدامى الذين لهم الفضل في جمع هذا التراث الذي نرجع إليه كلما بحثنا في جانب من جوانب التاريخ العربي قبل الإسلام وبعده = سوق عكاظ سوقًا من أسواق مكة.

ولا يستبعد البحث أن يكون القرشيون فكروا، بل عملوا على أن تكون زعامة السوق لهم، فهم سدنة البيت الحرام الذي حج إليه العرب فملأوا سوق عكاظ كما ملأوا وادي "منى"، والقرشيون هم الذين أنشأوا الصلات التجارية بين الحجاز وبين الدول المجاورة لبلاد العرب، ولا يستبعد البحث أن تكون "هوازن" وأنصارها قد وقفت في وجه قريش، وأن تكون هناك أسباب أعمق من التي ذكرها مؤلفو أيام العرب في حديثهم عن حرب الفجار اندلعت من أجلها تلك الحروب التي عرفت بحرب الفجار.

سادسًا: سوق عكاظ انتهت بعد الحج الأكبر في حياة النبي صلى الله عليه وسلم:

١٤- لقد توقفت كثيرًا قبل أن أبحث فيما جاء في "دائرة المعارف الإسلامية" عن التاريخ الذي تركت فيها "سوق عكاظ". فدائرة المعارف الإسلامية لم تقتنع بالرواية المتداولة التي تقول: (اتخذت سوق عكاظ بعد الفيل بخمس عشرة سنة، وتركت عام خرجت الحرورية بمكة مع "المختار بن عوف" سنة تسع وعشرين ومائة)[(١)]. فمؤلفو دائرة المعارف الإسلامية يقولون بعد أن ذكروا هذه الرواية: (على أن الثابت أن تركها حدث قبل ذلك بوقت طويل بعد أن أبطل الإسلام الأشهر الحرم. إذ ازدادت مخاطر الطرق زيادة جعلت زوار السوق يخشون على حياتهم وأموالهم، وقد دفعت فتوح

(١) معجم البكري ٩٥٩/٣.

المسلمين بصفة خاصة العرب إلى بلاد قاصية، فوجدوا فيها مراكز تجارية أكثر ملاءمة لهم من سوق عكاظ)[١].

توقفت عن البحث لأن الكثيرين ممن بحثوا في العصر الحاضر في "سوق عكاظ" مثل "جواد علي" وغيره تمسكوا برواية نسبت إلى "ابن عباس" أنه قال: (كانت "ذو المجاز" و"عكاظ" متجرًا للناس في الجاهلية)، فلما جاء الإسلام كرهوا ذلك حتى أنزل الله جل ثناؤه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾[٢] (البقرة/ ١٩٨)؛ ولأن كل من بحث في تاريخ سوق عكاظ اعتمد الرواية التي تجعل نهاية "سوق عكاظ" في سنة ١٢٩هـ.

توقفت عن البحث فيما جاء في "دائرة المعارف الإسلامية" إلى أن اطلعت على روايات نقلها "ابن منظور" عن "الليث" وغيره، والليث الذي يقصده ابن منظور هو "الليث بن سعد الفهمي بالولاء" المتوفى سنة ١٧٥هـ، فالليث بن سعد مؤرخ ثقة له "كتاب التاريخ"[٣]، فلقد جاء في "لسان العرب": (قال الليث: سميت عكاظًا لأن العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضًا بالمفاخرة، وقال "الأزهري"، كانت قبائل العرب تجتمع بها كل سنة ويتفاخرون بها ويحضرها الشعراء فيتناشدون ما أحدثوا من الشعر، ثم يتفرقون، قال وهي بقرب "مكة" كان العرب يجتمعون بها كل سنة، فيقيمون شهرًا يتبايعون ويتفاخرون ويتناشدون. فلما جاء الإسلام هدم ذلك، ومنه يوما "عكاظ"، لأنه كانت بها وقعة بعد وقعة)[٤].

والأزهري الذي يقصده "ابن منظور" هو "محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي" المتوفى سنة ٣٧٠هـ الذي قال عنه "خير الدين الزركلي" نقلاً عن مصادره: (عني

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣٨٣/١٢.

(٢) تفسير ابن جرير ١٦٧/٣ وما بعدها.

(٣) لسان العرب ٤٤٨/٧؛ الأعلام ١١٥/٦؛ فهرست ابن النديم، طبع طهران، ص٢٥٢.

(٤) لسان العرب، مادة "عكاظ".

"الأزهري" بالفقه، فاشتهر به أولاً ثم غلب عليه التبحر في العربية فرحل في طلبها، وقصد القبائل وتوسع في أخبارهم ووقع في إسار "القرامطة" فكان مع فريق من "هوازن")[1].

فالأزهري هذا ينسب لجده "الأزهر"، والأزهري هذا ثقة في أخبار "عكاظ" بالذات، فهو فقيه قصد القبائل العربية في سبيل اللغة والتوسع في أخبار العرب، وهو محقق عاش مع "هوازن" حفدة هوازن عكاظ الجاهليين الذين حافظوا على لغتهم وأخبار جاهليتهم، فهذا الفقيه المحقق يؤكد أن الإسلام هدم فيما هدم يومي "عكاظ" واليومان اللذان وردا في رواية "ابن منظور" هما "عكاظ" و"ذو المجاز".

إذن ليس مؤلفو "دائرة المعارف الإسلامية" وحدهم هم الذين يقولون إن سوق "عكاظ" انتهت قبل سنة ١٢٩هـ. وليسوا هم وحدهم الذين يقولون: إن السوق انتهت لسبب سبق غزو الحرورية الذين نهبوا نخل وحوانيت عكاظ كما نهب في عصور الجاهلية القديمة "حسان الحميري" أموال العدنانيين في "نخلة". فعكاظ في نخلة، ونخلة من بلاد السراة الغنية. ويقولون إن سوق عكاظ بعد الإسلام أصبحت سوقًا محلية يمر بها القادمون إلى مكة، ولكن لا يقيمون شهرًا يحتفلون فيه ولا يعكظ بعضهم بعضًا.

وإذن من الضروري البحث فيما جاء في "دائرة المعارف الإسلامية" وفي "لسان العرب". ولقد كانت نتائج البحث كما يأتي:

١- تفسير الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (البقرة/١٩٨) المنسوب إلى "ابن عباس": (وكانت "ذو المجاز" و"عكاظ" متجرًا للناس في الجاهلية،

(١) الأعلام ٦/٢٠٢.

فلما جاء الإسلام كرهوا ذلك حتى نزلت الآية الكريمة، الذي رجع إليه "جواد علي" وغيره، ليس هو التفسير الوحيد. إن قول "ابن عباس" واحد من أقوال كثيرة جمعها "ابن جرير" في تفسيره، منها أقوال لابن عباس نفسه ولـ "ابن جبير" و"مجاهد" تؤكد (أن هذه الآية أباحت البيع والشراء في الحج، حيث كانت العرب لا تتجر في أيام الحج بعد تركها عكاظًا وذا المجاز، فنزلت هذه الآية تبيح لهم الاتجار في كل مكان وفي كل يوم من أيام الحج).

وهذه الآية الكريمة سبقها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ﴾ (البقرة/١٩٧)، والجدال هو الحديث بما يغضب الآخرين، ومما يغضب الآخرين الافتخار بالأنساب والأموال، وبالقبيلة إلى غير ذلك مما كان يحدث في "عكاظ".

٢- ولا أحسب أنني أنا وحدي الذي أسأت الظن فيما قالته "دائرة المعارف الإسلامية" (بعد أن أبطل الإسلام الأشهر الحرم، إذ زادت مخاطر الطرق زيادة جعلت زوار السوق يخشون على حياتهم وأموالهم)، فما أكثر ما دس المستشرقون أشياء على تاريخنا، وتاريخنا - لا سيما الإسلامي - منها براء.

ولكن بالرجوع إلى سورة "التوبة" وما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة/٣) وجدت المفسرين يقولون: (أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم "أبابكر" و"عليًا" رضي الله عنهما، فطافا بالناس بذي المجاز وبأمكنتهم التي كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كلها، فاذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر، فهي الأشهر المتواليات: عشرون من آخر ذي الحجة إلى عشر يخلون من شهر ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم. وآذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا)، وعن "مجاهد": (الحج الأكبر أيام منى كلها، وفي مجامع

المشـركين حـين كانـوا بـذي المجـاز وعكـاظ ومجـنـة نـودي فـيهم : ألا يجـتمع المسـلمون والمشـركون بعد عـامهم هـذا ، وألا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فعهده إلى مدته). ولقد حددت الأشهر التي حرمت فيها دماء الذين كان لهم عهد من المشركين ، ولقد تفرقت السبل بالمسفرين بحثًا عما تفسر به كلمة الحج الأكبر ، فمما قيل عن الحج الأكبر : (إنما سمي الحج الأكبر لأنه يوم حج فيه "أبوبكر" ونبذت فيه العهود)[١].

فأقوال المفسرين التي وجدتها في مؤلف "ابن جرير" وضحت - حسبما ظهر لي - حقيقة المخاطر التي كان يخافها الوثنيون الذين كان لهم عهد والذين لم يكن لهم عهد بعد ذلك الإنذار الذي أذاعه أبوبكر وعلي في أسواق مكة. فلم يشهد بعد ذلك العام مكة وأسواقها مشرك ، أما المسلمون فهم في شغل عن عكاظ والتفاخر بالأنساب والأموال ، حيث كانوا منصرفين إلى تفهم تعاليم الإسلام التي نقلتهم من طور إلى طور ، فلم يبق في عكاظ غير أسواق محلية يتسوق منها سكان نخلة والوافدون إلى مكة والصادرون منها.

فالعقلية العربية تطورت بعد الإسلام ، فالمثل العليا التي كانت في الجاهلية صورة مجسدة للغطرسة والتعالي والافتخار بالأحساب والأموال ، والبغي والعدوان والمتع التي لا تردعها مخافة الله في اليوم الآخر ، أصبحت تواضعًا وقناعة وعدلاً وعفة وأخوة وخوفًا من يوم البعث والنشور. فالمؤمنون سواسية ، ومهما بلغ الإنسان قوة وثروة وجاهًا ، فهو لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً.

٣- لم أجد في كتب التاريخ والسير - على ما وصل إليه علمي - ذكرًا لسوق عكاظ بعد الإسلام ، فلم يقل مؤرخ : إن مؤتمرًا أدبيًا عقد في عكاظ ، وإن قبابًا نصبت لفحول

(١) تفسير ابن جرير الطبري ٤٤/١٠ ، ٥٣ ، ٥٤ .

الشعراء الإسلاميين في عكاظ ليحكموا فيها بين الشعراء. وعندما تحدث مؤرخو الأدب العربي في عصوره الإسلامية عن الشعر والشعراء لم يذكروا عكاظًا في كلامهم عن "جرير" و"الفرزدق" و"الأخطل"، وعن التحدي والتنافس اللذين سادا بين هؤلاء الشعراء الفحول وغيرهم من فحول شعراء العصر الأموي مثل "الراعي" و"ابن أبي ربيعة".

أجل لم يذكر تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي عكاظًا كما ذكر "عقيق المدينة" و"مربد البصرة"، فلو أن سوق عكاظ كانت في الإسلام على ما هي عليه في الجاهلية لذكرها التاريخ الأدبي والسياسي، ولو أن سوق عكاظ كانت على ما هي عليه في الجاهلية لما تشتتت الظنون في البحث عن موضعها، فمن الذين تحدثوا عن عكاظ من ولد في سنة ٩٤هـ وتوفي سنة ١٧٥هـ مثل : "الليث بن سعد"، فلو أن سوق عكاظ كانت مضمار أدب وشعر، لما فات الليث حضورها، فهو مؤرخ، والمؤرخ يهمه حقائق التاريخ، ولا يبعد أن يكون "الليث" صاحب "مالك" كما يقولون، حج أكثر من مرة. فلو أنها كانت موجودة لما فاته حضورها، ولو أنه حضرها لما فاته وصف حالها بعد الإسلام.

على أن هذا البحث ليس هو أول بحث في عكاظ ولن يكون آخر بحث فيها، وأن نتائجه لم تستوعب كل ما قيل عن "عكاظ"، فلعل هناك باحثًا وصل إلى ما لم يصل إليه هذا البحث ونتائجه، فليت الذين يعتقدون : (أن عكاظًا، التي شهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صبي، أقرها بعد أن ظهر الإسلام وطبق أنحاء الأرض، واستمرت في عهود الإسلام الزاهرة)[1]، يشجبون قول "الأزهري" : (هدم الإسلام

(١) المجاز، ص٢٤٨.

عكاظًا)، ويشجبون قول "دائرة المعارف الإسلامية" التي تؤكد أن عكاظًا انتهت قبل سنة ١٢٩هـ بحديث ولو من غير الصحاح وبنص ولو كان من غير ابن جرير الطبري.

فعكاظ في قول الأزهري ودائرة المعارف وغيرهما ممن تعمق في تحقيقه لم تكن - بعد الحج الأكبر - أكثر من سوق تجاري محلي يتسوق منه بعض الحجاج القادمين من الجنوب نهبتها الحرورية سنة ١٢٩هـ فانتهى كليًا، ليتهم يشجبون قول "الأزهري" بنص يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرّ سوق عكاظ، ويشجب قول "دائرة المعارف الإسلامية" بنصوص تثبت أن سوق عكاظ بشعرائها وقبابها وخطبائها ومنابرهم استمرت في عهود الإسلام الزاهرة(١).

١٥- والسراة الثانية هي عسير، ونحن إذا ما بحثنا عن كلمة عسير، على أنها اسم لمنطقة، لا نجد لها أثرًا في معاجم البلدان ولا في معاجم اللغة. فعسير في معجم ياقوت، وفي لسان العرب هي بئر في "المدينة المنورة" بدل النبي صلى الله عليه وسلم اسمها من عسير إلى يسير، وكل ما جاء في صفة الجزيرة للهمداني عن عسير جاء عن قبائلها. فلقد قال: (ثم يواطن "حزيمة" من شاميها: عسير قبائل من "عنز"، و"عسير" يمانية تنزرت ودخلت في "عنز") وعنز في الأصل: "لقب" وقد سمي به رجلان من رجال التاريخ: ١- "عنز بن وائل" ٢- "عنز بن أسد"، وإلى كليهما تنسب قبائل. ويقول الهمداني: (وأوطان عسير إلى "رأس تيه" وهي عقبة من أشراف تهامة وهي "أبها"، وبها قبر "ذي القرنين" فيما يقال، عثر عليه على رأس ثلثمائة من تاريخ الهجرة. و"الدارة" و"الفتيحا" و"اللصبة" و"الملحة" و"طبب" و"أتانة" و"عبل" و"المغوث" و"جرشة" و"الحدبة"، هذه أودية

(١) إن الذين علقوا على كلمتي التي نشرتها جريدة المدينة أكدوا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقر سوق عكاظ، وأن السوق انتهت في حياته صلى الله عليه وسلم.

عسير كلها)[1]. ويقول "جواد علي" : (واسم عسير علمًا على أرض استعمال حديث لم يعرفه الجغرافيون إلا منذ قرنين)[2].

فالذي يبدو من كلام الهمداني أن عسيرًا قبائل سكنت منطقة تمتد من سراة الطائف إلى سراة اليمن، بعضها من اليمن، وبعضها من الحجاز، وباسم هذه القبائل سميت المنطقة، ولقد قال "الواسعي" عن عسير : (بدأت شهرة عسير عند احتلال الترك لها، وكان أميرها "محمد بن عائض" سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م)[3].

وهكذا دخل اليمن في عهد جديد، واستمرت الحكومات تتعاور على اليمن منذ انتقل النفوذ على دول اليمن من المماليك إلى العثمانيين. ومن منتصف القرن الحادي عشر من الهجرة بدأ الصراع بين أئمة اليمن والدولة العثمانية فكانت ثورات دامية يتبع بعضها بعضًا إلى أن اعترف "الإمام يحيى" بسيادة الدولة العثمانية الدستورية، وفي سنة ١٣٢٩هـ قامت ثورة في عسير فجرد لها شريف مكة "الحسين بن علي" - آنذاك - جيشًا تحت قيادة ابنه "الشريف عبدالله بك" - لقبه إذ ذاك - أخمد تلك الثورة، فارتبط من ذلك التاريخ لواء عسير بالإقليم الحجازي وأصبح جزءاً منه إلى أن أسس "الإدريسي" إمارته في تهامة عسير، وتحالف مع عاهل نجد المغفور له جلالة الملك عبدالعزيز، فأصبح بذلك عدوًا لآل عائض حكام عسير المرتبطين بملك

(١) صفة جزيرة العرب، ص١١٨ .

(٢) تاريخ العرب، لجواد علي ٣٩٧/٣ .

(٣) تاريخ اليمن للواسعي، ص٩٩ .

الحجاز، واستمرت الحال بينهما غير مستقرة إلى أن توحد الحجاز ونجد وتهامة وعسير والأحساء دولة واحدة، تحت راية واحدة. فأصبحت سراة الحجاز ما خلا المناطق التي تنازل عنها "الملك حسين بن علي" للأردن مع سراة عسير جزءاً من المملكة العربية السعودية واندمجت السراتان في تقسيماتهما الإدارية، وأصبحت حواضرهما إمارات منها ما هو تابع لمنطقة الرياض، ومنها ما هو تابع لمنطقة المدينة، ومنها ما هو تابع لمنطقة مكة المكرمة، ومنها ما هو تابع لمنطقة أبها، ومنها ما هو تابع للمنطقة الشرقية[1]،وبلاد عسير أسهمت في تاريخ الجزيرة ببعض ما أسهمت به اليمن وأسهم به الحجاز في ماضيهما القديم، فمما يستأنس به الباحث في تاريخ عسير ما ذكره الهمداني عن قبر ذي القرنين الذي عثر عليه في "أبها" على رأس ثلثمائة من تاريخ الهجرة، فهذا الخبر - وإن كان يحتاج إلى ما يؤكده - يدلنا على أن منطقة عسير شهدت شيئًا من فصول التاريخ العربي القديم، فظنون الباحثين ما انفكت تدور حول "ذي القرنين" : من هو ؟ ومتى ظهر؟ وأين مثواه؟ أما أجداد قبائل عسير الأزدية والمعروفة في العصر الحاضر بهذه الأسماء التي ذكرها "فريد وجدي" بـ "بني علقم" و"فيف" و"ذوي محمد" و"ذوي حسين" فإنني لم أعثر على نشاط لهم مبرز مستقل عن "مكة" و"صنعاء".

وتكلم "حافظ وهبة" عن منطقة عسير على أساس أنها (الجهة الغربية من بلاد العرب الواقعة إلى جنوب الحجاز) وتشمل هذه الجهة الغربية من بلاد العرب في بحث

---

(١) كان هذا قبل تقسيم المملكة الجديد إلى مناطق إدارية، أصبحت بموجبه "عسير" منطقة إدارية مركزها مدينة أبها.

حافظ : "بيشة" و"تربة" و"أبها" و"محايل" و"خميس مشيط" وغيرها من مدن جبال السراة، وتشتمل على "أبي عريش" و"صبيا" و"القنفذة" و"جازان" و"ميدي" وغيرها من مدن تهامة.

وعن هذه المنطقة قال حافظ وهبة : (كانت مقاطعة عسير تابعة لليمن في العهد العثماني، ولكن الحقيقة أن هذه المقاطعة كان يتنازعها نفوذ "شريف مكة" و"إمام اليمن" و"الإدريسي" وبعض الأمراء المحليين الذين كان يتمتع بعضهم بشبه استقلال، غير أن الجميع كانوا يعترفون بسلطة الحكومة التركية. فكانت "صبيا" قاعدة الأدارسة، وكانت "جازان" و"ميدي" ميناءين لها، وكانت "أبو عريش" قاعدة إمارة "الشريف علي")(١).

والمؤرخون الذين تكلموا عن عسير تحدثوا عن صلة قبائلها بسلطنة نجد ، فيقول "فريد وجدي" : (أما أهل "عسير" فهم "وهابيون" أي يتبعون الإمام "محمد بن عبدالوهاب")(٢)، وسيأتي الكلام عما قالوه عن مدينة "جازان" وعن "المخلاف السليماني" وما قالوه عن تاريخ "مخلاف عسير" السياسي قبل العهد العثماني، عندما نتحدث عن مخاليف اليمن.

وسراة عسير اليوم آخذة في التطور السريع علميًا وعمرانيًا وزراعيًا . فلقد أصبحت في كل مدينة تقريبًا مدارس ابتدائية وإعدادية وثانوية، وربما تصل نسبة المدارس الابتدائية لكل بضع قرى مدرسة ابتدائية. ولقد سارت "أبها" و"خميس مشيط" ومن ورائهما "السوداء" [السودة] وغيرها من المدن، في طريق العمران الحديث المنظم.

ولقد كان لتمهيد الطرق وسفلتة أكثرها وارتباط قاعدة عسير : "أبها" بقاعدة تهامة :"جازان" بطريق مسفلت أثره في رواج المنتوجات الزراعية في غير أسواق عسير.

---

(١) جزيرة العرب، ص٣٦ - ٤٢ .

(٢) دائرة معارف وجدي، فصل العين، ٦/٢٢٨ .

ولقد علمت من سكان جبال "عسير" و"غامد" و"زهران" أنهم يصدرون الباذنجان الأحمر وبعض الخضار والفواكه إلى الأردن وسورية.

فهاتان السراتان : سراة الإقليم الحجازي بأقسامها ، وسراة عسير، هما اليوم من أجزاء المملكة العربية السعودية ، ولذلك يمكننا أن نطلق عليهما : السروات السعودية. وحدود السروات السعودية في الوقت الحاضر هي حدود المملكة العربية السعودية : شمالاً الأردن، وجنوبًا اليمن، أما شرقًا فقد انصهرت الحدود بعد أن توحد القسمان نجد والحجاز. وأما غربًا فلقد اختلطت تهامة بالسراة وانصهرت الحدود بعد أن أصبح الجميع مناطق من المملكة العربية السعودية التي يحدها من الغرب البحر الأحمر.

١٦- وأخيرًا : سراة اليمن السراة الثالثة ، وسراة اليمن أو حجاز اليمن، هذا القسم من سلسلة الجبال التي أسماها العرب الحجاز ، تابع لليمن أحد أقسام الجزيرة الخمسة ، فحدود ذلك اليمن أحد أقسام الجزيرة العربية غير حدود سراة اليمن، فحدود اليمن عند بعضهم هي : (اليمن ما اشتمل عليه حدودها بين "عمان" إلى "نجران". ثم يلتوي على بحر العرب إلى "عدن" إلى "الشحر" حتى يجتاز "عمان" فينقطع من "بينونة" ، وبينونة بين عمان والبحرين وليست بينونة من اليمن[1] و"بينونة" في خريطة الجزيرة العربية التي وضعتها "شركة أرامكو" تقع عند تقاطع خط الطول (٥٣ْ) بخط العرض (٢٤ْ) بعيدة عن حدود "عمان" في الوقت الراهن، وأما "نجران" فاختلفت الأقوال في جبالها هل هي من السراة؟ أو خارجة عنها؟

أما السراة الجنوبية أو سراة اليمن فتمتد حدودها شمالاً من سراة عسير، ويفصل بينهما اليوم خط حدود سياسي يظهر على خريطة الجزيرة العربية ممتدًا من

---

(١) معجم ياقوت ٥٢٢/٨ .

ميناء "ميدي" على البحر الأحمر إلى شمالي "سحار" إلى جنوبي "مدينة نجران". وتحد سراة اليمن جنوبًا منطقة "عدن" ويحدها شرقًا "نجد اليمن" ويحدها غربًا "تهامة اليمن"، ولا تزال "أزال - صنعاء" و"جماع - صعدة"[1]، و"تعز" من أهم مدن سراة اليمن أو بالأصح أهمها، ولا يزال اليمن الحديث يحتفظ ببعض مقاطعاته التاريخية مثل "حضرموت".

١٧- أما نشاط "الحجاز - السراة" السياسي، فيمكن تقسيم البحث فيه حسب جغرافية السراة السياسية، فالقسم اليمني منها ارتبط بالدول التي هيمنت على مقدراته فيما قبل الإسلام: معين، وسبأ، وحمير. وفي العصور الإسلامية ارتبط اليمن جميعه بعواصم الخلافة الإسلامية: المدينة، ودمشق، وبغداد، والقاهرة، وأخيرًا بأستانبول. ولم يكن اليمن بنجوة من الانقسام والانفصال عن عواصم الخلافة، فلقد أصابه ما أصاب الأقاليم الإسلامية في داخل جزيرة العرب وفي خارجها، ولسوف نتكلم في الفصل الخاص باليمن أحد أقسام جزيرة العرب عن نشاط اليمنيين السياسي في السراة، وفي تهامة، وفي عدن، وحضرموت، وظفار. فلليمنيين ماض سياسي وحضاري حافل.

ولقد تبينا جانبًا من نشاط سراة عسير فيما سبق من الكلام عن جغرافيتها، ولقد ظهر لنا في ذلك الجانب أن هذه السراة ارتبطت بعجلة سبأ وصنعاء في أكثر أجيال جاهليتها، وأنها كانت معبرًا لكثير من القبائل التي رحلت من الجنوب إلى الشمال، والتي أقبلت من الشمال إلى الجنوب. أما في عصور الخلافة الإسلامية فقد دخلت قبائل عسير فيما دخل فيه غيرهم، ولقد نال عسير ما نال غيرها من الأقاليم

---

(١) صفة جزيرة العرب، ص٦٧؛ دائرة المعارف الإسلامية ٢٠٣/١٤. ويقول البيروني إن اسم صعدة القديم هو: الغيل.

الإسلامية، ومثلما كانت عسير معبرًا سار عليه المهاجرون والغزاة والتجار قبل الإسلام، كانت كذلك قلعة وممرًا للذين انتقلوا من الجنوب إلى الشمال مهاجرين ومحاربين.

١٨- أما القطر الحجازي فتاريخ مكة السياسي بدأ من عصر "جرهم الأولى" و"العماليق" ثم "الإسماعيليين" و"جرهم الثانية" و"خزاعة" وأخيرًا "قريش"، فهذه الشعوب كان لها سلطانها على مقدرات "مكة المكرمة" السياسية في الجاهلية. ولقد شغل المؤرخون بالبحث عن شعوب مكة البلد الذي أذن فيه "إبراهيم" عليه السلام بالحج قبل أربعة آلاف عام. فأقبل الملبون رجالاً وعلى كل ضامر. نلمح في بعض الأقوال احترام اليهود البيت الحرام، ولكنهم شاركوا الوثنيين من قريش المشركين ومالئوهم على الإسلام الذي لا يشرك مع الله إلهًا آخر. وفي بعض الروايات أن المسيحيين علقوا صور العذراء والمسيح في البيت الحرام بجانب الأوثان.

ثم أشرق العصر الإسلامي، فارتبطت مكة المكرمة - أم القرى- بالمدينة المنورة - أم العواصم. وبانتقال الخلافة إلى الأمويين، ثم إلى العباسيين فالفاطميين، وأخيرًا إلى العثمانيين أصبحت مكة والمدينة والحجاز جميعه إقليماً من أقاليم الدولة الإسلامية. ولقد قامت دول مستقلة في "مكة المكرمة" في عهود الخلافة الإسلامية مثل : دولة "بني الأخيضر" التي قامت من سنة ٢٥١ إلى سنة ٣٥٠هـ فبسطت نفوذها على مكة ومدته أو نقلته إلى "اليمامة". وبنو الأخيضر علويون من نسل الحسن. ولقد أسس هذه الدولة "إسماعيل" الملقب بالسفاك والذي خرج على الخليفة "المستعين بالله". ثم دولة "بني موسى"، ولقد أسس هذه الدولة "داود بن موسى" بعد زوال دولة بني الأخيضر، وجلاء القرامطة عن مكة في سنة ٣٥٠هـ.

واستمرت هذه الدولة إلى سنة ٤٥٣هـ حيث توفي آخر أمرائها "تاج المعالي شكر العلوي الحسني". ثم دولة "بني فليتة - بني هاشم" من سنة ٤٦٠هـ إلى سنة ٥٩٨هـ، وبنو

فليتة أو بنو هاشم هم من حفدة "علي بن أبي طالب". ثم دولة "بني قتادة"، وبنو قتادة علويون أيضًا استوطنوا "ينبع" ومنها جهزوا حملتهم على مكة.

ففي سنة ٥٩٨هـ استولى أمير "ينبع" الشريف "أبو عزيز قتادة" على مكة. و"الشريف قتادة" علوي من حفدة "الحسن بن علي"، فاستمرت إمارة مكة في حفدة "قتادة" إلى أن انتهت باستسلام "الملك علي بن حسين"، فكان باستسلامه آخر حاكم قتادي. ونشأت باستسلامه وحدة الحجاز ونجد تحت راية واحدة، وهذه الدول قد استقل بعضها بمكة، وفي بعض الأزمنة بالحجاز جميعه، ووصل نفوذها إلى نجد، كما استقل "أشراف بني حسين" بالمدينة ومدوا نفوذهم إلى "اليمامة"، لكن منابر مكة والمدينة ما فتئت تدعو لخليفة "دمشق" أو "بغداد" أو "القاهرة" وأخيرًا "أستانبول".

ومن الجدير بالبحث هنا أن ننظم جدولاً بدول مكة من أقدم عصورها، ومن حق مثل هذا الجدول أن نمهد له بالفقرة الآتية.

يبدأ تاريخ مكة السياسي من عهد "العماليق"، ومن بعد العماليق "جرهم الأولى"، ومن جرهم الأولى "الإسماعيليون". وقد اختلطت بعض عصور الإسماعيليين بجرهم. ومن عصر الإسماعيليين يمكننا أن نعين تاريخ دول مكة بأرقام تقريبية، فقصة "هاجر" و"إسماعيل" وسكناهما مكة يرجع تاريخها إلى أواخر الألف الثالث وأوائل الألف الثاني قبل الميلاد. فعلى ذلك يمكننا أن نعتبر بداية العهد الإسماعيلي في سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد إلى سنة ١٠٠ ق.م. حيث ذكر "ديو دورس" المتوفى سنة ٨٠ ق.م. "الجرهميين" في مكة في أثناء كلامه عن "النبطيين"، كما يقول جرجي زيدان"[١]. وجرهم هذه كما يظن هي جرهم الثانية، ففي سنة ٢٢٢م على قول "حمزة الأصفهاني" الذي ذكره "فيليب

(١) العرب قبل الإسلام، ص٢٧٥ .

حتي"[١] كان تصدع "سد مأرب" وكان من جراء ذلك التصدع هجرة "الأزد"، فنزل "الغساسنة" بلاد الشام، ونزل "اللخميون" العراق، ونزل "الأوس والخزرج" يثرب - المدينة المنورة. وانخزعت "خزاعة" في "مر الظهران" قرب مكة، فأخرجوا جرهم الثانية من مكة فصارت إليهم سيادة سكانها إلى سنة ٤٥٠م حسب تحقيق "هيكل"[٢]، حيث حكم "قصي بن كلاب" مؤسس زعامة قريش التي تقاسمت أسرها السلطة والمرافق. وتفرق بقية الأزد في أنحاء الجزيرة كما تقول هذه الرواية المتداولة بين المؤرخين.

فعلى أساس هذه الخلاصة التاريخية يمكننا أن ننظم هذا المسلسل لعصور مكة قبل الإسلام على وجه التقريب :

- من سنة ٢٠٠٠ق.م. تقريبًا إلى سنة ١٠٠ق.م. تقريبًا عهد دول بني إسماعيل التي شاركتها جرهم والعماليق.

- من سنة ١٠٠ق.م. تقريبًا إلى سنة ٢٢٢م تقريبًا عهد جرهم الثانية .

- من سنة ٢٢٢م تقريبًا إلى سنة ٤٥٠م تقريبًا عهد خزاعة .

- من سنة ٤٥٠ تقريبًا إلى سنة ٦٢٩م عهد قريش وقد بدأ بقصي وانتهى بفتح مكة.

ففي سنة ٦٢٩م (٨هـ) انتهى العصر القرشي الوثني في "مكة" وأصبحت "مكة" تابعة للمدينة المنورة "أم العواصم"، ومن هذا التاريخ تبدأ العصور الإسلامية. وقد ارتبطت مكة والحجاز جميعه بعواصم الخلافة الإسلامية وعواصم السلاطين الذين حلوا مكان الخلفاء[٣].

---

(١) تاريخ العرب المطول ٨٤/١، ويقول جواد علي : في سنة ٥٤٢م كان تصدع السد ١٨٣/٤ .

(٢) حياة محمد، ص٩٢، ٩٤ .

(٣) هذه التواريخ تعني حياة الشعوب ونفوذ دولها في مكة .

والقطر الحجازي بكامله بما فيه مكة والمدينة، كان في عصور الخلافة الإسلامية- فيما بعد الخلفاء الراشدين وفي عهد الأيوبيين والمماليك - تابعًا لعواصم الدول الإسلامية الكبرى، وكان ارتباطه في حقب التاريخ الإسلامي وبالنسبة لدوله كالآتي :

- من سنة ١١هـ / ٦٣٢م إلى سنة ٤١هـ / ٦٦١م.	عهد الخلفاء الراشدين.
- من سنة ٤١هـ / ٦٦١م إلى سنة ١٣٢هـ /٧٥٠م.	عهد الأمويين.
- من سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م إلى سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م.	عهد العباسيين إلى ظهور الفاطميين في مصر.
- من سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م إلى سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م.	عهد الفاطميين في مصر والعباسيين في بغداد وقد ارتبط الحجاز بالفاطميين.
- من سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م إلى سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م.	دعا صلاح الدين الأيوبي للخلفاء العباسيين في بغداد.
- من سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م إلى سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م.	عهد الأيوبيين في القاهرة والعباسيين في بغداد وقد كان الحجاز مرتبطًا بالقاهرة.
- من سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م إلى سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م.	عهد المماليك في مصر بعد الدولة الأيوبية وقبل أن يقيم الملك (بيبرس) خليفة عباسيًا في القاهرة تدعو له الأمة الإسلامية في الجمع والأعياد.

- في سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م أعدم "هولاكو" المستعصم العباسي وأبناءه ومن يمت إليهم بصلة فبقيت الأمم الإسلامية بدون خليفة إلى سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م.

- من سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م إلى سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م. عهد الخلفاء العباسيين في القاهرة، وقد كان الحجاز مرتبطاً بالقاهرة أيضاً، وكانت نجد مرتبطة بها عن طريق الحجاز.

- من سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م إلى سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٦م. عهد العثمانيين الأتراك حيث أعلنت الثورة العربية سنة ١٣٣٤هـ.

- من سنة ١٣٣٧هـ/١٩١٨م إلى سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م. عهد المملكة الهاشمية.

وفي سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٥م وحد جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل السعود أقطار الحجاز ونجد وعسير والأحساء وما يتبعها من تهائم.

على أن منطقة مكة في حقبها الإسلامية لم تسلم من غزو دول اليمن التي استقلت عن عواصم الخلافة الإسلامية، وأن "مكة" في تاريخها الإسلامي استقلت إدارياً استقلالاً كاملاً وارتبط بها قسم من الحجاز ونجد في عهود الخلافة الإسلامية. كما استقلت المدينة وامتد نفوذها إلى نجد فناوأ أشرافها أشراف مكة، فتارة يخضع أشراف المدينة لأشراف مكة، ومرة خضع أشراف مكة لأشراف المدينة، إلى أن قسم الأتراك الحجاز إلى ثلاثة أقسام: مكة، جدة، المدينة، ثم استقل "الملك حسين بن علي" بالحجاز جميعه بعد الحرب العالمية الأولى.

وهذا بيان بإمارات مكة المستقلة[1]:

- من سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م إلى سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م. إمارة "بني الأخيضر" حسبما جاء في "معجم الأسر الحاكمة" ويقال: إنهم حكموا بلاد نجد من سنة ٢٥٥هـ إلى سنة ٣١٧هـ بعد أن قضى العباسيون على دولتهم في مكة.
- من سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م إلى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م. إمارة "بني موسى" وقد تولوا الإمارة بعد جلاء "القرامطة".
- من سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م إلى سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م. إمارة "بني هاشم - فليتة" وهم من العلويين.
- من سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م إلى سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٦م. إمارة "بني قتادة" من أشراف "ينبع".

ففي سنة ١٣٣٤هـ أعلنت الثورة، فاستقل الحجاز من سنة ١٣٣٧هـ إلى سنة ١٣٤٤هـ.

وفي سنة ١٣٤٥هـ توحد قلب الجزيرة: الحجاز ونجد وملحقاتهما في دولة واحدة تحت علم واحد.

---

(١) ولقد ذكر "ابن خلدون" بعض دول الحجاز في عصور الخلافة الإسلامية بغير الأسماء التي وردت في كتاب معجم الدول الإسلامية مثل: "الدولة السليمانية" الزيدية، ودولة "الهواشم" التي انتزعت الحكم من السليمانيين و"دولة بني نمي". تاريخ ابن خلدون، طبع لبنان، مج٤، ووصف "ابن خلدون" دولة بني (الأخيضر) بأنها دولة سفك ونهب.

وقد امتد نفوذ "إمارة قتادة" إلى المدينة واليمن، بمساعدة "آل عثمان" الذين اعترف بهم أمير مكة "أبو نمي" سنة ٩٢٧هـ/١٥٢٠م حتى بلغ نجدًا ، ويعتبر عهد "أبي نمي" عصرًا ذهبيًا لإمارة بني قتادة ، ولقد لخص "منير العجلاني" أزمنة غزو واستيلاء "بني قتادة" على نجد كما سيأتي بيان ذلك في الجزء الخاص بنجد.

١٩- أما تاريخ المدينة المنورة السياسي في العصور الجاهلية فإنه يبدو لنا من وراء ما هو منشور في المؤلفات التاريخية عن "عبيل" التي أبادها سيل "الجحفة" وعن "العماليق" و"الأوس والخزرج" : خطأ من يظن أن هناك دولة يهودية قامت في "يثرب". فلم يكن لليهود في المدينة حكومة ، على الرغم من تسلطهم على اقتصاد المدينة وعلى الرغم من انتشار آطامهم من شرقي المدينة إلى غربيها. فاليهود في المدينة مهاجرون استوطنوا حرارها وانتشروا في ربوعها وتسلطوا بالربا على ثرواتها. واليهود في الجزيرة العربية أكثرهم عرب تهودوا. فاليهودية في الحجاز مثل النصرانية دين لا دولة.

أما في العصر الإسلامي فقد ارتفع مركز المدينة عاليًا ، فهي دار الهجرة ، وهي عاصمة "الخلفاء الراشدين" وهي المدرسة الإسلامية الأولى ، ومع انتقال الخلافة من المدينة إلى دمشق ، فبغداد ، فالقاهرة ، فأستانبول انتقل ثقل السياسة إلى حيث السلطة العليا. على أنه كان للمدينة نشاط سياسي تجاوز الحجاز إلى نجد ، فلقد خضع قسم كبير من نجد لإمارة المدينة ، فمما جاء في كتاب "النجوم الزاهرة" : (أن "مقبل" بن جماز" من أشراف المدينة قدم القاهرة ، فولاه "الملك المظفر" نصف إمارة المدينة ، فتوجه إليها فوجد منصورًا بنجد وقد ترك ابنه "كبيشة" بالمدينة فأخرجه "مقبل" ، فحشد ، "كبيشة" أنصاره وقاتل "مقبلاً" حتى قتله فانفرد "منصور" بإمرة المدينة[1]. فبلاد نجد في صدر الإسلام منطقة مرتبطة بالمدينة. ولقد كان أشراف المدينة يستقلون تارة بالمدينة ، وتارة يخضعون لأشراف مكة.

---

(١) النجوم الزاهرة ٢٧٨/٨ .

ونحن إذا أردنا أن نلخص عهود المدينة السياسية قبل الإسلام، نجد المؤرخين يقولون : إن أول من نزل يثرب - المدينة المنورة - "عبيل"، وحول عبيل وهلاكها بسيل "الجحفة" دارت أقوال لا لزوم لمناقشتها هنا، لأن موضعها في الحلقة الخاصة بدول البلاد العربية من هذه الموسوعة : "العرب في أحقاب التاريخ" المخطوطة الآن : "بعنوان التاريخ العربي ودوله".

وكذلك اختلفت أقوال النسابين في "عبيل". هل هي إرمية من "إرم بن سام"؟ أم هي عمليقية من "عمليق بن سام"؟ واختلاف آراء النسابين في "عبيل" مبعثه القصص التي تحكى عن أول من سكن "يثرب - المدينة"، وعن العماليق الذين هاجر اليهود إلى أرضهم "يثرب - المدينة". وقد أخطأ - كما قلت من قبل - الذين ظنوا أن دولة يهودية قامت في "يثرب - المدينة"، فالواقع أن اليهود في الحجاز أقليات هاجرت إلى "يثرب" و"خيبر" وغيرهما، وأن اليهودية التي جاءت مع المهاجرين لم يقتنع بها المدنيون أوسًا وخزرجًا، أبناء "قيلة" كما كانوا يفتخرون، وأن كثيرًا من أخبار المدينة مصدرها اليهود، الذين روجوا كثيرًا من المزاعم التي اعتبرها البعض حقائق تاريخية.

ويرجع تاريخ غزو "تبان أسعد" أو "أسعد كامل" المدينة إلى ما بين (٤٠٠ و٤١٥ و٤٢٠م) وهذا هو عهد "تبان أسعد" كما جاء في تعليق[١] "حسين مؤنس" على كتاب "العرب قبل الإسلام" لجرجي زيدان. وكثير من الظنون ترجح أن الذين غزاهم تبان أسعد هم العماليق. بيد أن "ابن هشام" يروي عن "ابن إسحاق" أن الذين غزاهم تبان أسعد هم الأوس والخزرج[٢].

(١) العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان، ص١٤٥.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢١ .

ونحن إذا ما رجعنا إلى تاريخ هجرة الأوس والخزرج نجد الأقوال تختلف في القرن الذي هاجروا فيه. والذي يبدو مما قيل عن تصدع "سد مأرب"، وأنه تصدع مرة بعد مرة في فترات من الزمن أن هجرة "الأزد" لم تكن دفعة واحدة، وهذا الظن - وإن لم نجد نصًا واضحًا يؤيده - هو أقرب إلى المنطق. فهجرة جميع "الأزد" من "مأرب" جيشًا لجبًا خبر يستوقف الباحث ليرى آثار ذلك الجمع وهو ينتقل بقضه وقضيضه من منزل إلى منزل، ورد فعله في تاريخ القبائل التي مرت بديارها جموع الأزد.

فإذا صح لنا الأخذ بهذا الظن يمكننا أن نخمن أن هجرة الخزاعيين إلى "مكة" حدثت في غير الزمن الذي هاجر فيه "الأوس والخزرج" إلى المدينة، وأن هجرة "الأوس والخزرج" في غير الزمن الذي هاجر فيه الغساسنة إلى أطراف الشام.

ومع هذا لا يمكننا أن نعرض كليًا عن رواية المؤرخين التي تقول: إن "خزاعة" انخزعت في مكة فسميت خزاعة، وإن "أبناء قيلة" الأوس والخزرج تركوا مكة لخزاعة وولوا وجوههم شطر المدينة، أما الغساسنة فوالوا السير إلى مياه "غسان" التي سموا بها، لأن الإعراض عنها يلزمنا بتقديم نص النفي، وهذا ما لا نملكه إلى الآن.

ونحن إذا رجعنا إلى تاريخ "تبان أسعد" نجد المؤرخين يقولون إن "تبان أسعد" ظهر في أول القرن الخامس من الميلاد، وإن غزوه كان بين سنة ٤٠٠م وسنة ٤٢٠م، وإذا نحن أخذنا برواية "ابن إسحاق" التي نقلها لنا "ابن هشام" والتي تقول: إن الذين غزاهم "تبع" في المدينة هم الأوس والخزرج فعلينا أن نقتنع بأن تاريخ "الأوس والخزرج" في المدينة كان من قبل سنة ٤٠٠م، وهو العصر الذي عاش فيه "تبان أسعد" التبعي.

فتتبع بداية تاريخ المدينة السياسي يلزمنا أن نرجع إلى عصر "عبيل"، وعبيل من الأمم العربية البائدة. فهي من طبقة "العماليق" و"جرهم الأولى". وكما سبق في الحلقة

الأولى من هذا الكتاب[1] أن "جرهم الأولى". و"العماليق" هم من العرب العاربة. والعرب العاربة سبق تاريخهم العرب المستعربة الذين هم "الإسماعيليون". ولقد رجح لنا في تلك الحلقة أن التاريخ العربي الحقيقي الذي نجد كلام المؤرخين عنه نثارًا في أمهات المؤلفات التاريخية والتفاسير - بدأ في نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد، وما دام "عبيل" تعتبر من الأمم البائدة، فإن تاريخ المدينة السياسي بدأ بعدهم، فأول عهودها التاريخية: عهد العماليق الذين استظل اليهود بهم فيما بعد، ثم تسلطوا على اقتصادياتهم، وعهد العماليق في المدينة المنورة بدأ في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد أي قبل يهودية موسى بأكثر من خمسمائة عام.

فالسؤال الذي يطرح هنا: من العماليق الذين حدثنا عنهم المؤرخون العرب، وقالوا عنهم: إنهم الذين هاجر اليهود إلى المدينة في عهدهم؟! والجواب الذي يبدو لنا مما قيل عن "الثموديين" - الذي خلفوا قوم "عاد"، وعن "اللحيانيين" الذين كانت لهم دولة في شمال الحجاز، و"المدينيين" الذين ناوأت دولتهم "الإسرائيليين" الذين تغلبوا على فلسطين وأقاموا دولة في ربوعها = أن هؤلاء العماليق كانوا خليطًا من بطون "عاد" و"ثمود" ومن خلف عادًا وثمود في شمال الحجاز من قبائل "لحيان" و"دادان" وغيرها.

ونحن إذا ما رجعنا إلى تحقيقات المتأخرين عن مخافر تبابعة اليمن التي كانت منتشرة على طول الطريق التجاري الممتد من الجنوب إلى الشمال، والتي كانت تقيم فيها حاميات تابعة لقيادة دول تبابعة اليمن تحرس القوافل، تلوح لنا أسباب لغزو "تبان أسعد" للمدينة لا نجدها واضحة فيما قاله المؤرخون عن ذلك لغزو، إن هذه الأسباب التي تلوح لنا هي: وقوف المدنيين في وجه النفوذ التبعي، ورفضهم أن تكون المدينة قلعة من قلاع التبابعة، أو بالتعبير الحديث قاعدة حربية للتبابعة.

---

(١) العرب في أحقاب التاريخ ٢٥٤/١ ، ٢٨٩ .

فعلى ضوء هذا التمهيد المستعجل يمكننا أن ننظم جدولاً لعصور المدينة السياسية على النحو الآتي :

١-	أ- من سنة ٢٠٠٠ق.م. إلى سنة ٧٠م	شعوب من العرب البائدة: عبيل والعماليق والثموديين والمدينيين واللحيانيين.
	ب- من سنة ٧٠م إلى سنة ٤٢٠م	الدولة العمليقية، هذا إذا أخذنا بقول "ابن إسحاق": إن غزو تبع كان في عهد الأوس والخزرج وإن هجرة الأوس والخزرج كانت في سنة ٤٢٠هـ.
	جـ- أو إلى سنة ٥٢٠م	إذا أخذنا بقول الذين يظنون أن هجرة الأوس والخزرج كانت في سنة ٥٢٠م، حيث تصدع "سد مأرب" في ذلك العهد كما يقول "جواد علي".
٢- سنة ٥٢٠م إلى سنة ٦٢٢م عصر الأوس والخزرج الذي انتهى بالهجرة النبوية.		

إن هذه العصور هي التي نستشفها من الأنباء الغامضة التي نعثر عليها في قصص الأمم العربية في قلب جزيرتها، فمن المعروف أن المدينة كانت من قديم زمانها محطة لقوافل التجار مثلما هي اليوم محطة لأرتال السيارات الآتية من "نجد" ومن "الكويت" ومن "الأردن" ومن "مكة" و"جدة" وينبع"، هذه متوجهة من الشمال والشرق إلى الجنوب والغرب، وتلك متوجهة من الجنوب والغرب إلى الشمال والشرق، ومن المعروف أن للمدينة ماضيًا زراعيًا له شأنه بالنسبة للتاريخ الزراعي في قلب الجزيرة العربية، فمن غير المعقول أن تهمل دول تلك العصور المدينة، وألا تهتم لبسط نفوذها عليها.

أما عصور المدينة السياسية بعد الإسلام فهي مثل عصور مكة المكرمة فيما عدا اتخاذها عاصمة للخلفاء الراشدين. فمثلما استقلت "مكة" عن عواصم الخلافة استقلت "المدينة" عنه مع ارتباطها اسميًا بها والدعاء على المنابر لمن بويع بالخلافة.

والـذين اسـتقلوا بالمدينـة في هـذه الحقـب هـم أشـرافها الحسـنيون. ويظهـر أن استقلالهم بالمدينة بدأ في القرن الرابع إلى أواخر القرن الحادي عشر من الهجرة حيث أصبحت المدينة ولاية من ولايات الأتراك.

وليست المدينة ومكة المدينتين اللتين كان لهما تاريخ جاهلي حافل، وليست المدينة ومكة المدينتين اللتين استقلتا عن الخلافة دون غيرهما من حواضر الدولة الإسلامية، وليست مكة والمدينة هما الحجاز جميعه، فلقد تقدم الكلام عن شمالي الحجاز والدول التي قامت فيه. فتاريخ الحجاز الجاهلي حفل بدول ذات حضارات أغفل تاريخها كثير من الجغرافيين، وأغفل جغرافيتها كثير من المؤرخين. فليس كل مؤرخ يعنى بجغرافية البلد الذي يتحدث عن تاريخه، وليس كل جغرافي يشغل نفسه بتفاصيل العصور السياسية لذلك البلد.

أما النشاط الحضاري فلكل مدينة في القطر الحجازي نصيب فيه : "العلا - ديدان" و"تيماء"، وتيماء هاجر إليها "نابونيد" الملك البابلي فيما بين سنة ٥٥٥ إلى سنة ٥٣٨ق.م.، و"تبوك" و"حجر ثمود" و"القرح" و"تبالة" و"العبلاء" و"الطائف" و"خيبر" و"مكة المكرمة" وجدة" و"المدينة المنورة" و"مدين"، وغيرها من مدن الحجاز الشمالية والجنوبية.

البحث الثالث :

ثروات "الحجاز - السراة" :

١- أبعاد البحث في نشاط الحجاز .

٢- الجدب بعد الخصب .

٣- الحجاز كان معبراً للقوافل التجارية.

٤- التجارة في العصور الجاهلية .

٥- المدينة المنورة حقل وسوق .

٦- الذهب في الحجاز .

٧- هل تكرر الجفاف مرة ثانية؟

٨- الكفايات في الماضي والحاضر .

٩- حجم الحقيقة فيما يقوله رواة الأخبار .

١٠- البحث عن ثروات الحجاز يجب أن يستمر .

١ - ومثلما تكلمنا عن الحجاز الذي هو سلسلة جبال أقبلت من أقصى اليمن حاجزة بين "نجد" و"تهامة" إلى أن انتهت في جنوبي "جبل الشراة" السوري، وبينا حدوده وأقسامه الطبيعية والسياسية، ومثلما تكلمنا عن أقاليمه وحدودها، وكيف خلط البعض الحدود الإقليمية التي لا تبقيها الدول على حال مع الحدود الطبيعية التي لا تخضع للمد والجزر السياسي، علينا الآن أن نتكلم عن ثروات هذه السلسلة الجبلية "الحجاز - السراة" في التاريخ العربي.

وإذا كان بحثنا عن نشاط السروات: سراة القطر الحجازي، وسراة عسير، وسراة اليمن، لم يزد على الكلمة الموجزة، ولم يزد على الإشارة إلى أحداث السراة وأقاليمها، فإن لذلك سببًا هو أن لدول الجزيرة قبل الإسلام بحثًا خاصًا موضعه في الحلقة الخامسة من هذا المؤلف: "العرب في أحقاب التاريخ". وإن هناك بحثًا في نشاط الجزيرة الحضاري تقدم في الحلقة الأولى: "التاريخ العربي وبدايته"، وإذا كانت هذه الإشارة الخاطفة تكفي البحث في النشاط السياسي والحضاري، فكذلك اقتصاد "الحجاز - السراة" تكفيه إلمامة موجزة بمجالاته، وأول المجالات الاقتصادية التي دخلها الإنسان هي الزراعة، ولا زراعة بدون ماء، وللماء في الحجاز تاريخ طويل.

٢ - فلقد أجمع المؤرخون على أن الحجاز كان من أشجر بلاد الله، وأجمع الجيولوجيون على أن الجفاف حدث طبيعي أصاب الحجاز - مثلما نراه اليوم يصيب بعض المناطق في أفريقية وينذرها بمستقبل مجدب، ويؤكد مقالة المؤرخين في خصب الحجاز، ونظريات الجيولوجيين في مياهه الجوفية ما بقي من خصب في مناطق السراة ذات الأمطار شبه الموسمية.

فما جاء في مؤلفات المؤرخين القدامى، وما ظهر على الآثار التي اكتشفت حديثًا يشيران إلى ماض زراعي كانت تنعم به شعوب مكن الله لها ما لم يمكنه للذين خاطبهم

القرآن الكريم : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ (الأنعام/ ٦).

فالزراعة في الماضي القديم كانت مصدرًا من مصادر ثروة الحجاز، كما كانت تربية السائمة واستغلال لحومها وألبانها وأصوافها مهنة من أعظم المهن التي تعاطتها شعوب الحجاز، والتي كانت تدر عليها نفعًا كبيرًا.

٣- والتجارة هي المجال الثاني، والحجاز عرف التجارة من عهوده القديمة، فالطرق التجارية التي كانت تمتد في سفوح جباله طولاً وعرضًا، وتخترق أوديته حينًا، وحينًا تسير بجانبها، تنبئ بنشاط تجاري قديم لا يستهان به، تحدث عنه المؤرخ العربي بخيال القرون الوسطى، وتحدث عنه المؤرخ المستشرق بظنون العصر الحديث، فمما جاء في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي عن "كلاسر" : (أن "الدادانيين" كانوا شعبًا اشتهر بالتجارة، وكان موطنه في "خيبر" وفي "العلا" و"الحجر" إلى "تيماء"، وكانت له علاقة تجارية مع شعوب "الخليج العربي" ومع "سبأ". وكانت أرضه مركز اتصال بين الطرق التجارية الآتية من العربية الجنوبية ومن سواحل "الخليج الفارسي - الإسلامي" ومن العربية الشرقية وأواسط بلاد العرب، ومن "العراق" و"الشام". ولذلك كان لهذه المنطقة أهمية عظيمة في تجارة العالم القديم[1]؛ ويظن البعض أن "سبأ بلقيس" كانت في شمالي الحجاز.

٤- وقد ذكرت التوراة أنواعًا من بضاعة تلك العصور التي كان منها الأغنام والأعتدة[2]، وكان منها أنواع الطيب والحجارة الكريمة والحوار والبخور وغير ذلك كان

(١) العرب قبل الإسلام، لجواد علي ٢/ ٣٠٦.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٣٦٤.

العرب الحجازيون يتاجرون به، يستوردونه إلى حواضر "الحجاز - السراة" من الجنوب وعبر "الخليج العربي" ويصدرونه إلى "الهلال الخصيب ومصر"، وعبر البحر المتوسط.

وفي مقدمة تجار "الحجاز - السراة" أهل مكة، لا سيما قريش في العصور الأخيرة، فلقد عرفت قريش كيف تستغل أسواق الحجاز، وكيف تنظم رحلاتها التجارية، حتى أصبحت التجارة جزءاً من تاريخها، فلقد كانت منطقة "مكة" منذ أذن إبراهيم بالحج سوقًا تجارية عالمية، فمكة من عصورها الأولى محطة هامة لكبرى القوافل التي كانت تأتي من "اليمن" متوجهة إلى "الشام ومصر" وبالعكس، ولقد كانت أسواق العرب التجارية والأدبية والسياسية الكبرى في الحجاز، ولقد فتحت أسواق الحجاز أبوابها للعرب وغير العرب.

٥- ولم تكن "المدينة المنورة" محطة من محطات طريق القوافل التجارية الكبرى وحسب، بل كانت أرضًا زراعية تنتج التمور، والقمح، والعنب، وغير ذلك، وكانت أرضا "الزبير" و"معاوية" في شمالي المدينة تصدران إلى سورية "القمح" وبعض إنتاجها الزراعي في صدر الإسلام، ويعتبر الكثير قدرة أرض المدينة على التصدير في صدر الإسلام دليلاً على أن لها ماضيًا زراعيًا مرموقًا.

وكذلك "خيبر" و"الطائف" فلقد كان لهما ماض زراعي معروف لا ينقص عنه ماضي "بيشة" و"تربة" وجبال "أبها" و"السوداء" وغيرها مثل جبال "بلغازي" و"بني شهر" و"غامد" و"زهران" في سراة الطائف وعسير. ولقد كانت جبال الطائف تمد مكة بالأخشاب، ولقد كانت الأسواق الجاهلية ما بين "مكة" و"تبالة" وفي "بدر" و"المدينة" من أهم أسواق الجزيرة العربية، ولقد كانت أكثرية المدن التجارية تقع على طرق القوافل القادمة من "اليمن" والمتوجهة إلى "الشام" و"سيناء" والقادمة من الشام وسيناء إلى "اليمن".

أما زراعة "سراة اليمن" وتجارتها فكانتا أساسيتين للاقتصاد "اليمني" فهناك "مأرب" وسدها وأثره في اقتصاد سراة اليمن، وهناك "صنعاء" وقراها، وهناك "تعز" ومزارعها وغيرها من المدن التي تقع في "سراة اليمن" وفي سفوحها، والتي كانت تنتج اللبان والحوار والبخور والبن، وغير ذلك مما له ثمنه في الأسواق العالمية في "مصر" وفي سواحل البحر المتوسط.

٦- ولم تعرف جبال "الحجاز - السراة" التعدين في قديم عهودها كما عرفته "عمان". ولم تنتج الذهب بمقدار ما كانت تنتجه أرض "حجر بني حنيفة"، وإنما كانت المعادن تستخرج بطرق جد بدائية. فلقد أشار "ديودورس" إلى هضبة وجبال تغطيها السحب وتتساقط عليها الثلوج بعض الأحيان مخصبة تنتج الفواكه والقمح. قال: إنها ذات أرض غنية بالذهب يستخرجه أهلها صافيًا من مناجمه قطعًا قطعًا، ولا يصهرونه. ولقد ذهب الظن بكلاسر إلى أن هذه الأرض لا يمكن أن تكون في تهامة، فتهامة لا تعرف تساقط الثلوج، ولكن قد تكون تلك الهضاب والجبال في "بلاد عسير"، فحول عسير تحوم الظنون التي تبحث عن مناجم الذهب في عصور ما قبل الميلاد، ويقول "جواد علي" اعتمادًا على المصادر التي رجع إليها: (وتشاهد في "وادي تثليث" على مقربة من "حمضة" وعلى مسافة "١٨٣" ميلاً من "نجران" آثار التبر. ولقد سبق الكلام عن "أوفير" وأن موقعها - في رأي الكثير - بين "القنفذة" و"عتود"، وقد اشتهرت ديار "بني سليم" بوجود المعادن في باطن أرضها بما فيها الذهب). وجاء في معجم ما استعجم: (وحليت: جبل أسود في أرض الضباب، بعيد ما بين الطرفين، كثير معادن التبر)[(١)].

---

(١) معجم ما استعجم، البكري ٨٧٥/٣.

ويقال : إن الدراسات التي قام بها الاختصاصيون في المملكة العربية السعودية أكدت وجود خامات معدنية في القطر الحجازي مثل الذهب والنحاس والحديد والكبريت والملح والذهب والنحاس والحديد عرفتها الجزيرة العربية من عصورها الجاهلية. ويقول جواد علي : (إن "في رابغ" رواسب "الباريت"، وإن من الممكن استخراج عشرة آلاف طن من "الباريت"). وتؤكد بعض المصادر : (أن هناك منجمًا في منطقة "رابغ" كان ينتج "الكالينة" وأن كميات كبيرة من "تراب الحديد" توجد في "العقيق"[1] على مقربة من "مهد الذهب"، وأن الفحص أظهر وجود خامات من المعادن حول "الطائف"، وأن كثيرًا من رمال الحجاز يصلح لصنع الزجاج، وأن الجيولوجيين لا يستبعدون العثور على بترول في الحجاز)[2]. و"الباريت" أو بتعبير أوضح "الحجر الجيري" أو "كبريتات الباريم" كما يقول الجيولوجيون موجود في الأرض الممتدة من "ينبع" إلى "رابغ" ؛ أما "الكالينة" أي الرصاص فيوجد في مكة.

٧- والمتناقضات التي يلاحظها الباحث في تاريخ الجزيرة العربية تتجسد في ماضي القطر الحجازي ا لزراعي، وحاضره، فما يقال عن خصب الحجاز في الماضي لا يتفق مع جدب أرضه في الحاضر، فأكثر مناطق الحجاز في الوقت الحاضر صحارى تلتهب رمالها، ومن الحقائق التي سبق الكلام عنها : الجفاف الذي منيت به جزيرة العرب في الألف الثاني قبل الميلاد[3]، فلقد كانت حياة قوم "عاد" و"ثمود" و"مدين" وغيرهم من أمم الماضي البعيد رخاء ونعيمًا يحلم بهما العرب الذين خلقوا بعد ذلك الجفاف.

---

(١) العقيق كل مسيل ماء شقه السيل. ولقد ذكر الأصمعي أعقة كثيرة، أشهرها عقيق المدينة وعقيق عارض اليمامة.

(٢) العرب قبل الإسلام، لجواد علي ١٠٥/١ وما بعدها إلى ص١١١.

(٣) المصدر السابق ١٠٥/١ وما بعده .

فالسؤال الذي يرد هنا هو : هل أصاب الحجاز جفاف آخر بعد الألف الثاني قبل الميلاد؟ فلقد تحدث لنا المؤرخون عن الزراعة في المدينة وفي الطائف وفي خيبر، وأنها كانت قبل الإسلام وبعده بشكل لا مثيل له اليوم، بل إن الذين يعرفون العيون التي كانت تفيض في شمالي المدينة بدون وسائل رفع المياه كثيرون، أنا واحد منهم ما زلت أتخيلها جارية في خيوف[1] المنطقة الشمالية التي عرف باسم "العيون" لأن مياهها عيون تروي أرضها، وأن الذين يعرفون العين الزرقاء ويعرفون أنها كانت تجري في مناهل المدينة بدون هذه المضخات التي تنزح المياه من أعماق حرة "قباء" كثيرون، أنا واحد منهم ما زلت أذكر "السقاء" وهو يحمل قربته من "منهل باب السلام" إلى دارنا في شارع البلاط الكبير - السوق، وما زلت أذكر كيف كان ينزح الماء الذي يحتاج إليه غسل السلالم ودهاليز الدار من آبار منزلنا التي ما زالت موجودة، ولكن بدون ماء[2]!!

ولقد رأيت نتيجة دراسة الجيولوجيين قبل ثلاثة أعوام[3] ممثلة في خريطة أسموها الدرع العربي شملت منطقة واسعة من الحجاز منها منطقة المدينة وخيبر وينبع وغيرها من المناطق التي عرفت إلى وقت قريب بوفرة مياهها وكثرة نخيلها!

إن الأخصائيين يعللون هذا بأن مياه الأراضي التي يحيط بها الدرع العربي سطحية ليست بجوفية مثل أرض "القصيم"، وأن المياه السطحية وهي التي تشبه الأحساء نزحتها وسائل الري الحديث، فأصبح الوارد من السماء مطرًا أقل من المنزوح منها لسقي الحقول الشاسعة.

---

(١) الخيف مجموعة بساتين تسقى من جدول واحد "عين"، جمعه : خيوف.

(٢) انظر خريطة الدرع العربي في أطلس هذه الحلقة.

(٣) قبل ثلاثة أعوام من تاريخ الطبعة الأولى من هذا الكتاب، الذي طبع عام ١٩٧٦م.

فهل يستطيع المسئولون حل مشكلة الماء بطريقة ما؟ فلقد بدأت الدولة تفكر في تحلية مياه البحر ومدها للمدينة وغيرها من المدن القريبة من البحر[1]، إن المشكلة اليوم تجاوزت حاجة الزراعة إلى حاجة الناس لماء يشربونه !! ويسد حاجتهم المنزلية، فالناس اليوم في المدن والقرى أصبحوا بمعدل واحد إلى مائة زيادة على ما كانوا عليه قبل نصف قرن، ولا يزال عددهم في تصاعد، وحاجة منازلهم إلى الماء تضاعفت بنسبة واحد إلى مائة. فحوض الاستحمام (البانيو) وصندوق الماء (سيفون) لم تعرفهما الدور التي كنا نسكنها قبل ثلاثين عامًا !! والتي كانت كل دار منها تسكنها أسرة واحدة مهما قل عددها.

٨- ومما لا شك فيه أن البلاد العربية دخلت اليوم المجال الصناعي بثروات ضخمة لم تتوافر لسكان الحجاز في عصور "عاد" و"ثمود" و"مدين"، كما يغلب على الظن، ومما لا شك فيه أن الكفاءات التي دخل العرب بها المجال الصناعي أقل من المشروعات التي يخططون لها، وأن النسبة بين كفاءاتنا اليوم وكفاءات الذين نحتوا من الجبال بيوتًا، وبنوا في كل ريع آية، لا يمكن الجزم بها. فهل كانت تلك الأمم تستورد كفاءات كما نفعل نحن اليوم؟! قد يكون ذلك، ولكن الحقيقة التي لا شك فيها أنهم كانوا يصدرون الكفاءات.

وكذلك مجال التعدين لا تزال كفاءاتنا لا تسد غير القليل من متطلبات ما نعده للاستفادة من كنوز أرضنا، ومن هنا بدأت مشكلة اليوم. فلقد استغلت الكفاءات الأجنبية تأخرنا تقنيًا فأخذت تطمع في حصة الأسد من ثرواتنا، لأنها ترى أن الفضل في استخراج كنوز الأرض يعود لها، وأننا بدونها لا طاقة لنا بصعاب التعدين. ولقد حققت إلى وقت قريب مطامعها كاملة بقدرة العلم، ولولا اختلاف القوى الاستعمارية

(١) لقد تم ذلك بحمد الله.

على المغانم لكان الموقف على غير ما هو عليه الآن. ولكن ما دامت القوى الاستعمارية منقسمة على نفسها : أمريكية وروسية وأوربية فإننا بخير. وإنني أسأل الله دوام انقسامها إلى أن نصل إلى مستوى مسئولية التعدين الحديث، وإلى أن نملك من القوى ما نستطيع به حماية ثرواتنا.

وعلى أساس واقعنا وما نسمعه ونراه نتساءل عن حقيقة ما نقرؤه عن ثروة "مجان" المعدنية التي انتفع بها العالم القديم! هل كان ما نسمعه كله صحيحًا؟ أو أنه من مبالغات الرواة؟ فلقد نفرقت الظنون حول "مجان" أين تقع؟ وما مقدار ثروتها؟ ومن هم أصحابها؟ على مثل ما تفرقت الآراء في ذهب "حجر اليمامة" وثروات "سبأ" ونحاس "عمان".

٩- فما يقوله المؤرخون عن السبئيين في اليمن، وقدامى اليماميين في "العروض" و"نجد"، وعن سكان "وادي القرى" في الحجاز، والجرهائيين في "الخليج العربي"، والفينيقيين، في سورية، والبابليين في العراق = شيء كثير، فهل حقيقة هذا الشيء الكثير هي مثل حقيقة الشيء الكثير الذي تبالغ فيه صحف القرن العشرين؟ فالرواية قديمًا وحديثًا قل أن تتقيد بالواقع، فقليل ما هم المتحفظون.

فالسؤال الذي يجب أن نعود إليه هو : هل كانت الكفاءات العلمية في تلك الأمم التي منها سكان "الحجاز - السراة" وطنية؟ أم كانت مستوردة؟ فلقد كان السبئيون يتفننون في بناء القصور والمعابد والسدود، ويصنعون من المعادن الثمينة آنية وعروشًا وتماثيل، مثلما كانت "ثمود" تنحت من الجبال بيوتًا، ومثلما كانت "عاد" تبني في كل ريع آية، و"مدين" تصدر الخشب والذهب إلى "بابل" وإلى "مصر". والجواب عن هذا السؤال الذي يجب أن نقدمه لم يصل إليه البحث حتى الآن.

على أنه إذا صح ما وصل إليه "جرجي زيدان" عن فن النحت العربي، وأن الفراعنة اقتبسوا من العرب أنواعًا من النحت، وأن العرب هم الذين علموا الفراعنة الجنوبيين

كيف تصنع المركبات؟ وكيف يستخدم الحديد؟ فإن القول بأن العرب صدروا إلى العالم تجاربهم البحرية من "شواطئ الخليج العربي" عبر سواحل لبنان، وصدروا فنونهم من "وادي القرى" وإنتاجهم من "بلاد سبأ"، من الحقائق التاريخية. ولا يبعد أن يكون العرب استوردوا ما يفيدهم من "السومريين" و"الإغريقيين" و"الهندوأوربيين" وغيرهم من الأمم المتحضرة في ذلك الماضي البعيد، مثلما صدروا إليهم كل ما أرجعه التحقيق إلى أصله العربي. فهذه طبيعة التمدن في كل العصور، فأمريكا اليوم تصدر وتستورد كغيرها. ومما يؤكد هذا الظن الفوارق الواضحة في حضارة العرب ولغتهم عندما كانوا في قلب جزيرتهم وبعد أن انتقلوا إلى أطرافها في العراق وسورية ومصر، حيث قايضوا الشعوب التي اختلطوا بها حضارة بحضارة.

١٠- وكما وضع المؤرخون "مجان" في إطار ذهبي وضعوا "مدين" في أرض كثيفة الأشجار غنية بالأخشاب الصالحة لبناء السفن، غنية بالذهب والنحاس، وقالوا عن "المدينيين": إنهم كانوا يصدرون أخشابهم وذهبهم ونحاسهم إلى "بابل" وغير بابل.

ونحن إذا افترضنا المبالغة فيما قاله المؤرخون العرب عن قوة عاد وثمود واللحيانيين، وغيرهم من أمم شمالي الجزيرة، كما بالغوا في فتوحات جيوش تبابعة اليمن وأعمار ملوكهم، فهذا لا يعني خروجنا عن وجهة نظر البحث التي تجعل المبالغة علامة تدل على حقيقة مدفونة في الأعماق. فالمبالغات في رأي الكثيرين لا بد أن تكون مبنية على حقيقة، وعلى ذلك انطلقت الآراء تخمن أين تكون "إرم ذات العماد"؟ وأين تكون "مجان"؟ وأين يكون ذهب الجزيرة العربية؟ وأين هي الأرض التي تكمن في جوفها عروق الذهب والفضة التي تحدثت عنها النصوص التاريخية؟! وما زالت الظنون منطلقة لم تهتد بعد إلى كل ما تبحث عنه، فمنجم "مهد الذهب" ليس من المناجم القديمة الغنية التي يبحث عنه المنقبون.

البحث الرابع :

"الحجاز – السراة" سكانه وطبيعته :

١- عزلة بدو (الحجاز – السراة) .

٢- تخمين عدد سكان (الحجاز – السراة) .

٣- (الحجاز – السراة) أسهم في بناء الحضارة .

٤- صفة القطر الحجازي .

٥- الحرار من علامات أرض الحجاز .

٦- تقسيم القطر الحجازي في كتاب حافظ وهبة .

٧- أودية (الحجاز – السراة) مهد الحضارات في قلب الجزيرة .

١- "الحجاز - السراة" من شمالي "عدن" إلى جنوبي "شراة الشام" أقاليم ازدحمت فوق قمم جبالها المنبسطة وعلى أوديتها وبطون حرارها شعوب تحدث عنها التاريخ كثيرًا، وأقاليم "الحجاز - السراة" تختلف نسبة سكانها باختلاف المناخ ومواقع الأرض وخصبها، فقسم الحجاز - السراة الجنوبي مأهول بسكان أكثر عددًا من سكان سراة الشمال، وحياة سكان جبال الحجاز يتفاوت مستواها، فمنهم الذين انغمسوا في الأحداث فعجمتهم مثل "ثقيف" و"هذيل"، ومنهم الأكثرية التي كانت تعيش في عزلة تامة عن عالم المدن المتحضرة لا تدري بشيء مما يحدث حولها. فلقد حدثني بعض شيوخ "ينبع" أنه في أول العهد السعودي هبط ينبع من قمة جبل "رضوى" نفر من سكانه، فأخذوا يسألون الناس عن أصحاب الطرابيش، وأصحاب الطرابيش المقصودون هم الأتراك الذين انسحبوا من البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، وخلفتهم حكومة الأشراف سبع سنوات ثم انتهى الأمر بتوحيد الحجاز ونجد: مملكة سعودية.

٢- فسكان يعيش أكثرهم على رؤوس الجبال منعزلين عن العالم المتحضر من الصعب تخمين العدد الذي يبلغه الإحصاء لو اتخذ إحصاء في عصور الحجاز الغابرة. والسكان الذين يعيشون في رؤوس الجبال وشعوبها يكونون جزءاً من السكان لا يمكن أن يغفله أي تقدير.

على أن المملكة تقوم في هذه الآونة بإحصاء رسمي عام لم يتم، سوف يفيد المؤرخ والجغرافي، لا سيما إذا كانت هناك قوائم تبين إحصاء كل منطقة على حدة. فالمملكة تشتمل على القسم الأكبر من "السراة - الحجاز" كما تقدم القول بذلك.

وإذا كان لابد من التخمين فعلى الذين يريدون أن يفترضوا أرقامًا لسكان هذا القسم "الحجاز - السراة" في عهوده القديمة - ألا ينسوا جموع المهاجرين من "الحجاز -

السراة" إلى وادي النيل والهلال الخصيب، وأن يذكروا الظروف العصيبة التي كانت تمر الفينة بعد الفينة بجميع أقسام الجزيرة العربية بما فيها الحجاز - السراة، فتأتي على حياة الكثير من سكان الجبال والشعاب، وألا ينسوا ضحايا الغارات المستمرة بين القبائل، والحروب في كل مكان لها تأثيرها في تخفيف زيادة عدد السكان ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (البقرة /٢٥١)، وألا ينسوا الأمراض الوبائية مثل الجدري الذي كان إلى وقت قريب يفتك بسكان البادية في السهول والجبال، فتقفر قرى ومضارب من ناسها، فما نراه اليوم من تكاثر السكان في الحواضر والبوادي هو نتيجة لتوافر العناية الصحية واستتباب الأمن في مناطق "الحجاز - السراة" وارتفاع المستوى المعيشي، واتساع مجالات العمل بما أفاء الله على الجزيرة العربية. بيد أن كثرة السكان التي نشعر بها لم تصل اليوم إلى حد إفساد الأرض، فالبلاد لا تزال في حاجة إلى أيد عاملة وناس يستعمرون الأرض ويصلحونها.

لذلك، فإن القياس على الحاضر غير واقعي. فإذا كان لا بد لنا من قياس الماضي بالجيل الذي نعيش فيه، فعلينا أن نرجع إلى ما قبل خمسين عامًا حيث كان سكان المدينة وضواحيها لا يبلغون العشرين ألفًا، فعلى هذا القياس لا يزيد تخميننا عدد سكان "الحجاز - السراة" من أطراف "الشام" إلى "عدن" بضعة ملايين.

٣- ومما يؤكده المتعمقون في البحث عن الماضي إسهام مناطق "الحجاز - السراة" في حضارة الشرق العربي، وتنظيم حياته، ففي أوديته وجباله بعث رسل الهدى ودعاة الخير والعمل الصالح "إبراهيم" الذي أذن في جبال "مكة"، و"إسماعيل" الذي رفع معه قواعد البيت و"هود" و"صالح" وغيرهم من الأنبياء الذين سبقوا إبراهيم والذين جاءوا من بعده مبعوثين برسالات تدعو إلى الحق والفضيلة في "شمال الحجاز"، وفي "وادي القرى" وفي كل أرض عربية وغير عربية ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء/ ١٥) فما زالت الأجيال تتحدث عما ورد عن "قوم عاد" و"شعب ثمود" و"أهل مدين"؛ عن قوتهم،

وعن فنهم، وعن ثروتهم، وعمن بقي مع "هود" ومع "صالح"، وعاصر الشعوب العربية ووقف في صفها، وما زال التاريخ يذكر "الثموديين" إلى ما بعد الميلاد. ثم خلفهم الأنباط الذين تحملوا مسئولية الوقوف في وجه الاستعمار الروماني. وما زال وسيظل "البيت الحرام" خالدًا، وما زال المسلمون متمسكين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهدي القرآن، يفدون إلى "أم القرى" حيث "البيت الحرام" وحيث غار "حراء" الذي أنزلت فيه أول سورة من القرآن وحيث جبل "ثور"، ويزورون "أم العواصم"، حيث المسجد النبوي، وحيث ميادين الصراع بين الحق والباطل في سفح "أحد"، وعلى جانب "الخندق" في غربي جبل سلع.

وعن تاريخ هذه السراة المتحضرة من قبل التاريخ ما زال المحققون يسألون الأطلال التي برزت قريبة من المدن العامرة، مثل "العلا" و"تيماء" و"تبوك" و"خيبر" و"المروة"(١) و"العقبة" و"البترا" و"الطائف" و"نجران" و"أبها" و"صنعاء" وغيرها من مدن "الحجاز - السراة" التي ما زالت خالدة في التاريخ، ويسألون الأطلال الواقفة في بلقع من الأرض مثل بيوت "ثمود".

فما زال الباحثون قدامى ومتأخرين ينقبون ويدرسون كل أثر يصلون إليه في "حجر ثمود" و"قرح عاد" و"مدين شعيب" و"خرائب العلا"(٢) و"أطلال تيماء" وغيرها من المدن التي كان لها شأن في ماضي الحجاز، ولم يبق لبعضها غير أثر بعد عين، وغير وصف عابر وإشارة لامحة في قصيدة من الشعر الجاهلي أو الإسلامي. فعلى ضوء الوصف والإشارة والأثر البارز أخذ المحققون يبحثون وينقبون، تشرق بهم الظنون تارة

---

(١) المروة في كلام المقدسي بلد حصين كثير النخيل؛ وفي معجم ياقوت: و(ذو المروة) قرية بوادي القرى ٣٨/٨؛ والبترا بالقصر غير البتراء بالمد التي هي على مقربة من المدينة المنورة.

(٢) خرائب العلا هي في موضع يسمى اليوم "خرية" أو "خريبة" وتقع على مسافة كيلو متر إلى الشمال من العلا. تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي ٤٢٨/٣.

وتغرب أخرى، وأخذ المؤرخون يسيرون خلفهم يفترضون ويلاحظون. وإنك لتجد صورًا من تلك البحوث في مؤلفات جرجي زيدان وجواد علي، وغيرهما من مؤلفات نشاهد فيها عمق البحث العلمي والنقاش المستوعب.

٤- أما أطوار القطر الحجازي السياسية في بحوث المؤلفات التاريخية، فنشاهدها صورًا للتطورات الإدارية والسياسية التي مرت على القطر الحجازي في تاريخه الطويل الحافل بسير الدول التي تصارعت على أرض الحجاز من عصور ما قبل الإسلام إلى ما قبل خمسين عامًا، فنشأ عن صراعها تبدل الحدود. ولقد تقدم الكلام عن التطورات الإدارية والسياسية وما يترتب عليها في البحوث الجغرافية. فالتطورات السياسية في مقدمة أسباب اختلاف الرأي في جغرافية الأقاليم وحدودها إداريًّا وسياسيًا. فعلينا الآن أن نتكلم عن الصفة الطبيعية البارزة للحجاز، ألا وهي الحرار؛ فالحرار من معالم الحجاز، وعن حرار الحجاز وداراته تكلم المؤرخون والجغرافيون كثيرًا، فلقد نقل "ياقوت" عن "الأصمعي" : (الحجاز : اثنتا عشرة دارًا[١] : المدينة، وخيبر، وفدك، وذو المروة، ودار بلي، ودار أشجع، ودار مزينة، ودار جهينة، ونفر من هوازن، وجل "بني سليم" وجل "هلال" وظهر "حرة ليلى"، ومما يلي الشام "شغب" و"بدا").

٥- وقال أيضًا : الحجاز ما احتجزت به الحرار[٢]، والحرار التي ذكرها "ياقوت[٣]" هي : "حرة أوطاس" و"حرة تبوك" و"حرة تُقْدة" و"حرة حَقْل" و"حرة الحمارة" و"حرة راجل" و"حرة راهص" و"حرة الرجْلاء" و"حرة رُماح" و"حرة سليم"[٤] و"حرة شَرْج" و"حرة

---

(١) الدار : هي المنازل.

(٢) الحرار جمع حرة، والحرة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنما احترقت، ويقول الجيولوجيون إنها احترقت بفعل البراكين.

(٣) معجم ياقوت، فصل الحاء ٢٥٦/٣ وما بعدها.

(٤) وتسمى (أم صبار).

شوران"[١] و"حرة ضارج" و"حرة ضَرْغد" و"حرة عباد"[٢] و"حرة عذرة"[٣] و"حرة عسعس" و"حرة غلاس" و"حرة قباء"[٤] و"حرة القوس" و"حرة لُبن" و"حرة ليلى" و"حرة معشر" و"حرة ميطان"[٥] و"حرة النار"[٦] و"حرة واقم"[٧] و"حرة الوبرة"[٨] و"حرة لفلف" و"حرة بني هلال" إلى غيرها من أسماء الحرار التي تجدها في معجم البلدان.

وعدد الحرار التي ذكرها ياقوت في أجزاء معجمه يبلغ "تسعًا وعشرين حرة". ولعل "فيليب حتي" عندما قال : (ذكر ياقوت ما لا يقل عن ثلاثين حرة)[٩] التبست عليه أسماء الحرار، ولم يكلف نفسه عناء التحقيق والتثبت، فبعض هذه الحرار لها اسمان أو أكثر مثل "حرة عذرة" التي تسمى : "كرتوم"، و"حرة بني سليم" التي تسمى : "أم صبار" وقد ذكرها ياقوت في بيانه المتضمن الأسماء المتقدمة، ثم ذكرها بأسمائها الثانية مرة أخرى حسب أول حرف من أسمائها، مثل "حرة بني سليم" فقد ذكرها في باب الألف باسم "أم صبار" على أنه أشار إلى أنها هي "حرة بني سليم".

ومن الحرار التي ذكرها "ياقوت" ما هي في حقيقتها أجزاء لحرة واحدة مثل "حرة واقم" و"شوران" و"ميطان" و"النار" و"قباء" و"معشر" و"الوبرة" و"عبَّاد"، فكل هذه الحرار هي أجزاء من حرة "أبي راشد" التي منها حرار المدينة.

---

(١) تقع حرة شوران على طرف المدينة وتعتبر من ضواحيها .

(٢) تقع دون المدينة .

(٣) وتسمى : (كرتوم) .

(٤) تقع في طرف المدينة وتعتبر اليوم محلة من محلاتها.

(٥) نسبت إلى جبل يقابل جبل شوران يسمى : ميطان في ضواحي المدينة.

(٦) حرة النار تقع شرقي المدينة.

(٧) إحدى حرتي المدينة : الشرقية والغربية، وحرة واقم هي الشرقية.

(٨) على بعد ثلاثة أميال من المدينة. معجم ياقوت، فصل الحاء ٢١٨/٣ و٢٥٦.

(٩) تاريخ العرب المطول، ص١٩.

ولقد ظهرت على خريطة المملكة العربية السعودية التي نظمتها "أرامكو" ست عشرة حرة بهذه الأسماء، وهي ابتداء من الشمال :

١- "الحرة"، والحرة في خريطة أرامكو يقع نصفها في المملكة العربية السعودية ونصفها في "الأردن"، وهذه الحرة على ما يظهر هي "حرة ليلى"، كما يستشف مما جاء في صفة جزيرة العرب : (وحوران جبل في ميامن "حرة ليلى" القصوى، وهو أدنى أعلام الشام")[1]. ولعلها سميت باسم موضع فيها لا يزال إلى اليوم يذكر في المصورات الجغرافية باسم "ليلى".

٢- "حرة الرحاء"، وتقع جنوبي منطقة حسمى.

٣- "حرة العويرض"، وتقع في جنوبيها مدينة "العلا".

٤- "حرة لنير"، وتقع على مسافة من ميناء "أملج" شرقًا.

٥ و٦- حرتا : "خيبر - وهتيم"، وهاتان الحرتان كما تظهران في المصورات الجغرافية حرة واحدة.

٧- "حرة الهتيمة"، وهي في أقصى شرقي الحجاز : وهي تمتد جنوبي سفح جبل "سلمى".

٨- "حرة الدهامة"، وتقع جنوبي حرة الهتيمة، وموضعها قريب من جبلي طيئ.

٩- "حرة كرماء"، وتقع شرقي المدينة.

١٠- "حرة أبو راشد"، وتقع المدينة شماليها، ومنها حرار المدينة التي ذكرها ياقوت كما يظهر، وتبدو حرة أبو راشد على الخريطة كأنها فرع من "حرة رهط".

---

(١) صفة الجزيرة، ص١٤٢ .

١١- "حرة رهط"، ولحرة رهط فروع تمتد غربًا وجنوبًا.

١٢- "حرة كشب"، وتقع شرقي "حرة رهط".

١٣- "حرة حضن"، وتقع جنوبي "حرة كشب".

١٤ و١٥- حرتا "نواصيف والبقوم"، والحرتان في واقعهما حرة واحدة، ويسمى القسم الشمالي منها "نواصيف"، والقسم الجنوبي "البقوم" وتقع مدينة (الخرمة) في نهاية "حرة النواصيف" الشمالية.

١٦- وهناك حرة "شما" : الحرة الصغيرة التي تقع في تهامة الحجاز.

ويلاحظ على خريطة أرامكو أن عليها أماكن ملونة بلون الحرار مثل المنطقة التي يقع فيها ميناء "القحمة" و"البرك"، ومثل منطقة تقع في الجنوب الشرقي من عسير، ومثل موضع "الجرد" في شرقي "عكاظ" الجنوبي، ومثل منطقة "عشيرة"، فلعل واضعي الخريطة يقصدون بتلوينها بلون الحرار الحطام البركاني الذي لم يصل إلى درجة تجعلهم يسمونه "حرة".

وتكثر الحرار في الحجاز بصورة جعلتها من علامات أرضه، مثلما يكثر شجر "الغضا" في نجد بصورة جعلته من علامات أرضه، وحرار الحجاز اشتهرت بالخصب وكثرة المياه، ومن حرار الحجاز حرار بركانية. وقد كانت آخر ثورة لهذه الحرار البركانية ثورة الحرة الواقعة شرقي المدينة في سنة ٦٥٤هـ.

٦- ويقسم "حافظ وهبة" في كتابه "جزيرة العرب" القطر الحجازي حسب طبيعة أرضه إلى خمس مناطق :

١- المنطقة الساحلية : وهي الأراضي الممتدة على الساحل، وليت حافظ وهبة أسماها : المنطقة التهامية.

٢- المنطقة الجبلية : وهي منطقة مرتفعة وتأخذ في الانخفاض التدريجي حتى تصل إلى ما بين جدة ومكة. ولا يزيد ارتفاع هذه المنطقة على ألفي قدم.

٣- المنطقة النجدية : وهي الواقعة بين الجبال المرتفعة جداً في الشمال، وفي هذه المنطقة من البلدان "العلا" و"المدينة" و"مكة"، ولقد مر بنا اختلاف الأقوال في مكة. هل هي تهامية؟ أم حجازية؟

٤- الأخدود الرئيسي : وهو الأجزاء المرتفعة المغطاة بالحمم كما هو الحال في "الخرمة" و"العويرض" و"خيبر"، وارتفاعها يتراوح من (٦٠٠٠) إلى (٨٠٠٠) قدم، ولا يقل ارتفاعها عندما تدنو من مكة عن (٢٠٠٠) قدم.

٥- المنطقة الكائنة على حافة المنحدر الشرقي المتجه إلى نجد)[١].

فالقطر الحجازي يشمل سراة الحجاز وتهامته كما يظهر في تقسيم حافظ وهبة، والقطر الحجازي : جزء من السراة، ولكن بدون تهامته، فتهامة ليست من السراة.

ويقول "الإصطخري" في "المسالك والممالك" : ليس في الحجاز أبرد من "غزوان". ويقول "ياقوت" : غزوان الجبل الذي على ظهره "الطائف".

٧- والأودية الحجازية التي ذكرها ياقوت في معجمه كثيرة، ومن أهمها "وادي القرى" المشهور، ووادي القرى لا يزال آهلاً بالمدن والقرى، ولا تزال آثار ماضيه العمراني شاخصة للعيان. ثم الأودية التي في طريق المدينة - جدة : البرعي، والصفراء، والحمراء، و"بدر" و"وادي فاطمة"، وغيرها من الأودية التي أخذ اليوم عمرانها يتجدد، وأخذت تحصل على نصيبها من التعليم، ففي كل واد مدرسة، وفي كل بعثة علمية أعضاء من أبناء البادية. وأخذ أبناء الأودية نصيبهم في الوظائف

---

(١) جزيرة العرب، ص١٤ ، ١٥.

الحكومية، وأخذوا مكانهم في المصانع وأسواق الحواضر التجارية، ففي كل وزارة موظفون من "حرب" و"جهينة" وغيرهما، وفي كل سوق تجار من "بني محمد" وغيرهم من قبائل الحجاز ونجد وتهامة.

ومثلما كانت الأودية في غابر الزمان طرقًا للعير تحمل بضاعة الشمال إلى الجنوب، وبضاعة الجنوب إلى الشمال، أصبحت على حافاتها الطرق المسفلتة تسير عليها أرتال السيارات شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا. ومن أودية سراة اليمن وسراة عسير ما لا يقل شأنًا عن أودية سراة الحجاز وما يزيد خصبًا.

ولقد تقدم الكلام عن أودية الشمال، مثل بدا، وعربة، وعن أودية الجنوب مثل نعمان، وبيشة، وتثليث، والشاقة، وبيحان، وحرض، والعرض، وغيرها من أودية حجاز عسير واليمن، ولقد ذكر "شرف عبدالمحسن البركاتي" في "الرحلة اليمانية" كثيرًا من الأودية لا سيما أودية "القطر الحجازي" وما تنتجه من حبوب، وفاكهة، وخضار، ولقد زاد النشاط الزراعي في جميع أودية سروات المملكة العربية السعودية بما جد من وسائل الزراعة وبما يبذل في سبيل تقدمها.

الفصل الرابع

نجد : القسم الثاني من أقسام الجزيرة العربية

البحث الأول : نجد : اسمه وحدوده .

البحث الثاني : جغرافية نجد السياسية والطبيعية .

البحث الثالث : نجد : سكانه ومدنه .

البحث الأول :

نجد : اسمه وحدوده :

١- اسم (نجد) في معاجم اللغة والبلدان .

٢- النجد في الجزيرة العربية .

٣- نجد : أحد أقسام الجزيرة العربية في بحوث جغرافيي العرب .

٤- وحدة نجد الجغرافية .

٥- حدود نجد الطبيعية في الجغرافية العربية القديمة .

٦- ملاحظات على حدود نجد الغربية .

٧- حدود نجد في البحوث المتأخرة .

٨- المملكة العربية السعودية جديرة بإضافة هذه الصفة : (المتحدة) .

١- النجد من الأرض قفافها وصلابتها وما غلظ منها وأشرف وارتفع واستوى، والجمع: أنجد، وعلى لغة (هذيل): نُجد[١]، يريدون جمع نَجدٌ، والأنجُد جمع النجد، وهو الطريق الواضح. ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد/١٠): طريق الخير، وطريق الشر. والنجد: ما خالف الغور، والجمع نجود، وفي اللسان: نجد من بلاد العرب ما كان فوق العالية، والعالية ما كان فوق نجد إلى "تهامة" إلى ما وراء "مكة"[٢]، وقد تقدم الكلام عن "العالية" في بحث "سوق عكاظ".

٢- وفي "معجم ياقوت" نجود كثيرة منها: نَجْد "الحجاز"، وجنوب نجد الحجاز، هو شمال نجد اليمن، ومنها: "نَجْد ألوذ" وهو في بلاد "هذيل"، و"نجد أجأ" علم لجبل أسود بأجأ أحد جبلي طيئ، و"نجد برق" واد باليمامة، و"نجد خال" موضع بعينه، و"نجد الشرى" موضع بعينه، و"نجد عفر" موضع قرب "مكة"[٣]، و"نجد العقاب"، وثنية العقاب تطل على "دمشق"، و"نجد كبكب" وهو الجبل الأحمر الذي تجعله خلف ظهرك إذا صليت بعرفة، و"نجد مريع" موضع بعينه، و"نجد اليمن"، فالنجد - كما مر- ما ارتفع من الأرض حتى ولو كان ذلك المرتفع في نجد أحد أقسام الجزيرة العربية.

٣- وجاء في "المسالك والممالك" و("نجد الحجاز": هو المتصل بأرض البحرين وبادية العراق، وبادية الجزيرة، وبادية الشام). وجاء في "تاريخ العرب قبل الإسلام" لجواد علي: (أن علماء العرب يقسمون نجداً إلى قسمين: نجد العالية، وهو ما ولي الحجاز وتهامة، ونجد السافلة وهو ما ولي العراق)[٤]، ويقول "شرف عبدالمحسن

---

(١) ويجمع أيضًا على أنجاد ونجاد، ونجود، ونجد، ولا يكون النجاد إلا قفًا أو صلابة من الأرض.

(٢) اللسان، مادة (نجد).

(٣) المسالك والممالك، للإصطخري، ص٢١.

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي ١٤٧/١.

البركاتي" : (تنقسم نجد إلى قسمين : القسم الشمالي وهو حائل وما والاها ، ويسمونه نَجْد الحجاز ، والقسم الثاني يقال له : العارض)[١] ، والعارض هو جبل اليمامة ، وفي العارض نشأت الدولة السعودية إمارة يرأسها "الأمير محمد بن سعود" ويسمى شعبها أهل العارض حيث اختفى اسم "اليمامة" ، واليمامة : جزء من نَجْد في كلام ياقوت عنها - في رأي بعضهم - وجزء من الحجاز في رأي بعض آخر. وآخرون منهم "البيهقي" و"ياقوت" أيضًا - في كلامه عن البحرين - يصرون على أن "اليمامة" ملك قائم بذاته. وأكثرهم يضيف إلى اليمامة مناطق تعتبر من "نجد" مما جعل "منير العجلاني" يتساءل : أين بقيت نجد؟[٢] والذي يبدو إذا ما رجعنا إلى جغرافية نجد واليمامة الطبيعية أن منطقة العارض تمتد من اليمامة إلى قلب نجد ، فمن جعل العارض كله يمامة سلخ من نجد بعض أجزائه ، ومن جعل اليمامة من نجد أدخل العارض جميعه في نجد ، أما هل اليمامة من نجد أم من الحجاز؟ فالجواب عن ذلك ينقلنا من الجغرافية الطبيعية إلى الجغرافية السياسية ، فالذي يبدو مما قيل عن اليمامة ، وهل هي من الحجاز أم هي من نجد؟ أن المقصود التقسيم السياسي والإداري ، كما سيأتي في كلام المعاصرين من الذين ألفوا في تاريخ نجد وجغرافيته. أما في الجغرافية الطبيعية فهي من العروض وبعضها في نجد[٣].

واليمامة اليوم بوضعها الراهن لم تصبح موضوع بحث ، فلقد اختفى اسمها بعد شهرته في جاهلية ما قبل الإسلام ، وفي صدر الإسلام إلى القرن التاسع الهجري ، وأصبحت قرية من قرى نجد لا تكاد تعرف ، كما اختفى اسمها بعد عصرها الذهبي في

---

(١) جغرافية شبه جزيرة العرب ، ص٢٢٠ ، عن الرحلة اليمانية المطبوعة سنة ١٩١٢م.

(٢) تاريخ البلاد العربية السعودية ٤٠٩/١؛ معجم ياقوت ٥١٦/٨ ، ٧٢/٢.

(٣) لسان العرب ، مادة (نجد).

عهد "طسم" و"جديس" وفي الأيام التي كانت تصدر الذهب لمملكة "سليمان بن داود" النبي الملك عليه السلام. إلى أن عثر على نخلها "بنو حنيفة".

٤- فنجد الذي نحن بصدد البحث فيه هو أحد أقسام الجزيرة العربية، وهذا القسم يكون وحدة جغرافية تشتمل على نجد الحجاز ونجد اليمن. والبحث في هذه الوحدة الجغرافية الطبيعية لا يتقيد بالتقسيمات السياسية والإدارية. وهذه الوحدة الجغرافية هي الهضاب والمرتفعات التي فصلت بينها وبين تهامة "السراة - الحجاز".

وعن حدود هذا القسم ورد أقوال في معاجم اللغة والبلدان والموسوعات التاريخية، فالأصمعي يقول: (فإذا عرضت لك الحرار بنجد قيل ذلك الحجاز)، والحرار تعرض لك من وراء "فيد" حيث توجد حرتا "الهتيمة" و"الدهامة". وقال "ابن الأعرابي": (نجد ما بين "العذيب" إلى "ذات عرق" و"اليمامة" وإلى "اليمن" وإلى "جبلي طيئ")[١]. وجاء في "نهاية الأرب": (أن نجدًا هي الناحية التي بين الحجاز والعراق. والحجاز هو ما بين نجد وتهامة).

٥- وتعيين حد نجد الغربي يقتضينا الرجوع إلى الأقوال التي وردت عن حد الحجاز الشرقي، والتي سبق ذكرها، والتي منها قول "عمارة بن عقيل": (ما سال عن "ذات عرق" مقبلاً فهو نجد إلى أن يقطعه أسافل الحجاز). وذات عراق التي في كلام ابن عقيل هي موضع من الأماكن التي ذكرها "ياقوت" في معجمه باسم "ذات عرق" و"عرق"، والعروق التي ذكرها ياقوت في معجمه تراها منثورة على خريطة الجزيرة العربية بأسمائها الحديثة. والعرق لغة: الجبل، وجمعه عروق. و"عرق" و"ذات عرق" و"العرقان" و"الأعراق" و"عريق" كلها مواضع. والذي يبدو أن المقصود من هذه المواضع هو أحد

(١) لسان العرب، مادة (نجد).

العرقين: "عرق سبيع" أو "عرق الوادي"، حيث تراهما قريبين من حدود الحجاز. وجاء في "معجم ياقوت" (وقيل: نجد إذا جاوزت "عذيبًا"[1] على أن تجاوز "فيد" وما يليها)، والعذيب: اسم لمواضع المقصود منها وادي لبني تميم من منازل حاج الكوفة، وفيد تقع شرقي "حرة الهتيمة" وجنوب شرقي "حائل"[2].

ولقد أضاف المحققون في التاريخ من بحاثة العصر الحاضر على أقوال قدامى العرب أقوال القدامى من غير العرب، وقابلوا بعضها ببعض وناقشوها، ثم أدلوا بآرائهم فيها. فمما نقل عن السريانيين والإيرانيين أنهم كانوا يسمون بلاد طيئ: بلاد العرب"[3] وبلاد طيئ كانت تعني هضبة نجد. وهضبة نجد في بحوث الجغرافيين القدامى تمتد من "جبل شمر" - جبلي طيئ" أجأ وسلمى إلى العراق، فعلى هذا ما بين جبال شمر والعراق هو نجد. وفي الجغرافية القديمة يقال: إن اسم "بازو" يطلق على نَجْد.

٦- ولقد كانت أقوال القدامى، وما زالت موضع بحث ونقاش عند كل من بحث في جغرافية نجد وتاريخه. وإننا نقرأ رأي "جواد علي"، في أقوال القدامى التي تحدثت عن حدود نجد صريحًا: (ليست لنجد في هذه الكتب حدود واضحة ودقيقة)[4]، وعندما تحدث الرحالة "نيبهر" عن حدود نجد لم يستطع أن يضع نجدًا في إطار حدود واضحة فقال: (تمتد نجد من الأحساء والعراق شرقًا إلى الحجاز غربًا، ومن اليمن جنوبًا إلى بادية الشام شمالاً)[5].

---

(١) "العذيب" هو: حد "السواد". معجم ياقوت ١٣١/٦، ١٥٤، ومادة (نجد) و(عرق).

(٢) خريطة أرامكو الموضوعة لجزيرة العرب.

(٣) العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان، ص٤٠.

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام ١٤٦/١ وما بعدها.

(٥) تاريخ البلاد العربية السعودية ٤١٤/١.

ولا يجد الباحث في تحقيق المتأخرين الوضوح الذي فقده في أقوال المتقدمين، فلم تتضح حدود نجد الحديث في بحوث المتأخرين الذين كتبوا عن جغرافيته من بداية القرن الرابع عشر الهجري حتى الذين تهيأت لهم أسباب التجول في أنحاء المملكة، والبحث في وثائقها، فهذا "حافظ وهبة" - وهو واحد من الذين أتاحت لهم مكانتهم في بلاط جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله التجول في أنحاء المملكة العربية السعودية بإمكانات لم تتوافر لغيرهم من الباحثين - يقول : (ومع أن حدود نجد غير معروفة تمامًا في الجغرافية العربية لكثرة الأقوال وتعدد الآراء فإن نجدًا اليوم يشمل : الأراضي الممتدة من "قريات الملح" شمالاً إلى "وادي الدواسر" جنوبًا، ومن حدود "الأحساء" شرقًا إلى حدود "الحجاز" غربًا)[1]، وهذه الحدود التي عينها "حافظ وهبة" حدود عامة عائمة غير مفصلة وغير دقيقة، فنحن إذا ألقينا نظرة على خريطة جزيرة العرب نرى وادي الدواسر بين عرض (٢١-٢٠) فليس هذا الخط هو نهاية نجد جنوبًا، ونرى قريات الملح في الحرة "حرة ليلى". وما احتجزته الحرار ليس بنجد، بل هو الحجاز كما تقدم.

وعندما تكلم "أمين الريحاني" عن نجد في مؤلفاته قال : (إنك إذا جئت نجدًا من الخليج العربي، تمر بالأحساء، ثم تسير صاعدًا إلى رأس السيل حيث يبلغ الارتفاع (٤٥٠٠) قدم، وإذا جئت نجدًا من البحر الأحمر من جدة مثلاً، فتصعد إلى الطائف (٦١٧٠) قدمًا، وتشرف على "جبل حضن" ومن رأي حضنًا فقد أنجد). وما قاله "أمين الريحاني" عن نجد بعيد جدًا عن الحدود الطبيعية لبلاد نجد أحد أقسام الجزيرة العربية التي نحن بصدد البحث فيها، فالريحاني قد سار من ساحل الأحساء إلى رأس السيل، واعتبر كل ذلك نجدًا، والأحساء ليست من نجد في

---

(١) جزيرة العرب، ص٤٥ .

التقسيم الطبيعي الذي تحدث عنه قدامى الجغرافيين، بل هي من العروض، و"حضن" الذي أشار إليه الريحاني في "معجم ياقوت" : (اسم لجبال منها حضن جبل قريب من ديار "سليم". ومنها : حضن جبل بالعالية، وقيل جبل ضخم بناحية نجد ، ومنه حضن من جبال "سلمى")(١) وحضن الذي قيل عنه أنجد من رأي حضنًا جبل بأعلى نجد، فحضن هذا بعيد عن "الطائف".

٧- على أن الريحاني قد تخلص من مسئولية تعيين الحدود الطبيعية لنجد بقوله : (إننا نرى حدود نجد الطبيعية في أقوال الأقدمين التي جمعها "الألوسي" متناقضة متضاربة لا يعرف منها بوضوح ما هو نجد؟ وما هي حدوده؟

وعلى ذلك انصرف "الريحاني" ببحثه إلى حدود "سلطنة نجد" أيام كتابة تاريخه فقال : (إن الطبيعة قررت حدًّا واحدًا فقط هو : "الأحقاف" أو الربع الخالي في الجنوب، أما البقية فقد تقررت الحدود الشرقية والغربية بالسيف، وتقررت الحدود الشمالية والشمالية الغربية بالمعاهدات مع صاحبة الانتداب على العراق والأردن) وفي هذا التحديد ما فيه، فهو يجعل الربع الخالي حدًّا، والحد لا يدخل في المحدود، في حين يحد نجدًا أحد أقسام الجزيرة العربية : اليمن، وفي أرض المملكة العربية قرية "الوديعة" الواقعة على حدود حضرموت، وحضرموت في جغرافية الجزيرة العربية القديمة من اليمن، وكما انصرف "أمين الريحاني" إلى حدود سلطنة نجد انصرف "حافظ وهبة" إلى حدود المملكة العربية السعودية التي أصبح نجد جزءاً منها.

٨- فحدود نجد السياسية قد انصهرت في الحدود العامة للمملكة العربية السعودية، فنجد في الوقت الحاضر جزء من المملكة العربية السعودية، وفي رأيي أن المملكة العربية السعودية يجب أن يكون اسمها (المملكة العربية السعودية المتحدة).

---

(١) معجم ياقوت ٢٩٥/٣ .

ويقول "فؤاد حمزة" : ("نجد" أو "العارض" إننا هنا نطلقها على منطقة يحدها "جبل شمر" شمالاً، وتحدها منطقة الهضاب الحجازية شرقي سلسلة جبال الحجاز، وعسير من الغرب. ويحدها من الجنوب "الربع الخالي". ويحدها من الشرق الدهناء الفاصلة نجدًا عن الأحساء)[1]، على أن الذي يبدو على المصورات الجغرافية فاصلاً بين رمال الدهناء والنفوذ هو الصمان الذي يظهر على شكل قوس طوله (٨٠٠) ميل.

فكل من حافظ وهبة، وأمين الريحاني، وفؤاد حمزة تكلم عن نجد سياسيًا، لذلك نرى كل واحد منهم لا يحاول التعمق في البحث، ونحن إذا ما قابلنا بين أقوالهم وبين ما قاله القدامى عن نجد الذي تحده شمالاً باديتا الشام والعراق، ويحده جنوبًا اليمن نجد المتأخرين بتروا من بلاد نجد مناطق لا شك في نجديتها.

ومن المعروف أن الحدود السياسية غير الحدود الطبيعية. ومن الواضح أن تعيين الأماكن التي تعتبر حدودًا غربية لنجد، وحدودًا شرقية للحجاز هو اجتهاد، والاجتهاد جعل البحث هنا يعتمد على الدليل الأقوى.

والدليل الأقوى يجعل حدود نجد الغربية تقف عند الحرار، فما احتجزته الحرار حجاز، فلقد قالوا : (فإذا عرضت لك الحرار وأنت تنجد فتلك الحجاز). فإذا أردت أن تعرف حدود هذا القسم "نجد" حسب أقوال القدامى فعليك أن تبدأ بالحد الغربي - من شماله. فمن الشمال تبدأ الحدود بالحرة، والحرة كما يبدو هي "حرة ليلى"، والحرة هذه تقع في أقصى شمالي الحجاز، وبعضها في بلاد الشام، واعتمادًا على تأكيد الذين قالوا : (من بلاد "مذحج" "تثليث" إلى "فيد" حجاز - عليك أن تتجه بالحدود إلى "حرة الهتيمة" و"حرة الدهامة" حيث تجد : "فيد" في شرقي الحرتين وتجد

(١) جغرافية شبه جزيرة العرب، لكحالة، ص٢٢٥.

الجبلين "أجأ" و"سلمى" شماليهما. وعن الجبلين قال جغرافيو العرب : (فصار ما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحاز إلى ناحية "فيد" و"الجبلين" إلى المدينة حجازًا). ثم تتجه بالحدود إلى شرقي حرتي "نواصيف والبقوم" حيث تقع "رنية" شرقيهما، ثم تتجه بها إلى شرقي "وادي تثليث" حيث تجد : "جبال القهر" التي قال عنها ياقوت : (إنها أسافل الحجاز مما يلي نجدًا[1]. ومن شرقي "وادي تثليث" تتجه إلى "جبل القارة" ثم إلى "وادي نجران" فـ "حجاز جدعان" حيث يلتوي الحد إلى "عدن"، وبذلك تنتهي الحدود الغربية لنجد. والحدود الغربية لنجد هي عين الحدود الشرقية للحجاز، ولقد سبق التحقيق في حدود الحجاز الشرقية. أما حد "نجد" الشمالي فلا تشويش فيه - فمن المتفق عليه أن باديتي الشام والعراق تحدان نجدًا من شماليه.

وكذلك حد نجد الجنوبي، لا تجد غبارًا على ما قاله القدامى، فلقد قالوا : اليمن يحده جنوبًا، واليمن في أقوال القدامى : من "عمان" إلى "نجران" ثم يلتوي حده إلى "عدن". وفي معجم ياقوت : (إذا خلفت عمان فقد أنجدت).

وإنما التشويش في حد نجد الشرقي. فالعروض قسم من أقسام الجزيرة العربية، والعروض تقع شرقي نجد مثلها مثل "تهامة" التي تقع غربي الحجاز. ومثلما تداخلت حدود تهامة مع حدود "الحجاز - السراة" جغرافيًّا وسياسيًّا، تداخلت حدود العروض مع نجد جغرافيًّا وسياسيًا، ولا سيما "البحرين - الأحساء". فالعروض في جغرافية القدامى (ما بين تخوم فارس إلى أقصى أرض اليمن مستطيلاً مع ساحل البحر)[2]. وقال "ابن الكلبي" : (وبلاد "اليمامة" و"البحرين" وما والاها : عروض، وفيها نجد وغور

---

(١) معجم ياقوت ١٩٠/٧ .

(٢) لسان العرب، مادة (عرض).

لقربها من البحر[١]. فعلى ذلك أن العروض تبدأ حدودها الغربية مع حدود نجد الشرقية من العراق إلى أقصى اليمن - كما يقولون - إذا ما اعتبرنا أرض "عمان" من اليمن، أو إلى أقصى "عمان"، إذا ما اعتبرنا أرض عمان ليست من اليمن، فحدود العروض متداخلة مع اليمن مثلما هي متداخلة مع نجد. ولسوف نتكلم عن العروض وحدوده، وعمان وصفتها.

وعليه يمكن أن يقال هنا : إن هذا القسم - العروض - يحد نجدًا شرقًا، وإن حدود نجد التي تقدم ذكرها غربًا وشمالاً وجنوبًا وشرقًا - تؤكدها الأغلبية من جغرافيي العرب.

على أن هناك كما تقدم في الكلام عن حدود الحجاز الشرقية التي هي حدود نجد الغربية أقوالاً جمعها "ياقوت" وغيره على عاهاتها، مثل قولهم : إن ما ارتفع من "الرمة" فهو نجد"). فوادي الرمة كما تقدم يبلغ طوله (٩٥٠) كيلو مترًا، فهو يبدأ من "حرة خيبر" أو حرة "فدك" ويصل إلى "بريدة" ثم ينعطف إلى الشمال الشرقي، فالشرق إلى "القصيم"، حيث يسمى بعد ذلك "الباطن"، فوادي الرمة يتجاوز حرتي "الهتيمة" و"الدهامة" الواقعتين قرب جبلي طيئ. وفي كتاب "جزيرة العرب" للأصمعي : (والرمة فضاء يدفع فيه أودية كثيرة)[٢].

فالدليل الأقوى والأثبت في تعيين حدود نجد الغربية هي الحرار التي قالت عنها الأغلبية، فإذا عرضت لك الحرار وأنت تنجد فتلك الحجاز، وكذلك بقية الحدود فهي كما تقدم مبنية على الدليل الأقوى.

---

(١) معجم ياقوت ١٦٠/٦ .

(٢) معجم ياقوت، مادة (رمة) .

البحث الثاني :

جغرافية نجد السياسية والطبيعية :

١- لم يعرف من ماضي نجد إلا أقله .

٢- أقدم عصور نجد السياسية .

٣- عصور نجد السياسية في التاريخ .

٤- جدول بعصور نجد السياسية في الجاهلية .

٥- طبيعة أرض نجد .

٦- العارض : جبال في نجد واليمامة . اسم جبل (طويق) متأخر .

٧- في جبل (طويق) دليل آخر على الطوفان .

٨- النشاط الاقتصادي القديم ينبعث اليوم أقوى وأعم من أي وقت مضى .

١- لا أبالغ إن قلت : لا يوجد صقع في جزيرة العرب له شأن في عالم الشرق العربي إلا عرفنا عنه شيئًا وغابت عنا منه أشياء. ومن هذا الشرق العربي نجد ، فلقد كان كما تثبت الآثار آهلاً بالسكان منذ العصر الحجري ، ولقد انتشر سكانه بين الهضاب والأودية في العصر البرونزي ، وفي عصور ما قبل الميلاد كان الكنعانيون ، أو - كما كانوا يسمون أخيرًا الفينيقيون - يقومون بنشاط حضاري في اليمامة وفي شرقي نجد ، ومن نجد انتقل العرب إلى "العراق" و"سورية" وباديتهما ، فنجد كما يقولون : أم ، والعراق داية ، كما كان "اليمن" مهد الأسر الحاكمة في الشمال : "اللخميين" و"الغساسنة" و"كندة". وعلى أرض اليمامة ونجد كانت تتلاقى القوافل التجارية ، ومن أرض اليمامة ونجد كان الذهب يستخرج والتمور تصدر.

واليمامة اختلفت أقوال القدامى فيها ، فالأكثرية تقول إنها من العروض ، وبعضهم اعتبر الصلات السياسية فعدها مع الحجاز. ولكن الأصح أنها من العروض ، بيد أن "اليمامة - جو" و"الأحساء - البحرين" لا يمكن فصلهما عن نجد أو فصل نجد عنهما تاريخيًا وحضاريًا واقتصاديًا وسياسيًا ، مثلهما مثل : تهامة الحجاز وارتباطهما بالحجاز - السراة ، كما مر.

٢- وأقدم عصور اليمامة ونجد في المصادر العربية هي عصور "هزان" و"طسم" و"جديس" ، وبعد طسم وجديس تتحدث المصادر العربية عن دولة "كندة" وعن "بني حنيفة" في حجر اليمامة . ولطسم وجديس قصة مع تبابعة اليمن تداولها المؤرخون العرب على عواهنها. ويؤكد المحققون في التاريخ العربي القديم أن دولة "كندة" لم تكن الدولة الأولى بعد طسم وجديس. بل سبقتها دول ، منها : دولة "امرئ القيس بن عمرو" الذي تحدث عنه "نص النمارة". والنمارة موضع ذكره "ياقوت" ولم يعين مكانه بالضبط. ويقول "جواد علي" : (النمارة : موضع في الحرة الشرقية من جبل الدروز)[1]. ويؤكد

(١) معجم ياقوت ، ٣١٦/٨ ؛ تاريخ جواد علي ٤٣٧/٣. والذي اكتشف نص النمارة هو "دوسو" ، وكتابة نص النمارة بالنبطية القريبة من العربية المتأخرة.

المحققون أن دولة "امرئ القيس بن عمرو" امتدت إلى اليمامة ونجد وإلى "نجران" و"تخوم الشام"، ويستشهدون بنص النمارة، ونص النمارة هو الكتابة التي وجدت على قبر "امرئ القيس بن عمرو" الذي سبق الكلام عنه في بحث "سوق عكاظ" المتقدم.

فبمقابلة الرواية الكلاسيكية بالتحقيق الحديث نتبين أن المعلومات التي وصلت إلى قدامى المؤرخين العرب غير متصلة الحلقات. فلقد قامت في اليمامة ونجد في فترة ما بين دولة "طسم وجديس" وبين دولة "كندة" دول عرفنا منها : دولة "امرئ القيس بن عمرو". فدولة "كندة" التي يرجع تاريخها إلى القرن الخامس الميلادي، متأخرة عن "دولة امرئ القيس بن عمرو" الذي توفي سنة ٣٢٨م.

ونتبين أن دولة "كندة" هي أشهر دول "نجد" التي تحدث عنها التاريخ. ففي "ملوك كندة" ألف المؤرخون العرب، وعن حدود دولة كندة جاء في "معجم ياقوت" : (وكان موضع مملكة "حجر الكندي" بنجد ما بين "طمية" وهي هضبة بنجد إلى "ضرية" إلى "دارة جلجل" من "العقيق" إلى "بطن نخلة الشامية" إلى "حزنة" إلى "اللقط" إلى "أفيح" إلى "عماية" إلى "عمايتين" إلى "بطن الجريب" إلى "ملحوب" إلى "مليحب"، فما ارتفع من بطن الرمة فهو نجد)[١].

٣- وما جاء في معجم ياقوت وضع مملكة كندة النجدية في إطار واسع الأبعاد نراه على "أطلس التاريخ الإسلامي" تجاوز حدود نجد الطبيعية إلى الحجاز، واتصل بمملكة "اللخميين" شرقًا، واتصل بمملكة "الغساسنة" شمالاً، ونجده اشتمل على ديار "بكر" و"أسد" و"غطفان" وبعض من بلاد "سليم" وبعض من بلاد "هذيل" و"حنيفة" وقسم كبير من "الدهناء" وديار "بني تميم" و"هوازن".

---

(١) معجم البلدان ٨/٢٥٤ .

وفي معجم ياقوت دولة كندة نشأت في "غمر ذي كندة". وعند غيره نشأت في "بطن عاقل" جنوبي "الرمة"[1] ويقول "ابن الكلبي" : إن "الكنديين" ورثوا دولة "طسم وجديس". ومن المرجح أن "ابن الكلبي" لم يطلع على "نص النمارة" الذي يؤكد : أن اليمامة وبلاد نجد خضعت قبل استيلاء الكنديين عليها للملك العربي الذي تحدث عنه "نص النمارة" والذي ملك من العراق إلى "الشام" إلى "نجد" إلى "نجران".

ونص النمارة يفرض علينا إعادة النظر في الرواية العربية التي تقول : إن "حسان" التبعي هو الذي أباد طسمًا وجديسًا ، فعصر "تبع حسان" يرجع إلى أوائل القرن الخامس الميلادي ، فعليه أن الذي أدال دولة طسم وجديس هو امرؤ القيس المتوفى سنة ٣٢٨م ، ففي نص يوناني يعود تاريخه إلى ما قبل سنة ٣٢٨ جاء اسم "طسم".

وإذا كانت دولة كندة لم تستمر طويلاً ، فإن اشتراك قبائل نجد في قضايا العرب المصيرية استمر طويلاً ، استمر من قبل دولة كندة ، ودولة امرئ القيس ، وبعدهما. فلقد كانت لقبائل "ربيعة" و"مضر" وغيرهما من القبائل التي استوطنت نجدًا ، إخوة في السلاح للأنباط والتدمريين واللخميين - ملوك الحيرة ، والغساسنة - أبناء جبلة. ولم يتأخر بعضهم في يوم "ذي قار". أما قبل ذلك فلقد اشتركوا مع الثموديين والدادانيين ، وجاء في نص النمارة : (نجران مدينة شمر)[2] .

وتبعت نجد عواصم الخلافة الإسلامية ، ويقول "منير العجلاني" عن كتاب "السلوك" : (إن أمير المدينة المنورة "الشريف مقبل بن جماز بن شيحة" قدم القاهرة سنة ٧٠٩هـ فولاه الملك المظفر نصف الإمرة بنجد ، ويقول "منير العجلاني" الذي نقل هذا

---

(١) راجع الحلقة الثانية من مؤلف (العرب في أحقاب التاريخ) التي صدرت بعنوان (التاريخ العربي ومصادره) ٢/ ٣٧.

(٢) تاريخ ما قبل الإسلام ، لجواد علي ٣/ ٤٣٧ .

الخبر في كتابه : "تاريخ البلاد السعودية" عن كتاب "السلوك" : (يظهر أن إمرة نجد كانت شركة بينه وبين أخيه "منصور").

ويمهد منير العجلاني لرواية "المقريزي" بقوله : (وربما جعل الخلفاء الفاطميون إمرة "بلاد نجد" إلى "أمير المدينة" أو "أمير مكة"، ولما صارت الخلافة الإسلامية إلى "سلاطين آل عثمان" أهملوا نجدًا لفقرها وبعدها وصعوبة الوصول إليها)(١).

ولقد اطلعت على خبر مماثل للخبر الذي نقله "منير العجلاني" عن كتاب : "السلوك" للمقريزي رواه "أبو المحاسن الأتابكي" تلميذ "المقريزي" في مؤلفه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" سبق أن أشرت إليه في حديثي عن نشاط "الحجاز - السراة" السياسي هذا نصه كاملاً : (وفي سنة ٧٠٩هـ كانت الفتنة أيضًا بالمدينة النبوية بين "الشريف مقبل بن جماز بن شيحة" وبين "كبيشة بن منصور بن جماز" وهو ابن أخيه، وكان مقبل قدم القاهرة فولاه "المظفر" نصف إمرة المدينة شريكًا لأخيه "منصور" فتوجه إليها فوجد منصورًا بنجد، وقد ترك ابنه "كبيشة" بالمدينة، فأخرجه مقبل، فحشد كبيشة وقاتل مقبلاً حتى قتله وانفرد بإمرة المدينة)(٢).

أما نص ما جاء في كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي. فهو كالآتي : (وفيها "سنة ٧٠٩هـ" كانت حرب [٦/ب] بالمدينة النبوية، وذلك : أن "الشريف مقبل بن جماز بن شيحة" أمير المدينة تنافس مع أخيه منصور فتركه وقدم إلى القاهرة فولاه "الملك المظفر" نصف الإمرة بنجد واستخلف "كبيشة"، ففر كبيشة عنها وملكها "مقبل" فعاد كبيشة بجمع كبير فحاربه وقتله، واستقر "منصور" بمفرده)(٣).

---

(١) تاريخ البلاد العربية السعودية ٢٩/١، نقلاً عن السلوك.

(٢) النجوم الزاهرة ٢٧٨/٨.

(٣) السلوك، الجزء الثاني، القسم الثاني ص٨٤. والمقصود بحرف (ب) مخطوطة باريس، أي النسخة الخطية الموجودة في باريس.

وخبر المقريزي الذي ورد في "السلوك" مهزوز إن لم يكن هناك خطأ مطبعي وقعت فيه مطبعة "لجنة التأليف والترجمة والنشر"، فخبر المقريزي في هذه الطبعة مبتورة منه جمل كما هو واضح، فالخبر الصحيح هو ما سجله لنا "أبو المحاسن" ابن تغري بردي في كتابه "النجوم الزاهرة" الذي سبق نصه.

ولو أن "منير العجلاني" كان غير مستعجل لبحث عن صحة الخبر الذي أوقعه في الحيرة الظاهرة في كتابه "البلاد العربية"، فمن نص "النجوم الزاهرة" يظهر أن "الملك المظفر" أراد أن ينهي الخلاف بين الأخوين : شيحة ومقبل. بإشراك مقبل مع أخيه شيحة في إمارة المدينة الممتدة إلى نجد.

وهذا ما يستشف من تاريخ المدينة المنورة ومن تاريخ أشراف "بني حسين"، ومن تاريخ نجد، وهو يؤكد أن بلاد نجد إلى اليمامة كانت في أكثر العصور الإسلامية تابعة للمدينة المنورة، وأن أحد أمراء الأسرة الحاكمة في المدينة المنورة "مقبل بن جماز بن شيحة" اختلف مع أخيه "منصور" الحاكم، فاتصل "مقبل" بالملك "المظفر" طمعًا في دعم حكومة المظفر، وفعلاً رجع مؤيدًا من القاهرة، فوجد "منصورًا" متغيبًا بشأن من شئون الإمارة في نجد التابعة للمدينة، فطرد "كبيشة" الذي كان ينوب عن والده في المدينة المنورة، فاستنصر الابن كبيشة" بأنصار أبيه "منصور"، ولا أستبعد أن يكون أبوه أمده بالأنصار من نجد فعاد بقوة تفوق بها على عمه فقتله، فأصبحت إمارة المدينة وتوابعها لأبيه "منصور" وحده، فالملك "المظفر" لم يول مقبلاً نصف الإمرة بنجد كما جاء في كتاب "السلوك"، وإنما جعله شريكًا لأخيه في إمارة المدينة التي كانت بعض بلاد نجد تابعة لها حينذاك كما وضح. ومن نهاية مقبل نتبين أن سلطان مصر على الحجاز كان اسميًا فحسب.

فبلاد نجد كما تقدم ارتبطت بالمدينة العاصمة في عهد الخلفاء الراشدين، وبإمارة المدينة في عهد الأمويين، وفي زمن العباسيين ارتبطت ببغداد إلى الزمن الذي

ضعفت فيه خلافة العباسيين، حيث أخذ أشراف مكة وأشراف المدينة يستقلون بمكة وبالمدينة إداريًا ويتقاسمون النفوذ على نجد، وأخذت كل من الإمارتين تدعو على منابرها للأقوى، مرة لأمراء بغداد، ومرة لأمراء القاهرة، ومرة تتغلب على أشراف مكة دول اليمن، وعلى هذا النحو استمرت الأحداث السياسية إلى أن ظهرت الدولة السعودية الأولى.

ولقد ذكر منير العجلاني عن تواريخ نجد لابن بشر وغيره جدولاً زمنيًا لغزو أشراف مكة وحملاتهم على "نجد"، فقال: في عامي (٩٨٦ و٩٨٩هـ) غزا الشريف "حسن بن نمي" نجدًا وأوغل فيها، ثم توالت غزوات ا لشريف "أبي طالب" والشريف "محسن" والشريف "زيد بن محسن" والشريف "محمد الحارث" والشريف "أحمد بن زيد" والشريف "سعد بن زيد" والشريف "سرور بن زيد" إلى بداية القرن الثاني عشر الهجري[١]، حيث دبت الفوضى في إمارة مكة فلم ينعم شريف بالاستقرار على كرسي الإمارة، فانقلبت الحال بنهضة الدولة السعودية الأولى التي سادت بهدي السياسة الإسلامية على إمارات مكة والمدينة، فجعلت الحجاز جزءاً من الدولة السعودية التي امتدت إلى "اليمن" و"عمان" جنوبًا، وإلى "العراق" شمالاً وإلى البحرين "هجر" جميعها[٢]، فكانت الدولة السعودية آنذاك أكبر دولة قامت في الجزيرة العربية بعد عهد الخلافة.

ولقد كانت نجد عند قيام الدولة السعودية "في الدرعية"[٣] إمارات ومشيخات فقد كانت "الرياض" تحت إمرة "ابن دواس"، و"العيينة" تحت إمرة "آل معمر عبدالله بن معمر"،

(١) تاريخ البلاد العربية السعودية ١/٢٩ وما بعدها.

(٢) تاريخ الدول الإسلامية ومعاجم الأسر الحاكمة ١/٢٣٢.

(٣) الدرعية في الأصل اسم لقرية في "القطيف" وفي سنة ٨٥٠هـ انتقل زعيمها "مانع" جد أسرة البيت المالك - آل سعود - إلى ناحية قرب الرياض بدعوة من ابن عم له كان سيد (حجر) و(الجزعة) فأسس "مانع" الدرعية المعروفة.

ولا يزال بيت آل معمر من الأسر العريقة تناط بها في هذا العهد وظائف خطيرة المسئولية ، و"جلاجل" تحت إمرة "سويد" ، و"سدير" تحت إمرة "السديريين" ، والسدايرة من أبرز رجالات الدولة السعودية في العصر الحاضر ، وأذكر منهم أصدقاء لي : الأمير الأديب الشاعر "خالد السديري" و"الأمير عبدالله السديري" رحمه الله ، والأمير "سعد الناصر" الجامعي المهذب النبيل ، وكيل سمو أمير منطقة المدينة.

وكانت "الأحساء - هجر" تحت إمرة "سليمان بن محمد" ، وكانت كل مدينة وقرية في نجد مستقلة عن الأخرى ، وفي حالة حرب مع شقيقاتها. ولقد كان للجهل والفقر ، وتداخل الحدود أثره الكبير في الفوضى التي سادت نجدًا ، فحدود الحجاز متداخلة كما رأيت مع حدود نجد. وحدود كل إمارة متداخلة مع حدود الإمارة المجاورة ، وناهيك بمشكلة المياه والمراعي في نجد.

٤- وتنظيم جدول تاريخي بعصور نجد السياسية ، وحالة نجد على هذا النحو ، يقتضينا أولاً : ألا نفصل نجدًا عن اليمامة ، فتاريخهما السياسي مختلط كل الاختلاط في جميع العصور ، فنجد كما يقولون هو اليمامة ، واليمامة هي نجد. ويقتضينا ثانيًا أن نرجع إلى ما قيل عن طسم وجديس ، وطسم وجديس من العرب البائدة عاصمتهم "القرية" باليمامة ، وتاريخهم مرتبط بتاريخ جاهلية ما قبل الميلاد. ويبدأ التاريخ العربي مع الألف الثاني قبل الميلاد ، ففي المصادر الإسرائيلية ذكرت طسم باسم "الطوشيم" ، كما قال "جرجي زيدان" في مقال نشرته مجلة الهلال في الجزء العشرين من السنة الخامسة. وفي المصادر العربية أن الذين أزالوا طسمًا وجديسًا من تاريخ الجزيرة السياسي هم تبابعة اليمن في أوائل القرن الخامس الميلادي. ويقال : إن قصور أو حصون "المشقر" و"المعنق" و"الشموس" يعود تاريخها إلى طسم وجديس[١].

---

(١) العرب قبل الإسلام ، جرجي زيدان ، ص٧٩.

ويقول "جواد علي" : (عثر على نص يوناني يعود تاريخه إلى سنة ٣٢٢م وردت فيه جملة أنعم طسم)، ويقول أيضًا عن مصادره: (وخضراء حجر هي "حضور طسم وجديس" وفيها آثارهم وحصونهم وبتلهم)، ويقول أيضًا : (ويرى المستشرق الفرنسي "كوسين دي برسفال" : أن إبادة طسم وجديس كانت سنة ٢٥٠م. ويرى بعض المستشرقين : أن اسم "جديس" ذكره "بطليموس" ، وأن جديس كانوا معروفين في سنة ١٣٠م)[١].

وينقل "جواد علي" عن بعض من الأثريين المستشرقين : (أن الملوك الذين حاربهم "سرجون" مقيمون - على رأي "موسل" - في النصف الشمالي من "السرحان" وهو القسم المسمى "بازو"، وكانت قبائل نازلة في شرق وشمال السرحان في منطقة جبلية هي : "خازو"، وأن "خازو" هي الأحساء)[٢].

ونحن إذا ما رجعنا إلى مصادرنا العربية التي رجع إليها "جرجي زيدان" نجدها تكاد تجمع على أن "تبعًا حسان" هو الذي أباد "طسمًا وجديسًا". وعصر تبع حسان يرجع إلى أوائل القرن الخامس الميلادي كما تقدم، وإذا ما رجعنا إلى مصادر "جواد علي" نجد نص النمارة يقف في وجه الأخذ بالرواية العربية. فنص النمارة يثبت أن وفاة امرئ القيس سنة ٣٢٨م، وامرؤ القيس حكم نجدًا واليمامة من سنة ٢٨٨ إلى سنة ٣٢٨م وفي هذا التاريخ لم يكن لسيادة "طسم وجديس" أثر في اليمامة أو في نجد ، فآخر عهد لهم هو ما جاء في النص اليوناني الذي يرجع تاريخه إلى سنة ٣٢٢م.

فعليه إن من المرجح أن يكون زوال سيادتهم بعد هذا التاريخ على يد "امرئ القيس" بين سنة ٢٨٨ وسنة ٣٢٨م، لا كما يظن "كوسين دي برسفال" أن إبادة طسم وجديس كانت سنة ٢٥٠م.

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٥٣/١ ، والبتل جمع بتيل وهو بناء مربع يرتفع شاهقًا ، يتعبدون فيه ، والبتيلة صغار النخل.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣٢٧/٢ وما بعدها .

ويقول "فيليب حتي" : إن دولة "كندة" بدأت سنة ٤٨٠م، ودولة كندة قضى عليها "النعمان بن المنذر" بمساعدة "كسرى" أنو شروان سنة ٥٨٥م. ويكاد المؤرخون يجمعون على أن "بني حنيفة" وجدوا "حجر اليمامة" خلاء لا أنيس فيه ولا سامر، ومن المعروف أن "بني حنيفة" و"بني تميم". وقبائل نجد جميعها أسلمت وبعثت وفودها للمدينة سنة ٩هـ/ ٦٣٠م، فعلى ذلك يكون الجدول التاريخي لعصور نجد السياسية كالآتي :

- من سنة ٢٠٠٠ق.م. إلى سنة ٢٨٨م تقريبًا.	عهود العرب البائدة : شعوب هزان وطسم وجديس وأميم وغيرها من الشعوب التي وصلت إلينا عنها أنباء غامضة .
- من سنة ٢٨٨م إلى سنة ٤٨٠م تقريبًا.	صلة نجد بالحيرة عاصمة اللخميين وبدولة امرئ القيس بن عمرو .
من سنة ٤٨٠م إلى سنة ٥٣١م .	عهد مملكة "كندة" وقد انتهت في عهد "أنو شروان" كسرى فارس حيث قضى عليهم "النعمان بن المنذر".
- من سنة ٥٨٥م إلى سنة ٦٣٠م سنة ٩هـ .	استقلال "بني حنيفة" و"بني تميم" وفي سنة ٦٣٠م/ ٩هـ أسلمت بنو حنيفة وبنو تميم وسائر قبائل نجد وقدمت وفودها مع بقية وفود العرب في عام الوفود تعلن إسلامها.

وارتبط "نجد" في عصور الإسلام بالمدينة عندما كانت دارًا للخلفاء الراشدين، وارتبط بالمدينة وبمكة عندما كانتا ولايتين أمويتين، وببغداد فترة عندما كانت دار خلافة العباسيين، على أنه لم يلبث أن عاد ارتباطه بالمدينة وبمكة في عهد العباسيين، وفي العهد الفاطمي القاهري، وفي عهد الأيوبيين، ثم في عهد العباسيين القاهريين، وأيضًا في عهد العثمانيين إلى القرن الثاني عشر، حيث انفك ارتباط "نجد" بأمراء الحجاز

في مكة وفي المدينة؛ ليرتبط بالأتراك عن طريق العراق، أو مباشرة، ولكن علاقة النجديين مع الأتراك كانت جد ضعيفة فاترة لا سيما مع حكام "الرياض"، أما "حائل" عاصمة شمر فقد كانت صلة "شمر" بالعثمانيين أقوى من صلة "العنزيين" حفدة "ربيعة".

وهذا بيان نذكر فيه حكومات نجد الداخلية في عصور الإسلام :

- من سنة ٩هـ/٦٣٠م إلى سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م .	عصور الخلافة الإسلامية وقد كان نجد ولاية ترتبط تارة بالمدينة وأخرى ببغداد ومرة بمكة.
- من سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م إلى سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م .	حكم نجداً بنو الأخيضر بعد أن قضى العباسيون على إمارتهم في مكة.
- من سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م إلى بقية القرن السادس الهجري .	نجد في محنة القرامطة وما تبعها.
- بداية القرن السادس الهجري إلى سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م.	عصر فوضى واضطراب.
- من ١١٥٧هـ/١٧٤٤م إلى سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٧م.	العهد السعودي الأول(1) .

---

(١) هناك خلاف في تاريخ تطور الوضع السياسي في الدرعية فبعضهم يجعل بدايته من مشيخة سعود والد الأمير محمد حوالي سنة ١١٠٠هـ، وجعل بعضهم - ومنهم "ابن بشر" - : بدايته السنة التي هاجر فيها الشيخ "محمد بن عبدالوهاب" إلى "الدرعية" وفي سنة ١١٥٧هـ تم تحالف السيف والدعوة، فأول من لقب من آل السعود بلقب الأمير هو محمد بن سعود، فقد كان والده سعود يسمى شيخ الدرعية. وفي معجم الدول الإسلامية يبدأ تاريخ الدولة السعودية الأولى سنة ١١٦٤هـ، وفيه ينحصر عهد الأمير محمد بن سعود من سنة ١١٦٤ إلى سنة ١١٧٩هـ تقريبًا. تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ٢٣٣/١.

- من سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٧م إلى سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م. ارتباط نجد بحكومة محمد علي .
- من سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م إلى سنة ١٣٠٩هـ/١٨٩١م. العهد السعودي الثاني .
- من سنة ١٣٠٩هـ/١٨٩١م إلى ١٣١٩هـ/١٩٠٢م. سيادة آل الرشيد على نجد.
- من سنة ١٣١٩. رجع إلى العرين جلالة العاهل الموفق المغفور له الملك "عبدالعزيز آل سعود".

٥- ولقد قسم الجيولوجيون أرض "نجد" من الوجهة الطبيعية إلى ثلاث مناطق : الأولى هي منطقة "وادي الرمة" ولعلهم يقصدون ما كان من وادي الرمة في نجد ويقولون عنها إنها تتألف من طبقات "طباشيرية" في الشمال، وحجارة رملية في الجنوب، وتغطي وجه الأرض في بعض أقسامها طبقات مختلفة السمك من الرمال، وتتخللها أرضون خصبة وتتسرب إليها المياه من المرتفعات التي تشرف عليها وخاصة من جبل شمر، والمنطقة الثانية وهي المنطقة الوسطى، وهذه المنطقة تتألف كذلك من تربة "طباشيرية" تتخللها أودية تسيل من الشمال إلى الجنوب، من جبل "طويق". والمنطقة الثالثة وهي المنطقة الجنوبية، تتكون من المنحدرات الممتدة بالتدريج من جبل "طويق" ومرتفعات المنطقة الوسطى إلى الصحارى في اتجاه الجنوب، وفيها مناطق يكثر فيها العشب، ذات عيون وآبار مثل : "الحريق" و"الخرج" ، ومن أراضيها المشهورة "الأفلاج" و"السليل" و"الدواسر".

ونحن إذا ألقينا نظرة على خريطة الجزيرة العربية التي وضعتها أرامكو ابتداء من ناحية الجنوب نجدها تضع "جبل العارض" في جنوب غربي نجد في حذاء "سراة عسير".

ونحن إذا ما بحثنا عن جبل العارض في معاجم البلدان نرى "ياقوت" يقول نقلاً عن "أبي زياد" : (العارض باليمامة ، أما ما يلي المغرب منه فهو "عقاب" و"ثنايا غليظة" ، وما يلي المشرق وظاهره فيه أودية تذهب نحو مطلع الشمس، كلها العارض وهو الجبل، ولا نعلم جبلاً يسمى عارضًا غيره، وطرف العارض في بلاد "بني تميم" في موضع يسمى "القرنين". فثم انقطع طرف العارض الذي من قبل مهب الشمال، ثم يعود العارض حتى ينقطع في "رمل الجزء". وبين طرفي "العارض" مسيرة شهر طولاً. واسم طرفه الذي في "رمل الجزء" : "الفرط". ويقول الشاعر الجاهلي "قتيبة الجرمي" :

يعلو المخارم بين السهل والفرط[1]

ونقل "عمر رضا كحالة" عن دائرة معارف البستاني : (جبل العارض ممتد شمالاً وجنوبًا ، وطرفه الجنوبي متصل ببلاد اليمن بقرب "صعدة" ، ومن ثم يمتد شمالاً إلى قرب "الخليج العربي" ، وعلى هذا الجبل مدينة "هجر" و"اليمامة". وفيه نخل كثير وعيون جارية وهو صعب المرتقى، وفيه عقاب وثنايا غليظة من جهة الغرب، وبه ميل وهبوط من جهة الشرق. وقد سماه "بطليموس" في جغرافيته "المريثى")[2].

والذي يظهر، أن قول "فنديك" الذي نقله "كحالة" عام ومجمل، فهو قد جعل طرف العارض الجنوبي متصلاً ببلاد اليمن بقرب "صعدة". مع أن "صعدة" تقع في قمم "الحجاز - السراة" جنوبي عسير بعيدة عن جبل العارض، ولعل "فنديك" يقصد بقوله : (ومن ثم أي من قرب صعدة يمتد شمالاً إلى قرب الخليج العربي

(١) معجم البلدان ٦/٩٣ .

(٢) جغرافية شبه الجزيرة، لكحالة، ص٢٢٥.

الشمال الشرقي بالنسبة لمدينة "صعدة"، على أن "أبازيد" كان أكثر دقة وتفصيلاً من "فنديك" في كلامه عن العارض الذي تقدم.

ونقل "كحالة" عن جغرافية "ملطبرون" خط العارض المسمى بنجد العارض، وهو يتصل جهة الشرق بهجر، وفيه كورة "حنيفة" المشهورة الآن باسم "الدرعية"، ومن مدن الدرعية "أيانا" و"أجانا"(١). ولقد أسست الدرعية سنة ٨٥٠هـ أسسها الأمير "مانع" رأس الأسرة السعودية.

ولعل "حافظ وهبة"(٢) قصد عارض اليمامة عندما قال: (العارض، ويعرف في الجغرافية القديمة بهذه الأسماء "جو" و"العروض" و"اليمامة"، ويقع بين "سدير" شمالاً و"الخرج" و"الحريق" جنوبًا. وهو يكوِّن القسم الأوسط من طويق أي "جبل طويق"، المشهور، و"وادي حنيفة" هو قلب العارض، وفي جنوبه الغربي يقع سهل "ضرما" وفي شماليه "المحمل"، والقسم المعمور من العارض مساحته مائة ميل مربع.

وليت حافظ وهبة حدد منطقة "العارض" شرقًا وغربًا. والذي يظهر إذا ما تتبعنا الحدود الجغرافية أن منطقة الأحساء تحده شرقًا، كما تحده غربًا هضاب الحجاز و"عقاب"، إذا ما أخذنا بقول "أبي زيد" المتقدم وجعلنا عقابًا منطقة جبلية مستقلة باسمها عن العارض.

وإذا ما رجعنا إلى خريطة الجزيرة العربية نرى "الحريق" و"الحوطة" واقعتين جنوبي "الرياض" في حين أن "المحمل" يقع شماليها، وفي شمالي المحمل تقع "سدير"، وهذه المنطقة جميعها يشملها "جبل طويق"، فمن أشهر أوديتها: "العرض"، وهو

---

(١) المصدر نفسه، ٢٢٤.

(٢) جغرافية شبه الجزيرة، لكحالة، ص٤٨.

يخترق "اليمامة" من أعلاها إلى أسفلها تحيط به القرى التي تسمى "الوشم". ومن الأودية المعروفة العامرة بالسكان في أكثر عصورها "وادي حنيفة" الشهير.

٦- ومما يسترعي النظر : أن "جبال العارض" في خريطة أرامكو تقع جنوبي جبل طويق من شرقيها إلى غربيها !! فالذي يظهر بعد الرجوع إلى معاجم البلدان أن اسم "طويق" أطلق أخيرًا على أغلب أقسام جبل العارض، فليس في "معجم ياقوت"، وهو أوسع المعاجم، جبل باسم طويق. وإنما في معاجم اللغة : الطوق أرض سهلة مستديرة، ولعل اسم "طويق" مشتق من "الطوق"، فجبل طويق يظهر على الخريطة مستديرًا وسطحه سهلاً، والتصغير كثيرًا ما تجنح إليه العرب. وجاء في لسان العرب : وذات طوق أرض معروفة، وجاء في شعر "رؤبة":

وقد أنجدن من ذات طوق (١)

فلا يبعد أن يكون المتأخرون - وقد أضاعوا اسم "عقاب" الذي كان يعرف به القسم الذي يلي المغرب من جبل العارض - أطلقوا على جزء كبير من جبل العارض اسم "طويق"، فأصبح طويق علمًا مشهورًا في مؤلفات المتأخرين وبارزًا على خريطة الجزيرة العربية.

٧- وعن جبل طويق نقل عن "فلبي" : أنه عثر على بعض المتحجرات البحرية في "هضبة طويق"، وأن هذه المتحجرات تدل على أن هضاب طويق كانت في يوم ما مغمورة بمياه المحيط، ولقد تقدم في الجزء الأول من هذا المؤلف "العرب في أحقاب التاريخ" أن العلماء الجيولوجيين الذين يقولون : إن طوفان "نوح" لم يكن أول طوفان منيت به البشرية، يستشهدون بما وصل إليه التحقيق المبني على تحليل عظام حيوانات مائية

---

(١) لسان العرب، مادة (طوق) ١٠/٢٧٤ .

عثر عليها في رؤوس الجبال[1]، فهل هذه المتحجرات تدل على أن البحر كان عاليًا إلى ذلك الارتفاع؟ أو أنها أثر من آثار الطوفان الذي انحسر تاركًا أحياء مائية في كهوف الجبال ورؤوسها"؟ ومن أسماء الجبال التي لا تكاد تعرف جبل "سويقة"، قال عنه ياقوت : (هي هضبة طويلة مصعلكة)، والمصعلكة : الدقيقة، ولا يعرف بنجد جبل أطول منها[2].

فمن هذا العرض المفصل يتضح لنا أن الجزء الأكبر من نجد الشمالي هو جبل العارض، وأن عارض اليمامة هو المجال الأول لنشاط سكان نجد، ففي منطقة اليمامة تركز النشاط الاقتصادي والحضاري، ففي اليمامة أرض خصبة وماء معين. أما اليوم فمنطقة القصيم تشاطر اليمامة في النشاط الزراعي.

٨- وإذا كنا نجد في التاريخ القديم ما يؤكد أن بلاد نجد كانت جميعها من الأراضي كثيرة الأشجار والمزدحمة بالسكان والعمران، وأن أوديتها كانت تتدفق فيها المياه، فتفيض خيرًا وبركة على أهلها، فإن الواقع يؤكد لنا أن ذلك الماضي الزراعي القديم عفى الزمن عليه ولم يتبق منه غير آثار باهتة تؤكد ما قاله القدامى عن اليمامة، وحجرها، وعن ماضيها الزاهر، أيام أن كانت أرضها منقوشة بالحقول الخضراء، براقة يذهبها الأصفر الذي كانت تصدره للنبي الملك "سليمان بن داود". على أن النشاط الزراعي بدأ يعود بآلات العصر الحديث. فها نحن أولاء نشهد اليوم انبعاث النشاط الاقتصادي، زراعة وغير زراعة من جديد بعد أن سلبت أحداث طبيعية وأحداث من صنع الجهل والجشع، هذه المنطقة نشاطها وثرواتها ودفعتها إلى دوامة من فوضى الجاهلية التي انجلت بعد أن أسلمت بلاد نجد وسارت مع الأمم الإسلامية على الهدي المحمدي، ثم دفعها الجهل مرة ثانية وأبعدها عن تعاليم الإسلام، ثم عادت

---

(١) التاريخ العربي وبدايته ١/ ٥٠، وهو الجزء الأول من كتاب العرب في أحقاب التاريخ.

(٢) معجم ياقوت، مادة (سويقة) ٥/ ١٨١.

إلى الدستور الإسلامي الحنيف بقيادة آل السعود ، أولاً عندما قام الإمام "محمد بن عبدالوهاب" يدعو الناس للتمسك بجوهر الإسلام.

وثانيًا عندما نهض العاهل المؤسس جلالة الملك "عبدالعزيز" رحمه الله يجدد تاريخ آل السعود ، وقد سار على سننه "جلالة الفيصل" رحمه الله. يسنده إخوة أشاوس جلالة "الملك خالد"[١] وسمو "الأمير فهد" و"عبدالله" و"سلطان" ، الذين تحوم حولهم آمال الأمة المتطورة التي ترجو أن تكون في مقدمة الأمم المتحررة من رواسب الاستعمار واستبداده واستغلاله الثروات. ومن أمراء المدينة الذين سوف يخلدهم تاريخها سمو الأمير "عبدالمحسن بن عبدالعزيز آل سعود" الذي شغل من قبل وزارة الداخلية.

فمما لا شك فيه أن وحدة قلب الجزيرة العربية فيما بعد عصور الخلافة المشرقة مجد من أمجاد العروبة وفخر من مفاخرها ، ولسوف تكون المملكة السعودية التي وحدت أقطارًا ذات ماض حافل في طليعة مواكب العلم والنور ، تسهم - إن شاء الله - من مراكز القوة في بناء صروح العروبة والإسلام ، إذا حفظها الله من جشع الذاتية وأنانيتها ، ووفقها للاستفادة من ثرواتها ، وزادها تنظيمًا للمسئولية وتركيزًا لها.

---

(١) كانت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في عهد الملك خالد بن عبدالعزيز - رحمه الله - عام ١٩٧٦م.

البحث الثالث :

نجد : سكانه ومدنه :

١- تقدير سكان العصور الماضية ضرب من التخمين .

٢- تاريخ نجد أنباء قصيرة مشوشة .

٣- الشيخ العنزي وعنزة .

٤- حواضر نجد وقراه .

٥- العارض لا يشمل أرض نجد جميعها .

٦- الفأو ومدينته التاريخية .

٧- صفة الصمان .

٨- التعرف إلى بعض مدن نجد القديمة .

٩- اسم حائل وجبالها .

١- إننا إن ذكرنا في البحث المتقدم كثيرًا من صفات نجد في أثناء استعراضنا نشاط سكانه السياسي والحضاري، فباعث ذلك أن طبيعة الأرض لها تأثير على نشاط السكان، فهي سر نشاطهم وخمولهم. وإننا إن أشرنا إلى كنوز أرض نجد واليمامة في أثناء بحثنا عن تاريخه الحضاري، فكنوز الأرض هي الطاقة التي تحرك الجهد للبناء والاستثمار، فلابد للذي يريد أن يتكلم عن النشاط الحضاري والسياسي من أن يستعرض البواعث والأبعاد، فللوصول إلى ذلك سقنا بعضًا من أقوال الذين عنوا بجغرافية نجد، وتحدثوا عن أرضها ومما تتكون، عن خصب بلاد نجد وجدبها ومياهها ومزارعها ومراعيها، وعن جبل العارض الذي يقال إنه هو نجد، وإن نجدًا هو العارض، وعن اليمامة وأين تقع من نجد؟ وماذا أبقت اليمامة لنجد من الأرض؟ فلقد أضاف الجغرافيون أكثر مدن نجد وروابيها وأوديتها إلى اليمامة.

ومما تقدم هناك نتبين أن أهل نجد كانوا من القدم محاربين بقدر ما كانوا تجارًا وأكثر مما كانوا مزارعين، إذا ما استثنينا بعض مناطق نجد الزراعية. كانوا محاربين بحكم موقع الأرض وطبيعتها. فموقعها استراتيجي بالنسبة للعراق وسورية وباديتهما، وطبيعة الأرض يغلب عليها الجدب، والجدب يخشن الخلق والطبع، ويدفع للمغامرة وتجريد الحسام للسيادة على المرعى، ولاغتصاب الماشية ونهب الأحياء، كما كانت عليه حياة قبائل البادية الرحل. فمن النجديين أنصار لدولة اللخميين في العراق، ومنهم أنصار لدولة الغساسنة في الشام، ومنهم الذين حاربوا تحت لواء "أذينة" عاهل "تدمر"، ومنهم من نصر "دارا" إمبراطور فارس، وضمن له الفوز على فراعنة مصر. ومنهم قبائل رحل تقضي حياتها وهي في حالة طوارئ. إما أن تكون غازية ي أرض غيرها، وإما أن يكون غيرها غازيًا في أرضها.

وكانوا تجارًا يتنقلون هنا وهناك في أنحاء الجزيرة العربية، لأن أرضهم في حاجة لاستيراد الكثير من لوازم الحياة، ولأنهم يملكون من الأنعام الكثير مما كانت تصدره

نجد إلى سورية والعراق، وما زالت للنجديين قدم راسخة في التجارة إلى الوقت الحاضر، ففي المدينة سوق تسمى "سوق الشروق". والشرقي في اصطلاح الحجازي هو النجدي الساكن في مشرق الحجاز، والشامي هو الذي يسكن في شماله، واليمني هو الذي في جنوبه. ولا تزال سوق "الجودرية" في مكة معرضًا لبضاعة نجد.

وكانوا زراعًا لاسيما في اليمامة، ففي اليمامة مياه غزيرة، ومن اليمامة أرض صالحة للزراعة، ولها تاريخ زراعي معروف. ولعل وفرة مياهها الجوفية التي يصفها الجيولوجيون ببحيرة لا يعرف قرارها هي التي جعلتها لا تشعر بوطأة الجدب التي دفعت غالبية سكان نجد للهجرة إلى أرض الأنهار. وكذلك أرض "القصيم" و"حائل" لها ماض وحاضر زراعي ممتاز.

فمن الرجم بالغيب تقدير عدد سكان قبائل متنقلة تكثر هجراتها حتى قيل : نجد أم والعراق داية، فإذا كان سكانه يقدرون اليوم بما يقارب الثلاثة ملايين، فإن هذا التقدير لايستند إلى إحصاء دقيق، فلقد اختلط النجدي بالحجازي بالتهامي بالأحسائي في كل من نجد، والحجاز، وتهامة، والأحساء، وأصبحوا شعبًا واحدًا تحت راية واحدة.

ولربما كانت نفوس نجد، في عصرها القديم أيام الخصب الذي سبق الجفاف على نحو ما هي عليه اليوم اكتظاظًا ونشاطًا في الزراعة، والتجارة، والعمران، وإنما الذي لا شك فيه أن ظروفًا مريرة قاسية مرت على الجزيرة العربية، كان نصيب نجد من مرارتها وقسوتها كبيرًا.

٢- ولم يتحدث المؤرخ الكلاسيكي عن تاريخ نجد القديم بغير الإشارات العابرة التي تأتي في سياق بحث من بحوث التاريخ، مثل الكلام عن حروب "الآشوريين". ويؤكد الكثيرون أن "سترابون" كان مع الحملة الرومانية التي بلغت القصيم، ففي تحقيق

"فورستر" فيما نسب لسترابون وغيره من القدامى أن الروم دخلوا قلب نجد، ولكن "سترابون" لم يتحدث بشيء من التفصيل عما كان في نجد من مدن عامرة ونشاط اقتصادي، مع أنه كما يقول "جواد علي" سائح وكاتب وجغرافي ومؤرخ، وكان صديقاً لقائد الحملة الرومانية، التي يرجع تاريخها إلى عام ٢٤ق.م. ثم إن أكثر ما وصل للمحققين مما كتبه "سترابون" اعتبره المحققون ألغازاً وأحاجي احتار المؤرخ في حلها، فلقد ذكر أسماء أماكن، ومياه، وطرق، تاهت الظنون في معرفتها[(١)].

وينقل "منير العجلاني" عن "غوارماني" أن أحد شيوخ عنزة[(٢)] قال له: (إن نجداً سبعة نجود، في الجنوب: "العارض" و"الأحساء" و"الحريق"، وفي الوسط: "الوشم"، وفي الشمال: "القصيم" و"سدير" و"جبل شمر"[(٣)].

٣- ولعل الشيخ العنزي قصد مقاطعات نجد الكبرى كما يفهمها. فكل نجد من النجود التي ذكرها تمثل: قضاء من قضاءات نجد، ولقد اعتبر هذا الشيخ الأحساء من نجد، والواقع أنها من "العروض". ولعل "العارض" يشمل في تقسيم الشيخ العنزي: مدناً ومقاطعات مثلما يشمل "القصيم"، ويشمل "سدير" وغيرها من النجود التي تحدث عنها لـ "غوارماني" مدناً لم يذكرها ذلك الشيخ، مثل "الخرج" وقاعدته "الدلم"، ومن مدنه: "منفوحة" و"اليمامة"، و"الأفلاج" وقاعدته "ليلى"، و"وادي الدواسر" وقاعدته "الدام". و"المحمل" وقاعدته "ثادق"، و"الشعيب" وقاعدته "حريملا"، و"الجوف" وقاعدته "سكاكة".

---

(١) تاريخ العرب لجواد ٢/٣٩٠ وما بعدها.

(٢) اختلف النسابون: في (عنزة) فقيل (عنزة): سلالة عنزة بن أسد، وقيل: سلالة "عنزة وائل"، ويقال: إن النسبة إلى (عنزة) نسبة سياسية. وقد اشتهرت (عنزة) بانتساب آل سعود الأقدمين. وكان يقال لبني جنيفة عنزيين.

(٣) تاريخ البلاد العربية السعودية ١/٦٨، ٧٢، المقدمة و١/٦٨، ٧٢ المتن، ١٥٥؛ دائرة المعارف الإسلامية ١٠/٢٩٦، وإخال العمران الحديث احتضنها وغطى عليها.

٤- فالعارض يشتمل على حواضر كثيرة أشهرها : "الرياض"، وينقل "منير العجلاني" عن صاحب "اللمع" : أن الرياض كانت تسمى "حجر اليمامة". وجاء "في دائرة المعارف الإسلامية" أن مدينة الرياض التي نافستها "منفوحة" كانت في موضع الأطلال التي لا تبعد عن مدينة الرياض اليوم أكثر من (٤٠٠) ياردة، حيث تقوم أطلال تعرف بحجر اليمامة. و"الدرعية" مهد الدولة السعودية، أسسها الأمير "مانع" العنزي الحنفي سنة ٨٥٠هـ. والأمير "مانع" هو جد آل مقرن آل سعود، الأسرة المالكة، أما "سدير" فلقد كانت "المجمعة" قاعدته، ثم أصبح مقر الإمارة "الغاط". و"الحريق" قاعدته "الحريق"، و"جبل شمر" قاعدته "حائل". و"الوشم" قاعدته "شقراء". و"القصيم" وحواضره "بريدة" و"عنيزة" و"الرس" و"الخبرا" و"العيون".

٥- وكادت صفة نجد العارض تستحوذ على البحوث التي وضعت في جغرافية نجد وتاريخه، و"نجد العارض" لا يشمل جميع مناطق الجنوب، ولا جميع مناطق الشمال والغرب، ولعل عدم اهتمام الجغرافيين والمؤرخين بصفة نجد الجنوبي سببه افتقاره لما يبعث الاهتمام به. أما بعد اكتشاف ما في جوف الأرض من ثروات فقد أصبح جنوب نجد والربع الخالي في اعتقاد الخبراء بحرًا من الثروات سوف يكون لها أثرها في الاقتصاد العالمي يزيد على ما لمنابع البترول اليوم من تأثير على اقتصاده، ومن ثم أصبحت صفة جنوب نجد لامعة لا يمكن لباحث أن يتجاهلها.

فكما سلطت الأضواء على "الوديعة" و"شرورة" بعد اعتداء اليمن الجنوبي، فلسوف تسلط الأضواء على معالم تلك الرمال التي تراها على الخريطة منثورة عليها أسماء جبال وأودية وقريات مجهولة لا يعرفها اليوم إلا النادر من المختصين، ولا يحرك رمالها غير الأعاصير، مثلما كانت "البريمي" وما حولها صامتة لا حسيس لها إلى أن أثبتت وجودها ورفعت شأنها عاليًا الثروة البترولية التي تكتنزها أرضها.

٦- ولم يفت الباحثين عن الثروات التنقيب عن الآثار، فلقد اكتشفت "شركة أرامكو" مدينة "الفأو" التي تقع جنوبي "وادي الدواسر" وشرقي "جبل القهر"، ثم تابعت الاكتشاف بعثة سعودية بإشراف الصديق "عبدالرحمن الأنصاري". وقرية الفأو هذه بعيدة كل البعد عن "وادي الفأو" الذي يظهر على خريطة الجزيرة العربية في شمالي "الصمان". فوادي الفأو هذا يكاد يكون مجهولاً لا يذكره الكثيرون[1]، ويوجد في الصعيد بمصر قرب قرية تسمى "قصر كليب" موضع يسمى: "فاو".

٧- فالصمان الذي يجري في شماليه وادي الفأو: أرض فيها غلظة وارتفاع، وفيها قيعان واسعة، وفيها خبارى تنبت السدر، ويقال: ربعت العرب إذا أخصبت الصمان. ويقول "ياقوت": كانت الصمان في قديم الدهر لبني حنظلة، و"الحزن" "لبني يربوع". و"الدهناء" لجماعتهم، والصمان متاخم للدهناء ويفصل بينها وبين "العروض" والصمان أرض واسعة جدًا تمتد على حدود "البحرين - هجر" الغربية بالنسبة للعروض، والشرقية بالنسبة لنجد، يترواح عرضها من (٥٠) إلى (١٥٠) ميلاً.

ويتكتل العمران أكثر مما يتكتل في نجد الشمالي، وبالأكثر في منطقة اليمامة، وعلى سفوح جبل طويق، ويفرض علينا الحديث عن صفة مدن نجد، ومكانتها في تاريخه: العودة إلى مدن سبق الكلام عنها، فأهم مدن نجد: "الرياض"، ورياض نجد لم يذكرها "ياقوت"[2]؛ لأنها مدينة حديثة قامت بجانب مدينة "الدرعية" عاصمة الدولة السعودية الأولى، وقدم تقدم عن "اللمع" أنها كانت تسمى "حجر اليمامة"، ومن مدنه "منفوحة" وهي في معجم ياقوت قرية من نواحي اليمامة في أقصى الطرف

---

(١) الفأو، في معجم ياقوت: طريق بين قارتين لناحية (الدو) بينهما فج واسع يقال له (فأو الريان). ويقول ياقوت: وقد مررت به. و(فاو) في معجم ياقوت أيضًا: ما بين الجبلين ٢٣٦/٦ و١٠٩/٧.

(٢) في معجم ياقوت: الرياض: علم لأرض باليمن بين مهرة وحضرموت.

الشمالي من "وادي حنيفة" كان يسكنها "الأعشى" وبها قبره، وقد كانت لـ "بني قيس بن ثعلبة". و"سدوس" مدينة أثرية كما يقول شكري الألوسي[1]. وجاء في لسان العرب عن سدوس: سدوس اسم لأماكن: سدوس الذي في "تميم" و"ربيعة"، وسدوس في "سعد ابن نبهان"، وقال "أبو جعفر محمد بن حبيب": (وفي "تميم" سدوس دارم، وفي "ربيعة" سدوس بن ثعلبة، وكل سدوس في العرب فهو مفتوح السين إلا سدوس طيئ فإنه بضمها وإنه أشهرها). و"المحمل" يقول عنه الألوسي: كانت في الماضي مركز الحكومة أيام إمارة "ابن سعود". و"الخرج" وتقع في الجنوب الغربي من العارض في "وادي حنيفة" قرب الرياض. وقال عنه: "ياقوت": (الخرج واد فيه قرى من أرض اليمامة لـ "بني قيس ابن ثعلبة". وهو من خيرة أودية اليمامة ، أرضه أرض زرع) ولا يزال كذلك، وأشهر مدن الخرج: "الدلم". ومن قرى اليمامة "الحائط" كان بها "سوق الفقي"[2].

٨- وقد تقلصت اليمامة التي كانت في الماضي منطقة بارزة في مناطق العروض، فأصبحت اليمامة اليوم اسمًا يطلق على مدينة صغيرة فيها. من صفات اليمامة الكبرى الخصب وكثرة المياه. و"الحريق" وتقع غربي الخرج، ولجوها من اسمها نصيب فهي شديدة الحر، وآبارها بعيدة الغور. و"الحوطة" تقع جنوبي الحريق، وهي أفضل تربة وجوًا من الحريق. ثم منطقة "سدير" وهي الجزء الشمالي من "جبل طويق"، ومنطقة سدير كثيرة المدن، فمن مدنها: "المجمعة" و"الزلفي" و"الغاط" و"جلاجل" و"التويم" و"الداخلة" و"الروضة" و"الحصون" و"حوطة" و"العطارة" و"العودة" و"الخطامة" و"عشيرة" و"تمير" و"حرمة"، والسدير في نوادر الأصمعي: اسم فارسي معرب، والسدير يطلق على المكان الكثيف الأشجار، والسديرة واد ذكر في أشعار العرب. ثم "الوشم" ويقع

---

(١) تاريخ نجد، ص٢٨.

(٢) معجم ياقوت ١٠٤/٣.

الوشم جنوبي سدير، وجنوبي "القصيم"، والوشم منطقة كبيرة قال عنها "ابن منظور" : (والوشم : بلد ذو نخل به قبائل من "ربيعة" و"مضر" قريب من اليمامة، زعم "أبوعثمان" عن "الحرمازي" : أنه ثمانون قرية)[1] . وقال عنه "ياقوت" : (الوشم، ويقال له : الوشوم، موضع باليمامة يشتمل على أربع قرى. وأخبرنا بدوي من أهل تلك البلاد : أن الوشم خمس قرى عليها سور واحد من لبن وفيها نخل وزرع، وهو لـ "بني عائذ") والفرق - كما ترى - جد كبير بين ما جاء في لسان العرب عن الوشم، وبين ما جاء في معجم ياقوت. ومن العجيب أن يوجد هذا التفاوت بين قولين لرجلين لا يكاد يوجد بينهما فارق زمني، فابن منظور ولد سنة ٦٣٠هـ وياقوت توفي سنة ٦٢٦هـ أي قبل أن يولد ابن منظور بأربع سنوات فقط، ولعل السبب نشأ من أن كلاً من الرجلين لم يصل إلى "الوشم"، فياقوت يقول سألت بدويًا، وابن منظور رجع إلى ما قاله "أبو عثمان"، وهذا التفاوت يشير إلى واجب الباحث ومتاعبه للحصول على الحقيقة من بين المصادر التي بين أيدينا، فمهما يكن في كلام "أبي عثمان" من مبالغة فإنها من المرجح ألا تصل إلى مثل هذا التباين : من أربع قرى إلى ثمانين قرية إلا إذا اعتبرنا قرى "المذينب" من الوشم على رأي بعضهم، فإن الفرق حينئذ لا يكاد يذكر. ولا أدري لماذا لم يلتفت كل من النويري وياقوت إلى قول البكري. فلقد ذكر في معجمه "الوشم" على أنه موضع بنجد. ثم يذكر "الوشم" على أنه موضع آخر. في حين يقول ياقوت : (يقال للوشم الوشوم). أما في الوقت الحاضر فإنك تجد الوشم على خريطة الجزيرة العربية مكتوبًا بالخط العريض دلالة على سعته.

ثم منطقة "القصيم"، ومنطقة القصيم مشهورة في الماضي والحاضر. مشهورة في الماضي في الماضي بفواكهها، وكذلك بوبائها قال فيها الشاعر :

---

(١) لسان العرب، مادة (وشم).

إن القصيم بلد محمة أنكد أفنى أمة فأمه[1]

أما في الحاضر فبلد زراعي غير موبوء بفضل الاحتياطات الصحية، يتمتع بمركز زراعي وتجاري مرموق. وللقصيم حاضرتان هما "عنيزة" ولعلها تصغير "عنزة"، فعنزة في معجم ياقوت موضع بناحية نجد بين "اليمامة" و"ضرية"، وقد يكون اسم عنزة هو الأصل ثم صغر. ولقد اشتهر أهل عنيزة بأخلاق فاضلة وكرم ضيافة وبالشجاعة، وقل أن تتمتع قبيلة بالشجاعة دون الكرم، أو بالكرم دون الشجاعة، فهما خصلتان متلازمتان تقريبًا، وأهل عنيزة صناع وزراع وتجار. والحاضرة الثانية "بريدة"، وبريدة في معجم "ياقوت" تصغير "بردة" وهي ماء لـ "بني خبينة". وفي لسان العرب: البردي بالضم من جيد التمر، وتمر القصيم معروف بجودته. ولا أدري هل التمر البردي نسب في الأصل إلى بريدة مصغر بردة؟ أو بريدة نسبت إليه؟ ومن أهم مدن القصيم: "الرس" والرس: موضعان في نجد، فهناك قرية في اليمامة يقول ياقوت إنها تسمى الرس، وكان يقال لها "فلج". والرس المعروفة اليوم تقع في جنوبي القصيم، وملحقات حواضر القصيم تبلغ نحوًا من خمسين قرية ومدينة.

ثم هناك في الناحية الغربية من جنوبي نجد: "وادي الدواسر" ومن أشهر قراه: "السليل"، والسليل تقع في الجنوب الشرقي لوادي الدواسر، وعندما بحث "ياقوت" عن "السليل" قال: إنه واد "بنجد"، وتدل آثار قرية الفأو التي اكتشفت في نواحي "السليل" من "وادي الدواسر" على أن لهذه المنطقة ماضيًا قديمًا.

٩- وحائل كلمة لها معان في اللغة ذكرها "ياقوت" ولم يذكر المناسبة التي دعت لذكرها، فحائل معناها في قواميس اللغة الناقة التي لم تحمل عامها، وكذلك

---

(١) معجم ياقوت، مادة (قصيم) ١١٦/٧ .

الشجرة، والرجل الحائل المتغير لونه. وحائل اسم لأماكن منها موضع باليمامة قيل إنه لـ "بني نمير" و"بني حمان" وقيل لـ "بني قشير" وهو واد أصله من الدهناء. وقال "أبو زياد": (حائل: موضع بين أرض اليمامة وبلاد باهلة). وحائل ماء "في بطن المروت" من أرض "يربوع".

وحائل التي نحن قادمون على الكلام عنها هي واد في جبلي طيئ. قال فيه "امرؤ القيس":

أبت أجأ أن تسلم العام ربها ... فمن شاء فلينهض لها من مقابل

تبيت لبوني بالقرية آمنا ... وأسرحها غبًا بأكناف حائل

وحائل الذي جاء في شعر امرئ القيس اسم لمكان عرف من العصر الجاهلي[1]، واختلف الجغرافيون العرب في منطقته هل هي حجازية؟ أم نجدية؟ كما تقدم في كلامنا عن حدود "الحجاز - السراة" وحدود نجد الغربية. فلا ضرورة لإعادة ما سبق. فما كان شرقي حرة الهتيمة و"فيد" والجبلين فهو "نجد"، وما كان غربيها فهو حجاز، فحائل تحول بين نجد والحجاز، كما أرى.

ومنطقة حائل في بلاد شمر، وعن بلاد شمر تكلم الكثيرون، تكلم عنها الجغرافيون، وتكلم عنها المؤرخون، وتكلم عنها الشعراء، وتكلم عنها الرحالة والأثريون، فأرض شمر يقصد بها السهل الواسع الممتد بين "أجأ" و"سلمى"، وتتألف سلسلة أجأ وسلمى من كثير من الجبال والهضاب تفصل بينها شعاب وأودية، وفي منطقة أجأ وسلمى تتوافر المياه، ففيها آبار لا تنضب، وعيون جارية ونخل وزروع مختلف أكلها، وتتبع حائل إداريًا - في الوقت الحاضر - مدن في مناطق حجازية مثل

(١) معجم ياقوت، مادة (حائل) ٣/١٠٥؛ معجم البكري ٢/٤١٤ .

"خيبر" و"تيماء"، ومدن نجدية، ومن أهم مدن المنطقة: "حائل" و"قفار"، وهناك مجموعة القرى الزراعية المعروفة باسم "عقدة" و"فيد".

وجاء في "دائرة المعارف الإسلامية": (يقال لحائل الهائل، وإنها تقع غربي نجد وسط سهل يعرف بساهلة الخمشية، وهذا السهل يقع بين جبلي طيئ "أجأ - مئنيف" و"سلمى - فتى". ولحائل ضاحيتان "سويفلة" و"واسط". وفي أوائل القرن الماضي كانت حائل إمارة لآل "بيت علي"، وحوالي سنة ١٨٣٠م / ١٢٤٦هـ استولى عليها "عبدالله بن رشيد" وهو سيد أسرة "جعفر" العريقة بمساعدة الزعيم السعودي "الإمام فيصل".

وتقول "دائرة المعارف" اعتمادًا على ما جاء في "صفة جزيرة العرب": (لعل وادي حائل في حمى "ضرية" هو عين مدينة حائل)، وتقول: (إن "شبرنجر" يرى: أن حائل هي "أرى كمي" الواردة في جغرافية بطليموس[(١)]، وجاء في صفة جزيرة العرب هو: (فمن عن يسار "ضرية" جبال يمر بينها "بطن الرمة" ودونها "عشيرة" وهي طائية، وبفراعة "أجأ وسلمى" جبلا طيئ)[(٢)].

وبوصول البحث إلى حائل نكون قد وصلنا إلى حدود نجد الغربية على أن هذه المدن والقرى ليست هي كل مدن نجد وقراه. وإنما اكتفينا بأشهر مدنها التي ذكرت في التاريخ.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٧/ ٢٨٠.

(٢) الصفة، ص١٤٤.

الفصل الخامس

العروض : القسم الثالث من أقسام الجزيرة العربية

البحث الأول : العروض: اسمه وحدوده.

البحث الثاني : العروض في التاريخ.

البحث الثالث : العروض سكانه وأقاليمه.

البحث الأول :

العروض : الاسم والحدود :

١- اسم العروض لغة.

٢- العروض التي يقصدها المؤرخون.

٣- ما هي العروض؟

٤- لقد تسرع من ظن أن هذا القسم هو جبل العارض.

١- للعروض : لغة - معانٍ كثيرة منها الناحية ، ولقد فسر قول "لبيد" :

نقاتل ما بين العروض وخثعما

أي بين المدينة ومكة واليمن. والعروض هنا مؤنثة. وجعل بعضهم العروض من اليمن إلى المدينة. ويظهر مما جاء في لسان العرب[1] عن العروض أن من معاني كلمة العروض الناحية والطريق، وأن العرب كانوا يسمون الأراضي الممتدة من "عمان" إلى بادية العراق: العروض، ويظهر مما جاء في معجم ياقوت عن العروض أنه جمع الأقوال التي وردت في معاني العروض على أساس أنها الناحية الغربية التي تقع بين اليمن ومكة والمدينة، وجمع أيضاً الأقوال التي وردت عن العروض على أساس أنها الناحية الشرقية من الجزيرة التي تمتد من "عمان" إلى بادية العراق، وهذه هي موضوع هذا الفصل.

فنقل عن ابن عباس[2]: (وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما العروض، وفيها نجد وغور لقربها من البحر)، ونقل عن "ابن دريد": (العروض: مكة والطائف وما حولهما).

وقيل: مكة والمدينة واليمن، ثم حصر ياقوت البحث في العروض منازل "طسم وجديس"، فقال: (إنما سميت هذه الناحية بالعروض لأنها معترضة في بلاد اليمن وبلاد العرب ، ما بين تخوم فارس إلى أقصى اليمن مستطيلة مع ساحل البحر)[3].

٢- فعندما يبحث المؤرخون والجغرافيون في تاريخ الجزيرة العربية وفي صفتها تراهم يتحدثون عن "العروض" وأقسامها من "تخوم فارس" إلى "أقصى اليمن"، ويعنون

---

(١) لسان العرب، مادة (عرض).

(٢) معجم البلدان، باب الجيم ١٠١/٣ .

(٣)المصدر نفسه، باب العين ١٦٠/٦.

بتخوم فارس: "العراق" المستعمرة الفارسية في الزمن القديم. ويعنون بأقصى اليمن: أقصى "عمان". فالعربي عندما يقف في أي مكان من الجزيرة يسمي الشمال شاماً، ويسمي الجنوب يمناً. فعمان في أقصى يمن الجزيرة، وعمان اختلفت الأقوال فيها هل هي جزء من اليمن أحد أقسام الجزيرة العربية؟ أم هي جزء من العروض أحد أقسام الجزيرة أيضاً؟ أو أنها وحدة جغرافية مستقلة؟

والعروض الذي يتكلم عنه القدامى من المؤرخين يمثل الساحل الشرقي لجزيرة العرب المترامي على الخليجين "العربي والعماني"، ومناطق هذا الساحل تعرف اليوم في معاجم السياسة والصحافة باسم دول الخليج، فاسم الخليج عند البعض يشمل الخليجين: العربي والعماني، والدول التي تطل على الخليجين هي: "الكويت" و"المملكة العربية السعودية" و"قطر" و"دولة الإمارات العربية المتحدة" و"عمان" و"جزر البحرين" التابعة جغرافياً للعروض. ولقد أصبح اسم "البحرين" مقتصراً على هذه الجزر، وأصبحت إمارة جزر البحرين مرتبطة بدول الخليج العربي.

وعندما يتكلم المتأخرون المعاصرون عن الجزيرة العربية وتاريخها، يفردون للعروض جزءاً خاصاً في مؤلفاتهم، والدول التي يكتبون عنها تحت عنوان "العروض" هي دول الخليج التي تقدم ذكرها، ولكن أكثرهم يتكلم عن "عمان" على أنها جزء من اليمن، وأكثر من هذا فإن بعضهم يجعل "البحرين" من أقصاها إلى أقصاها من اليمن، فلقد جاء في معجم ياقوت عن البحرين: (وقد عدها - أي البحرين - قوم من اليمن، وجعلها آخرون قصبة برأسها، وربما عد بعضهم اليمامة من أعمالها، والصحيح أن "اليمامة" عمل برأسه بين مكة والبحرين)[1]. والظاهر أن الذين اعتبروا

(١) معجم البلدان، باب الباء، ٧٢/٢؛ وراجع خريطة الجزيرة العربية، تحقيق أرامكو.

عمان من اليمن يقصدون باليمن الجنوب. أما اليمامة فسواء كانت مستقلة، أم عملاً برأسه، فهي حسب موقعها الجغرافي بعضها يعتبر من نجد، وبعضها من العروض.

وكل من يتكلم عن "العروض" يتحدث عن وحدته الجغرافية الطبيعية، ولا ينكر مكانته في تاريخ الجزيرة القديم جداً، والحديث جداً. فالعروض من أقدم أقسام الجزيرة العربية التي صنعت الحضارة في ربوعها وهاجرت بها إلى "سورية" و"لبنان"، فالفينيقيون الذين أسسوا أقدم حضارة عرفت في لبنان هم حفدة الكنعانيين أبناء الساحل الشرقي لجزيرة العرب - العروض.

وفي الحاضر لا يستطيع أحد أن يتجاهل دول العروض، أو ينكر أثرها على مجريات السياسة العربية وتأثيرها على اقتصاد العالم.

٣- والعروض في بحث القدامى من الجغرافيين هو البحرين وما والاها واليمامة وما والاها، والبحرين التي يقصدها القدامى ليست هي الجزر المعروفة اليوم باسم البحرين، بل يقصدون "هجر" التي تمتد من جنوبي "العراق" إلى أقصى اليمن بما في ذلك الكويت وقطر وجزر البحرين، أما "اليمامة" التي يقصدونها فقد تداخلت مع نجد.

و"العروض" يحدها من الشمال العراق، ومن الجنوب - على قول بعضهم - "عمان" وعلى قول الآخرين البحر العربي، وشرقاً الخليجان: العربي والعماني، ومن الغرب نجد، فلقد قال "الأصمعي": إذا خلفت عمان مصعداً فقد أنجدت[(١)].

أما ما يقال عن "اليمامة" و"البحرين" فإننا رجعنا إلى ما قاله القدامى عنهما نجدهم يقولون عن "البحرين": إنها تمتد من "كاظمة" إلى "عمان"، فلقد قال ياقوت:

---

(١) معجم ياقوت، باب التاء ٢/٤٣٦.

(البحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند - يقصد الخليج العربي والخليج العماني - بين "البصرة" و"عمان"، وربما عد البعض:"اليمامة" منها، والصحيح أن اليمامة عمل برأسه. وفي عهد "بني أمية" كانت "البحرين" من أعمال "العراق" وحد من "عمان" ناحية "جرفار" و"اليمامة" أعلى جبالها، وربما ضمت اليمامة إلى "المدينة المنورة". وربما أفردت في أيام "بني أمية". وفي أيام "بني العباس" صيروا "عمان" والبحرين عملاً واحداً)[1]. وعن كاظمة التي اعتبرت حداً شمالياً للعروض قال "أبو الفداء" في تقويم البلدان: (ومن الأماكن المشهورة كاظمة، وبين كاظمة و "البصرة" مسيرة يومين). وقال "القلقشندي" في صبح الأعشى: (قاعدة البحرين "عمان").

هذا بعض ما قاله جغرافيو العرب عن العروض أحد الأقسام الخمسة. فالعروض إذن كما يبدو على خريطة الجزيرة العربية هو سواحل الجزيرة وهضابها وطرقها الممتدة على "الخليج العربي وخليج عمان".

ولم يتحدث المؤرخون عن ماضي "العروض" إلا حديثاً موجزاً، إذا ما قيس بحديثهم عن اليمن، ولعل السبب في هذا الاختصار يرجع لضآلة معلوماتهم عن ماضي هذه المنطقة القديم الذي يرجع إلى أبعد من ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، أيام كانت هذه المنطقة آهلة بالكنعانيين - الفينيقيين[2]، ومن بعدهم بالجرهائيين، مزدهرة بمدنهم المترفة.

وعلق "ابن بليهد" على كلام الهمداني عن العروض: وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاها: العروض، وفيها نجد وغور لقربها من البحار، بقوله: (العروض لم يبق له

(١) معجم البلدان ٢/ ٧٢ وما بعدها.

(٢) جاء في كتاب خيري حماد عن "عبد الله فلبي": أن فلبي يؤكد: أن (بلغريف) لم يصل إلى الخرج لأنه لم يذكر آثار (الفينيقيين) التي لو رآها هناك لما غفل عن ذكرها، ص ٦٦.

اسم إلا في ثلاثة مواضع، أولها جبل اليمامة المعترض بين الجنوب والشمال أو بين اليمن والشام يزيد على مسافة شهر، فجنوبيه يقال له: العويرض، وشماليه يقال له العارض، والموضع الثالث: عرض "ابن تمام" يقال له العرض إلى هذا العهد[1].

٤- ولقد علق "الجاسر" على ما جاء في الجزء الثاني من هذا المؤلف "العرب في أحقاب التاريخ " الذي صدر بعنوان "التاريخ العربي ومصادره" في الصحيفة ٣١٠ عن العروض بقوله: (العروض ليست معترضة في بلاد اليمن بل معترضة بين "نجد" و"البحرين" المعروفة الآن بالمنطقة الشرقية، والعروض هو ما يعرف الآن باسم العارض من "القصيم" إلى أقصى "وادي الدواسر" ومن "الدهناء" إلى "نفود السر" غرباً)[2]، معتمداً على ما جاء في تعليق "ابن بليهد"، ولكن ما جاء في تعليق "ابن بليهد" لا ينفي العروض وصفتها.

والواقع أن فهم "العروض" على أنها العارض ، لا يتفق وما يعنيه اسم العروض، عند الجغرافيين القدامى، فهم يقصدون بالعروض قسماً من أقسام الجزيرة العربية، ويشمل هذا القسم بلاد اليمامة وما والاها، ومن اليمامة جزء من جبل العارض و"البحرين" وما والاها، وفي العروض نجد وغور لقربها من البحر - وقالوا عن اسمها: (وإنما سميت تلك الناحية العروض لأنها معترضة في بلاد اليمن والعرب ما بين تخوم فارس إلى أقصى أرض اليمن). أما جبل العارض فليس هو المعني بالعروض. ولقد تقدم الكلام عن جبل العارض وأسماء أقسامه في البحث الخاص بنجد في هذا الكتاب.

---

(١) صفة الجزيرة، ص ٢٧٧.

(٢) مجلة العرب، عدد رمضان سنة ١٣٩٢ ، ص ٢٢٤.

البحث الثاني :

جغرافية العروض السياسية :

١- نشاط سكان العروض في الماضي البعيد لا يقل عن نشاطهم في حاضرهم الحديث.

٢- لقد انزوى هذا القسم - العروض - حتى عن الباحثين حقباً من التاريخ.

٣- حلف تنوخ من مفاخر النضال العربي.

٤- العروض في البحوث المتأخرة.

٥- حدود هذا القسم: العروض.

٦-هل "عمان" من العروض؟ أم من اليمن؟

٧- العروض في مؤلفات ما قبل الميلاد وما بعده.

٨- أقطار العروض:

أ- الكويت.

ب- الأحساء.

ج- اليمامة.

د- قطر.

هـ- الإمارات العربية المتحدة.

و- عمان.

ز- البحرين.

١- إنا إذا ما رجعنا إلى المؤلفات التاريخية التي تبحث في نشاط أقاليم الجزيرة العربية باحثين فيها عن نشاط هذا القسم "العروض" الذي لمع في ماضي الجزيرة العربية القديم وحاضرها الحديث نجد الكثيرين من المؤرخين العرب لم يمنحوا هذا القسم اهتماماً كالذي منحه له بعض المستشرقين الذين أبرزوا شيئاً غير يسير من تاريخ العروض القديم.

٢- فالمؤرخون العرب لم يهتموا بغير "اليمامة" و"الأحساء" من العروض، مثل اهتمامهم بالأقاليم التي تحده جنوباً، وشمالاً، وغرباً: اليمن، والعراق، ونجد، فلقد حجبت تاريخه القديم بالأمس ظلمة ما قبل البترول، كما بهرت أنظارهم اليوم أنوار ما بعد البترول، ولكن ظلمة الماضي على حلوكها لم تحجب الحضارات القديمة في العروض، كما لم تعش أضواء الحاضر على بهورها نظر الباحثين، فلا يصل إلى تاريخ ماضي العروض القديم، وإن كانت الصورة التي ظهرت في تلك الظلمة غير واضحة. فمن الانتفاضات السياسية التاريخية التي شهدتها العروض تجمع القبائل العربية في "البحرين"، وارتباطها بحلف "تنوخ" ذلك الحلف العربي الذي صبغته الأساطير بمختلف الألوان، فذهبت بعض الأقوال تؤكد أن "تنوخ" قبيلة، وفي رأي الآخرين أن تنوخ قبائل اشتركت في حلف عرف بحلف تنوخ، أو لعله اسم عرف به المكان الذي تجمعت فيه القبائل المتحالفة وأناخت في أرضه. والبحرين التي قام على أرضها الحلف ليست الأرخبيل، بل هي المنطقة التي تمتد من الكويت شمالاً إلى ما بعد قطر جنوباً.

٣- وسواء كان المتحالفون بطون قبيلة واحدة، أم كانوا قبائل، فلقد سطروا على أرض الجزيرة العربية تاريخاً فيه صور من الكفاح في سبيل الأرض العربية العراقية والحق العربي في العراق.

٤- أما المؤلفات الحديثة فقد شغلت بأحداث الحاضر عن تاريخ الماضي العربي القديم، فالذي يطالع مؤلفات "أمين الريحاني" يجده يؤرخ الأحداث السياسية

الحديثة، فهو عندما يتحدث عن نواحي "نجد" لا يتجاوز بكلامه منطقة "الأحساء" السعودية بغير الإشارة إلى ما جاء في كتاب "المبرد" عن الأحساء، ولا يعنى بتاريخها قبل القرامطة العناية التي تستحقها.

ولا نجد عندما نطالع كتاب "الجزيرة العربية" لمؤلفه حافظ وهبة عن العروض غير بحث موجز عن جزء منه اضطره إليه كلامه عن العارض فقال: (ويعرف "العروض" في الجغرافية القديمة - "جو" و"العروض" و"اليمامة". ويقع بين "سدير" شمالاً، و"الخرج" و"الحريق" جنوباً، وهو يكوّن القسم الأوسط من "طويق" الشهير، وكذلك أشار إلى "الأحساء" في كلامه عن إيالات نجد فقال عنها: ("الأحساء": تسمى قديماً: "البحرين" و"هجر". وكان اسم البحرين يطلق على المنطقة الممتدة من "البصرة" إلى "عمان"، أما اليوم فيطلق اسم "الأحساء" على المنطقة الممتدة على الساحل الغربي من "الخليج العربي" من حدود "الكويت" الجنوبية إلى حدود "قطر" وصحراء "الجافورة" و"عمان"، حيث يحدها من الغرب "الصمان")[(١)].

والواقع أن الذين عنوا بالعروض هم غير المهتمين بالتاريخ السياسي الحديث، وإنما هم المتفرغون لتاريخ الجزيرة العربية القديم وجغرافيتها. ومن هؤلاء: "جواد علي" في كتابه: تاريخ العرب قبل الإسلام، و"عمر رضا كحالة" في كتابه "جغرافية

(١) إن الصمان في اللغة يقصد به كل أرض فيها غلظة وارتفاع. والصمان: اسم أطلق على أراضٍ في (نجد) فلقد ظهر على خريطة الجزيرة العربية مكان باسم (صمان) يقع شمالي غرب المنطقة الشرقية ولعله هو الذي عند (رمل عالج) على مسافة تسعة أيام من البصرة كما يقول (ياقوت) في معجمه، و(الصمان) الآخر يقع جنوبي (الأفلاج) غربي (صمان يبرين) ورمالها ويقع جنوبي غرب المنطقة الشرقية، وهما متصلان بعضهما ببعض يتاخمان (الدهناء) من الشرق الشمالي إلى الجنوب. والدهناء في معجم ياقوت سبعة جبال من الرمال فكل من الصمان الشمالي والجنوبي يحد الأحساء. وفي تحقيقات (أرامكو) أن عرض الصمان يتراوح من ٥٠ إلى ١٥٥ ميلاً.

شبه الجزيرة العربية". ولقد عني "جواد علي" بصفة أرض الجزيرة العربية بما فيها العروض وبآثارها، وبالبحث عن أسماء الأمكنة التي وردت في "التوراة"، ومن قدامى اليونان والكلدان وغيرهم ممن كتب عن الجزيرة العربية وحضاراتها ودولها وصلاتها بدول الروم والفرس والحبش. ولقد عني عمر رضا كحالة بجمع ما قاله جغرافيو العرب ممن ألف في جغرافية الجزيرة وصفتها - عن الجزيرة وحدودها، فجمع حرفياً ما قاله ابن هشام الكلبي، والأصمعي، والقلقشندي، وأبو الفداء، واليعقوبي، والهمداني، وابن الفقيه، والإصطخري، والحموي، ومن نقل عنهم الحموي، وما وصل إليه عن غير العرب، ولم ينس أن يجمع أقوال المتأخرين مثل فؤاد حمزة، وحافظ وهبة وغيرهما، تاركاً للقارئ حرية الأخذ بأي قول شاء!

٥- والنقطة التي يجب على البحث أن يقف عندها هي حدود العروض الشمالية، والجنوبية. فمن أقوال القدامى ما يعني الارتباط الإداري أو يقصد الحدود السياسية. مثل قولهم: (اليمامة من الحجاز). إلى غير ذلك مما جاء عن استقلال أجزاء العروض وارتباط "اليمامة" بالمدينة المنورة أيام "بني أمية"، وفي أيام "بني العباس" صارت عمان والبحرين واليمامة عملاً واحداً(١)، إلى مثل هذه الأقوال التي نجدها في كلامهم عن كل جزء من أجزاء الجزيرة العربية، والتي يجب على البحث أن يتنبه لها إذا ما أراد أن يحدد العروض، أو أي قسم من أقسام الجزيرة تحديداً طبيعياً.

فحدود العروض تبدأ من الشمال بحدود "الكويت" الطبيعية والتاريخية، وحدود الكويت الشمالية اليوم هي في طريق اتفاق الكويت والعراق عليها. ونحن إذا ما رجعنا إلى أقوال القدامى نجدها تؤكد أن "كاظمة" تابعة للبحرين - هجر. وتؤكد أن "خندق سابور" ينتهي في البحر عند "خليج كاظمة"، وتؤكد أن "خندق سابور" هو الحد

(١) معجم ياقوت، مادة (البحرين) ٧٢/٢.

بين العراق الذي كان تحت الاستعمار "الساساني" وبين البلاد العربية المستقلة. فعلى ذلك يبدأ حد العروض شمالاً من شمالي "كاظمة"، وكاظمة بينها وبين البصرة مرحلتان.

والحدود الجنوبية تسوقنا للبحث عن "عمان" هل هي من اليمن أحد أقسام الجزيرة الخمسة؟ أم من العروض القسم الذي نحن بصدد الكلام عنه وعن حدوده؟ أو هي كما يقول "ابن خلدون": (عمان إقليم سلطاني منفرد يحده شمالاً البحرين، وجنوباً بحر الهند، وغرباً حضرموت، وشرقاً خليج عمان)[1].

٦- إن "عمان" من حيث مقدراتها في الماضي والحاضر مرتبطة بشعوب العروض بقدر ما هي مرتبطة باليمن واليمنيين، كما أن عمان تأثرت من جهة أخرى بالزنوج والهنود والبلوج وغيرهم من العناصر التي عاشت على أرض عمان، ولقد قال "ابن بطوطة": إن "عمان" مختلفة الأجناس وهم يعتنقون مذهب الإباضية، على خلاف أهل البحرين الذين تسودهم الشيعة، وكذلك هم على خلاف أهل اليمن الذين تسود فيهم "الزيدية" و"الشافعية". فعلى ذلك أن عمان إقليم له لون خاص، فهو أرض يشترك جغرافياً وتاريخياً مع اليمن ومع أقاليم العروض. وهو ينفرد سكاناً، عن اليمن والعروض في كثير من الطباع والمذاهب.

ولعل كثيراً من أقوال العرب يقصد باليمن الجنوب، فالعرب تسمي: الجنوب يمناً، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، أما اليمن أحد أقسام الجزيرة العربية فيقول عنه "الأصمعي": (اليمن ما اشتمل عليه حدودها بين عمان إلى نجران)[2]، فعلى ذلك أن

---

(١) تاريخ ابن خلدون، طبع لبنان، ٢٩٨/٤.

(٢) معجم ياقوت، مادة (يمن) ٥٢٢/٨.

عمان ونجران ليستا من اليمن لأن الحد لا يدخل في المحدود، فالذي من اليمن هو ما بينهما. والذين أخذوا بقول الأصمعي هذا فسروا قول من قال: اليمن من بحر "القلزم" إلى "بحر الهند" أن القصد من بحر الهند بحر "الشحر" والشحر تقع بين "ظفار" و"عمان". ومما قيل في هذا الشأن ويسترعي الانتباه قول القلقشندي في صبح الأعشى: (قاعدة البحرين: عمان).

ومما يسترعي الانتباه أيضاً: ما قيل عن منطقة "مسقط"، فياقوت الحموي يقول عنها: (ومسقط مدينة من نواحي عمان في آخر حدودها مما يلي اليمن)[1]، وما يلي اليمن هو غرب عمان. وإذا ما بحثت عن مسقط التي عين موقعها ياقوت، تجد مسقط المدينة المرفأ في المصورات الجغرافية تطل على خليج عمان، وتجد في خريطة العالم العربي [تحقيق مؤسسة المطبوعات الحديثة] سلطنة مسقط في منطقة "ظفار"، وظفار تتاخم اليمن الجنوبي، واليمن الجنوبي يقع غربي عمان[2].

والذي يرجحه البحث بعد سرد هذه الملاحظات، وسواء أكانت منطقة مسقط هناك في الشرق من أرض عمان أم كانت في الغرب، أن أرض عمان في جغرافية الجزيرة العربية الطبيعية يشترك فيها القسمان: العروض واليمن، فما كان منها على خليج عمان فهو من العروض، وما كان منها على بحر العرب فهو من اليمن. وعمان في جغرافية الجزيرة العربية السياسية قسم قائم بذاته. فعلى هذا تكون سواحل خليج عمان كلها من العروض إلى بحر العرب.

٧- أما حدود العروض الشرقية فلا اختلاف عليها، فالخليجان: "العربي" و"العماني" يحدان العروض شرقاً.

---

(١) معجم ياقوت، مادة (يمن) ٨/٥٤.

(٢) إن نقاش ما قيل عن جغرافية مسقط وتاريخها يحتاج إلى بحث منفرد، وليس في هذه الحلقة متسع لإفراد كل مدينة ومنطقة ببحث خاص.

ومن الغرب يحد قسمها الشمالي نجد، ويحد قسمها الجنوبي اليمن. أما وسطها فيحده "الربع الخالي"، هذا إذا اقتنعنا بأن عمان جميعها من العروض. أما إذا أخذنا بقول الذين يجعلون "عمان" بما فيها منطقة مسقط الساحلية من اليمن[1] - فعند ذلك لا يصل حدها الشرقي إلى اليمن. ويصبح اليمن حداً جنوبياً للعروض.

ونحن إذا أردنا أن نبحث في عصور العروض السحيقة نجد نصوصاً غارقة في الغموض نقلها "جواد علي" عن مصادره، ونشرها على صفحات أجزاء كتابه "تاريخ العرب قبل الإسلام" يقول بعضها، عن جغرافية العروض التي جاءت في تلك النصوص: إن "مجان" هي الأحساء، و"ملوخا" هي منطقة من جنوبي البحرين إلى عمان، و"دلمون" هي البحرين، و"بازو" هي نجد. وهناك من يطلق اسم "خازو" على الأحساء.

وقال عن مصادر "سترابون" وذلك الرعيل من المؤرخين: إن سترابون نقل عن رجال عرفوا "الخليج العربي" وعركوه وكانت لهم أيام فيه، منهم "نيرخس" قائد "الإسكندر" الشهير وصاحبه "أندرو ستنبيس"، وقال عن تراثهم: (إن أولئك الرجال تحدثوا عن حضارة الخليج في القرن الثالث والرابع قبل الميلاد، ممثلة في مدينة "جرهاء" الواقعة على "الخليج العربي").

فمما قاله سترابون عن مدينة جرهاء: (إن هذه المدينة أسسها الكلدانيون من أهل "بابل"، وإن سكان هذه المدينة الجرهائيين زاحموا السبئيين في تجارة البخور واللبان وغيرهما من البضاعة التي كان يتاجر بها اليمنيون، ونافسوهم في الأبهة والترف. فقد كانوا لا ينقصون عنهم ثروة، وإن هذه المدينة التي ذكرها كتاب عاشوا في سنة ١٤٥ وسنة ١٢٠ ق.م. كانت ترسو عليها سفن العالم المتحضر آنذاك، وكانت تنتهي عندها طريق قوافل برية كانت تمر بـ"حائل" و"تيماء" في طريقها إلى البحر المتوسط. وقوافل

---

(١) معجم ياقوت، مادة (مسقط) ٨/٥٤.

كانت تتجه رأساً إلى العراق، كما كانت محطة عندها تنتهي رحلة القوافل. ومنها تبدأ من نجد إلى اليمن، ومن اليمن إلى نجد والعراق.

ولتوفية جغرافية العروض حقها، على البحث أن يفرد كل قطر من أقطار العروض بفقرة خاصة به، ولتسلسل الفقرات نبدأ من الشمال إلى الجنوب.

ولأن إفراد كل قطر من أقطار هذا القسم - العروض - يحتاج إلى تحقيق شامل، والتحقيق الشامل هو الذي يتابع التاريخ منذ بدايته، يجمع النصوص ويربط بعضها ببعض، بعد استقصاء وتأكد، وهذا - ولاشك - خارج عما يلزم البحث هنا. لذلك اكتفيت بأقل من القليل مما قيل عن ماضيه الحافل، وحاضره اللامع.

فلقد بدأت عصور هذا القسم - العروض - السياسية، والحضارية من قبل الميلاد بآلاف السنين. ولقد عرف سكانه الملاحة، والتجارة، والتعدين - من عهد الكنعانيين الذين نقلوا إلى سورية لغتهم، وفنونهم ومعارفهم البحرية، وصناعاتهم وأسماء مدنهم أيضاً! وصدروا إلى العالم القديم النحاس الذي كانوا يستخرجونه من بطن أرضهم. والأخشاب التي كانوا يقطعونها من رؤوس جبالهم، ولقد بدأ صراعهم في سبيل الحفاظ على الأرض وثرواتها من عهد السومريين.

ولقد أغرق الزمن الطويل تاريخ العروض الجاهلي في الغموض والشكوك والخيال، مثلما أغرقت الأحداث تاريخه الإسلامي فيما غرق فيه تاريخ اليمن وتاريخ نجد، فلقد كان تاريخه في الجاهلية والإسلام متصلاً بنجد عن طريق اليمامة، ومتصلاً باليمن عن طريق عمان، مثله مثل تهامة التي ارتبطت بالحجاز وباليمن. لذلك فإن ما نعرضه في هذا الجزء من تاريخ العروض الجغرافي يشير إلى البعض ولا يشتمل على الكل ولا يتجاوز المخطط المرسوم لهذه الحلقة.

٨- ومخطط هذه الحلقة "التاريخ العربي وجغرافيته" يفرض علينا أن يكون كلامنا عن كل قطر مختصراً على قدر ما تحتاج إليه حلقة التاريخ العربي وجغرافيته، ففي حدود هذا المخطط نسلسل الفقرات التي تخص كل قطر من أقطار العروض ابتداءً من الشمال بكل إيجاز.

أ- الكويت: اسم حديث أطلق على أرض تسمى في القديم "القرين" في القرن الثاني عشر الهجري، والقرين اسم لمواضع ذكرها[1] ياقوت، والكويت تصغير "كوت"، والكوت الحصن، ويقال: إن هذه المنطقة قد سميت باسم حصن صغير: كويت. تضاربت الأقوال فيمن بناه؟ هل بناه "محمد لصكة بن عريعر" زعيم "بني خالد" الذي كان المسيطر على أرض الكويت؟ أم بناه "آل الصباح"؟ وآل الصباح عرب خلص من "عنزة"، هاجروا من نجد لسبب من الأسباب التي كانت تدفع الأسر والقبائل إلى الهجرة، وطوفوا في أرض الجزيرة طويلاً، ثم اختاروا "القرين"، وبنزول آل الصباح في الكويت وتأسيس إمارتهم فيها في بداية القرن الثاني عشر من الهجرة / القرن الثامن عشر الميلادي - أخذت الكويت تظهر على مسرح الأحداث.

وكانت إمارة الكويت أو مشيختها تخضع اسمياً للعثمانيين، ولكن نشأ بين الكويت والآستانة ما جعل "الشيخ مبارك الصباح" سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م يطلب من بريطانيا حمايتها، وقد استمرت الحماية البريطانية إلى سنة ١٩٦١م، ففي هذا العام عقد "الكويت" معاهدة مع بريطانيا ألغت الحماية.

ويصف الجغرافيون أرض الكويت بأن أكثرها منبسط قامت عليه هنا وهناك تلال وهضاب، وأنها قليلة المياه، وبالأخص المياه الصالحة للشرب. لذلك كانت مياه الشرب

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي ١٤١/١ وما بعدها؛ معجم ياقوت ٧٢/٧.

إلى وقت قريب مشكلة الكويتيين، وأن مساحتها صغيرة جداً، وأن مدنها تعد على الأصابع، وأن حاضرة مدنها الكويت، وأن أشهر مدنها اليوم: "ميناء الأحمدي"، و"جهرة"، وأرض جهرة أخصب أرض في الكويت.

ولأرض الكويت تاريخ عربي عريق، فلقد كانت موطن شعوب قديمة، والآثار التي ظهرت في أرضها بعثت ظنوناً تنتظر جديداً يدل على من هم أسلاف "بني عبد القيس" الذين عاشوا في الكويت. ولإمارة الكويت مكانة مرموقة في عصر التطور، فلقد نهضت صحافتها ونهضت الحركة الفكرية واتسعت آفاقها بفضل الجهد الخير البناء.

ويحد إمارة الكويت من الشمال العراق، ولا يزال خط الحدود بين الكويت والعراق موضع بحث سوف يتفق عليه. ومن الجنوب تحدها المنطقة المحايدة بين المملكة العربية السعودية والكويت ثم حدود المملكة مباشرةً. ويحدها من الشرق "الخليج العربي" ومن الغرب العراق، ونقطة تلاقي الحدود العراقية والكويتية والسعودية - التي تظهر فوق الخريطة على الشكل الهندسي المسمى "معيناً".

ب- منطقة الأحساء أو هجر: قسم من أقسام "البحرين". والبحرين في أقوال جغرافيي العرب التي جمعها "ياقوت" تعم جميع مناطق العروض، عدا "اليمامة"، من تخوم "فارس" إلى "عمان". فلقد جاء في معجم ياقوت: البحرين اسم جامع لبلاد ساحل بحر الهند بين "البصرة" و"عمان". ويقصد "ياقوت" ببحر الهند الخليجين: العربي والعماني كما يظهر، وقيل: "هجر" قصبة البحرين. وقد مر بنا أن "عمان" قاعدة البحرين في قول "القلقشندي". وما جاء في معجم ياقوت من الأقوال عن العروض وأقسامه يناقض بعضها بعضاً. فمنها ما يقصد به المد والجزر الإداري، ومنها ما يشير إلى تطور الحدود السياسية، ومنها ما يتقيد بالحدود الطبيعية، ولقد سبق الكلام عن العروض وحدوده بما فيه الأحساء.

ومن الباحثين من يطلق على الأحساء اسم البحرين، وهؤلاء كثيرون. وعلى ذلك يمكن أن نعتبر - جغرافياً - كل ما هو خارج عن حدود "الكويت" و"قطر" و"دولة الإمارات العربية المتحدة" و"عمان" هو من الأحساء، وتعتبر حدودها على النحو الآتي: تبدأ شمالاً من حدود "الكويت" إلى حدود "قطر" إلى حدود "دولة الإمارات العربية المتحدة" حيث توجد منطقة "البريمي" التي استمر الخلاف عليها إلى أن حلت مشكلة الحدود أخيراً بالاتفاقية التي وقعها سمو الأمير "فهد بن عبد العزيز" نائب رئيس مجلس وزراء المملكة العربية السعودية الثاني آنذاك، وولي العهد والنائب الأول لرئيس مجلس الوزراء في الوقت الحاضر[(١)]، ثم تمتد الحدود إلى "عمان" ملتقى القسمين: العروض واليمن. ويحدها من الشرق "الخليج العربي" و"قطر" والإمارات المتحدة" و"عمان".

ومنطقة الأحساء التي تمتد حدودها من جنوبي الكويت إلى عمان. لابد أن تكون أرضها ذات صفات مختلفة، فمنها تلال من الرمال، ومنها أرض سبخة، ومنها خلاء قليل المياه، ومنها قيعان وافرة المياه، ففي السبخة تكثير الآبار العميقة الغور، وتكثر الأحساء والعيون في أرض "القطيف" وفي منطقة "الأحساء" وضواحيها. ففيهما تكثر العيون التي تفيض على سطح الأرض، وفيهما الآبار الغزير ماؤها. ولقد اشتهرت الأحساء بكثرة نخيلها وبزراعة الأرز، وبمائها المعدني، وبآثارها. فالآثار التي تشاهد في الأحساء تدل على تاريخ قديم حافل، فميناء "العقير" تقع على مقربة منه أطلال عمران قديم لمدينة في موضع يسمى "الجرعاء" يرجع تاريخه إلى عصور "الرومان". وفي ساحل الأحساء خليج أطلق عليه اسم "جرهاء". والجرهائيون شعب ترك حضارة تدل على ثروة عظيمة وترف كبير.

وفي الجزيرة المسماة "تاروت" مدينة "دارين"، ودارين معروفة في التاريخ السياسي والأدبي بالخصب وبالآثار القديمة. ولعل قرية دارين اللبنانية سميت باسم دارين هذه.

---

(١) وهو خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز (١٤٠٢-١٤٢٦هـ)، رحمه الله.

ومدينة الأحساء بناها "أبو طاهر القرمطي" فظلت فترة من الزمن قاعدة "القرامطة"[1]. ومن عهود الأحساء الواضحة: العهود التي ارتبطت فيها بالدرعية والرياض، فلقد خضعت بلاد الأحساء لنفوذ الدولة السعودية الأولى، وهي الآن جزء من المملكة العربية السعودية.

ج- **منطقة اليمامة**: واليمامة كما مر بنا يعتقد الكثير من القدامى أنها من نَجْد، واليمامة معروفة بالثراء في ماضيها القديم، وقد تقدم الكلام عن حدودها وصفتها في كلامنا عن نجد. واليمامة كانت تسمى في الماضي: "جو" و"القرية"، ويرى "برترام توماس" أن آبار "العوفير" القريبة من القرية هي موضع "أوفير" الوارد ذكرها في التوراة والتي اشتهرت بالذهب والطواويس، واليمامة عرفت بالطرق التجارية التي رفعت من شأن مدنها واقتصاديات سكانها، ولا تزال وفرة مياهها تشهد بماضيها الزراعي وتؤيد نظرية الذين يقولون بأن وادي "العرض" كان نهراً جارياً. ولقد جاء في بحوث كتاب التاريخ العربي وبدايته الكثير عن آثار اليمامة التي تنسب إلى الفينيقيين والعاديين ومن جاء بعدهم[2]. ولقد جاء في صفة الجزيرة للهمداني عن معادن اليمامة، ووجود الذهب في أرضها[3]، وفي المؤلفات التاريخية ومعاجم البلدان قصة عن انتقال "بني حنيفة" إلى "حجر اليمامة" طليت حقيقتها بالخيال.

وحدود اليمامة اليوم ذابت في بوتقة التنظيم الإداري للمملكة العربية السعودية كما صار تاريخها جزءاً من تاريخ نجد.

د- قطر: إنك لترى قطر على خريطة الجزيرة العربية شبه جزيرة مستطيلة في الخليج العربي. وتجد مياه الخليج تحيط بأكبر قسم من أرض

---

(١) تاريخ ابن خلدون، طبع بيروت، ١٩٧/٤ .

(٢) راجع كتاب "عبد الله فلبي"، لخيري حماد، ص٦٦ .

(٣) صفة، الجزيرة ص ١٥٣.

قطر، وإنك لتجد قطر في أقوال القدامى جزءاً من "البحرين - هجر". أما بالنسبة لحدودها السياسية في الوقت الحاضر غرباً وشمالاً وجنوباً. فإن خط الحدود بين "قطر" و"المملكة العربية السعودية" لا يزال معلقاً - على ما أعلم - كذلك الحال في حدودها الغربية، وعلى كل حال فإن المملكة العربية السعودية تحد "قطر" جنوباً ما عدا الجزء الذي تحده دولة الإمارات المتحدة. وتحدها غرباً المملكة العربية السعودية أيضاً ما عدا الجزء الذي تحده مياه الخليج. ومن الشرق يحدها "الخليج العربي". واسم قطر اسم قديم ورد في جغرافية "بطليموس"[١].

ولقد كانت الحياة في قطر إلى وقت قريب شاقة متعبة، فأرضها صحراوية تكلف زراعتها جهداً كبيراً مما جعل سكانها يشتغلون بصيد الأسماك، واستخراج اللؤلؤ. ولعل صيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ هما مهنة توارثها القطريون من أقدم العصور. ومن ظنون الباحثين أن لشبه جزيرة قطر شأناً في نشاط تجارة العصور القديمة نظراً لموقع الخليج العربي، بين شبه الجزيرتين الكبيرتين: شبه الجزيرة العربية وشبه الجزيرة الهندية. ولوجود الموانئ الفارسية في شماله، أضف إلى ذلك موقع شبه جزيرة قطر من "الخليج العربي"، فلقد كان لها مع ذلك خطرها على الملاحة حيث اتخذ القراصنة سواحلها مركزاً لقرصنتهم بعد أن أصبحت في فترة من الزمن أرضاً مجهولة. ولقد منح الله سكانها اليوم ثروة البترول فأصبح لهم شأن في عالمنا الحاضر. وأصبحت عاصمتها "الدوحة" من العواصم التي تستقبل القادة في السياسة، والصناعة، والاقتصاد، وأصبح ساستها يسهمون في السياسة العربية، وأصبحت ذات مطار دولي، وعاد لموانيها نشاط الزمن القديم أيام كانت تستقبل أكبر سفن ذلك العالم كما تستقبل اليوم أكبر البواخر وناقلات البترول.

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي ٣/٣٧٩.

ولقد كانت قطر تابعة لسلطنة "عمان" إلى سنة ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م، ثم أصبحت تابعة لآل عثمان إلى سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٤م حيث نزل العثمانيون عنها مع بقية مناطق "الخليج العربي" وخليج عمان لبريطانيا، ثم استقلت قطر مع دول العروض بعد الحرب العالمية الثانية، حيث صفي الاستعمار بأنواعه حماية ووصاية.

ومستقبل قطر غامض بالنسبة لكمية البترول المحدودة في آبارها كما يقال. فهل القطريون يعملون لليوم الذي تنضب فيه آبار البترول؟ إنهم المسئولون عن مصير أجيال قطر القادمة.

إن كثيراً من أراضي الجزيرة العربية التي أمات اقتصادها الجفاف جديرة بأن يبعث اقتصادها بترولها العربي ويدعمه، فهي أحق من غيرها من الأراضي التي تفيض فيها بنوك التنمية البترولية خارج جزيرة العرب، وإن في الجهد الذي يبذله سمو أمير قطر "الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني"(١)، لتنويع مصادر دخل قطر القومي، وإيجاد موارد يعول عليها بعد البترول ما يطمئن الشعب القطري على مستقبله وآماله فيه.

هـ- دولة الإمارات العربية المتحدة: وهي تمتد على الساحل الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة العربية الذي يفصل بين الخليج العربي وخليج عمان، ولقد كانت إلى وقت قريب تسمى "مشيخات عمان"، ثم سميت "إمارات الصلح العربي". وإننا لنجد حواضر دول هذه الإمارات تطل على الخليج العربي، إلا "الفجيرة" التي تقع على خليج عمان، أما "أبو ظبي" و"دبي" و"الشارقة" و"عجمان" و"أم القيوين" و"رأس الخيمة" فجميع هذه الحواضر على ساحل الخليج العربي. ويحد دولة الإمارات العربية المتحدة من الشمال والشرق "الخليج العربي"، ومن الغرب والجنوب المملكة العربية السعودية، ومن الحدود مع المملكة العربية السعودية منطقة متنازع عليها، فهناك في الجنوب واحة "البريمي" التي كانت إلى وقت قريب موضع خلاف.

---

(١) عزل الشيخ خليفة عن الإمارة، وحلّ مكانه ولده "حمد بن خليفة آل ثاني".

فلقد احتلت بريطانيا باسم إمارة "أبوظبي" خور "العديد" سنة ١٩٥٨م[١]. ولكن مشكلة الحدود مع "أبوظبي" حلت باتفاقية، ولقد سبقت الإشارة إلى هذه الاتفاقية.

وطبيعة أرض دولة الإمارات المتحدة تشبه طبيعة أرض قطر. فما كانت عليه حال سكان "قطر" قبل ظهور البترول كانت عليه حال هذه الإمارات التي كانت شواطئها تسمى شاطئ القراصنة، وكما ارتبط تاريخ هذه الإمارات بمنطقة العروض، وبالذات بعمان التي كانت أرض هذه الإمارات تعتبر جزءاً منها، ارتبط تاريخها الحديث بدول الخليج، ولقد صعد مركز هذه الإمارات في العالم العربي مع دول الخليج، فأصبحت من الدول المرموقة. وسيزيدها قوة وبروزاً اتحادها الذي أخذ يتبلور في صورة ولايات متحدة تدعم وحدة الخليج من أقصاه إلى أقصاه.

و- عُمان: يقول عنها "ابن الأعرابي": ("العمن" المقيمون في مكان، ومنه اشتق اسم عُمان). وقال "الزجاجي": (سميت عُمان باسم عُمان بن إبراهيم الخليل)، وقال "ابن الكلبي": (سميت باسم عُمان بن يفثان بن إبراهيم الخليل)[٢] وإرجاع اسم "عُمان" إلى شخص هو تعليل يفترضه نسابو العرب، ويجاريهم الجغرافيون في كثير من أسماء القبائل والأمكنة، فأكثر القبائل عند النسابين سميت باسم جدها الأعلى، وكثير من المدن والأقاليم في رأي جغرافيي العرب القدامى سميت باسم شخصية تاريخية مباشرة أو عن طريق غير مباشر مثل "يثرب" و"خيبر" و"آشور" - و كثير غيرها.

---

(١) ولقد كتبت عن هذه المشكلة في عدد جريدة المدينة المنورة رقم ١١٦٧ في ١٣٨٢/٨/٢١هـ في مقالي المنشور بعنوان "لو كان لي من الأمر شيء" قلت فيه: لقد أخطأت الدعاية اليهودية وأخطأ معها الذين يظنون أن مشكلة "البريمي" هي السبب في قطع علاقتنا مع بريطانيا، فنحن لم نقطع علاقاتنا مع بريطانيا من أجل البريمي، فمشكلة البريمي مشكلة حدود قامت بيننا وبين إمارة عربية لم يسمح ضميرنا أن يراق من أجلها دم عربي، فوضعناها رهن القضاء الدولي الذي سيأخذ مجراه سيان كانت علاقتنا مع بريطانيا متصلة أو كانت منفصلة.

(٢) معجم ياقوت ٢١٥/٦.

علـى أن إرجـاع اسـم مكـان أو قبـيلة إلى شخصـية تاريخـية حقيقـية كانت أم كانـت خيالية يدل على تاريخ تلك المدينة أو القبيلة، فالتي تنسب إلى شخصية من رجالات ما قبل الإسـلام تـدل نسبتها علـى قدمها، والتي تنسب إلى شخصية إسلامية تدل نسبتها على أنها حديثة لم تتجاوز العصر الإسلامي، ومن المعروف أن "عمان" عرفت الحضارة مـن أقدم العصـور. وعمـان الإقليم لـه طابعـه كمـا مـر، واسـم "عمـان" في عصـور مـا بعـد الإسـلام ظهـر علـى صـفحات التـاريخ كثيراً، فلقد أسلم شعب عمان - في عهد "عمر بن الخطـاب" حـوالي سـنة ١٥هـ، ودخلها المـذهب الإباضـي سـنة ١٠٧هـ، وأول مـن تـزعم "الإباضـيين": (جلنـدي بـن مسـعود)، وعمـان كانت هدفاً للغزاة - هـاجمها "القرامطة" في القـرن الـرابع الهجـري، وهـاجمها "الإيرانيون" سنة ٦٦٤هـ، وفي سنة ١١٥٠هـ، وفي سنة ٦٧٧هـ هـاجمهـا "اليمنـيون"، ثم "الـبرتغاليون" سـنة ٩٢١هــ، وسـنة ١٠٩١هــ، وقـد "ارتـبطت" بالدولـة السـعودية الأولى سـنة ١٢١٨هـ، وسـنة ١٢٢٦هـ ثم انفصلت، ولقد دخلت عمـان تحت الحمايـة الـبريطانية سـنة ١٣٠٩هـ، وأخيراً خـرجت عمـان مع جميع المحميات من الحماية البريطانية.

وعمـان ذات مركـز جغـرافي هـام. فهـي ذات سـواحل طويلة في موقـع ممتـاز، غنيـة باللؤلـؤ وبالأسمـاء. وأرض عمـان عـرفت بثـروتها المعدنية فلقد كانت تصدر النحـاس إلى "بابل" و"آشور" من أقدم العصور.

وتنقسـم أرض عمـان إلى سـهل واسـع يتراوح عرضه من ثلاثين إلى أربعين ميلاً غنـي بالنخيل والمـوز والـرمان وقابـل لـزراعة الحـبوب، ولهـذا السـهل مرافـئ ممـتازة مـنهـا "مسـقط"، والقسـم الـثاني: جبلـي، وأعظـم جبـال عمـان الجبـل الأخضـر، وفي المنطقة الجبلـية أوديـة خصـبة أكثـرها يـزرع لوفـرة الميـاه، وواحات لا يقـل خصبها عن الأودية ولا ينقصها الماء.

وتاريخ عمان السياسي في العصور الإسلامية عريق وحافل، فلقد مرت بها أحداث بعد انحلال الخلافة الإسلامية، تعتبر بالنسبة لتاريخ تلك المنطقة خطيرة، فلقد عاث فيها القرامطة، وتصدى لها "الإيرانيون"، وما زالت جمهورية اليمن تقض سلامها. ولقد كانت تتخلل تاريخها عهود تستقر فيها البلاد - تحت حكم أسرة من الأسر التي حكمت عمان، مثل ملوك "بني نبهان" الذين حكموا من سنة ٥٤٩هـ إلى سنة ٨٠٩هـ، و"بني يعرب" الذين حكموا من سنة ١٠٣٤هـ إلى سنة ١١٥٤هـ، و"عائلة البوسعيد" التي ما زالت تحكم من سنة ١١٥٤هـ إلى الآن. ويقول "جواد علي": (والجلندي لقب لكل من ملك عمان من "الأزد" من آل جلندي)[١]. والأزد أربعة أصناف: أزد عمان، وأزد سراة اليمن، وأزد شنوءة، وأزد غسان، وهم من شرب ماء غسان.

ولا تؤيد دائرة المعارف الإسلامية[٢] قول "شبرنكر" بأن "صحار" هي "عمان" التي ذكرها "بليناس"، ولكنها مقتنعة بأن في موضع صحار كانت تقوم مستعمرة قديمة جداً يمكن أن تكون جاهلية. بل هي في نظر علماء العرب أقدم من الجاهلية. إنها مدينة "صحار بن إرم بن سام بن نوح"، وقد أسماها الفرس "مزون". أما اسم "صحار" فلم يظهر في التاريخ إلا بعد الإسلام سنة ٨هـ / ٦٢٩م عندما آمن أميراها "جيفر" و"عبد" من بيت "الجلندي" على يدي "عمرو بن العاص السهمي" و"أبي زيد الأنصاري" مبعوثي النبي صلى الله عليه وسلم إلى "عمان". وترى على خريطة الجزيرة العربية "صحار" مرفأ على ساحل "عمان" الشرقي، وصحار عرفت في عصورها الماضية بصناعة النسيج، فلقد ورد أن جثمان النبي صلى الله عليه وسلم لف في ثوبين من صنع "صحار". أما اليوم فلا شيء فيها يميزها من جاراتها، ولعل الذي جعل "شبرنكر" يقول: "عمان" هي "صحار" أن صحار كانت درة "عمان" في عهد "بليناس"، ويقال إنها هي "ريدان" التي

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٥٩/٤؛ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ٢٢٩/١.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١٤٦/١٤ وما بعدها.

كان ملوك اليمن الأقدمون يذكرونها في ألقابهم. فلقد برزت صحار في عالم الحضارة والثروة التجارية، ولقد سبقت في عهودها الإسلامية "زبيد" و"صنعاء" وحواضر الخليج العربي في الاقتصاد والعمران. ولقد منيت بكل ما منيت به عمان في عصورها العجاف. ولكنها لم تكن في وقت من الأوقات عاصمة لعمان، فعواصم عمان غير صحار، فلقد كانت مدينة "نزوى" عاصمة عمان طيلة ألف عام، ثم صارت "رستاق" عاصمة مدة بلغت ثمانين عاماً ، ثم صارت العاصمة "مسقط".

ولقد تحملت "عمان" قسماً كبيراً من مسئولية التاريخ العربي منذ أقدم عصورها، ولقد غشيها الظلام الذي لف جنوبي الجزيرة وشرقيها بعد الإسلام إلى أن منحها الله البترول، فخرجت إلى النور تواكب التطور عمرانياً وزراعياً وتجارياً، لاسيما في السنوات الأخيرة، ولقد حرصت حكومة عمان على ألا يكون البترول هو كل مواردها، فأنشأت الموانئ، واستوردت الوسائل الزراعية الحديثة لتعيد ماضيها التجاري والزراعي، ولقد سارت بخطى واسعة في طريق التعليم، فبعد أن كان أبناء المليونين العمانيين لا يجدون غير ثلاث مدارس لا تتسع لأكثر من سبعمائة طالب أصبحت في عمان في الوقت الحاضر مائتا مدرسة تستوعب أكثر من خمسة وثلاثين ألف طالب!!

هذه هي عمان التي تعتبر قاسماً مشتركاً بين اليمن والعروض، فهي ليست من اليمن كما يقولون، فاليمن (ما بين عمان ونجران)، وليست من العروض جميعها، لأن العروض في بعض الأقوال بلاد اليمامة وما والاها وبلاد البحرين وما والاها، ومسقط في أقصى الجنوب، والكويت في أقصى الشمال. لذلك فإن البحث لا يستبعد عن الواقع الجغرافي والتاريخي رأي من يجعل عمان قسماً قائماً بذاته. فهو كما تقدم إقليم ذو تاريخ ولون ومذهب مستقل عن العروض وعن مذاهب سكانه، وعن اليمن وعن مذاهب سكانه.

ز- أرخبيل البحرين: كتب عن جزر البحرين في الماضي الذي سبق الإسلام "هيرودوت"، وكتب عنها في الماضي الإسلامي "ابن بطوطة"، وكتب عنها "ماركوبولو" الإيطالي وغيره من المستشرقين في الزمن القريب. وكتب عنها في الوقت الحاضر "جواد علي" ملخصاً ما كتبه أولئك وغيرهم ممن سبقوه فقال: (ورد في النصوص "الأكدية" و"السومرية"" اسم "دلمون" أو "تلمون". وذكر في النصوص الآشورية كذلك، ويظن الباحثون: أنه "جزر البحرين"، أو البحرين والسواحل المقابلة لها، وقد اشتهر موضع "دلمون" بتمره، ومعادنه مثل النحاس والبرونز، وبأخشابه، وكانت في دلمون مملكة يحكمها ملوك، ويظهر من النصوص أن جزيرة "دلمون" كانت تتمتع بقدسية خاصة. فكانت تعد من الأماكن المقدسة، وقد رويت عنها بعض الأساطير الدينية، وعبدت فيها بعض الآلهة التي تعبد لها العراق)(١).

وكتب "جان جاك بيريبي": (كانت البحرين منذ خمسة آلاف سنة - لموقعها الجغرافي الخطير - مطمع الغزاة الفاتحين، وفي العهد البابلي اتجهت أنظار حكام "ما بين النهرين" للاستيلاء عليها. ولما قامت دولة "الساسانيين" ضمت "إيران" هذه الواحات البحرية إلى إمبراطوريتها، وظلت تحت سيطرتها حتى القرن الرابع الميلادي، وقد عرفت فيما مضى باسم "تيلوس" و"أرادوس" وما زال اسم "أراد" متداولاً عن البعض في جزيرة "المحرق". ومنذ القرن الرابع الميلادي حتى القرن السادس عشر أطلق اسم البحرين على الشاطئ الممتد من "الكويت" إلى "قطر" بما فيه الجزر الواقعة أمامه. وعند مجيء "البرتغاليين" إلى البحرين اقتصر اسم البحرين على الأرخبيل فحسب.

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٢/٢٩٤ ، ٢٩٦.

والبحرين هي الموطن الأصلي للفينيقيين القدماء الذين سكنوا الساحل اللبناني[1]، وقد أسماها السائح الإنجليزي "تيودور بنت": (المقابر الفينيقية)؛ لأن الاكتشافات الأثرية عثرت منذ القدم على مقابر في البحرين مشابهة لمقابر الفينيقيين، ولعل أول من لاحظ ذلك "سترابون" الذي قال: (إن مقابر البحرين تشبه مقابر الفينيقيين)[2].

والبحرين تعرضت في جميع عصورها الماضية لغزو الدول ذات المطامع. وفي فترات كثيرة كانت البحرين ملجأ للناقمين الثائرين والمضطهدين الذين لم يملكوا حرية الجهر بآرائهم السياسية ومعتقداتهم الدينية.

وفي عصور الخلفاء دخلت البحرين في وحدة الشعوب الإسلامية تحت لواء الخلافة الإسلامية، وفي القرنين التاسع والعاشر الميلاديين خضعت البحرين لسلطان القرامطة، وقد جعلوا منها: منفى للناقمين عليهم. وفي القرن السادس عشر الميلادي استعمرها البرتغاليون، وفي مطلع القرن السابع عشر احتلتها الدولة الإيرانية، فظلت "البحرين" طيلة قرن ميدان حروب بين الإيرانيين والأتراك تساعدهم حكومة عمان، مما جعل طهران تدفع لعمان ضريبة مقابل عدم تدخلها في البحرين.

وفي أوائل القرن التاسع عشر الميلادي استعادها العرب بقيادة "آل خليفة" العنزيين أبناء عم "آل صباح"، وفي سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م وقع آل خليفة معاهدة صلح دائم مع الإنجليز، ولكن هذه المعاهدة لم تلبث أن انقلبت صك حماية إنجليزية على أرخبيل البحرين سنة ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م، وفي سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٤م تعهد آل خليفة للإنجليز بألا يمنحوا شركة ما امتيازاً لاستغلال "اللؤلؤ" أو التنقيب عن "البترول" إلا بمعرفتهم

---

(١) الخليج العربي، ص ١٦٨ وما بعدها.

(٢) جغرافية شبه الجزيرة العربية، ص ٤٦٦، ٤٦٧؛ تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي ٢/٢٩٧، ٢٩٨.

وباستشارتهم[١]، حيث كانت الشركات التجارية ستارة تصيد بها الدول الكبرى مقدرات الشعوب الصغرى!!

والبحرين عرفت الغوص لجمع اللآلئ من أقدم العصور، كما عرفت بناء السفن بأخشابها الممتازة، وتعتبر البحرين من أعرق دول الخليج في تاريخ البترول، فقد اكتشف النفط في منطقة "جبل الدخان" في إمارة البحرين سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م، ولكن آبار البترول في البحرين أفقر آبار الخليج العربي.

وأول ما تقع عين القادم إلى البحرين تقع على نخيل البحرين، وأول ما يسترعي إعجابه أقنية الماء المسقوفة. فلقد تعلم البحرانيون مد الأقنية المغطاة التي تحفظ المياه من التبخر بتأثير حرارة المنطقة منذ زمن بعيد. ومن أروع ما يراه القادم للبحرين مياهها الشفافة في حياضها الجميلة. وأعجب ما يعجب به الينابيع العذبة التي تنبع من قاع البحر المالح[٢].

وأهم جزر إمارة أرخبيل البحرين: "جزيرة البحرين"، و"جزيرة المحرق"، و"جزيرة أم نعسان" و"جزيرة سترة"، وأما بقية الجزر فصغيرة وصخرية قليلة الأهمية. وأهم مدنها: "المنامة" وهي العاصمة، و"عسكر" و"جد حفص"، و"بوري"، و"رفاع"، و"المحرق"[٣].

وبعد تصفية الاستعمار، ورفع الحماية الرسمية عن البحرين، ارتبطت مقدراتها السياسية بدول الخليج العربي، وأصبحت إمارتها[٤] في شبه وحدة سياسية مع جاراتها.

---

(١) الخليج العربي، ص ١٦٨ وما بعدها.

(٢) لقد رأيت مثلها قرب ميناء (القحمة) على البحر الأحمر في تهامة عسير.

(٣) جزيرة العرب، لحافظ وهبة، ص٨٩-١٠٥.

(٤) أصبحت البحرين مملكة منذ أوائل القرن الحادي والعشرين الميلادي.

البحث الثالث :

سكان العروض بين الظلام والنور :

١- إحصاء السكان ما زال رجماً بالغيب.

٢- المستقبل الذي يبشر به الحاضر.

٣- كلمة مخلص.

١ - والكلام عن عدد نفوس العروض في الماضي القديم لا يخرج عن نطاق التخمين. فمثلما توافرت عوامل تكاثف السكان في ذلك الماضي كثرت كذلك عوامل الإبادة الجماعية. فقد كانت هناك أوبئة فتاكة منتشرة مثل الجدري والطاعون، وأمراض مستعصية مستوطنة في ذلك الزمن مثل حمى الملاريا، والزحار، وغيرها من أمراض البلاد الحارة. فمما قاله "جان جاك بيريبي" الذي درس تاريخ الخليج العربي، وألف فيه كتابه "الخليج العربي": (لقد شهدت هذه الشواطئ ولادة وانقراض كثير من الحضارات، والإمبراطوريات، والفلسفات، والأديان، وكثيراً ما رددت هذه الشواطئ وقع حوافر الخيل من أيام "الإسكندر" إلى "المغول"، ففي ذلك الوقت - كما هي الحال في العصر الحاضر - قامت مراكز حضارية هامة، وشيدت مدن يؤمها التجار والبحارة من كل أطراف العالم حيث يجد كل منهم ما يشتهي ويرغب. ولقد حمل "ماركوبولو" - سلف الرحالين الكبار - من هناك قصصاً أسطورية طالما هزت وحركت أطماع التجار الجشعين الذين كانوا ينهضون ذات يوم فيملئون سفنهم الشراعية بما عندهم من مواد صالحة للمقايضة ويولون وجههم - وسراب الثروة يداعب جفونهم - شطر الخليج العربي - باب الشرق السحري، وإذا سلموا ولم يصابوا بالحمى والزحار كانوا يعودون أغنياء جداً جداً[(١)].

فما أشبه الليلة بالبارحة! ما أشبه الحاضر البترولي الذي جعل كل منطقة بترولية منطقة سحرية بالماضي الذي كانت فيه موانئ هذا الخليج أبواباً سحرية لهذه الجزيرة المباركة الثرية! وإنما الفارق هو تغلب العناية الصحية في الوقت الحاضر على الأمراض المستوطنة.

فمهما بالغ التخمين في عدد سكان العروض في عصورها الخوالي فإن عدد سكانها اليوم طفر بشكل لا يمكن أن نتخيله فيما سبق من عصورها. فلقد أصبحت

---

(١) الخليج العربي، ص ١٩-٢١.

إمارة الكويت مكتظة بسكانها الكويتيين أباً عن جد، وبالكويتيين الذين حصلوا على الجنسية، وبالكويتيين بالإقامة. وهذه منطقة الظهران وما حولها، قد نشأت على رمالها في كل مكان مدن حديثة ذات أسواق ومرافق قل أن تتوافر في المدن القديمة. وهذه قطر تصعد مسرعة إلى مستوى الكويت، تتبعها دولة الإمارات العربية المتحدة، فكل منطقة من مناطق العروض تعيش اليوم في عصر ذهبي ومستوى حضاري فوق كل مستوى وصلت إليه في أزهى عصورها الماضية. والمجتمع الذهبي الزاهر يجذب إليه الطامحين من كل مكان.

٢- فإذا كنا نرى اليوم شمس الحضارة ترسل أشعتها الذهبية على سواحل الخليجين، فيستيقظ النيام ويتحرك السكون، بعد أن ظلت هذه الشواطئ في ظلمة رهيبة وصمت مطبق، يتضور أكثر سكانها جوعاً ويعاني سوادها الجهل والفقر والمرض، وهو صابر على لأواء أرضه، غير يائس من اليوم الذي تشرق فيه الشمس فيعيش تحتها كما يعيش العالم، فإن هذا ناموس الحياة الذي فرضه الله على هذه الأرض، فها نحن أولاء نجد في الصحراء القاحلة المجهولة آثار حضارة قديمة كان لها وزنها في أمم الماضي. وها نحن أولاء اليوم نتسابق إلى صحارى الخليج وإلى الربع الخالي نبني هناك مصانع وننشئ مدناً نخاف عليها من اعتداء المتحفزين للانقضاض على ثرواتنا.

ولا إخال سكان العروض يجهلون المتناقضات التي مرت بأرضهم، ولا إخالهم لا يتخذون من الماضي دروساً تنفعهم في بناء المستقبل، فعليهم وعلى العرب والمسلمين جميعاً أن يعدوا لصروف الدهر ما استطاعوا من قوة صناعة وزراعة وتعدين، فالاعتماد على موارد البترول وحدها خطأ صريح، فهاهم أولاء الأمريكيون أمامنا - على ما يملكون من بترول وصناعة - نراهم يحرثون ويزرعون. وقسوة أرضنا الطبيعية ليست بأكثر من قسوة أرض اليابانيين، فهاهم أولاء اليابانيون من خلفنا نراهم

يقاومون قسوة الطبيعة بجهد جبار صنع المعجزات بدون منابع بترول. فكيف بنا ونحن نملك البترول؟ إن ما عليه حالنا يلزمنا بأن نعد للزمن الذي سوف تقل فيه قيمة البترول عدته، فنحن أصحاب تاريخ مليء بما يشهد على قدرتنا في صنع المعجزات والصعود إلى القمة.

٣- وإني أقولها الآن كلمة صريحة مخلصة: إن شعوب الجزيرة العربية التي عاشت زمناً طويلاً فقيرة تتضور جوعاً في ظلمة جهل حالكة، لا يسأل عنها قريب ولا بعيد. إن هذه الشعوب هي المستحق الأول في موارد أرضها، وإن أرضها متأخرة جداً بالنسبة لعمران ومعارف وموارد شعوب الشرق الأوسط. فعلى دولها قبل أن تسهم في شركات استثمار خارج أرضها أن تحيي الأرض التي منحتها البترول، وتنشئ على سطحها معامل السلاح والصناعات التقنية [التكنولوجية]، وتبني في بحارها سفناً تجارية تعود لها ملكيتها.

عليها أن تتعاون مع شقيقاتها الدول العربية وأخواتها الدول الإسلامية، وتدعوهم لأن يسهموا معها في بناء المصانع والمعامل على أرض الجزيرة مثلما أسهمت دول الجزيرة العربية في تنمية ودعم كل دولة شقيقة ومسلمة تجاوباً مخلصاً، فلقد أشرق الرشد العربي، واستيقظ الوعي الإسلامي، وإن لأجيال المستقبل حقاً في أعناقنا، فلنورثهم علماً وصناعةً وأرضاً منتجةً يفخرون بها، وينعمون.

وإني أحمد الله أن بدأت طلائع تلك الأماني التي حشدتها في تلك المحاضرة تظهر في الأفق. فهذه وحدة الخليج في طريق التكامل، وهذه أواصر التعاون بين الدول الإسلامية أخذت تتواشج، وأصبحت الآمال تبلورها الثروة الخليجية والوعي الإسلامي. وإني لأسأل الله أن يمنح العروبة والإسلام قدرة القضاء على المخاوف، ويسدد خطى العاملين لبناء مستقبل منيع، بدأت شمسه تشرق على نواة الصناعة والملاحة التي تتحدث عن مصانعها وشركاتها العربية صحف اليوم وإذاعاته، والتي هي من بعض ما تمنيته مما هو مسجل في محاضرات الرابطة لعام ١٣٨٦هـ.

الفصل السادس

تهامة : القسم الرابع من أقسام الجزيرة العربية

المبحث الأول : تهامة : الاسم والحدود.

المبحث الثاني : تهامة : طبيعة الأرض والسكان.

المبحث الثالث : تهامة : سواحلها ونشاطها.

البحث الأول :

تهامة : الاسم والحدود :

١- اسم تهامة معناه وتاريخه.

٢- عقد البحث في تهامة.

٣- عرض أقوال بعض القدامى ونقاشها.

٤- تهامة أكبر من الإطار الذي وضعتها فيه أقوال بعض الجغرافيين.

٥- دائرة المعارف الإسلامية لم تحل عقد البحث.

٦- حدود تهامة إذا ما اعتبرناها قسماً من أقسام الجزيرة العربية الخمسة.

١ - يرجح المستشرقون أن لفظ "تهامة" مشتق من الكلمة البابلية "تيامتو"، ومعناها بحر. ويتوسع بعضهم في البحث عن مدلول الكلمة البابلية "تيامتو"، فيربط مدلولها باللفظ العبري "تهوم" الدال على البلاد المشرفة على البحر، ويرجح أن كلمة "تهوم" العبرية مشتقة من اللفظ البابلي "تيامتو" الذي يعني "البحر".

ويرجح المحققون أن اللفظ العربي "تهامة" هو مثل اللفظ العبري "تهوم"، فكلاهما مشتق من أصل واحد هو البابلي "تيامتو"، وأن كلا من اللفظين العربي والعبري معناه البلاد المشرفة على البحر، وأن من معاني اللفظ البابلي "تيامتو" المحيط، أو البحر المالح، وأن لهذا المعنى صلة باللفظ العبري، ومعناه يغير ريح الشيء. وأن مثل هذه الصلة توجد بين اللفظ العبري "تهوم" وبين اللفظ العربي "تهامة"، فإنهما يدلان على تغيير ريح الشيء، فالتهم معناه شدة الحر وركود الريح، ومن المعروف أن جو تهامة شديد الحر راكد الريح، ويقال سمي هذا القسم تهامة لتغير هوائه، فتهم الدهن إذا تغير ريحه.

ويقولون: إنه لم يغب عن فطنة "ابن خرداذبة" ما كان بين شاطئ البحر الأحمر من مشابهة، ولذلك شمل كلامه تهامة: الحبشة - "ساحل أريترية"[(١)]، فعلى كل فاللفظان العربي والعبري مشتقان من الأصل العربي القديم، فلغة بابل فرع من أم اللغات السامية، ووطن أم اللغات السامية جزيرة العرب مهد الساميين.

وفي لسان العرب: (تهامة اسم "مكة"، ومنطقة تهامة هي الأرض التي تقع ما بين "ذات عرق" إلى مرحلتين من وراء "مكة"، وما وراء ذلك من المغرب فهو غور. والمدينة

(١) راجع "دائرة المعارف الإسلامية" مادة (تهامة)؛ معجم ياقوت ولسان العرب، مادة (تهم).

لا تهامية ولا نجدية، فإنها فوق الغور ودون نجد. و"تبالة" من تهامة)[1]. وكثير من الجغرافيين والمؤرخين يختصرون كلامهم على تهامة التي ما بين جدة "وعدن".

وفي كثير من المناسبات يأتي ذكر "تهامة" في "معجم ياقوت". وفي كثير من أقوال القدامى التي ينقلها "ياقوت" ما يشوش على الباحث في جغرافية تهامة. ففي كلام "الإصطخري" و"ابن حوقل": أن تهامة تمتد متوغلة في الجبال في الوقت الذي يقول عنها الكثيرون إنها الأرض المنبسطة بين البحر والسراة. ولقد مر بنها قولهم من "ذات عرق" تبدأ تهامة. والواقع يؤكد أن "الحجاز - السراة" يفصل بين "تهامة" و"نجد". ولقد غالى بعضهم فقال: (والحجاز ما حجز بين تهامة والعروض)[2]، فبين الحجاز والعروض نجد، فنجد يحد الحجاز شرقاً ويحد العروض غرباً.

٢- ونحن إذا أردنا الرجوع إلى "معجم ياقوت" فلا بد لنا من أن نختار من الأقوال التي جمعها ياقوت عندما تكلم عن جزيرة العرب وأقسامها ما يكفينا لمعرفة الصورة التي رسمها الأقدمون لمنطقة تهامة. ونحن عندما نبين اسم المؤلفات التي هي مصادر البحث جزءاً وصحيفة نقصد إيضاح الطريق ليعود إليها الذين يريدون المزيد، والذين لهم وجهة نظر تختلف مع ما ذهب إليه البحث.

٣- فما جاء في معجم ياقوت من الأقوال التي نحتاج إلى عرضها ونقاشها والاستضاءة بها قول "الشرقي بن القطامي": تهامة إلى "عرق اليمن" إلى "أسياف البحر" إلى "الجحفة" و"ذات عرق"!! فهل يقصد ابن القطامي بعرق اليمن الجنوب، وبأسياف البحر الغرب، وبالجحفة وذات عرق الشرق، إذا كان الأمر كذلك فإلى أين تصل تهامة شمالاً؟!. ثم أية "ذات عرق" يقصد "ابن القطامي"؟ لقد سبقت الإشارة إلى أن المقصود بنجد في قولهم: (أهل "ذات عرق" ليسوا بنجديين ولا بتهاميين) الحجاز،

---

(١) تبالة مدينة تقدم ذكرها في مبحث الحجاز وفي بحث سوق عكاظ.

(٢) معجم ياقوت ٢/٤٣٦ وما بعدها.

فالحجاز يفصل بين نجد وتهامة، مثلما يفصل نجد بين الحجاز والعروض. يقول "المدائني": (تهامة من اليمن، وهو ما أصحر منها إلى حد في باديتها. ومكة من تهامة، وإذا جاوزت "وجرة" و"غمرة" و"الطائف" إلى مكة فقد أتهمت، وإذا أتيت المدينة فقد جلست)[١]، فالجلس هو الحجاز كما سبق. والذي يبدو من قول المدائني أن تهامة التي يعنيها هي تهامة جنوبي الحجاز[٢].

وفي كتاب المسالك والممالك يقول الإصطخري: (وأما تهامة فإنها قطعة من اليمن، وهي جبال مشتبكة أولها مشرف على بحر القلزم مما يلي غربيها وشرقيها بناحية "صعدة"[٣] و"جرش"[٤] و"نجران"[٥]، وشماليها حدود مكة، وجنوبيها من صنعاء على نحو من عشر مراحل). والغريب في كلام الإصطخري قوله: (وشماليها حدود مكة)، فتهامة كما سيأتي تمتد إلى خليج العقبة. فالذي يغلب على الظن أنه يقصد تهامة اليمن.

٤- فهكذا نرى بعض أقوال القدامى تحصر تهامة في حدود ضيقة لا تسع جميع الأراضي التي تمتد على ساحل سلسلة جبال "الحجاز - السراة"، تلك الأرض التي اعتبرها الجغرافيون العرب قسماً من أقسام الجزيرة العربية. فهم كما رأيت يقفون بحدودها الشمالية عند مكة، مع أن مكة من تهامة، ولعل المقصود في الأقوال التي تجعل حد تهامة الشمالي مكة، هو تهامة اليمن، فأكثر القدامى يقصدون بتهامة السواحل الممتدة من جنوبي "جدة" إلى "عدن" مع أن "تهامة" قسم من أقسام الجزيرة العربية تفصله عن نجد جبال السراة من أطراف الشام إلى أقصى اليمن.

---

(١) المعجم ٢/٤٣٦ وما بعدها.

(٢) المسالك والممالك، ص ٢٦.

(٣) صعدة: مخلاف في اليمن بينه وبين صنعاء ستون فرسخاً.

(٤) جرش: مخلاف من مخاليف اليمن من جهة مكة.

(٥) نجران: مخلاف من مخاليف اليمن من ناحية مكة. معجم البلدان.

٥- وتصف دائرة المعارف الإسلامية "كلام الإدريسي" عن تهامة بأنه أوفى بيان لأنه تطرق إلى نواحٍ لم يتطرق إليها بعضهم[١]. وتنقل عنه أن تهامة تتخللها جبال تخرج من "خليج القلزم" ويتفرع من هذه الجبال فرع يتجه صوب المشرق. ويتاخم تهامة من المغرب خليج القلزم، ومن المشرق تلال تسير شمالاً وجنوباً موازية للسراة، وأن تهامة تمتد من "سرجة" إلى "عدن" مسيرة اثني عشر يوماً على ساحل البحر، وأربعة أيام بالطريق الذاهب من الجبال إلى أرض "الغلافقة"[٢]، وأن أوسع موضع في تهامة هو ساحل جدة. وسرجة اسم لعدة مدن، ولكن المقصود منها حسب المسافة التي ذكرتها دائرة المعارف سرجة اليمنية، وهنا يدخل قول الإدريسي في دوامة الأقوال التي تلف بالباحث وتدور.

٦- وتقول "دائرة المعارف الإسلامية": (إن الكتّاب يختلفون في حد تهامة، فالأصمعي مثلاً يقول: إن تهامة تبدأ من "ذات عرق" و"الجحفة" و"نجاد اليمن". ويقول "عمارة بن عقيل": إنها تمتد من البحر إلى "حرة سليم" و"حرة ليلى". وروى "المدائني": أن من اجتاز "وجرة" و"غمرة" و"الطائف" قاصداً مكة فهو في تهامة. والمدائني، يجعل تهامة جنوبي الحجاز. ويقول بعض الكتاب: إن تهامة تمتد من "ذات عرق" إلى "عسفان" مارة بمكة).

هذه صورة تهامة التي نلمحها من أقوال القدامى والتي نجدها في معاجم اللغة والبلدان. وصورة تهامة التي ترسمها لنا أقوال القدامى، لا تخلو من التشويش الذي منيت به صور أقسام الجزيرة التي نراها في المصادر القديمة، فنحن نرى حدودها تمتد في بعض الأقوال إلى "نجد"، وتضيق في بعضها فلا تتجاوز تهامة اليمن. والجدير

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة (تهامة).

(٢) سرجة : حصن بين نصبين ودنيسر ودارا، من بناء الروم القديم. معجم. وفي المعجم أماكن أخرى تسمى سرجة منها قرية من قرى حلب، وموضع على شاطئ الفرات، وغلافقة : بلد على ساحل بحر اليمن مقابل زبيد.

بالانتباه أن اسم تهامة أصبح علماً على تهامة اليمن. كما أصبح اسم الحجاز علماً على القطر الحجازي، وأن تهامة اليمن استحوذت على أكثر بحوث القدامى. فهذا الإدريسي يقول: (إن تهامة تمتد من "سرجة" إلى عدن مسيرة اثني عشر يوماً) فمسيرة اثني عشر يوماً لا تتجاوز طول تهامة اليمن. وتهامة اليمن هي جزء من تهامة أحد أقسام جزيرة العرب التي لكل واحد منها وحدة جغرافية وتاريخ سياسي واقتصادي. فمن عهد ملوك سبأ ذكرت تهامة في ألقاب ملوك اليمن: (ملك سبأ وتهامة وأعرابهما)[(١)].

فكل ما كان في غربي جبال "السراة - الحجاز" تهامة. فسهول تهامة تتاخم شواطئ البحر الأحمر من مغربها، وتتاخم تلالها وسهولها "السراة - الحجاز". من مشرقها، وتهامة في كلام "الواسعي" تنقسم أثلاثاً : تهامة الحجاز، وتهامة عسير، وتهامة اليمن، وهذه الأقاليم الثلاث: الحجاز، وعسير، واليمن هي الأقاليم التي تقاسمت جبال السراة من قعرة اليمن جنوباً إلى "جبل السراة" شمالاً، فما كانت غربي هذه السراة من أغوار وسهول وأودية، فهو تهامة. وما كان شرقيها من جبال وهضاب ومسالك فهو نجد.

فتهامة اليمن تبدأ من "عدن" إذا أخذنا بقول الذين يعتقدون أن "عدن" من اليمن، أو من البحر إذا أخذنا بقول الذين يعتقدون أن عدن من تهامة، وتنتهي شمالاً عند جنوبي تهامة عسير، وتهامة عسير تنتهي عند جنوبي تهامة الحجاز، وتهامة الحجاز تنتهي عند جنوبي خليج العقبة الذي كان يسمى في القديم: "خليج لحيان"[(٢)].

وحدود هذه التهائم التي تمثل قسماً من أقسام جزيرة العرب هي شمالاً خليج العقبة وجنوباً عدن أو البحر كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وشرقاً جبال السراة - الحجاز ، وغرباً البحر الأحمر.

---

(١) تاريخ اليمن، لعبد الواسع، ص٧.

(٢) شمال الحجاز، ص١١٢، ١١٦.

البحث الثاني :

"تهامة" : طبيعة الأرض والسكان :

١- ما الفرق بين تهامة والغور؟

٢- ماذا سمعت في (جازان)؟

٣- ليست أبعاد تهامة متساوية.

٤- صلة تهامة بالبحر الأحمر.

٥- دائرة المعارف الإسلامية تؤيد وجهة نظر العرب في تهامة وأنها قسم من أقسام الجزيرة العربية.

٦- خصب تهامة وإنتاجها.

٧- جو تهامة حار، ولكنه ليس بجاف.

٨- طبيعة أرض تهامة.

٩- سمات التهاميين تختلف باختلاف المناخ.

١٠- عدد سكان تهامة.

١- لقد أحسن الجغرافيون واللغويون عندما وضحوا لنا ما هي تهامة؟ وما هو الغور؟ فلقد جاء في قول "الإصطخري": تهامة جبال مشتبكة، ولقد ألف "عرام بن الأصبغ السلمي" كتابه "أسماء جبال تهامة". وذكر منها أسماء جبال شامخات مثل: "رضوى" القريب من ينبع، و "الشراة" الذي يطل على "عسفان"[1]. أما الغور عند الجغرافيين واللغويين فهو السهل المنبسط الذي تداعب أطرافه مياه البحر في مدها وجزرها، فكل ما انحدر مسيله فهو غور، وكل ما ارتفع عن الغور إلى جبال السراة فهو تهامة، على أن اسم تهامة يطلق على المنخفض والمرتفع من الأرض التي تقع غربي جبال السراة.

٢- وعندما كنت في جازان، سمعت أهل القرى يقولون: الحباطا، ويقصدون بهذا الاسم جبال تهامة التي تشبه السفوح بالنسبة لسراة عسير التي تقف بجانبها شامخة. ويقولون عن الأرض المنبسطة من بعد تلك الجبال: الساحل. ولعل هذا الاسم "الحباطا" تصحيف حنبطي، وهو القصير الغليظ.

فكل الأغوار والسهول والجبال القصيرة الغليظة التي تقع في غربي جبال السراة تجمعها تهامة كما يقولون. فليست تهامة هي الجبال المشتبكة التي تتضاءل إذا ما قيست بسلسلة "الحجاز - السراة" فحسب، وليست جميعها هي السهول المنبسطة بجانب البحر تغطي شواطئها أمواجه تارة وتنحسر عنها أخرى فحسب. فكما أن «جدة» التي يداعبها البحر تعتبر تهامة، كذلك "مكة المكرمة" التي تعانقها الجبال هي أيضاً تهامية.

٣- وتهامة تتسع في أماكن وتضيق في أخرى. ويقول "الإدريسي": إن أوسع موضع في تهامة هو ساحل "جدة". والذي يبدو لي أن "تهامة عسير" في منطقة "جازان" لا تقل

(١) جبل الشراة الذي يطل على عسفان هو حسب موقعه غير جبل الشراة السوري.

سعة عن سعة تهامة في منطقة "جدة"، وأما تهامة في شمال الحجاز في ناحية "الطور" و"العقبة" فتنحصر في جزء يضيق ويتسع وكذلك عند "القنفذة" و"لحية". وجاء في دائرة المعارف الإسلامية: (ويتراوح عرض تهامة في اليمن من ٣٠ إلى ٤٠ ميلاً)(١).

٤- وتقول دائرة المعارف الإسلامية: إن لتهامة صلة بنشأة البحر الأحمر، ومادة هذا السهل من مركبات مرجانية وركام فيضاني حديث. وتنقل عن "الإدريسي" قوله: وتتخلل تهامة جبال تخرج من "خليج القلزم"، ويتفرع من هذه الجبال فرع يتجه صوب المشرق، وتلال تهامة تسير من المشرق شمالاً وجنوباً.

٥- وتقول دائرة المعارف الإسلامية أيضاً: (إن الجغرافيين لم يقفوا عند استعمال "تهامة" بمعنى ساحل البحر، أو الغور، أو السافلة، بل تجاوزوا ذلك وجعلوا منها وحدة جغرافية وسياسية مستقلة إلى جانب اليمن، واليمامة، والعروض). وتشير إلى كلام "ابن الوردي" عن تهامة وأنها بلاد جبلية، وتعلق عليه بأنه (قول يستأهل الالتفات إليه بالنظر إلى التلال التي تتخلل السهل بمحاذاة الساحل، وقد ذكرها "الإدريسي". ويجعل "الإصطخري" و "ابن حوقل" تهامة - على هذا النحو - تتوغل في الجبال، في حين يصفها آخرون بأنها الأرض التي بين البحر والسراة). ولقد سبقت الإشارة إلى ما يبدو على بعض أقوال القدامى من غموض دفع البعض من الباحثين إلى حيرة مطبقة، فلم يتنبهوا إلى أن أولئك الذين قالوا: إن أهل "ذات عرق" يمكن اعتبارهم نجديين وتهاميين، والذين قالوا: (عكاظ بأعلى نجد قريباً من عرفات) يقصدون "بنجد" أعالي الحجاز، حيث ترعى فيها وتشرب من تهامة، كما سبق في بحث عكاظ. فالمقصود بنجد فيما يقال عن أهل ذات عرق، وأنهم ليسوا من نجد ولا من تهامة، هو الحجاز - السراة، فالعرب تسميه نجداً وجلساً وحجازاً.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٥١٩/٥ وما بعدها.

٦- وتقول دائرة المعارف الإسلامية: (وتهامة إقليم حار جاف. وهو لذلك أصلح ما يكون سهلاً ينبت فيه "الغضا" و"الحسك" و"العشب". أما الخبت المتاخم للبحر فدغل. ويوجد في داخل الإقليم وخاصة تجاه النجاد "الجراد" - نوع من الأذرة - و"الدخن" و"الحنطة" و"قصب السكر" و"التمر" و"السمسم" و"النيلة" و"القطن")[١].

ولقد تحدثت في هذا الجزء وفي الأجزاء التي سبقته عما رأيته من خصب تهامة عسير وعطاء أرضها الذي لم أشهد له مثيلاً في سورية، وفي مصر، وفي الهند، وفي الأفغان، وفي البلدان التي زرتها في أوربا وفي أمريكا. إنني لم أر أرضاً في تلك الأقاليم تنتج ما تنتجه بعض ملحقات "جازان"، لم أر أرضاً تجود البذرة الواحدة على صاحبها بأربع غلات، وتزرع على مطر نزل قبل البذر بأكثر من شهرين! ويقول: "شرف البركاتي" في "الرحلة اليمانية": وتزرع أودية تهامة بماء السيل الذي يأتيها من الجبال في السنة ثلاث زرعات.

لقد أثبتت أرض "تهامة - الحجاز" أنها أرض خصبة معطاء، فأشجار الليمون وغيرها التي يزرعها السكان في دورهم بجدة يكاد إنتاجها لا ينقطع طيلة العام، ولكنها أرض بلا ماء. والأمل في أن يصل مشروع تحلية ماء البحر إلى أن يعتمد عليه في زراعة تهامة ليس ببعيداً جداً، فهو معقود على مفاعل ذري.

ولقد رأيت في تهامة عسير أنواعاً من الغلال الزراعية. ولكن لم أر بينها "القطن"، ولعل ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية عن الإنتاج الزراعي في تهامة يقصد به إنتاج أرض من تهامة لم أرها، بيد أنني رأيت بين "أملج" و"الوجه" الدغل الذي أشارت دائرة المعارف إليه.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٥/٥٣١.

٧- والمعروف عن جو تهامة أنه حار - كما تقول دائرة المعارف الإسلامية - ولكنه ليس بجاف، فالمسافر مثلاً من "جدة" إلى "المدينة المنورة" يسير في جو حار رطب إلى أن يترك "بدراً" ويدخل في شعاب جبال "الحجاز - السراة"، فهناك يلاقيه جفاف أي جفاف!!

٨- وتقول دائرة المعارف الإسلامية: (وتتخلل تهامة الجنوبية جبال بركانية، ويندر فيها ركام الصخور من صنف صخور القارة، وليس في ساحل سهل متصل، وإنما يكون ذلك على مراحل في داخل الإقليم، أو بين تضاريس الساحل البركانية، وتتميز تهامة الجنوبية بحروف قائمة من الحجر الطباشيري والرملي تساير الساحل، على ضيق رقعة تهامة الجنوبية حيث لا تمتد المسافة بين البحر والجبل في بعضها أكثر من خمسة وعشرين ميلاً، وعلى كثر فيافيها القفر فإن في أوديتها واحات مثمرة ترويها أمطار صيفية مثل "واحة لحج" الكثيرة الخيرات) [١].

ولقد وصف لنا "عرام بن الأصبغ السلمي" في كتابه "أسماء جبال تهامة وسكانها»: تهامة الحجاز. جبالها وأوديتها وزراعتها، فتحدث عن "ينبع" ذات النخل وعن عيونها، وعن"الصفراء" ونخلها، و "الأبواء" إلى غير هذه من قرى تهامة الحجاز وأوديتها. وذكر جبل رضوى وغيره من الجبال الشامخات، والذي يلاحظ على كتاب عرام تجاوزه تهامة إلى جبال الحجاز - السراة في بعض أقواله.

٩- أما تهامة التي تقع شمالي "ينبع" فهي ذات لون يختلف عن تهامة جنوبي ينبع، وإنك لترى هذا الفارق من ينبع، فسكان "ينبع" و"أملج" و"الوجه" وما بعدها من ناحية الشمال يشبهون إلى حد بعيد أبناء عمومتهم الذين هاجروا إلى صحراء مصر الشرقية، من حيث الصفات والملامح والطباع التي تختلف عن صفات سكان تهامة

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٥٢٢/٥.

الجنوبية وملامحهم وطبائعهم، من "الليث" و "جازان" وما بعدهما من ناحية الجنوب حيث يعيش "الزرانيق" وغيرهم من سكان تهامة الجنوبية الذين يحاكي لون بشرتهم لون الزيتون، ففي دائرة المعارف الإسلامية عن "تاريخ اليمن" لمؤلفه "عبد الواسع بن يحيى": (والظاهر أن التهاميين أخلاط من الشعوب، وبشرتهم في لون الزيتون، وشعرهم أصوف كث، وشفاههم غليظة، وهذا شاهد على اختلاطهم بالأفارقة[1]. وتنقل دائرة المعارف الإسلامية عن "بوتا": (أن لونهم أسود حالك) وعن "بري" (أن فيهم شبهاً من لون الزنوج، وأنهم قوم قلة في الجسم، و"الزرانيق" أكبر قبائلهم، وهم يتميزون بلحاهم القصيرة الجعدة وشعرهم المستقيم) فهذا الوصف ينطبق على التهاميين الجنوبيين، أما الشماليون من ينبع وما بعدها فصفتهم غير هذه.

والواقع الذي رأيته أن الجوار له دخل في أوجه الشبه بين الأمم وسكانها، فسكان الأقاليم التي تقع في منطقة خط عرض واحد، ويتاخم بعضها بعضاً، تتشابه ألوانهم وطرق حياتهم بفعل الجو الواحد. فنحن إذا ما استعرضنا سكان ساحل البحر الأحمر الشرقي والغربي نجد التغير الذي طرأ على سكان الساحل المصري من "قناة السويس" إلى "أسوان" هو التغير نفسه الذي يطرأ على سكان الساحل التهامي من حيث تكوين الجسم ولون البشرة والملامح العامة والطباع، وكذلك نجد الشيء نفسه إذا استعرضنا سكان سواحل "الخليج العربي" و "العماني"، فسكانها يختلفون كثيراً عن سكان السواحل الشرقية المقابلة، فشكل الهندي غير شكل الإيراني، ولون الكويتي غير لون المسقطي.

فمما يلاحظ على الذين يعيشون في خط عرض واحد تشابه أجسامهم، وألوانهم، وطراز حياتهم. ثم هناك تلاحم العناصر وانتقال القبائل الذي نرى أثره في انتشار الجنس الأصفر: الصين، واليابان، وغيرهما من سكان الشرق الأقصى.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٥/ ٥٢١.

فمن هذه العوامل نشأ اختلاف سحنة التهاميين وطباعهم وطراز حياتهم، فأوجه الشبه تكاد تكون معدومة بين سكان "الوجه" وسكان "الحديدة".

ويشتغل سكان تهامة بالزراعة والملاحة والتجارة وصيد الأسماك وبناء السفن الشراعية، ومن أهم المدن التي اشتهرت ببناء السفن في العصور الإسلامية "أملج"، ومن أهم المدن التي اشتغلت بزراعة النخل "ينبع".

أما تهامة الجنوب فأكثر ما يزرع فيها الأذرة والدخن والسمسم. ولقد سبقت الإشارة إلى خصب أرض منطقة جازان، وسيأتي الكلام عن "زبيد" وغيرها من مناطق تهامة اليمن.

١٠- وجاء في دائرة المعارف الإسلامية: يقدر عدد سكانها بنحو خمسة ملايين نسمة بناء على ما جاء في رواية "عبد الواسع"، والذي يبدو أن هذا الرقم لا يعم التهاميين من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال. فليس "الواسعي" وحده هو الذي بحث عن عدد سكان تهامة، فلقد بالغ البعض في تقدير عدد سكان تهامة، فارتفع الرقم عن تقدير الواسعي. وشك البعض في عدد السكان فانخفض الرقم. والواقع أن قول المبالغين في التقدير، وتقدير المتواضعين في ظنهم، كله تخمين وحدس. والذي يلاحظ في سكان تهامة أن قرى تهامة الجنوبية ومدنها مكتظة بالسكان بعكس القرى والمدن في تهامة الشمالية، فسكانها قليلون جداً بالنسبة لقرى تهامة عسير واليمن. ولعل السبب في ذلك وفرة الأمطار التي تهطل على سراة عسير وسفوحها فتسيل منها أودية يستغلها التهاميون في زراعتهم، فحول الخصب يزدحم السكان.

ومما لا شك فيه أن عدد سكان تهامة اليوم، لاسيما في إقليمي عسير والحجاز، أكثر من ذي قبل. فلقد منع توافر المصل الوقائي انتشار الأمراض المعدية الفتاكة مثل الجدري وغيره من الأمراض الوبائية التي كانت تفتك بالألوف من سكان تهامة، فتقفر قرى وتخلو جبال، ولقد صدرت أخيراً بيانات دولية تعلن القضاء على مرض الجدري في آسيا كلها.

البحث الثالث :

شواطئ تهامة ونشاط موانئها :

١- تهامة في المجال السياسي.

٢- حواجز تهامة السياسية.

٣- هل استقلت تهامة سياسياً عن دول الحجاز — السراة؟

٤- ملاحظات على ما قاله الجازانيون ودائرة المعارف الإسلامية عن "جازان".

٥- موانئ تهامة التي هي من الدرجة الأولى، والتي من الدرجة الثانية.

٦- نشاط التهاميين.

٧- ملخص الأسر التي حكمت في تهامة.

١- تاريخ تهامة السياسي والحضاري غير بارز بروز تاريخ اليمن والحجاز، فكل قسم من أقسام تهامة الثلاثة مرتبط بأقاليم "السراة": الحجاز، عسير، اليمن. فمما نقلته "دائرة المعارف الإسلامية" عن مصادرها قولها عن تاريخ تهامة السياسي: (إن تهامة كانت في عهود مختلفة من تاريخ اليمن ولاية قائمة بذاتها لأسباب تتصل بالحكم، وشاهد ذلك عهد الحكم الفارسي لليمن في نهاية القرن السادس الميلادي، وهو عهد قديم، ولعل هذا الاستقلال أثر من آثار نظام مملكة "سبأ" المتأخرة. ثم ولي تهامة بعد ذلك "بنو زياد"، ثم استقلت زمناً، وكانت حاضرتها "زبيد" من عام ١١٥٩ إلى ١١٧٤م، ثم أصبحت ولاية خاضعة لصنعاء)[١].

وما ذكرته دائرة المعارف الإسلامية يخص تهامة اليمن، ولعل تاريخها السياسي يشمل أيضاً تاريخ تهامة عسير. فتاريخ تهامة عسير السياسي مثل تاريخ جبالها تقاسمته حكومات القطرين: اليمن والحجاز. فما ذكرته دائرة المعارف لا يشمل تاريخ تهامة السياسي جميعه.

٢- وحواضر تهامة اليمنية ـ التي تحدثت عنها المعاجم، والتي كانت مسارح للنشاط الاقتصادي والسياسي هي ابتداء من الجنوب "عدن"، إذا اعتبرنا عدن من تهامة. ولقد مرت على عدن فترة ركود بعد أن اكتشف "رأس الرجاء الصالح" وقبل أن تفتح "قناة السويس"، وتمر بعدن اليوم فترة ركود مماثلة فلقد أغلقت القناة، ولقد اندلعت في عدن فتن أثارتها مطامع الشيوعية في استعمار ماركسي، يخلف استعمار رأس المال الإنجليزي. ولعل عودة القناة إلى حالها قبل الاعتداء الصهيوني يعيد لها نشاطها الاقتصادي، ولعل التجارب التي مرت بها تعيد لها الاعتدال لتأخذ مكانها بين الأقطار العربية السائرة صفاً واحداً إلى المستقبل الذي يحلم به كل عربي مخلص.

---

(١) ما ذكر عن دائرة المعارف الإسلامية منقول من مادة تهامة ٥١٩/٥ وما بعدها، ومادة (زبيد).

و"للحديدة" تاريخ ليس من القدم بمثل تاريخ عدن، على أنه غير حديث، وكذلك نشاطها الاقتصادي والسياسي ليس بمثل نشاط عدن؛ على أن للحديدة نشاطاً تجارياً كان في زمن من العصور الإسلامية لا يقل عن "عدن" إن لم يفقه؛ فالحديدة هي الميناء الرئيس لشمال اليمن، تصدر وتستورد عن طريقه تجارة اليمن، وعلى ميناء "الحديدة" كانت ترسو سفن الحجاج، وقد بلغ من شأن الحديدة أن استقل بها "إبراهيم باشا"[(١)] سنة ١٨١٧م عن حكومة صنعاء. ثم ارتبطت الحديدة بصنعاء إلى الآن، وذلك كان بدافع من الأستانة وموافقتها. فلقد كان الأتراك يسخرون مصر الخديوية للقضاء على كل نشاط عربي يهدد النفوذ العثماني!

وجاء في "دائرة المعارف الإسلامية": "زبيد"[(٢)] مدينة في تهامة اليمن على الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب، سميت "زبيد" باسم "وادي زبيد" الدائم الجريان[(٣)] بعد أن كانت تعرف باسم "الحسيب". وتقول دائرة المعارف الإسلامية: (وزبيد على خلاف سائر أرض تهامة مشهورة ببساتينها التي يزرع فيها النخيل وبعض الحنطة و"النيلج - النيلة"). وزبيد مدينة جاهلية دخلت في الإسلام في السنة العاشرة من الهجرة، وكان "خالد بن سعيد بن العاص": أول ولاتها في العصور الإسلامية. وقد استقل بها في عصر "المأمون العباسي" إدارياً "آل زياد ابن أبي سفيان" هبة من المأمون لـ "محمد" سليل "زياد ابن أبي سفيان"، ثم "بنو نجاح" المماليك الأحباش. ثم أحرقها في نهاية القرن الثالث الهجري "علي بن الفضل القرمطي"، ثم استولى عليها "عبد الله بن قحطان" من "بني يعفور"، ثم بعد نفوذ "الأيوبيين" وجنودهم الأكراد على اليمن قامت "السلطنة

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥١/٧.

(٢) يقول "ياقوت": (زبيد): اسم وادٍ عرفت به مدينة كانت تسمى (الحصيب) أحدثت في أيام المأمون. وبإزائها ساحل (غلافقة) وساحل (المندب) وهو علم مرتجل. معجم ياقوت ٣٧٥/٤.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٣٣٧/٧ وما بعدها.

الرسـولية" بـرعاية الأيوبـيين، ثم جـاءت بعـدهم الطاهـرية، ولقد احـتل شـريف مكـة "أبـو نمـي" زبيد فترة من الزمن ٩٢٢هـ، ثم احتلها من بعده "مماليك مصر"، ثم التحقت بحكومة "آل عـثمان"، ثم انتـزعها مـن العثمانـيين الـزيود[١]. وعلـى هـذا الـنحو تقلبت الـدول والإمـارات علـى "زبيد" إمـارة بعـد إمـارة، ودولـة بعـد دولـة إلى أن ارتبطت بدولـة "أئمـة صنعاء"، وأخيراً أصبحت تهامـة اليمن مـا عـدا منطقـة عـدن جـزءاً مـن جمهورية اليمن الشمالية[٢].

ويقـول: "أحمـد السـعيد السـليمان" في "تـاريخ الـدول الإسـلامية ومعجـم الأسـر الحاكمـة": (لقـد فـتحت دولـة "بني زيـاد" الطريق لظهور عديد من الدول). وفي الواقع أن "زبيد" في الماضـي كانـت محـور التحـرك السياسـي في تهامـة، بـل في الـيمن. وزبيد هـي عاصمة تهامة اليمن.

٣- ومـن استقراء تـاريخ تهامـة الـيمن يظهـر أن مقـدراتها السياسـية تتأثـر بنشـاط "زبيد" السياسـي، ففي عصورها الإسـلامية ارتبطت "تهامة اليمن" بعواصم الخلافة إلى عهد "المأمون" حيث استقل "بنو زياد" من سنة ٢٠٤ إلى سنة ٤٠٩هـ[٣] استقلالاً يعترف بسلطان اسمـي لبغداد، كمـا اعتـرف الذين خلفوهم بمصـر: الفاطمية، والأيوبية، مثل دولـة "بني نجـاح" مـن سنة ٤١٢ إلى سنـة ٥٥٤هـ، و"بـني المهـدي" مـن سنة ٥٥٤ إلى سنـة ٥٦٤هـ. ومـن سنـة ٥٦٩ إلى سنـة ٦٢٦هـ وحدت اليمن وتهامـة "الدولة الأيوبية"[٤]. وبعد زوال الخلافـة العباسـية ارتـبطت تهامـة الـيمن الشـمالية بالعثمانـيين ومـن بعـدهم بحكومات "صنعاء" إلى الـزمن الحاضـر. أمـا منطقـة "عـدن" الـتي دخلت ضمن المحميات

(١) تاريخ الدول الإسلامية ١/١٩٥، ١٩٧.

(٢) توحد اليمنان الشمالي والجنوبي في دولة واحدة عام ١٩٩٠م.

(٣) تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ١/١٩٧؛ دائرة المعارف الإسلامية، مادة "زبيد".

(٤) الأيوبية نسبة لصلاح الدين الأيوبي.

البريطانية ثم أصبحت قاعدة جمهورية اليمن الجنوبية، فقد قامت فيها إمارات مستقلة مثل إمارة "بني زريع". وإذا نحن لم نجعل لعسير كياناً سياسيًا وجغرافياً فعلينا أن نذكر هنا الإمارات التي قامت في تهامتها مثل إمارات "عثر" و"أبي عريش" و"صبياء" وغيرها من مخاليف تهامة عسير. فلقد قامت في تهامة عسير إمارات لم تعمر طويلاً كان آخرها "إمارة الإدريسي".

وأشهر حواضر تهامة عسير "جازان"، وجازان مدينة قديمة ذكرها المؤرخون في القرن الثالث، فلقد ذكرها اليعقوبي، المتوفى سنة ٢٩٢هـ[١]، وذكرها من بعده المقدسي البشاري، المتوفى سنة ٣٨٠هـ، وقال عنها ياقوت الحموي: جازان موضع في طريق حاج صنعاء[٢].

٤- والجازانيون يقولون عن مدينتهم "جازان": إنها كانت تسمى المخلاف السليماني، نسبة إلى أحد أمرائها، وهو "سليمان بن طرف الحكمي" من أبناء النصف الثاني من القرن الرابع الهجري الذي وحد مخلاف "حكم" ومخلاف "عثر" تحت إمارته باسم "المخلاف السليماني". فمما يقوله الجازانيون عن "المخلاف السليماني" يظهر أن اسم "جازان" أقدم من اسم المخلاف السليماني[٣]، فلقد ذكرت "جازان" من قبل سنة ٤٥٠هـ بكثير جداً.

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية: (ولم تعد المدينة "جزان" المعروفة قديماً باسم "جيشان"، وهي ثغر قضاء "أبي عريش"، أية أهمية منذ مدة طويلة بالنسبة لميناء "الحديدة"، والذي يلاحظ على ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية:

---

(١) يقول "عمر رضا كحالة": إن اليعقوبي توفي سنة ٢٧٨هـ. ولا أدري إلى أي نص يستند.

(٢) معجم ياقوت، مادة (مخلاف)، و(أبو عريش).

(٣) المعجم الجغرافي لمقاطعة جازان.

أولاً: قد يكون هنا خطأ مطبعي وقع في اسم "جازان"، فليس اسم هذه المدينة: "جزان". كما جاء في الدائرة.

ثانيًا: لم أجد واحداً من جغرافيي العرب قال: إن "جازان" هي: "جيشان". فاليعقوبي المتوفى سنة ٢٩٢هـ عندما تحدث عن مخاليف اليمن ذكر "جيشان" وذكر بعدها "جازان" فقال: "العرش"[١] من "جازان"، ولقد ذكر "ياقوت": "جيشان" على أنها مخلاف، ولم يذكر من توابعه "العرش"، وذكر العرش على أنها مدينة باليمن[٢]، وفي رأي بعض المستشرقين أن "جيشان" هي عاصمة "مهرة" الممتدة على البحر العربي - المحيط الهندي.

و"أبو عريش" في دائرة المعارف الإسلامية هي المركز الرئيسي في قضاء سمي باسمها "أبو عريش". وقد خضعت منطقة "أبي عريش" في الماضي لحاكم "اليمن" في القرن الثامن عشر الميلادي، ثم استقل بها "الشريف أحمد" في القرن الثالث عشر الهجري - الثامن عشر الميلادي، فصارت هذه المنطقة إمارة مستقلة، ثم أصبحت بعد الفتح ولاية تركية[٣]. وفي تجوالي في منطقة "جازان" سمعت من سكان "أبي عريش" أنها كانت قاعدة "آل مسمار"، ولعلهم يعنون أسرة "الشريف أحمد"، وأنه كان بها حصن عظيم يسمى "نجران".

ويتناقل الجازانيون ما جاء في كتاب "المفيد في أخبار زبيد" لمؤلفه "عمارة بن علي ابن زيدان الحكمي المذحجي" المتوفى سنة ٥٦٩هـ عن مدينة "عثر"، ويعتقدون أنها في شمالي "صبيا" وأن "سليمان بن طرف" استقل بها فأصبح بما بلغته "عثر" في أيامه في

---

(١) تاريخ اليعقوبي.

(٢) مادة (مخلاف) و(أبو عريش)، والعرش هو أبو عريش.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ١/٣٧٨.

مصاف ملوك تهامة، وفي معجم الأسر الحاكمة: (وفتح "سليمان بن طرف" جزءاً كبيراً من سواحل اليمن الشمالية واتخذ "عثر" مقراً لحكومته[1]).

٥- ومن مدن تهامة عسير "صبيا"، وصبيا حديثة الشهرة، فلقد اشتهرت بالإدريسي، "السيد محمد الإدريسي" الذي ولد في "صبيا" سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م، فهي من المراكز الرئيسية في وادي بيش أو بيشة كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية[2]، وهي من أعمال عسير، وقد أصبحت بعد غزو الترك لعسير سنة ١٨٧١م قصبة قضاء يحمل الاسم نفسه - صبيا - أما قبل ذلك فقد قال عنها "ياقوت": ("صبيا" من قرى عثر من ناحية اليمن[3]. ولكن ياقوت عندما تكلم عن "عثر" لم يذكرها على أنها بلدة في "تهامة عسير"، وجاء في معجم البكري: (عِشْر بكسر أوله وإسكان ثانيه موضع في بلاد أشجع)، و"عشر" في صفة جزيرة العرب هي "بلاد حاشد". وهي أيضاً بواد من ناحية صنعاء[4] فلعل "ياقوت" يقصد: "عثر". فياقوت ذكر في معجمه: "عثّر" بتشديد الثاء وذكر "عثْر" بسكونها، فعثر بسكون الثاء في كلام ياقوت: بلدة في اليمن، وشاهده على ذلك قول "عمر بن زيد أخي بني عوف":

وصلنا إلى "عثر" وفي دار وائل   بهاليل منا سادة وأسود

وقال عن "عثّر" بتشديد "الثاء" : إنها باليمن كانت في بعض السنين تابعة لـ "تبالة"، يجبي عشرها والي "تبالة"، وقال عن "عثر" أيضًا : إنها على مسيرة سبعة أيام في عرض يومين، وهي من "الشرجة" إلى "حلى"، ويبلغ ارتفاعها - أي أخراجها - في السنة "خمسمائة ألف دينار"، و"عثر" في صفة جزيرة العرب منطقة ساحلية[5].

---

(١) تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ١/١٩٧.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١٤/١٤٤.

(٣) معجم ياقوت ٥/٣٣٧.

(٤) معجم البكري ٣/٩٤٤.

(٥) الصفة، ص ١١١ ، ١١٦ ، ١٢٠.

ولقد مررت عندما تجولت في منطقة "جازان" سنة ١٣٦٢هـ على المراكز الحكومية الملحقة بجازان: "صبيا" و"أم الخشب" حاضرة وادي "بيش"، و"درب بني شعبة - الملوح" و"الشقيق" و"القحمة" و"المضايا" و"صامطة" و"أبو عريش" و"عيبان" و"هروب" و"الحقو". ولقد رأيت وأنا في طريقي إلى هذه الملحقات العديد من القرى المأهولة بالسكان. ولقد سرت في طرق بدائية تهبط في الأودية والأغوار، وترتفع على السفوح، وتتعرج يميناً وشمالاً، فرأيت تهامة على الطبيعة: الغور منها والهضاب والجبال.

وأعتقد أن "القنفذة" و "الليث" لم يكونا من الموانئ المعروفة في عصر ياقوت الحموي، فلقد قال عن القنفذة: (القنفذة من مياه "بني نمير" عن أبي زياد) وقال عن الليث: (إنه علم مرتجل، وهو واد بأسفل السراة يدفع في البحر، أو هو موضع بالحجاز)(١). والقنفذة مرفأ "أبها"، ولقد كانت قبل الحرب العالمية الأولى قائمقامية، وهي اليوم إمارة تتبعها القبائل المنتشرة في الأودية التابعة لها. وكذلك الليث، كانت قائمقامية، ولقد سبق الكلام عن القنفذة، وهل هي حجازية كما يقول "فؤاد حمزة"؟ أم هي عسيرية كما يقول "حافظ وهبة"؟!

و"جدة" ميناء "مكة المكرمة" من الشهرة بحيث لا يحتاج إلى تعريف. فجدة ميناء تهامي قديم، ومما يدل على قدم جدة اعتقاد "الكثيرين" أن "حواء" أم البشر مدفونة في أرضها. على أن جدة التي تقوم على الأرض المعروفة اليوم، ليست في معجم ياقوت الميناء الأول لمكة المكرمة بل كانت "الشعيبة" هي الميناء. ويستند ياقوت في كلامه عن "شعيبة" إلى "وهب بن منبه" الذي قال: (إن سفينة حجتها الريح إلى "الشعيبة"، وهو مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وهو كان مرفأ مكة)(٢)، بيد أنني أعتقد: أن الشعيبة دخلت في عمران جدة الذي امتد في الوقت الحاضر، جنوباً وشمالاً وشرقاً إلى

---

(١) معجم ياقوت، مادتا (قنفذة) و(ليث).

(٢) معجم ياقوت، مادة (شعيبة)، ٢٧٦/٥، ومادة (جدة).

حدود لا تزال تتسع. ويقول ياقوت عن "هشام الكلبي": إن "جدة" كانت مرعى "عمرو بن معد بن عدنان" وهو قضاعة و "الجد" في اللغة كما هو معروف: البئر القديمة، فلا يستبعد أن تكون في منطقة "جدة" بئر قديمة كانت ترعى حولها الماشية عندما كانت الشعيبة هي الميناء، ولعل اسم الساحل بأجمعه سمي بالبئر القديمة فالآبار والمياه في العصور الجاهلية من الشهرة بحيث يسمى بها وينسب إليها، فإلى ماء غسان نسب الغساسنة، وإلى اليوم تسمى الأماكن بالآبار ففي المدينة سميت الضاحية التي على مدخلها ببئر "عروة". وفي طريق المدينة ومكة وينبع مراحل: "بئر الماشي" وبئر "ابن عباس" و "آبار ابن حصاني". وفي كلام "جواد علي": جدة الميناء أخذت موضعها في أيام الخليفة "عثمان بن عفان"[1]. وجدة الميناء تشتمل - حسبما يرجحه البحث هنا - على "الشعيبة". فأي ميناء لمكة لا يبعد كثيراً عن "جدة" التي اتخذت ميناء لمكة في عهد عثمان ابن عفان، فهي على ما أظن في موضع محلة من محلات جدة اليوم، مثل "الرويس" و"اليمانية" و"طريق المدينة"، فجدة اليوم اتسعت بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخها الطويل.

و"جدة" في منطقة مكة التهامية، ومنطقة مكة تشتمل على قرى وأودية لا يزال بعضها على خصوبته، مثل "خليص" و "البرزة" و "بطن مر" و "كلية".

و"الجار" ميناء المدينة، ولقد أصبح اليوم أثراً يبحث عنه مؤرخو المدينة. ولقد كان "الجار" إلى القرن السابع ميناء مأهولاً بالسكان ترسو فيه السفن قال عنه "ياقوت": الجار فرضة ترفأ إليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند، آهلة، وشرب أهلها من "البحيرة" وهي "عين بليل". وبالجار قصور كثيرة، ونصف الجار في جزيرة من البحر، ونصفها على الساحل، وبحذاء "الجار" جزيرة في

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٤/٢٠٣، وارجع أيضاً تاريخ جدة، لعبد القدوس الأنصاري.

البحر مساحتها ميل في ميل لا يعبر إليها إلا بالسفن وهي مرسى الحبشة خاصة، يقال لها: "قراف"، وسكانها تجار[1]. أما اليوم فليس هناك في الجار قصر ولا ناس ولا سفن، فسبحان الذي يغير ولا يتغير.

وينبع ميناء قديم، ويظن بعض الذين عنوا بمعرفة الأماكن التي ذكرها "بطليموس" بأسماء لا وجود لها في الوقت الحاضر أن "آمبو" الذي ورد في جغرافية بطليموس هو اسم "ينبع النخل" وأن ميناء ينبع النخل هو الذي أشار إليه "سترابون" الذي رافق الحملة الرومانية على بلاد العرب، وأن جيش "أوليوس غالوس" وصل إلى "ينبع" من "تبالة" ومن ينبع أبحر عائداً من حيث أتى[2].

ويذكر "عرام بن الأصبغ السلمي" ينبع النخل بأنها قرية غناء ذات عيون ونخيل، ويقول "الشريف بن سلمة بن عياشي الينبعي": عددت بها مائة وسبعين عيناً. وميناء ينبع اليوم هو أكبر موانئ الحجاز بعد جدة[3]، ولكن عيون ينبع النخيل اليوم جف أكثرها، وليس لما بقي منها اليوم شأن يذكر. ومن أشراف ينبع: "آل قتادة" الذين حكموا في مكة من سنة ٥٩٨هـ إلى أن توحد الحجاز ونجد مملكة واحدة.

ويؤكد "جواد علي": أن ميناء "لويكة كومة" هو ميناء "نبطي" كان له شأن أي شأن في النشاط التجاري، وأن عليه رست سفن "غالوس" الحربية، ومنه اجتازت جيوش الروم عندما قامت بغزوها بلاد العرب، وفيه قضى جيش "أوليوس غالوس" الفاشل نحواً من عام يستعيد قواه التي هدها المرض. وقد بحث "جواد علي" كثيراً عن موضع هذا

(١) معجم ياقوت، مادة (الجار).

(٢) تاريخ العرب، لجواد علي ٤٠٩/٢، ٣٩١.

(٣) راجع كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها، ص٨؛ معجم ياقوت، مادة (ينبع) ٥٢٦/٨.

الميناء، فمرة قال: إن "فورستر" يعتقد أن لويكة كومة هي "الحوراء"، وأن "ونست" يعتقد أنها "المويلح"، وأن آخرين يرون أنها "عينونة"، وكل هذه موانئ في تهامة الحجاز[1].

ومن الموانئ التي في تهامة الحجاز "أملج" ولقد مررت بها في طريقي إلى "الوجه"، وشاهدت فيها بساتين لوجهائها، وسمعت الكثير عن خصب "وادي عين"، ورأيت في بريتها غابات من الشجر الذي يصنع منه الحصير.

٦- ولقد وصف "موسل"[2] الطريق الساحلي من "مدين" إلى مكة فقال: (يتجه الطريق من "مدين"، ومدين تسمى الآن "البدع"، إلى "عينونة"، وعينونة ميناء حجازي قديم لا يزال يعرف بهذا الاسم إلى اليوم، وبعد عينونة تأتي هذه المنازل: "العوينيد" أو العونيد، و"الصلاة" و"النبك". ولقد سبق الكلام عن عونيد في مبحث الحجاز من هذا الجزء. أما "الصلاة" - فلم أجدها في معاجم البلدان ولا في خريطة أرامكو، ولعلها تكون هي "الصورة"، فهناك على خريطة الجزيرة العربية ميناء بين عينونة والمويلح بهذا الاسم. و "النبك" في معجم ياقوت قرية مليحة بذات الذخائر بين حمص ودمشق. وذكر ياقوت شعراً من بحر الرجز ورد فيه اسم النبك:

ركباً أناخوا موهناً بالنبك

وقال: (لا أدري هل أراد هذا الموضع أو غيره)[3]. ويوجد على خريطة الجزيرة العربية "جزيرة النبقية" شمالي "جزيرة العويندية". ثم تأتي بعد النبك في كلام موسل "القصيبة" و "البحرة" و "المغيثة" و "ظبة - ضبا" و" الوجه". والمشهور من هذه المنازل في العصر الحاضر: ميناءان هما: "ضبا" و"الوجه". ولقد جاء في كلام "موسل": (وإذا وزعنا

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي ٢/٣٧٨ وما بعدها.

(٢) شمال الحجاز، ص ١٤٧.

(٣) معجم ياقوت، مادة (النبك).

هذه المنازل السبعة جميعاً فيما بين "عينونة" و "الوجه" تكون المسافة بينهما سبع مراحل، والمرحلة من خمسة وأربعين إلى خمسين كيلو متراً. وعلى هذا تكون "ضبا" هي المنزل الثاني بعد "عينونة" لا المنزل السابع كما يفهم من النص)[1]، ثم "الوجه".

ونحن إذا واصلنا السير نحو الجنوب بعد الوجه نصل من الوجه إلى "أملج"، ومنها إلى "ينبع"، ومنها إلى "رابغ"، ومنها إلى "جدة"،ومنها إلى "الليث"، ومنها إلى "القنفذة" ومنها إلى "القحمة"، ومنها إلى "جازان"، ومنها إلى "اللحية"، ومنها إلى "الحديدة"، ومنها إلى "غلافقة" ومنها إلى "المخا"، ومنها إلى "عدن". فنكون بذلك مررنا بموانئ تهامة التي هي من الدرجة الأولى، والتي هي من الدرجة الثانية، من "مدين" شمالاً إلى "عدن" جنوباً. و "مدين" سبق الكلام عنها في مبحث الحجاز. وعدن يقول بعضهم: إنها من تهامة، والبعض يجعلها من اليمن، ولقد تقدم الكلام في ذلك.

٧- وهذه الموانئ منها القديمة جداً التي أثبتت ولا تزال تثبت وجودها في التاريخ. ومنها موانئ نسمع بأسمائها ولا نعلم عنها شيئاً، ومنها موانئ جديدة بالنسبة للتاريخ القديم.

وسكان هذه الموانئ وما حولها من التهائم، إن اختلفت ألوانهم وأزياؤهم وتقاليدهم فإن مصادر عيشهم لا تكاد تختلف، فسكان السواحل ملاحون صيادون، والذين ارتفعت ديارهم وبعدت عن السواحل مزارعون وتجار يستفيدون من خصب أرضهم ومن الطرق التجارية فيها.

ولقد كان لبعض هذه الموانئ شان في السياسة والاقتصاد. ولكن نشاط هذه الموانئ أكثره مرتبط بدول المنطقة. فلقد كانت تهامتا عسير واليمن مرتبطتين بتابعة اليمن سبئيين وحميريين. أما الفترات التي استقلت فيها بعض المناطق التهامية اليمنية بعد

---

(١) شمال الحجاز، ص ١٤٨.

الإسلام مثل "زبيد" و "جازان" و "عثر" وأخيراً "صبيا" فلم يكن شأنها يضاهي شأن "دول الحجاز - السراة". أما تهامة القطر الحجازي، فلقد سبق أن تكلمنا عن منطقة "القرح" ونشاطها، ونصيب شواطئها من "مدين" إلى "ضبا" في ذلك النشاط السياسي والتجاري والحضاري. ولقد مر بنا أن أشراف "ينبع" إستولوا على مكة والمدينة، أو بالأصح على القطر الحجازي تقريباً، وأن حكمهم في منطقة مكة استمر إلى بداية العهد السعودي. أما منطقة المدينة المنورة فقد أصبحت في أواخر العهد العثماني محافظة تصل حدودها إلى "عمان"، وأما ميناؤها فقد انتقل بعد "الجار" إلى "ينبع".

٨- ولقد قامت على أرض تهامة دول وإمارات يمكن ترتيبها على ضوء ما تقدم في قائمة نذكر فيها أسماء أشهر الدول التي قامت في تهامة مستقلة عن عواصم الإمبراطوريات العربية استقلالاً إدارياً أو سياسياً، مع ملاحظة أن الدول التي قامت في تهامة بعد الإسلام ارتبط أكثرها في فترات عديدة بحكومات اليمن التي كانت تستقل الفينة بعد الفينة عن بغداد العباسية، والقاهرة الفاطمية والعباسية، كما كانت "سراة اليمن" تتبع في بعض العصور دول "تهامة اليمنية"، فلقد كانت "زبيد" عاصمة تهامة وسراة اليمن في وقت من الأوقات، ولذلك نرى البحوث عن دول تهامة اليمن وعسير تدور حول "زبيد". أما تهامة حجاز الحرمين فمرتبط تاريخها بتاريخ الحرمين حتى في الأثناء التي جعلت "جدة" سنجقاً تركياً قائماً بذاته. ولئن كان أمراء مكة من "ينبع" إن ينبع لم تكن في يوم ما عاصمة للحجاز، على ما أعلم.

فعلى ضوء ما تقدم سلسلت عهود تهامة اليمن السياسية كالآتي:

أولاً: العصور الجاهلية: ومجمل ما بلغنا عن دول تهامة قبل الإسلام لخصته لنا "دائرة المعارف الإسلامية" بقولها: (والحق أن تهامة كانت في عهود مختلفة من تاريخ اليمن ولاية قائمة بذاتها لأسباب تتصل بالحكم، وشاهد ذلك "عهد الفتح الفارسي"

لليمن في نهاية القرن السادس الميلادي، وهو عهد قديم، ولعل هذا الاستقلال أثر من آثار نظام مملكة سبأ المتأخرة)[1].

على أن لجرهم في تهامة تاريخاً غارقاً في القدم وفي الخيال وفي الشكوك، سنبحث فيه في الجزء الخاص بالتاريخ العربي ودوله. وهو الحلقة الخامسة من هذه الموسوعة.

ثانياً: العصور الإسلامية : وما نعلمه عن دول تهامة اليمن بعد الإسلام مقتطف من هنا وهناك على النحو الآتي:

ففي عهود الإسلام الأولى: الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين إلى "المأمون"، كانت تهامة اليمن مع سائر أقاليم الجزيرة العربية مرتبطة ارتباطاً مباشراً بعواصم الخلافة: المدينة المنورة ودمشق وبغداد. ثم في سنة ٢٠٤هـ أنعم المأمون على "محمد بن عبد الله بن زياد" بولاية "زبيد" ولاية مستقلة إدارياً. ويعلق البعض على هذا الحدث السياسي بقوله: (إن قيام دولة "بني زياد" فتح الطريق لظهور عديد من الدول المستقلة)[2]. فمن عام ٢٠٤هـ نبدأ بدول تهامة اليمن:

أ- دولة "آل زياد" من سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م إلى سنة ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م.

ب- دولة "بني نجاح" من سنة ٤١٢هـ/ ١٠٢١م إلى سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م.

وفي نهاية القرن الثالث الهجري أحرق "علي بن الفضل القرمطي" مدينة "زبيد" قاعدة تهامة اليمنية حينذاك، وفي سنة ٣٧٩هـ استولى على زبيد "عبد الله بن

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٥/٥١٩.

(٢) تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ١/١٩٥.

قحطان" من "بني يعفور" حكام "صنعاء" كما فعل "الصليحي" من سنة ٤٥٢ إلى سنة ٤٨١هـ[1]. وبذلك لم يصف الجو لبني نجاح في مدة دولتهم.

ج- واستطاع "علي بن المهدي" في سنة ٥٥٤هـ تأسيس دولة في "زبيد" احتفظت بتهامة اليمن إلى أن استولى عليها الأيوبيون سنة ٥٦٩هـ، فعلى هذا تكون دولة بني المهدي من سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م إلى سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣م.

د- بدأ النفوذ الأيوبي في اليمن وتهامته من سنة ٥٧٠هـ /١١٧٤م إلى أن تأسست دولة "بني رسول" في سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م، وبنو رسول نسبة إلى "محمد بن هارون" الذي عرف بالرسول، لأنه كان رسول الخلفاء العباسيين في مهماتهم الرسمية. أي سفيراً متنقلاً. والأيوبيون هم الذين غرسوا هذه الدولة التي استقلت بعد وفاة " الملك مسعود" آخر ملوك الأيوبيين استقلالاً كلياً.

وجاءت بعد دولة "بني رسول" الدولة "الطاهرية" نسبة إلى "طاهر بن معودة" من سنة ٨٥٥ إلى سنة ٩٢٣هـ، والطاهريون يزعمون أنهم من سلالة "عمر بن عبد العزيز". واحتل "محمد أبو نمي" أمير مكة زبيد فترة من الزمن سنة ٩٢٢هـ، ومن بعد " الشريف أبي نمي" تنازع النفوذ على "تهامة اليمن" جنود "المماليك" وجنود "العثمانيين".

وقد انتهى أمر تهامة اليمن بربطها بعاصمة العثمانيين. ولقد بدأت دولة "بني طاهر" بحماية "بني رسي"، ولقد استولت على "عدن" سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م واستولت على "زبيد" تهامة سنة ٨٥٩هـ / ١٤٦٦م.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣٣٧/١٠. والصليحي، الذي ذكرته دائرة المعارف الإسلامية، هو من "بني صليح" الذين أسسوا دولتهم في صنعاء من سنة ٤٢٩ إلى سنة ٤٩٢هـ.

هـ- دخلت تهامة اليمن تحت نفوذ ولاة العثمانيين من سنة ٩٢٣هـ/ ١٥٧١م إلى سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م.

و- دولة "الزيدية" وينتسبون إلى "الهادي يحيى" أو "المنصور بالله"، المتوفى سنة ٦١٤هـ. ويبتدئ عهد "الدولة الزيدية" من سنة ١٠٤٥هـ/ ١٧٣٦م إلى سنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م.

ولليمن وتهامة تاريخ دامٍ منذ فتحها السلطان "سليم" سنة ٩٢٣هـ إلى سنة ١٣٣٧هـ فقد قامت في أنحائهما دول وتحطمت دول وسفكت دماء.

ز- وفي سنة ١٣٣٠هـ قامت دولة الأدارسة في "تهامة عسير" إلى أن دخلت سراة عسير وتهامتها في المملكة العربية السعودية، والتحقت زبيد والحديدة بحكومة صنعاء، ودخلت عدن وإمارات الجنوب اليمني في الحماية الإنجليزية.

ح- وفي سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م تطور الحكم في اليمن الشمالي وتهامته إلى جمهورية، كما قامت في اليمن الجنوبي "الجمهورية الشعبية". أما سراة عسير وتهامتها فما فتئت تنعم بالاستقرار داخل وحدة المملكة العربية السعودية.

وهكذا نجد كل شبر من جزيرة العرب شهد أحداثاً سياسية وحضارية منذ القِدَم.

فمن الدول التي شهدتها "عدن" دولة "بني زريع" التي أسسها "أبو السعود علي بن أبي الغارات" سنة ٥٣٣هـ، وتعتبر دولة "بني زريع" من أهم دول اليمن.

ويمكن تلخيص الأحداث في اليمن وتهامتها في العهد العثماني كالآتي:

- من سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٦م إلى سنة ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م. احترم اليمن سيادة آل عثمان.

- من سنة ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م إلى سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٩م	صراع بين اليمنيين والأتراك على الحكم في اليمن.
- من سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٩م إلى سنة ١٣٨٢ / ١٩٦٢م	استقل آل يحيى حميد الدين باليمن إلى ثورة عبدالله السلال حيث قامت جمهورية اليمن الشمالية، ثم جمهورية اليمن الجنوبية.

ففي هذه العصور كان تاريخ تهامة اليمن على ذلك النحو الذي وضحناه بالأرقام. أما تهامة اليمن الشمالية - عسير - فلقد سبق أن أشرنا إلى تاريخها، وأنه يرتبط مرة بدول إقليم الحجاز ومرة بدول إقليم اليمن، وتارة يستقل عن هذا وذاك. كما هو مذكور في تاريخ "عسير" السياسي.

ولا يفوتنا أن نسترعي الانتباه إلى أن هناك إمارات استقلت في تهامة عسير عن حكومات "زبيد" و"صنعاء" مثل: حكومات "جازان" و"أبي عريش" و "صبيا" و"عثر"، وغيرها. من الإمارات التي تكلمنا عنها هنا، والتي سنشير إليها في البحث الخاص باليمن. أما تاريخ "تهامة الحرمين" فمرتبط بدولهما. ولتهامة شمال الحجاز تاريخ أقدم من القديم: تاريخ "عاد" و"ثمود" و"مدين" وغيرها من حكومات تاريخ ما قبل الميلاد. ولقد سبق الحديث عن شمال إقليم الحجاز: تهامته وسراته.

الفصل السابع

اليمن : القسم الخامس من أقسام الجزيرة العربية

البحث الأول :

اسم اليمن وحدوده :

١- ماذا يعني اسم: اليمن السعيدة؟

٢- هل اسم "اليمن السعيدة" هو أول اسم أطلق على اليمن؟

٣- اختلاف الجغرافيين والمؤرخين على حدود اليمن.

٤- اليمن السياسي كان يشتمل على ثلاثة أقاليم.

٥- حدود اليمن القسم الخامس من أقسام الجزيرة العربية.

١- لقد درجنا على أن نقدم كل قسم من أقسام الجزيرة العربية ببحث في حقيقة اسمه ومدى حدوده، لأن البحث في أسماء هذه الأقسام وحدودها يساعد على تعيين أبعاد التاريخ الجغرافي والسياسي والحضاري لكل واحد من تلك الأقسام. فاسم "بلاد العرب السعيدة" الذي أطلقه بعض اليونانيين على كل ما هو جنوبي "بادية العراق والشام" يشير إلى الصلات التاريخية التي كانت تربط دول الشمال بشعوب الجنوب: اليمن السعيدة.

٢- وليس اسم اليمن هو أول اسم أطلق على اليمن، فلم يستبعد "مبروك نافع" أن يكون الفراعنة أطلقوا اسم "البنط" على البلدين اللذين يفصل بينهما "البحر الأحمر" عند باب المندب. وقد أبدى ذلك "مبروك نافع" في تعليقه على تاريخ العرب لمؤلفه "فيليب حتي"، اعتماداً على مصادره، فبلاد البنط في أفريقية دخلت في الصومال الحديث، أما بلاد البنط في جزيرة العرب فهي جنوبي الجزيرة العربية تبدأ من ساحلها الغربي حول "باب المندب" غرباً وتمتد شرقاً في داخل الجنوب العربي، فلقد جاء في تعليق "مبروك نافع". (لم تكن"بنط" بلاد الصومال الحديثة فحسب، وإنما الراجح أن هذا الاسم كان يطلق على الطرف الجنوبي للبحر الأحمر بشقيه الأفريقي والآسيوي. وقد أيد هذا الرأي أخيراً البحث الذي قامت به بعثة كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة١٩٣٧م، كما أيدته بحوث المستشرقين)، ولقد جعل "مبروك نافع" انتشار اسم "البنط" حوالي سنة ١٥٠٠ق.م. ومن تلك السنة يبدأ تاريخ اليمن العربي الحقيقي[(١)].

وما جاء في كلام "جرجي زيدان" عن "رعمسيس الثالث"[(٢)]: (أنه بنى أسطولاً كبيراً أنزله البحر الأحمر وسافر فيه لارتياد بلاد " البنت" - الحبشة والصومال - والأرض المقدسة "بلاد العرب" حوالي سنة ١٢٠٠ق.م.) لا يذهب بعيداً عن ملاحظة نافع، فبلاد

---

(١) تاريخ العرب، لحتي؛ تعريب مبروك نافع ١/ ٤٠، ٤١، ٦٣، ٦٤.

(٢) العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان، ص ١١١.

العرب المقدسة هي جزيرة العرب جميعها وبالذات أرض الأنبياء، فالذي يظهر أن المصريين القدماء كانوا يطلقون اسم "البنط" على المنطقة الممتدة من أرض الحبشة إلى أرض "عمان" كما كان اليونانيون يسمونها " إثيوبيا"، وكما كان الحبش يسمون أرض اليمن حمير[١].

وما جاء في معاجم اللغة يتيح لنا أن نعلق على لفظ "بنط" الذي أهمل، بأنه إذا فصل بين "بائه" و "نونه" بياء صار اللفظ: "البينط"، وأهل اليمن يقولون للنساج: "البينط"[٢]. وأهل اليمن في القديم معروفون بالنسج!!

وإنني أذكر إلى وقت قريب أن "البنط" في اصطلاح بعض العامة معناه المرفأ، أو الجمرك بالأخص. فقد كانوا يقولون خرجت البضاعة من "البنط"، ولا أدري من أين أتت هذه الكلمة؟ ولعلها في الأصل البندر، فالبندر مرسى السفن.

وإنني أرجح أن "البنط" هو أقدم اسم أطلق على "اليمن"، وأن اليمن كان يسمى أولاً بلاد "البنط"، ثم سمي "بلاد معين"، ثم سمي: "بلاد سبأ"، ثم "بلاد حمير"، كما كان يسمى كل إقليم باسمه مثل "ظفار"، و"حضرموت"، و"ذو ريدان" إلى القرن الثالث الميلادي، حيث وجدت كتابة تعود إلى عصر الملك الحميري "شمر يهرعش" جاء فيها: (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات)، فيمنات، هي جزء من مملكة "شمريهرعش" التي تشمل سبأ، و"ذو ريدان" وحضرموت. وعلى ذلك أن ما يسمى يمنات في القرن الثالث الميلادي هو كما يقول "جواد علي" جزء صغير بالقياس إلى رقعة اليمن السياسية، ففي تحقيق "جلازر" أن يمنت كلمة عامة أطلقت على الجزء الجنوبي

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ١٣٧/٣.

(٢) لسان العرب، مادة (بنط).

الغربي من جزيرة العرب من "باب المندب" إلى "حضرموت"[1]، ثم أخذ اسم اليمن يعني أرضاً أوسع من الأرض التي كانت تعنيها كلمة "يمنات"، فأطلق الكثيرون اسم اليمن على جنوبي الجزيرة جميعه.

ومن المعروف أن "اليمن" في اصطلاح العرب يقصد به كل ما كان جنوبي المتكلم، وأن "الشام" يقصد به كل ما هو شماليه. فمما يستدل به على ذلك الحديث النبوي (الإيمان يمان) فقيل: إنه - صلى الله عليه وسلم - تحدث بهذا الحديث وهو يومئذٍ في "تبوك"، ومكة والمدينة في جنوبي تبوك، وجنوبي تبوك هو يمنها. ولا يزال الركن الجنوبي من الكعبة يسمى الركن اليماني. لذلك نرى حدود اليمن تضيق وتتسع بالنسبة لليمن، أي الجنوب الذي يقصده المتحدث من شعراء العرب وجغرافييهم ومؤرخيهم. ولعل اليونانيين الذين أطلقوا اسم "البلاد السعيدة" على ما هو جنوبي بادية الشام سمعوا سكان بادية الشام والعراق يقولون عن البلاد الواقعة جنوبهم يمناً، ولقد اختص إقليم اليمن بهذه الصفة "السعيدة"، التي كانت تطلق على جميع الأرض الواقعة جنوبي بادية الشام والعراق.

ولقد اختلفت الأقوال في لون هذه السعادة، هل هي سعادة الامتناع عن مطامع المستعمرين في تلك العصور؟ فلقد كان اليمن في اعتقاد بعض الشعوب المجاورة يمتد من المحيط الهندي جنوباً إلى بادية الشام شمالاً. وهذه البلاد لم تخضع للنفوذ الأجنبي عندما قسم اليونانيون جزيرة العرب إلى تلك الأقسام الثلاثة: "الصخرية" و "الصحراوية" و "السعيدة"، أم أن السعادة جاءت من يُمْن "اليمن"؟ فجرجي زيدان يقول: (العربية السعيدة، لكثرة خيراتها). فاسم "العربية السعيدة" اسم أطلقه

(١) تاريخ العرب، لجواد علي ١٣٥/١، ٢١٣/٢؛ تاريخ العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان، ص ١١٩ وما بعدها.

اليونانيون على القسم الجنوبي بالنسبة لباديتي الشام والعراق ومملكة الأنباط، وشرقاً وغرباً من الخليج العربي، إلى البحر الأحمر، فشملت - كما يقول جرجي زيدان - بلاد اليمن وحضرموت والشحر وعمان والعروض ومعظم الحجاز وتهامة وغيرها[1].

واسم اليمن في بحوث النسابين هو في الأصل اسم لجد اليمنيين، فهم يقولون إن اليمن سمي باسم "يمن بن قحطان" أو باسم "يمن بن قيدار"!! والذي يرجحه البحث أن اسم العربية السعيدة وأبعاده يعتمد على اعتبارات سياسية واقتصادية، فمن الناحية السياسية ساد في عصور ما قبل الميلاد وما بعده النفوذ التبعي، فبلغ نجداً وأطراف العراق والشام، من عهد "طسم وجديس" و "كندة" و "المناذرة اللخميين" و "الغسانيين". ولقد كانت الدول العربية في شمالي الجزيرة العربية يمنية العنصر مثل جرهم، وخزاعة، والأوس والخزرج، واللخميين، والغساسنة، والكنديين. ومن الناحية الاقتصادية كانت التجارة وطرقها في أيدي اليمنيين: معين، وسبأ، وحمير. فرحلات "قريش" في الشتاء والصيف تعتبر متأخرة جدًّا بالنسبة لقوافل معين، وسبأ، وحمير التي كانت تجوب البلاد العربية تحت حراسة جند دول اليمن وقلاعها.

ولقد سبق الكلام عن منطقة "إثيوبيا" التي وردت في بعض المؤلفات اليونانية أنها كانت تعني الأرض الممتدة من "الحبشة" في أفريقية إلى " خليج عمان" في آسية. فالآن وقد وصل بنا البحث إلى هنا علينا أن نبحث عن حدود اليمن أحد أقسام الجزيرة العربية التي وضعه جغرافيو العرب داخلها، فلعل حدوده توضح لنا ما يعنيه اسم "اليمن" أكثر مما تقدم.

٣- والباحث عن حدود اليمن في أقوال المؤرخين والجغرافيين العرب بعد الإسلام يجد متناقضات من الأقوال، من أغربها ما نقله "عمر رضا كحالة" عن "صبح الأعشى"

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١١٩.

لمؤلفه "القلقشندي": اليمن قطعة من جزيرة العرب يحدها من الغرب "بحر القلزم"، ومن الجنوب "بحر الهند"، ومن الشمال بحر فارس. ومن الشرق "مكة" حيث الموضع المعروف باسم "طلحة الملك"، وطلحة الملك اسم واد باليمن[1]، فأي بحر يعنيه القلقشندي يقوله: يحد اليمن من الشمال بحر فارس؟ هذا ما لم يقل لنا "كحالة" شيئاً عنه ولا عن حده الشرقي وكيف أصبحت مكة حداً شرقياً لليمن؟!

فالقول الذي لا يبعد عن الواقع هو الذي نقله "ياقوت" في معجمه عن "الأصمعي": (اليمن وما اشتمل عليه: حدوده بين "عمان" إلى "نجران"، ثم يلتوي على بحر العرب على "عدن" إلى "الشحر" حتى يجتاز "عمان"، فينقطع من "بينونة"، وبينونة ليست من اليمن)[2]. وقول الأصمعي يؤكد رأي "جلازر" المتقدم. هذا هو اليمن أحد أقسام الجزيرة العربية. أو "يمنات".

٤- على أن قول الأصمعي - وإن لم ينل الإجماع - هو أصحها. فأقوال العرب اختلفت في حدود اليمن. ثم إن اليمن في مفهوم العرب وفي إطاره العربي العام لا ينطبق على اليمن في مفهوم اليونانيين وإطاره اليوناني العام، لذلك من الأفضل لنا الرجوع إلى حدود " الحجاز - السراة" و"نجد" و"العروض" و"تهامة"، فعلى ضوئها يمكننا أن نتبين حدود اليمن الطبيعية، وعلى ضوء حدود تلك الأقسام يظهر أن اليمن في التقسيم الجغرافي العربي يشتمل على ثلاثة أقاليم: إقليم سراة اليمن، وحدود إقليم السراة اليمن سبق الكلام عنها في مبحث "الحجاز - السراة" المتقدم، وإقليم اليمن التهامي، وحدود اليمن التهامي تبدأ جنوباً من "باب المندب" وتنتهي في الشمال عند حدود "تهامة عسير" وتبدأ من الشرق من سفوح السراة وتنتهي في مياه البحر الأحمر. وعدن من اليمن في أكثر الأقوال، وقد تقدم الكلام عن تهامة عسير. والإقليم الثالث

(١) جغرافية شبه الجزيرة العربية، لكحالة، ص٢٨٧؛ معجم ياقوت ٥٤/٦.

(٢) معجم ياقوت ٥٢٢/٨.

هو: القسم الخامس من أقسام الجزيرة العربية الذي نحن في صدد الكلام عنه، وحدود هذا القسم تسير من "عمان" إلى "نجران"، ثم تلتوي على بحر العرب إلى "عدن". ولقد بينّا من قبل موقع "عمان" من "العروض" ومن "اليمن"، وهل تعتبر "عمان" يمنية؟ أم تعتبر من "العروض"؟ أو أنها قسم قائم بذاته؟ وبينّا أيضاً: أن "عدن" تهامية عند بعضهم ويمانية عند البعض الآخر، وبينّا حدود نجد الجنوبية، أما عند اليونانيين "فالبلاد السعيدة تشمل: كل ما هو جنوبي الهلال الخصيب من جزيرة العرب". ولقد تقدم الكلام عن "يمنات".

٥- إذن؛ فاليمن - الذي نحن في سبيل الكلام عنه - تمتد حدوده الطبيعية من "عمان" إلى "نجران"، ثم إلى "عدن" إلى البحر من ناحية "باب المندب"، يحده من الشمال الربع الخالي و "نجد" و "الحجاز - السراة". ويحده من الجنوب بحر العرب من المحيط الهندي، ويحده من الغرب السراة الجنوبية، ويحده من الشرق خليج "عمان"، على قول من يجعل "عمان" من اليمن، أو "عمان" على رأي من يجعل "عمان" من العروض.

أما اليمن السياسي في الوقت الحاضر وحدوده، فاليمن اليوم ينقسم إلى جمهوريتين: جمهورية اليمن الشمالية، وهي عبارة عن سراة اليمن وتهامتها. وحدود جمهورية اليمن الشمالية، المملكة العربية السعودية، حسب خط الحدود الذي تقدم الكلام عنه في الحديث عن سراة اليمن، ويحدها من الشرق المملكة العربية السعودية، ويحدها من الجنوب الجمهورية اليمنية الجنوبية، ويحدها من الغرب البحر الأحمر. ثم جمهورية اليمن الجنوبية، وحدود الجمهورية اليمنية الجنوبية، يحدها شمالاً جمهورية اليمن الشمالية والمملكة العربية السعودية، ومن الجنوب بحر العرب، ومن الشرق عمان، ومن الغرب باب المندب والبحر الأحمر[1].

واليمن بحدوده الطبيعية والسياسية بسراته وتهامته، يقع في جنوب الجزيرة، والجنوب عند العرب يسمى "يمناً".

---

(١) اتحد اليمنان في دولة واحدة هي: الجمهورية اليمنية، عام ١٩٩١م.

البحث الثاني :

اليمن : جغرافية الأرض وعدد السكان :

١- اختلاف المناخ وأسبابه.

٢- اليمن الذي سنبحث فيه.

٣- ليست النواحي التسع هي النواحي المحمية فقط.

٤- عدن: المدينة التاريخية، والشيخ سعيد الميناء الإستراتيجي.

٥- ماذا نال حضرموت من الاستعمار؟

٦- صفة الأرض والسكان.

٧- من جزر اليمن: جزر يعيش أهلها حياة ما قبل الميلاد.

١- تختلف طبيعة أرض هذا القسم: اليمن - إذا ما أضفنا إليه سراة اليمن وتهامتها، فطبيعة أرض تهامة وجوها غير طبيعة السراة وجوها، والسراة تختلف عن أحقاف اليمن، والذين يتكلمون عن جغرافية اليمن يتكلمون عن إقليم اليمن عموماً، سراته وتهامته، فبعضهم يضيف إليه سراة عسير وتهامتها، وبعضهم يضيف جبال عسير وتهامتها إلى إقليم الحجاز، وبعضهم يجعل "عدن" من اليمن، وبعضهم يجعلها من تهامة، وبعضهم يجعل عمان داخل حدود اليمن، وبعضهم يخرجها، ومن بواعث هذه البلبلة انصراف البحوث إلى الجغرافية السياسية قبل التحقيق في الحدود الطبيعية.

٢- فلتعيين هدف البحث نلفت النظر إلى أن اليمن الذي نتكلم عنه هنا هو القسم الخامس من أقسام الجزيرة العربية التي تقدم البحث فيها، وهذا القسم هو الذي أسمته النصوص القديمة "يمنات" تقريباً، وحدود هذا القسم - كما تقدم في الجزء السابق من هذا الفصل - من "عمان" إلى "نجران"، ثم تلتوي حدوده إلى "عدن" ثم إلى البحر. وفي "صفة جزيرة العرب": (مبدأ السراة من أرض اليمن أرض "المعاقر" و "حيق بني مجيد" و "عر عدن" وهو جبل يحيط به البحر)(١).

٣- وما بين عمان ونجران النواحي التسع المحمية، والنواحي التسع المحمية، أو الإمارات التسع المستعمرة، اختلفت أقوال الباحثين فيها، لأن الحماية البريطانية لم تقتصر على تسع نواح فقط، فبعضهم قال: إن الإمارات المحمية - النواحي التسع - هي: ١- "الصبيحة"، ٢- "أبين"، ٣- "لحج"، ٤- "الحواشب"، ٥- "القطيب"، ٦- "الضالع"، ٧- "يافع"، ٨- "العوالق"، ٩- "حضرموت". ونواحي اليمن هذه كانت في العهد العثماني مخاليف (إمارات) (وبعضهم لم يذكر "أبين" و "حضرموت" من النواحي التسع، وذكر

(١) صفة جزيرة العرب، ص ٦٧.

بدلاً منها: "الواحدي" و "العواذل"، واعتبر إمارة "الصبيحة" من "عدن"، وعدن كانت قاعدة الاستعمار البريطاني التي ترجع إليها إمارات النواحي التسع. ولم يذكر بعضهم "حضرموت" باعتبارها حكومة لها صفات خاصة في الحماية البريطانية. وبتوحيد القولين يصبح عدد النواحي المحمية إحدى عشرة ناحية، والواقع أن نفوذ عدن الإنجليزي امتد إلى أكثر من إحدى عشرة ناحية.

٤- و"عدن" مدينة تاريخية قال عنها ياقوت: (سميت باسم "عدن بن عدنان")، وقيل: سمت باسم (عدن بن سنان حفيد إبراهيم)، وقيل: إن الحبشة لما عبروا إليها قالوا عدونا فسميت عدن[١]. وينقل عمر رضا كحالة عن مراجعه أن "عدن" عُرفت منذ العصور القديمة، فقد ذكرها اليونانيون والرومان، وعدن هذه التي شغلت المؤرخين والجغرافيين مدينة رديئة المناخ، لا ماء فيها ولا مرعى، ولكنها مع ذلك كانت موضع اهتمام الدول القديمة والحديثة بسبب موقعها التجاري والحربي الهام، قال عنها الهمداني[٢]: (عدن جنوبي تهامة، وميناؤها أقدم أسواق العرب. وهو ساحل يحيط به جبل لم يكن فيه طريق، فقطع في الجبل باب بزبر الحديد، فصار طريقاً إلى البر، وسكانها هم: "المربون"). وفي صفة جزيرة العرب: (عدن جنوبية تهامية)، ولقد مرت بعدن فترة ركود بعد أن اكتشف "رأس الرجاء الصالح"، وقبل أن تفتح "قناة السويس"، مثل فترة الركود التي تعانيها عدن بعد أن أغلقت قناة السويس، وعندما كنت أحرر هذا البحث تمنيت ألا يتم طبع هذا الجزء من الكتاب إلا بعد أن تعود قناة السويس إلى ما كانت عليه قبل الاحتلال الصهيوني، فتحققت الأمنية - والحمد لله - فاستعاد العرب الضفة الشرقية من اليهود بقوة السلاح، وعادت الملاحة للقناة قبل أن أعود إلى هذا الجزء وأنقحه وأقدمه للطبع.

---

(١) معجم البلدان، لياقوت، مادة (عدن).

(٢) الصفة، ص ٥٣، ١٧٩، ١٩٠.

ولقد مررت بعدن في عهد الاحتلال الإنجليزي في عودتي من رحلتي إلى "الهند" و"برما"[1] و "أفغانستان" سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٧م. وعهد الاحتلال الإنجليزي بدأ في سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٩م حيث احتلها الإنجليز وعقدوا معاهدة مع سلطانها - سلطان لحج. وبهذه المعاهدة قيد الإنجليز عدن بنفوذهم، وبعد هذه المعاهدة ألحقها الإنجليز بحكومة "بمباي".

لقد رأيت "عدن" بعد ثمانية وتسعين عاماً مرت عليها وهي مستعمرة بريطانية، فلم أجد للحماية أو الوصاية أو الانتداب أثراً من الحضارة الإنجليزية في عدن غير مينائها "التواهي" الذي جعله الإنجليز مقراً لدوائرهم وسلاحهم، وحرموا على حكام عدن ومحمياتها التملك في الميناء، وقد نزلت في أحد فنادق "التواهي" المطل على الشاطئ فرأيت أنواعاً من الأسطول الإنجليزي راسية في حوضها، ورأيت البواخر التجارية مصفوفة على ساحلها، ورأيت أعلام الدول تخفق على دور القناصل. أما داخل المنطقة فلم أر فيه من عمران "التواهي" غير الفتات الذي وصل إلى مدينة عدن. أما إذا تعمقت في منطقة "الشيخ عثمان" فإنك ترى وتلمس حياة عصور جاهلية ما قبل الإسلام المظلمة.

ولقد قامت في "عدن" في عصور الإسلام إمارات لم يكن لها شأن يغري بذكرها هنا، ما خلا دولة "بني زريع" من سنة ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م إلى سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، فلقد استقلت هذه الدولة عن "صنعاء" فترة من الزمن استقلالاً تاماً، وتعتبر دولة "بني زريع" من أقوى الدول التي حافظت عل استقلالها إلى العهد الأيوبي.

ويتحدث المؤرخون عن "ميناء الشيخ سعيد" الواقع على مضيق "باب المندب" وعلى ميلين من جزيرة "بريم" فوق رأس تتحكم مرتفعاته التي تبلغ ٨٥٠ قدماً في "المضيق

(١) برما أو برمانيا: جمهورية في جنوب شرق آسية عاصمتها "رانقون".

الصغير" الذي أسماه الجغرافيون العرب: "باب المنهلي" أو باب الإسكندر" اعتماداً على الرواية التي تقول: إن الإسكندر شيد مدينة هناك!! وفي هذه الرواية ما فيها، فأي إسكندر يعنيه أصحاب تلك الرواية؟ ويظن "شبرنكر" و "كليزر" أن "ميناء الشيخ سعيد" هو: "أوكليس" أو "آكيلا" القديم الذي ذكره "بليناس".

ولميناء "الشيخ سعيد" تاريخ مليء بمطامع الاستعمار الفرنسي والإنجليزي تحدث عنه الذين كتبوا عن الاستعمار وطريق الهند، وتحدث عنه الذين كتبوا في التاريخ التركي العربي وكتبوا عن دولة "آل حميدالدين"، وكيف كانت مطامع الاستعمار تزدحم في كل موقع إستراتيجي يفيد في حماية الطرق التجارية والحربية. وموقع ميناء الشيخ سعيد بالنسبة لطريق الهند التجاري والحربي كان له خطره، أما اليوم في عصر الصواريخ العابرة والقواعد العائمة، فقد أخذت القلاع والحصون تفقد أهميتها.

٥- وحضرموت شاركت "معين" و "سبأ" و "قتبان" و "أوسان" وغيرها من الدول التي قامت في اليمن من قبل الميلاد = في تسطير تاريخ اليمن منذ البداية. ولم تكن حضرموت تنقص عن بلاد معين وسبأ وغيرهما من دول اليمن ثروةً ونشاطاً، ولقد كانت حضرموت قروناً طويلة دولة حرة لها نفوذها في الجنوب كما يقول "فرتز هومل"(١)، ولقد ارتبطت مقدرات حضرموت بمقدرات اليمن، فما نالها من قبل الاستعمار الإنجليزي وبعده ليس بأقل مما نال شعوب اليمن، فقد دفنت أمجادها في غياهب التأخر بكل ألوانه. وعند ما زرت "حيدر آباد الدكن" دعاني إلى منزله "قعيطي حضرموت" وقد كان رئيساً للجنود الحضارمة الذين كان ملك حيدر آباد "عثمان خان" يجندهم قوة يعتمد عليها، ولقد تحدثنا عن ماضي اليمن وحاضره آنذاك فظهر لي أنه لم يلتحق ببلاط ملك حيدر آباد إلا بدافع ظروف الاستعمار القاسية. فالاستعمار

---

(١) التاريخ العربي القديم، ص ١٠٧.

شرقياً كان أم غربياً لا ينفق قرشاً ما لم يكن ربحه ألف قرش. ولم يكن في حضرموت ما يغري الاستعمار على البذل.

ولم تكن الإمارات التسع وحدها هي التي رضخت للاستعمار الإنجليزي، أو الإحدى عشرة إمارة، إذا ما وجدنا أقوال المتأخرين التي أحصت هذه النواحي، فأضفنا "الواحدي" و "العواذل" إلى الإحصاء المتقدم. بل هناك نواحٍ أخرى ارتبطت بعجلة الحماية الإنجليزية بدافع الفقر والجهل مثل "العقربي" الواقعة شمالي "الشيخ عثمان"، و"بيحان" الواقعة جنوبي رمال السبعتين، و"الفضلي"، ومثل "مهرة" و"الشحر"، وهاتان كانتا في العصور القديمة مقاطعتين مثل حضرموت المتقدم ذكرها، ومثل "ظفار" المقاطعة المترامية على ساحل المحيط الهندي والمرتبطة سياسياً بعمان، وغيرها من النواحي الواقعة بين "عمان" و "نجران"، وعلى ما بين المقاطعات من تفاوت في المساحة والنشاط.

وهذه النواحي هي التي نزل عنها "العثمانيون" الأتراك للإنجليز، بموجب معاهدة سنة ١٩٠٤م / ١٣٢٢هـ، ولقد عزز الإنجليز تنازل العثمانيين بقنابل أسطول ملكة البحار في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، ليكون الاستعمار احتلالاً عسكرياً.

وعن هذه النواحي سنتكلم في الأجزاء القادمة من هذا البحث عندما نتحدث عن مخاليف اليمن وعن جغرافيته وتقسيماته السياسية مما قد يضطرنا إلى زيادة الإيضاح عن "حضرموت" و "عدن"، فهناك أشياء تنتظر المناسبة للكلام عنها في هذا البحث أو في بقية بحوث هذا الفصل: اليمن.

٦- فمن الأغوار والهضاب والسواحل والأحقاف، الواقعة فيما بين "عمان" و"نجران" و"عدن"، يتكون إقليم اليمن. وما بين عمان وعدن منطقة ذات جو حار بالنظر لموقعها من المنطقة الاستوائية. وأكبر موانئ اليمن الجنوبية "عدن"، و "المكلا" ميناء

حضرموت. على أن هناك موانئ داخلية تسد حاجة الجنوب اليمني استيراداً وتصديراً، بلغ نشاط بعضها أن مد تجارته إلى أفريقية. ومن اليمن أحقاف اليمن، ومن الأحقاف رمال السبعتين. والأحقاف جمع حقف، والحقف الرمل المعوج، وأحقاف اليمن في معجم ياقوت واد بين "عمان" و "مهرة"، وقيل بين عمان وحضرموت، وقيل غير ذلك. ويقال إن قبر "هود" في الأحقاف. وإنك لترى على خريطة الجزيرة رمال السبعتين في شمالي "بيحان" لا تبعد كثيراً عن "الربع الخالي" جنوباً، وجو الأحقاف وطبيعتها جو الصحارى الرملية وطبيعة الرمال في المناطق الحارة. أما ما تحت هذه الرمال من تاريخ وحضارة وكنوز وآثار، فشيء كثير.

وسكان هذا اليمن تختلف طباعهم وطرق معيشتهم حسب المناطق التي يعيشون عليها، فمنهم المزارعون، ومنهم الملاحون، ومنهم التجار، ومنهم الصناع، ومنهم الحاضرة، ومنهم البادية، ومنهم المقاتلون الذين تجندهم الهند. واليمنيون اليوم هم الأيدي العاملة في كل حقل من المرافق العامة في المملكة العربية السعودية، كما تفوق الحضرميون في المجال التجاري فأصبحوا المبرزين في الأسواق السعودية.

فالأراضي الواقعة بين " عمان" و "نجران" أراضٍ شاسعة تختلف طبيعتها، ويختلف جوها، وتختلف سبل العيش فيها، فمنها الأراضي الخصبة مثل أراضي "لحج" التي تنتج كل ما تنتجه الأرض الخصبة؛ توارث أبناؤها الاشتغال بالزراعة فأصبحوا اليوم يمارسونها بخبرة فنية وبآلات حديثة. ولقد تكلم ياقوت عن مخلاف "لحج" فقال عنه: (هو قرب "أبين" وله سواحل، وأكثر سكانه "بنو أصبح" رهط "مالك بن أنس")[١]، ومنها الأراضي القاحلة مثل منطقة "عدن".

---

(١) معجم ياقوت ٤٠٢/٧.

وفي دائرة المعارف الإسلامية : ("صرواح" اسم بلدتين خربتين في جنوبي جزيرة العرب، الأولى موقع فسيح خرب في منازل بني جبر "خولان" على مسيرة يوم غربي "مأرب" في "وادي واكفة"، وقد ورد ذكر حصن هذه البلدة الذي عده "كليزر" أقدم ما شاده "بنو سبأ" في النقوش السبئية. ولما زار "هالفي" هذا الموقع الخرب وجد أنه لا يزال به عمد عديدة من حجر واحد، بعضها قائم وبعضها ملقى وعليه نقوش، وكان جزء من الحصن - أو من عرش بلقيس كما يقال - لا يزال قائماً أيام "الهمداني". وكان في "صرواح" مغاسل للذهب. وكانت هذه المغاسل لا تزال تعمل حين زارها "هالفي"، كما كان الهمداني يعلم بوجودها، والثانية موقع خرب شمال شرقي "ناعط" في جوار "مدر" غربي جبل "إتوة". وقد بقيت معالم معبد قديم يعرف بالمسجد، وهذه المعالم ظاهرة وسط منطقة مترامية الأطراف من الأطلال. ولعل المدينة القديمة كانت في غربي المعبد. وتقوم هناك آكام من الأطلال ترتفع ما بين (٢٠) و (٢٤) قدماً، وتنهض من بينها جدران عظيمة، ومن تلك الأطلال: الأطلال التي يطلق عليها البدو اسم "حجر أرحب"، وهي المكان الذي تجتمع فيه القبيلة بأسرها لمناقشة المسائل الهامة، ولعل هذه السنة ترتد أصولها إلى الزمن القديم. وصرواح عند فقهاء اللغة العربية معناه الحصن أو القصر)[١].

٧- وعندما يتحدث بعض الجغرافيين عن عدن، يلحقون بحكومتها جزائر "بريم" و "سقطرى" و "كوريان موريان" كما يقول "عمر رضا كحالة"[٢]. وفي تحقيق مجلة "العربي" أن جزائر كوريان موريان تابعة لعمان كما سيأتي، فهذه الجزر ربطها الاستعمار الإنجليزي بعدن مثلما ربط النواحي التسع بها، فجزيرة "بريم" تتبع

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٤/٢٠٠ وما بعدها.

(٢) جغرافية شبه الجزيرة، ص ٢٧٠.

جغرافيًا إمارة "صبيحة" أو صبيح؛ وجزيرة "سقطرى" جزيرة بعيدة عن "عدن" تقع في جنوبي البحر العربي على مسافة شاسعة من شواطئ اليمن الجنوبية، وتعتبر جزيرة "سقطرى" مخضرمة بالنسبة لأفريقية وآسية، وهي ثرية بزراعتها تنتج القطن والتمر الهندي والتبغ والعود والصبر ودم الأخوين والبخور، ولقد كانت تتبع عمان، مثل "زنجبار" الواقعة تجاه ساحل أفريقية. ولسقطرى بحث مستفيض في دائرة المعارف الإسلامية جاء فيه أنها عرفت منذ عهود قديمة ولقد قامت مجلة "العربي" الكويتية بتحقيق صحفي عن جزر "كوريان موريان" في الخليج المعروف بهذا الاسم والواقع قرب "ظفار" في عدد(١٨٥) ربيع الأول سنة ١٣٩٤هـ، وفي تحقيق مجلة الكويت أن هذه الجزر تابعة لدولة عمان، وأن سلطان "مسقط" أهداها لبريطانيا التي أهملتها، فظلت تعيش حياة بدائية منعزلة تماماً عن العالم، ثم أعادتها بريطانيا أخيراً إلى "عمان" بعد أن نقلت الدول الغربية منها "سماد الجوانو" والجوانو طير من طيور البحر. ولقد أحصت مجلة العربي نفوس سكان هذه الجزر فبلغوا واحداً وثمانين بين رجل وامرأة وصبي وطفل. ونشرت لهم صوراً ظهرت عليها الحياة الفطرية التي كان يعيشها إنسان الكهوف، فلعل الإنجليز ألحقوا هذه الجزر بعدن ثم أعادوها إلى "عمان" كما هي عليه.

هذا ولقد سبق أن تحدثنا عن طبيعة "تهامة" وسكانها في البحث الخاص بتهامة، وتكلمنا عن طبيعة "الحجاز - السراة" في البحث الخاص بالسراة الحاجزة بين نجد وتهامة، والكلام في "تهامة"، و "الحجاز - السراة" يعم تهامة اليمن وسراته. وجنوبي تهامة والسراة هو جزء من إقليم اليمن السياسي.

البحث الثالث :

اليمن في موكب الحضارة والسياسة :

١- مخاليف اليمن.

٢- مخاليف اليمن التاريخية.

٣- عواصم "حمير" و "سبأ" و "معين" القديمة.

٤- هل "ذمار" هي صنعاء؟

٥- مخاليف اليمن التاريخية في حاجة إلى دراسات حديثة.

٦- سر إهمال الجغرافيين العرب القدامى للمدن الأثرية في الجزيرة العربية.

٧- تفوق اليمن في عصور التبابعة.

٨- كارثة "مأرب" وجريمة "الأخدود" وتاريخهما.

٩- نص حصن الغراب وثيقة تاريخية وقطعة شعرية.

١٠- همدان في بحث "ابن خرداذبة".

١١- التاريخ يعيد نفسه بعد أكثر من ألفي سنة.

١٢- تاريخ اليمن السياسي من سنة ١٥٠٠ق.م إلى سنة ١٩٧٤م.

١- في تقسيمات اليمن الإدارية المخلاف هو الولاية، مثله مثل المحافظة في "مصر"، فلقد جاء في لسان العرب: (قال خالد بن جنبة: في كل بلد مخلاف، بمكة والمدينة والبصرة والكوفة، وكنا نلقى "بني نمير" ونحن في مخلاف المدينة، وهم في مخلاف اليمامة، وقال "أبو معاذ": المخلاف "البنكرد"، وهو أن يكون لكل قوم صدقة على حدة).

وجاء في تاريخ اليعقوبي: وكور بلاد اليمن تسمى مخاليف، وهي أربعة وثمانون مخلافاً، والغريب في كلام اليعقوبي أنه جعل جدة ميناء مكة من سواحل اليمن، فلعله يقصد الحديدة، أو أن غلطاً مطبعياً وقع في طبعة "دار العراق" ببيروت.

٢- والأربعة والثمانون مخلافاً تشمل أقاليم اليمن الثلاثة وتشمل أيضاً جبال عسير، وتهامتها. ومن المخاليف التي ذكرها اليعقوبي: "بيش" و "العرش - أبو عريش"[(١)]، فهذان المخلافان من تهامة عسير، ونظراً لأن إفراز مخاليف كل إقليم على حدة لا لزوم له، فجميعها تمثل الأقاليم الثلاثة التي سبق ذكرها، والأقاليم الثلاثة تمثل اليمن، ولقد سبق أن قلنا إن سراة عسير وتهامتها مختلف فيها: هل هي من القطر الحجازي؟ أم من القطر اليمني؟ مثلها مثل "عمان" التي تأرجحت بها الأقوال بين اليمن وبين العروض، لذلك فإن الحديث عن اليمن - في عالم الحضارة والسياسة - لا يمكن أن يتجزأ حسب أجزاء اليمن: سراة اليمن، تهامة اليمن، واليمن الذي هو الأرض الواقعة من عمان إلى نجران إلى عدن إلى البحر العربي.

ولم يكن العقوبي وحده هو الذي ذكر مخاليف اليمن بالتفصيل، بل ذكرها أيضاً "عبيد الله بن أحمد بن خرداذبة"، وذكرها "المقدسي البشاري"، وذكرها "الهمداني" و"ياقوت" جملةً وتفصيلاً.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢٢٧/١ وما بعدها.

وهذه المخاليف منها المخلاف الواسع المكتظ بمدنه وقراه، الغني بزراعته وتجارته، الحافل بتاريخ معين وسبأ وحمير. مثل مخلاف "سبأ"، ومخلاف "حضرموت"، ومخلاف "مأرب". ويقال إن "مأرب" كانت عاصمة السبئيين في عصر من العصور، ومخلاف "أبين عدن". وفي "ريده" التي كانت من مخلاف "البون" "البئر المعطلة"[(١)]. ومن هذه المخاليف التي ذكرها المؤرخون مخاليف تردد اسمها في حقب التاريخ، فصنعاء مدينة قديمة كان اسمها "آزال" - وكان اسمها أيضاً "ظفار". و "سبأ" من الأسماء التي ذكرها القرآن. وعدن" من أقدم المدن التي عرفت في تاريخ اليمن. وريدان اسم منطقة ذات مدن وقرى وثروات افتخر ملوك "سبأ" بضمها إلى ملكهم فتلقبوا (بملك سبأ وذو ريدان). ويقول "حتي" : (وريدان هي التي عرفت فيما بعد باسم "ظفار" وهي منطقة الساحل البحري[(٢)]. و"ظفار" هي مهد دولة الحميريين، وظفار المنطقة المشرفة على ساحل المحيط الهندي هي غير المدينة البرية القائمة على رأس تل، التي جعلها الحميريون عاصمة لهم، والتي وردت في آداب اليونانيين والرومان، والتي احتلت مكان "قرناو" عاصمة المعينيين، وأما "مأرب" عاصمة السبئيين فهذه تقع على طريق صنعاء. ويقول فيليب حتي: وتعرف "ظفار" عند الرومان واليونان باسم "سيفار وسفار". ويقول ياقوت: (ظفار مدينة باليمن في موضعين أحدهما قرب صنعاء، وبها كان مسكن ملوك حمير. وقد قال بعضهم : إن ظفار هي صنعاء)، ولعل هذا كان قديماً، فقد يكون الحميريون أسموا عاصمتهم "صنعاء" أولاً ظفار، باسم مهدهم الأول[(٣)].

٣- ويقول ياقوت أيضاً: أما ظفار فليست إلا مدينة على ساحل بحر الهند من أعمال "الشحر" وقريبة من "صحار". ولعل ياقوت يعني أرض ظفار، ولكن أرض ظفار -

---

(١) معجم ياقوت ٤/٣٤٨.

(٢) تاريخ العرب المطول، لجواد ١/٧٣، ٢/٢١٤ ؛ تاريخ العرب، لحتي؛ ترجمة مبروك نافع.

(٣) معجم البلدان، لياقوت، مادة (ظفار) ومادة (مهرات) ومادة (مهرة).

على خريطة الجزيرة العربية - منطقة واسعة على ساحل البحر العربي ميناؤها "مرباط"، وجاء في تاريخ جواد علي: (ويمتد إقليم ظفار من "سيحوت" إلى حدود عمان. وهو هضبة يبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم، وفوق جبالها تنمو أشجار "الكندر" التي اشتهرت بها بلاد العرب، وبها جبال "قرا" ومنحدراتها أرجوانية)(١).

فأرض ظفار هي غير مدينة "ظفار" القريبة من "مخا"، فمدينة ظفار هذه كانت عاصمة الحميريين، مثلما كانت مدينة "سبأ" عاصمة السبئيين، ومدينة "قرناو" عاصمة معين(٢).

وفي غربي منطقة "ظفار" تجد أرض "مهرة"، وقد ذكرها ياقوت: (وأرض مهرة قرب حضرموت). وقال عنها مرة ثانية: (مهرة بتسكين الهاء قبيلة من "قضاعة" ولهم مخلاف). ويقول "الإصطخري": (إن "الشحر قصبة مهرة، وإن ألسنة أهلها مستعجمة جداً لا يكاد يوقف عليها(٣). وإلى "مهرة تنسب الإبل النجب، ومن مهرة يصدر اللبان. وعاصمة مهرة في بحوث بعض المستشرقين: "جيشان"، وقال بعضهم: جيشان اسم لعموم المنطقة، وقول هذا البعض يتعارض مع ما قالته "دائرة المعارف الإسلامية" عن "جيشان" وأنه اسم قديم لمنطقة "جازان"، وقول "دائرة المعارف الإسلامية" سبق التعليق عليه، وإننا هنا نضيف إلى ما سبق قول ياقوت: (جيشان ملاحة باليمن) فجازان تقوم على جبل من ملح، على أن ياقوت قال عن "جيشان": (ومخلاف جيشان كورة باليمن، ومن جيشان كان مخرج القرامطة من اليمن)(٤). ولقد سبق الكلام عن ذلك في مبحث

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد ١٣٧/١.

(٢) أطلق أخيراً اسم "صنعاء" على عاصمة الحميريين.

(٣) المسالك والممالك ، طبع وزارة الإرشاد، ص٢٧. وراجع الجزء الأول من هذا الكتاب الذي صدر بعنوان (التاريخ العربي وبدايته) اللغة الأمهرية في مبحث اللغات.

(٤) معجم ياقوت ١٩٢/٣ ، ٤٠٤/٧.

تهامة من هذا الجزء. وجاء في جغرافية الوطن العربي: (أما سلطنة "مهرة" و "كشن" و"سقطرى" فتقع إلى الشرق من حضرموت حيث يوجد وادي "السيلة" وعاصمتها "كشن" على الساحل، ويستقر سلطانها في جزيرة "سقطرى")(١).

ويذكر "اليعقوبي" ويذكر غيره حضرموت على أنها مخلاف من مخاليف اليمن، والواقع أن حضرموت أكبر حجماً وتاريخاً من مخلاف. فلقد سجلها التاريخ دولة من دول الجنوب كان لها شأن بارز في أحداثه وفي اقتصاده، فهي إقليم متكامل تمتاز أرضه بسعتها وكثرة مدنها ووفرة إنتاجها في الماضي، وبصفات أبنائها وما يمتازون به من أساليب اقتصادية استطاعوا بها السيطرة على أسواق المملكة العربية السعودية مثلما سيطروا على أسواق جزر "جاوة"، مما جعل الكثيرين من الجغرافيين والمؤرخين يفردون لحضرموت فصلاً خاصًا بها، يقول "فرتز هومل": (لقد ظلت "حضرموت" حرة مستقلة دهوراً وحامية للشواطئ التي تمتلكها والتي تنمو فيها أعشاب العطور والبخور)(٢).

٤- ويتردد اسم "ذمار" على ألسنة المؤرخين والجغرافيين، فيقول ياقوت(٣): (إن "ذمار" بكسر أوله في قول "البخاري" اسم قرية باليمن على مرحلتين من صنعاء ينسب إليها نفر من أهل العلم، وقال قوم: إنه اسم لصنعاء)، وصنعاء: كلمة حبشية معناها الحصين، فعليه قد يكون اسم صنعاء أطلق على كل مدينة انتقلت إليها حكومة الحميريين. وقال قوم: (وجد في أساس الكعبة لما هدمتها قريش في الجاهلية حجر مكتوب عليه بالمسند " لمن ملك ذمار، لحمير الأخيار، لمن ملك ذمار، للحبشة الأشرار. لمن ملك ذمار، لفارس الأحرار، لمن ملك ذمار؟ لقريش التجار، ثم حار محار، أي رجع

(١) جغرافية الوطن العربي ، ص ٣١٥ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق.

(٣) معجم ياقوت، مادة (ذمار) ١٩٦/٤ ، ومادة (عرش) ١٤٤/٦.

مرجعاً)[1]. فإذا صحت هذه الرواية فإن هذا النص يرجع تاريخه إلى ما بعد امتداد النفوذ الفارسي إلى اليمن، وهذا النص يعبر عن رأي اليمن في الدول التي ذكرها النص، ويقول ياقوت: (حدثني الإمام الحافظ أبو الربيع سليمان بن الريحان قال: شاهدت موضعاً بينه وبين "ذمار" يوم، وقد بقي من آثاره ستة أعمدة من رخام عظيمة وفوق أربعة منها أربعة، ودون ذلك مياه كثيرة جارية وحفائر، ذكر لي أهل تلك البلاد: أنه لا يقدر أحد على خوض تلك المياه إلى تلك الأعمدة، وأنه ما خاضها أحد إلا عدم، وأهل تلك البلاد متفقون على أنه عرش بلقيس)، بيد أن اعتقاد أهل "ذمار" أن هذه الأعمدة هي عرش بلقيس فيه نظر.

٥- ولم يذكر العرب مخاليف اليمن ومدنه الغارقة في القدم إلا بلمحة قل أن يتنبه لها القارئ، مثل مدينة "معين"، ومعين في بعض البحوث هي دولة ظهرت في "الجوف" اليمني، والجوف اليمني منطقة سهلة بين نجران وحضرموت، ومعين سبقت سبأ. وعاصمة معين في تحقيق "حتي" هي "قرناو"، كما تقدم. ومثل مدينة "تمنع" في "وادي بيحان". ومدينة "تمنع" من مدن دولة "قتبان"، ولربما كانت يوماً من الأيام عاصمة لقتبان. ودولة قتبان من الدول التي سبقت دولة الحميريين في اليمن. ومثل "شرجب" الواقعة بين "الجوف" و "نجران" والتي يرجع عهدها إلى "عصور سبأ"، إلى غير هذه من المدن التي كانت عواصم للدول التي سنتحدث عنها في حلقتها الخاصة من هذه الموسوعة " العرب في أحقاب التاريخ". وهذه الحلقة، أو المجلد الرابع، قد تجمعت بحوثه تحت عنوان "التاريخ العربي ودوله الجاهلية".

٦- ولعل جغرافيي العرب لم يذكروا بعض هذه المدن الأثرية لأنها كانت في عصورهم أطلالاً لم يستنطقها الأثريون الذين نقبوا عن ماضي أطلال الجنوب والشمال، وقدموا للتاريخ معلومات مفيدة عن "معين" و "سبأ" و "قتبان" و "أوسان"

(١) وفي معجم ياقوت ٨٦/٦: (إن الحجر وجد في ركن من أركان سور "ظفار")، معجم ياقوت ١٩٦/٤.

و"همدان" و"حمير" وغيرهم من الشعوب التي يقول بعضهم إنها "عاد" الثانية، وعاد الثانية بعد "عاد الأولى" التي عاشت في "قرح" بوادي القرى قريباً من "حجر ثمود" ثم انتقل العاديون الذين أنجاهم الله من العذاب إلى الجنوب، وفي اعتقاد الكثير من المحققين المتأخرين أن الشعب المعيني(١) انتقل من سيناء ومن العراق إلى اليمن. أما الجغرافيون العرب فكانوا يتحدثون عما يعلمونه عن مدن اليمن، عن "تعز - عدينة" وغيرها من المدن التي لا يتجاوز تاريخها العصر الإسلامي، فلم تذكر تعز قبل سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠م. فمدن اليمن الجاهلية ومدنه الإسلامية التي حافظت على وجودها عبر الأجيال كثيرة، وكثيرون الذين تحدثوا عنها، فصفة اليمن ومخاليفه لا تزال غالبيتها باقية باسمها وكيانها، تحدث عنها الكثيرون من جغرافيي العرب ومؤرخيهم، والكثيرون من المستشرقين تحدثوا عن بلاد اليمن وعن خصبها وتجارتها وحضارتها، وماضي دولها وحاضرها.

٧- فمما لا شك فيه أن اليمن في العصور الجاهلية التي سبقت الميلاد شهدت انتقال بقايا "عاد" و"ثمود" من الشمال إلى الجنوب، تلك الشعوب التي انتقلت بما تعرفه من فنون الحضارة وتجارب الحروب، فأقدم دولة يمنية: دولة معين، وأقدم تاريخ عرف لدولة معين لا يتجاوز القرن الخامس عشر قبل الميلاد. ودولة معين هي بداية "عاد" الثانية(٢). ثم شاركتها وانفردت باليمن بعدها دولة "سبأ - حمير" التي احتكرت الاقتصاد العربي والإستراتيجية العسكرية العربية. فكان لها التفوق اقتصادياً وحربياً، وكان من ذلك التفوق أن رجع حفدة "هود" وأنصاره إلى الشمال بجنسية يمنية يؤسسون الممالك ويهيمنون على مقدرات القبائل في "الحجاز" وفي "نجد" وفي "العراق" وفي "سورية".

---

(١) العرب قبل الإسلام، ص ١٣٤.

(٢) في الجزء الرابع من هذا المؤلف - الخاص بالتاريخ العربي وشعوبه - بحث موضوعه: عاد الأولى والثانية.

ولقد ساعدت اليمن على التفوق ثروة أرضه الزراعية والمعدنية وموانيه التجارية وكثرة نفوسه، فلقد كان للتبابعة اسمهم المدوي في العالم العربي جميعه، ولو لم يورط اليهود التبابعة في حادثة الأخدود، ويدفعوهم لارتكاب جريمة حرق نصارى "نجران"، ولو لم يترتب على ذلك الحادث غزو مسيحي تعاونت فيه إمبراطوريتان من أعظم دول الماضي: الرومانية والحبشية، لما اضطر التبابعة إلى الاستعانة بأجشع دولة استعمارية في عصر ما قبل الإسلام: الدولة الساسانية التي أنشبت أظفارها في اليمن، ولم يخلصه منها سوى الإسلام. ويقال: إن غزو الحبشة سبق حادثة الأخدود، وإن سببه تعدي اليمنيين على تجار الروم بقتلهم وسلب أموالهم، ولعل حادثة الأخدود كانت السبب الرئيسي الذي استغله ساسة الحبشة لتحقيق أطماعهم.

ونشاط اليمن الحميري السياسي كان على مستوى دولي عالمي بالنسبة لنفوذ التبابعة الذي تحدث عنه المؤرخون المتقدمون أحاديث اعتبرت الكثرة من المحققين في الوقت الحاضر بعضها أو أكثرها ضرباً من المبالغة، ونشاط على مثل ذلك المستوى لابد له من اقتصاد يسنده. واقتصاد اليمن في تاريخه القديم كان مدعماً بما في بطن الأرض، من معادن، وبما على ظهرها من حقول، وبما في فيافيها من طرق تجارية، وبما في سواحلها من مرافئ عالمية، فهذه الثروة الطبيعية التي أحسن اليمنيون القدامى استغلالها هي التي كفلت لهم نفقات جيوش كتبت عنها الأساطير، وهي التي شيدت قصوراً اعتبرت رمزاً للحضارة مثل قصر "غمدان" وقصر "سلحين" و "صرواح" في مأرب.

ولقد تكلمنا عن صفات سراة اليمن وتهامته من قبل بما فيه الكفاية.

٨- ومن أعظم الكوارث التي مني بها الاقتصاد اليمني انفجار "سد مأرب"، فلقد جرف أموال المأربيين وشتت شملهم وكاد يفنيهم، كما أفنى "سيل الجحفة" "عبيل"،

فتبدل غناء مأرب بفقر، وتبدلت أرضها من جنان غنّاء وافرة الإنتاج إلى خلاء ينبت أكلاً خمطاً[1] وأثلاً وشيئاً من سدر قليل. ولقد اختلف المحققون في تاريخ "سيل العرم"، فمن رأي "حتي": أنه كان في منتصف القرن الخامس الميلادي، وقيل: إنه حدث بعد هذا التاريخ، وقيل إن السد تصدع غير مرة. ثم كانت حادثة الأخدود بين سنة ٤٥٠ وسنة ٥٢٣م[2]؛ وحادثة الأخدود كما تقدم الكلام عنها جرت النقمة على اليمن فأخذت قصوره تقفر من أمجاد حمير وعظمتها التي كان "ذو جدن" آخر ملوكها سنة ٥٢٣م، على أن "ذو جدن" كان ملكاً صورياً، فلقد تداعت عليها الحبشة والفرس فأصبح التبابعة تابعين تلعب بهم "المدائن" كما لعبت أخيراً بالمحميات لندن.

٩- ولقد تحدث ياقوت عن بعض مخاليف اليمن التي بلغت أربعة وثمانين مخلافاً، فقال عن مخلاف "مأرب": كان به نخل كثير، وأكثر تمر "صنعاء" منه. فلعل مأرب استعادت شيئاً من نشاطها الزراعي بعد سيل العرم. وقال عن مخلاف "أبين": هو قرب عدن، فيه حصون وقلاع وبلدان. و"أبين" أرض البخور والحصون. ولقد ذكر حصون عدن "بطليموس"، ويقول "فورستر": إن منها "حصن الغراب"[3]، وينسب "نادي" حصن الغراب إلى "عاد الثانية"، وينقل عن كتاب " الجغرافية التاريخية لبلاد العرب" لمؤلفه "فورستر" ترجمة نقش اكتشفه الأثريون أخيراً جاء فيه ما يعطينا فكرة عن قلاع اليمن وعن حياة أهل اليمن، وعقيدتهم وأهدافهم التي ضحى في سبيلها الجندي اليمني القديم، فمما جاء في النقش نقلاً عن كتاب التاريخ الجغرافي للقرآن[4] :

(١) الخمط ضرب من شجر الأراك له حمل يؤكل، وثمر الأراك يسمى "البرير"، والأثل: شجر يشبه الطرفاء.

(٢) تاريخ العرب المطول ٧٢/١، ٨٤ .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد ٣٤١/٣.

(٤) التاريخ الجغرافي للقرآن، ص ١٨٢ وما بعدها.

١- لقد قضينا دهوراً بين أفنية هذه القلعة في عيشة راضية لا يشوبها ضيق أو عسر.

٢- وتحيط بنا مياه البحر في حالة طغيان، وأنهارنا تفيض مندفعةً غزيرة.

٣- وبين النخيل الباسقات كان حارسها يغرس الرطب الجني على ضفاف الجداول المتعرجة الدافقة بالماء أو الجافة.

٤- وكنا نصيد صيد البر بالحبال والغاب، كما كنا نخرج الأسماك من أعماق البحار.

٥- وكنا نختال في مشيتنا رافلين في ملابسنا الحريرية الموشاة عند أطرافها، وثياب سندسية خالصة وأردية ملونة بخطوط أقلام خضراء.

٦- وكان الملوك الذين يحكموننا منزهين عن الدناءة أشداء على أهل الخديعة والغدر.

٧- وقد اختاروا لنا شريعة محكمة مستمدة من ديانة "هود"، وكنا نؤمن بالمعجزات والبعث وإحياء الموتى بإذن الله.

٨- ولما نزل بنا الأعداء لقهر أراضينا اندفعنا جميعاً وحرابنا مشرعة.

٩- وكنا ندافع في قوة وحماسة لنحمي نساءنا وأطفالنا على خيول طويلة الرقاب رمادية وداكنة وخيول كميتية زاهية(١).

١٠- وأثخنا أولئك الذين اعتدوا علينا جراحاً حتى ارتدوا على أعقابهم.

وفي هذا النقش الأثري، أو بالأصح القطعة الشعرية، صورة واضحة عن جانب من ماضي اليمن الذي تهمنا معرفته. وهذه الصورة الشعرية لا تنطبق على "عدن"

(١) الكميت: لون بين الأسود والأحمر.

المطلة على البحر الرديئة الماء، ولكنها قد تنطبق على شمالي عدن عند "الشيخ عثمان" أو جنوبي لحج.

١٠- وذكر "ابن خرداذبة" مخلاف "همدان" أو مخلاف "جوف همدان"، وهمدان اسم أرض، واسم قبيلة أو قبائل نسبت إلى "وسلة بن مالك" من "كهلان"، ومن مدن "همدان" مدن قديمة اندثرت، وأخرى لا تزال باقية مثل "أكانط" التي ذكرها الهمداني في "الإكليل" عندما تحدث عن بلاد همدان - أوديتها وجبالها، ومدنها وقراها وقصرها المعروف باسم "سحار"(١)، ومخلاف همدان في معجم ياقوت هو ما بين "الغائط" و "تهامة" و "السراة" في شمالي "صنعاء"(٢).

١١- ولقد كان لهمدان دور في النزاع الذي قام بين السبئيين للاستيلاء على العرش، ذلك النزاع الذي تحدث عنه مؤرخو عصور اليمن القديمة، ووصفوه بأنه كان كارثة أصابت اليمن وخلفت أسوأ النتائج، فدمرت مدن، وخربت قرى، وجفت مزارع، فتدهور اقتصاد اليمن، وانقلبت فرحة اليمنيين بتوحيد سبأ وريدان إلى عبوس وأصبحت الآمال آلاماً.

ومع الأسف أننا نرى التاريخ اليوم يكاد يعيد نفسه في اليمن الذي استقل جنوبه، وزال كابوس الحماية عن إمارته، فالنزاع على السلطة يكاد يقلب الآمال آلاماً، ويقضي على الاقتصاد الذي هزه قطع ما كان يصرفه الإنجليز ثمناً لنفوذهم على السواحل التي تشرف على طريق الهند. فعسى جهود الخيرين تتدارك الموقف فيسير اليمن شماله وجنوبه في طريق الأمجاد التي ضحت الشعوب العربية في سبيلها بالنفس والنفيس.

---

(١) الإكليل، مطبعة السريان الكاثوليكية، ١١٢/٨.

(٢) معجم ياقوت ٤٠٦/٧.

١٢- وتاريخ اليمن السياسي العربي لا يزيد في رأي الغالبية على منتصف الألف الثاني قبل الميلاد. وفي رأي البعض ينقص عن ذلك. وتاريخ اليمن السياسي في تحقيق المؤرخين يبدأ بدول يمنية متعاصرة جاء أكثرها من الشمال، وتاريخ اليمن السياسي في بحوث المؤرخين العرب هو تاريخ عاد قوم هود، والحميريين: حفدة قحطان، وتاريخ اليمن في بحوث المتأخرين هو تاريخ "معين" و"قتبان" و"حضرموت" و"أوسان" و"سبأ" و"حمير" ويبدأ تاريخ هذه الدول من ألف وخمسمائة عام قبل الميلاد، وينتهي بسيادة "آزال" أو "ظفار" أو "صنعاء" وغير هذه الأسماء التي أطلقت على عاصمة الحميريين والتي لم يبق حياً منها غير اسم صنعاء.

ثم تاريخ حمير، وحمير في بحوث بعض المؤرخين هي "سبأ الأخيرة" ويبدأ تاريخ حمير من سنة ١١٥ق.م. إلى سنة ٥٢٥م، فمن أوائل القرن السادس احتل الحبش اليمن احتلالاً كاملاً سبقته انتصارات حبشية تؤيدها الإمبراطورية الرومانية من سنة ٣٤٥م إلى سنة ٣٧٤م حيث عاد الحميريون إلى عروشهم. وفي سنة ٥٢٥م كان الاستعمار الحبشي المطبق إلى سنة ٥٩٩م حيث بدأ النفوذ الفارسي يسيطر على اليمن بعد انتصار "سيف بن ذي يزن" على الحبشة بمساعدة كسرى فارس، وظل النفوذ الفارسي مسيطراً على اليمن إلى الفتح الإسلامي.

فعلى أساس هذه المقدمة يمكننا أن نلخص **تاريخ اليمن السياسي الجاهلي** على النحو الآتي:

- من سنة ١٥٠٠ق.م. إلى ١١٥ق.م.	عصور "عاد و قحطان" كما يقول قدامى المؤرخين العرب، ومعين وحضرموت وقتبان وسبأ وأوسان، كما يقول المؤرخون في العصر الحاضر.

- من سنة ١١٥ق.م. إلى ٣٤٥م — عصور حمير الأولى.
- من سنة ٣٤٥م إلى ٣٧٤م — الاستعمار الحبشي الأول الذي مد نفوذه على أكثر مخاليف اليمن.
- من سنة ٣٧٤م إلى ٥٢٥م — عصر حمير الثانية.
- من سنة ٥٢٥م إلى ٥٩٩م — الاستعمار الحبشي الثاني الشامل.
- من سنة ٥٩٩م إلى ٦٢٢م — النفوذ الفارسي.

عصور الدول الإسلامية التي بلغ نفوذها اليمن:

- من سنة ١١هـ سنة ٦٣٢م إلى سنة ٤٠هـ/ ٦٦١م — عهد الخلفاء الراشدين.
- من سنة ٤١هـ سنة ٦٦١م إلى سنة ١٣٢هـ ٧٥٠م — عهد الخلفاء الأمويين.
- من سنة ١٣٢هـ سنة ٧٥٠م إلى سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م — عهد العباسيين إلى ظهور الخلافة الفاطمية في مصر.
- من سنة ٣٥٨هـ سنة ٩٦٩م إلى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م — عهد الفاطميين في مصر والعباسيين في بغداد.
- من سنة ٥٦٧هـ سنة ١١٧١م إلى سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م — دعا صلاح الدين الأيوبي من منابر مصر للخلفاء العباسيين في بغداد.
- من سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م إلى سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م — عهد الأيوبيين في القاهرة والعباسيين في بغداد وقد كان اليمن مرتبطاً بالأيوبيين، وكذلك الحجاز والشام.
- من سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م إلى سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م — عهد المماليك بعد الدولة الأيوبية وقبل أن يقيم الملك المملوكي (بيبرس) خليفة عباسياً في القاهرة تدعو له الأمة في الجمع والأعياد.

- من سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م إلى سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م	عهد الخلفاء العباسيين في القاهرة.
- من سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م إلى سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م	سيادة آل عثمان المطلقة.
- من سنة ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م إلى سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م	صراع بين أئمة اليمن "بني رسي" وبين الأتراك العثمانيين.
- من سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٩م إلى سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م	استقل باليمن الملك "يحيى حميد الدين" ثم ابنه "أحمد" ثم حفيده "البدر"، حيث قام "عبدالله السلال" بقلب حكومة اليمن من ملكية إلى جمهورية.

هذه عصور الإمبراطوريات الإسلامية التي ارتبط بها اليمن، وأقصد يمن "الحجاز - السراة" ويمنات، أي اليمن الممتد من عدن إلى عمان، أما تهامة اليمنية فقد سبق أن لخصنا بإجمال وإيجاز الحكومات التي استقلت بها، فكانت أحياناً تسيطر على الجبال، وأحياناً تسيطر الجبال عليها، وحيناً آخر لا تتسلط على الجبال ولا تتسلط الجبال عليها.

أما عدن ، والإمارات التسع، وعمان، فكان لها تاريخ حديث فصله الاستعمار الإنجليزي عن اليمن. ولقد سبق الكلام عن دولة " بني زريع" التي قامت سنة ٣٧٦هـ/ ١٠٨٣م في "عدن". ولقد استقل "بنو زريع" عن صنعاء سنة ٥٣٣هـ، ولقد عاصرت دولة بني زريع العهد الأيوبي. وسبق الكلام عن المحميات.

وفي عصور الإمبراطوريات الإسلامية استقلت دول يمنية في السراة استقلالاً لا يربطه في أكثر عهوده بعواصم الإمبراطوريات العربية غير الدعاء للخليفة أو الحاكم باسم الخليفة في الجمع والأعياد، وهذه الدول هي على النحو الآتي تقريباً:

- من سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٣م إلى سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م	أئمة "بني رسي" أو "بني طباطبا" في "صعدة".
- من سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م إلى سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م	كان اليمن ميدان صراع القوى التركية والبرتغالية والوطنية اليمنية.
- من سنة ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م إلى سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م وقد انتهى النفوذ العثماني سنة ١٠٤٥هـ /١٦٣٧م	الدولة الزيدية التي قامت سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م واستمرت إلى سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، ويعتبر المؤرخون الدولة الزيدية امتداداً لدولة بني رسي وقد عرفت باسم "أئمة صنعاء".

ولقد عاصر الدولة الرسية الدول الآتية ونازعتها النفوذ إلى ما قبل قيام الدولة الزيدية أو دولة "أئمة صنعاء":

- من سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م إلى سنة ٣٧٨هـ/ ٩٩٧م	دولة "بني يعفر" وقد امتدت في عهود بعض ملوكها إلى تهامة.
- من سنة ٣٧٨هـ / ٩٩٧م إلى سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م	حكم "بنو رسي" "صنعاء" من "تعز" التي كانت عاصمتهم. ففي هذه الفترة شمل سلطان بني رسي اليمن. ومن المعروف أن دولة بني رسي قامت في "تعز" سنة ٢٨٢هـ/ ٧٠٠م.

- من سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م إلى سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م دولة "بني صليح" الشيعية، ووصلت دولة "بني صليح" سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م إلى "مكة".
- من سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م إلى سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م دولة "بني همدان" وقد كان بنو همدان يعينون ولاة "صنعاء" لمدة خمس وسبعين سنة.
- من سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م إلى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م الدولة "الأيوبية" التي أسسها "توران شاه" أخو "صلاح الدين الأيوبي" الذي قضى على دول "همدان" في صنعاء، و "بني المهدي" في زبيد، و"بني زريع" في عدن.
- من سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م إلى سنة ٨٥٨هـ /١٤٥٤م دولة "بني رسول"، وبنو رسول هم حفدة "هارون" الرسول السياسي للعباسيين أي السفير المتنقل.
- من سنة ٨٥٥هـ / ١٤٥١م إلى سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م دولة "بني طاهر" التي أسست سنة ٨٥٥هـ / ١٤٥١م، وحكمت صنعاء سنة ٨٥٨هـ.

ولقد كانت هذه الدول تعترف في أكثر سنيها بعواصم الخلافة في بغداد ومصر. إلى أن ظهرت دولة الأتراك العثمانيين، ولقد كانت دول اليمن تتغلب على دول زبيد - تهامة مرة، وقليلاً ما كانت دول تهامة - زبيد تغلب على دول اليمن السراة، أما في عهد الأتراك آل عثمان فكان حال اليمن السياسي كالآتي:

- من سنة ٨٥٥هـ / ١٤٥١م إلى سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م	دولة "بني طاهر" التي أسست سنة ٨٥٥هـ / ١٤٥١م، وحكمت صنعاء سنة ٨٥٨هـ.
- من سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م إلى سنة ١٠٠٠هـ/١٥٩١م	احترم اليمن جميعه سيادة آل عثمان وتقدمت دوله بالطاعة للخلفاء العثمانيين مرة بقوة السيف ومرة تمشياً مع سياسة ذلك العصر.
- من سنة ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م إلى سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م	كان الصراع الدامي بين دولة "العثمانيين" ودولة "بني رسي" وبنو رسي هم حفدة "القاسم الرسي" المعتزلي المعاصر للخليفة "المأمون" ودولة "أئمة صنعاء".
- من سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٩م إلى سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م	استقل باليمن الشمالي الملك "يحيى حميد الدين" ثم "أحمد حميد الدين" ثم "بدر أحمد حميدالدين" الذي ثار عليه في عام توليه الحكم "عبد الله السلال"، فقلب حكومة اليمن من ملكية إلى جمهورية.

ومن سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م إلى الوقت الحاضر تقلبت على اليمن الشمالية حكومات جمهورية عدة.

أما اليمن الجنوبي وهو ما يعرف اليوم بجمهورية اليمن الشعبية التي قامت على إثر تصفية الاستعمار، ورحيل الإنجليز المستعمرين، فهي الحكومة الجمهورية الثانية في اليمن، ولم تستقر الحدود بين الجمهوريتين اليمنيتين[1]، على أن مساعي الجامعة العربية بذلت ولا تزال تبذل لتركيز الوضع السياسي في اليمن[*].

---

(١) اتحدت الجمهوريتان في دولة واحدة عام ١٩٩٠م.

(*) مصادر البحث: تاريخ الدول الإسلامية؛ معجم الأسر الحاكمة؛ دائرة المعارف الإسلامية؛ معاجم البلدان وتقاويمها؛ تواريخ اليمن.

الفصل الثامن

الهلال الخصيب : القسم السادس من أقسام الجزيرة العربية

البحث الأول : الهلال الخصيب : قسم سادس من أقسام الجزيرة العربية.

البحث الثاني : الهلال الخصيب جزء من الجزيرة العربية.

البحث الثالث : العراق : اسمه وحدوده وصفته.

البحث الرابع : عصور العراق السياسية.

البحث الخامس : وسط الهلال الخصيب : البادية.

البحث السادس : الطرف الغربي للهلال الخصيب : سورية الكبرى.

البحث السابع : تجزئة سورية في الماضي والحاضر.

البحث الثامن : أقاليم سورية الكبرى :

١- فلسطين والأردن.

٢- الشام : الجمهورية العربية السورية.

٣- لبنان .

البحث التاسع : عصور الهلال الخصيب ودوله.

البحث الأول :

الهلال الخصيب : قسم سادس من أقسام الجزيرة العربية :

١- الهلال الخصيب ومصر العمليقية: قسمان عربيان يتممان الأقسام الخمسة جغرافياً وتاريخياً.

٢- القنوات أتمت حدود الجزيرة العربية المائية.

٣- تاريخ الهلال الخصيب يكمل تاريخ نجد والحجاز وتهامة والعروض واليمن.

١- الآن انتهينا من أقسام الجزيرة العربية الخمسة: الحجاز، ونجد، والعروض، وتهامة، واليمن، وهذه الأقسام الخمسة عند العرب هي ما اشتملت عليه الجزيرة العربية إبان غزو "بختنصر"، وهي التي لم يبلغها ملك فارس، وهذه الأقسام هي العربية السعيدة في الجغرافية اليونانية، أما الهلال الخصيب بباديته، ومصر العمليقية، فهذه هي الأرض الباقية من جزيرة العرب، فما بلغه ملك فارس وسلطان الروم. مما بقي من الجزيرة يمكن اعتباره قسمين: الهلال الخصيب، ونقصد بالهلال الخصيب: العراق، وسورية الكبرى وباديتهما، ونقصد بسورية الكبرى: سورية، ولبنان، والأردن، وفلسطين. ونقصد بباديتهما: البادية الممتدة من شرقي العراق إلى غربي سورية.

والقسم الثاني وهو: مصر العمليقية ونقصد بمصر العمليقية: شبه جزيرة سيناء، ودلتا النيل، والصحراء العربية شرقي النيل من البحر المتوسط شمالاً، إلى قناة "أمنيس ترایاني" جنوباً، فبهذين القسمين تكمل جغرافية الجزيرة وتاريخها. تكمل جغرافية الجزيرة العربية حسب الحدود التي وضع الجغرافيون العرب جزيرتهم داخلها. وهذه الحدود تمتد من الفرات شمالاً إلى البحر العربي جنوباً، ومن النيل غرباً إلى الفرات شرقاً، فهذان القسمان استوطن فيهما النفوذ الفارسي والرومي ردحاً من الزمن.

٢- فأولئك الجغرافيون الذين تحدثوا عن أقسام الجزيرة العربية الخمسة قالوا: إن مهد العروبة جزيرة العرب، وقالوا عن حدود جزيرة العرب: يحدها من الشمال والشرق نهر الفرات، وقالوا: (وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً البحر معه حتى دفع في بحر مصر والشام)، فقناة "أمنيس ترایاني" تصور لنا كيف أصبح النيل معارضاً البحر حتى دفع في بحر مصر والشام، وكذلك تصور لنا قناة "الدار" كيف اتصل الفرات بالبحر المتوسط، ولقد وضحنا ما يجب

إيضاحه عن هاتين القناتين عندما تكلمنا عن حدود الجزيرة العربية في البداية، وبينا كل ما يجب على البحث بيانه. ففي جنوبي نهر الفرات وغربيه، وفي شرقي نهر النيل يقع هذان القسمان: "الهلال الخصيب" و "مصر العمليقية". فبدون هذين القسمين تصبح الجزيرة العربية مبتورة ناقصة.

٣- وبهذين القسمين يكمل التاريخ العربي؛ فالعراق عربي من بداية تاريخه، ففي رأي بعض المحققين أن "السومريين" جاءوا من هضاب "آسية" الشمالية الشرقية واغتصبوا بلاد ما بين النهرين من أصحابها العرب، وأن "الحمورابيين" عرب استعادوا الأرض العربية من السومريين المغتصبين، وأعادوا لها السلطان العربي والحضارة العربية، وتجاوزتها جيوشهم حاملة مشاعل الهدي الإسلامي إلى أرض فارس وما وراءها.

والبادية من العراق إلى سورية عربية مئة في المئة من فجر تاريخها شعوباً ودولاً، وهي جغرافياً امتداد طبيعي لرمال نجد وصحارى العروض، فالذين أسسوا دول "الحيرة" و "الأنبار" و "تدمر" و "بترا" هم أبناء العربية السعيدة الذين انتجعوا هذه البادية، وهم حفدة الذين أسسوا دول "قرح عاد" و"حجر ثمود".

فقدم تاريخ العرب في العراق وسورية ومصر حقيقة أثبتتها أدلة مختلفة المصادر. فللكنعانيين - الفينيقيين[1] تاريخ معروف في لبنان، وللعماليق تاريخ معروف في سورية، وفلسطين، والأردن، ومصر، ولا تزال آثارهم ظاهرة تشهد بوجودهم على ضفاف النيل الشرقية من بداية تاريخه. فالعماليق في كتاب "العرب قبل الإسلام" لجرجي زيدان منهم "الحمورابيون" في العراق، و "الجبابرة" في الشام و "الهكسوس"

---

(١) اسم كنعان وفينيق معناه الأرجوان. العرب في أحقاب التاريخ. الجزء الأول الذي صدر بعنوان (التاريخ العربي وبدايته) ١/١٥٥.

في مصر. وتؤكد مصادر تاريخ الهجرات العربية أن الشعوب العربية التي انتقلت من منخفض الساحل الشرقي للخليج الإسلامي، والتي عرفت في المصادر الإسرائيلية باسم كنعان، كان منها العماليق، ومنها شعوب ذكرتها "التوراة" بهذه الأسماء: "اليبوس" و"الأموري" و"الفريري" و"الحوبى" و"الجرجاش"[1] وتؤكد مصادر تاريخ وادي النيل أن الساميين من أوائل من سكن ضفاف النيل.

فتاريخ العماليق والإرميين والمعينيين في نجد والحجاز والعروض وتهامة واليمن، يكمله تاريخهم في الهلال الخصيب، وسورية الكبرى، ومصر فرعون يوسف بن يعقوب العمليقي.

ولئن كان التاريخ العربي في "الحيرة" و"الأنبار" و "بترا" و "تدمر" والبلقاء" و "بصرى"، حواضر الدول العربية بعد الميلاد، ومنازل قبائلها: "تنوخ" و "إياد" و "كلب بن وبرة" و"سليح" و "خشين" و "القين" وغيرهم من قبائل حلف "تنوخ" وحفدتهم أكثر وضوحاً من تاريخ "نينوى" و "بابل" وغيرهما من عواصم الساميين العرب قبل الميلاد في عصر " ابن جرير الطبري"ومن سد فراغ ابن جرير الطبري من أعلام المؤرخين أمثال "ابن كثير" و"ابن الأثير" و "ابن خلدون" وغيرهم ممن قدمناهم في الجزء الثاني من هذا المؤلف "العرب في أحقاب التاريخ" الذي صدر بعنوان "التاريخ العربي ومصادره"؛ لئن كان تاريخ هذه القبائل حقيقة ملموسة في مؤلفات المؤرخين الإسلاميين، لقد أصبح أيضاً من الحقائق الملموسة في بحوث المحققين المعاصرين وضوح التاريخ الأقدم من الميلاد بعد الاكتشافات الأثرية في الهلال الخصيب وفي مصر العمليقية، كما وضح أكثر من ذي قبل تاريخ جنوبي الجزيرة العربية بعد البحوث الأثرية.

(١) المصدر نفسه ١/١٥٥ .

فالـذين تحدثـوا عـن الـتاريخ العـربي القـديم أكـدوا أن "العمالـيق" و"الكنعانـيين" و"الإرمـيين" وفـروعهم في الهـلال الخصـيب، وفي مصـر العمليقـية، ومـن بعـدهم "التدمـريون" و "الأنـباط" وقـبائل "حلف تـنوخ" و "الحضـر" و "اللخميون" و "الغسـانيون": عرب بسماتهم وطباعهم والدماء التي تجري في عروقهم. وتاريخ قبائل "جذام" و"عاملة" في "تنيس - صان" المصرية متأخر جداً بالنسبة لتاريخ العماليق المصري القديم.

والـذين تحدثـوا عـن حـدود جزيـرة العـرب أكـدوا أن الهـلال الخصـيب، والضـفة الشـرقية لـوادي النيل، وشـبه جزيـرة سيناء كل هـاتيك الأراضي داخلة في إطار الجزيرة فهـي أقسـام منها، وهـي أرضون أحياها العرب واستوطنوها من بداية تاريخها وأنشأوا عليها حضارة عربية وسطروا على رمالها وجبالها بدمائهم وعرقهم تاريخاً عربياً.

وإخـال فيما تقـدم في بحـث "هـل بـلاد العـرب: جزيـرة أو شـبه جزيـرة" المتقدم مـن الأدلـة مـا يكفـي لإزالـة الشـكوك في عـروبة العراق وسورية وباديتهما، وسيأتي عن مصر العمليقية وصحرائها ما يزيل كل شك في عربيتها.

البحث الثاني :

الهلال الخصيب جزء من الجزيرة العربية :

١- صورة واضحة للهلال الخصيب.

٢- لا خلاف بين قدامى المؤرخين الإسلاميين وبين المستشرقين في الهلال الخصيب.

٣- الممر التاريخي الذي يربط الهلال الخصيب بباقي الجزيرة العربية.

٤- أبعاد قوس الهلال الخصيب ووتره.

٥- التطورات الجيولوجية لم تفصم الهلال الخصيب عن الجزيرة العربية.

٦- أقسام الهلال الخصيب.

٧- البادية بين دول العراق ودول سورية.

١- يقول "جيمس هنري برستد" في كتابه "انتصار الحضارة": (إن أهم مكان سكنه الإنسان في غربي آسية هو ذلك الجزء المحصور بين الجبال في الشمال، والصحراء في الجنوب، وهو يكاد يكون حدوداً تفصل هاتين المنطقتين، وساعدت الطبيعة لأن يصبح أرضاً منزرعة، وذلك المكان هو ما نسميه الهلال الخصيب، لأنه يكون شكلاً نصف دائري على وجه التقريب.

ويرتكز حرفه الغربي في جنوب شرقي البحر المتوسط، ووسطه فوق شبه جزيرة العرب، ويرتكز حرفه الآخر عند " الخليج العربي"، وخلف ظهر هذا الهلال تقوم الجبال المرتفعة، وعلى ذلك تكون "فلسطين" عند نهاية الجزء الغربي منه، وبلاد "بابل" في الجزء الشرقي، في حين تكون بلاد "آشور" جزءاً كبيراً بوسطه.

وهذا الهلال الخصيب ليس إلا امتداداً لصحراء العرب، وهو يشبه شواطئ جون صحراوي تحيط به الجبال، ولكن هذا الجون ليس مملوءاً بالمياه ولكنه مملوء برمال الصحراء التي تمتد بنحو خمسمائة ميل)[1].

٢- ونحن إذا قابلنا ما يقوله "برستد" عن الهلال الخصيب، وأنه أهم وطن للساميين، وعن حدوده، بما قاله القدامى من المؤرخين الإسلاميين = نجدهم متفقين على أن العراق أقدم وطن لأبناء "نوح"، ونجدهم متفقين على أن حدود بلاد العرب التي يعتبر الهلال الخصيب جزءاً منها هي من الشرق: الفرات والخليج العربي وخليج عمان، ومن الغرب: البحر المتوسط والنيل والبحر الأحمر، ومن الشمال: مجرى الفرات الذي ينحدر من الجبال المرتفعة ويسير مع سفوحها من الغرب إلى الشرق متجهاً نحو الجنوب إلى أن يصب في الخليج العربي، ومن الجنوب: بحر العرب.

---

(١) راجع كتاب "انتصار الحضارة"، ص١٤٣؛ ترجمة الدكتور أحمد فخر الدين. وبرستد هو الذي أطلق هذا الاسم على هذا الجزء من الجزيرة فأصبح يعرف باسم الهلال الخصيب.

ونحن إذا رجعنا إلى تاريخ الهلال الخصيب القديم نجد روابط عديدة تربط قسمي الهلال الخصيب: العراق وسورية جميعها بوسط الجزيرة العربية وجنوبها، روابط تراها واضحة في سمات السكان في الشمال، والوسط والجنوب وهياكلهم، وفي الأفكار الدينية وفلسفتها، وفي اللغة وخطوطها وحروفها وقواعدها، وفي لون الحضارات التي عرفت بالحضارات السامية، والتي أصبحت آثارها تراثاً حضارياً عربياً، والتي اعترف الكثيرون بفضلها على الحضارة الحديثة لأنها كانت الدرجة الأولى لسلم الحضارة الإنسانية.

فالساميون العرب الذين عاشوا في عهد "السومريين" في غرب الفرات هم أبناء عم الساميين الذين عمروا سورية الكبرى. وسورية الكبرى هي: لبنان والشام وفلسطين والأردن. فلبنان و "صيدون" و "عسقلان" - عمورية في نهاية أسمائها[١]، و"العموريون" أو "الأموريون"، هم الساميون الذين كان سكان غرب الفرات في عصر "السومريين"[٢]. والساميون الذين سكنوا الهلال الخصيب هم العرب الذين عادوا من قلب الجزيرة العربية إلى بلاد ما بين النهرين التي غلبهم على أمرها السومريون حيناً من الدهر.

٣- فلقد كان للممر السوري الطبيعي الذي تحدث عنه "فيليب حتي" في كتابه "تاريخ سورية" أثره في دعم تلك الروابط، فلقد كان ذلك الممر يبدأ - كما يقول "حتي" (عند الخليج العربي" ثم يصعد مع دجلة إلى ضواحي نينوى، ثم يتجه غرباً إلى الموانئ السورية، وهكذا يصل بين "تل حلف" و"حران" و"ماري" و"حلب" وغيرها من المدن القديمة، وفي هذا السهل يبدأ التاريخ السوري المستمر، وأول من بدأه الساميون وهم الأموريون)[٣].

---

(١) تاريخ سورية، لحتي ١/٧٠.

(٢) العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان، ص٤٣.

(٣) تاريخ سورية ١/٧٥.

٤- فقوس الهلال الخصيب يبدأ شرقاً من مصب الفرات في "الخليج العربي"، ويسير مع الفرات إلى نهاية الشمال، ثم يميل من شمالي سورية إلى سواحل "قنسرين"، وهناك نجد البحر المتوسط، وهو الحد الغربي لسورية وفلسطين ولبنان. ويبدأ وتر القوس من مصب الفرات من حيث بدأ القوس ماراً بشمالي العروض ونجد والحجاز - السراة، وبشمالي تهامة وجنوبي خليج العقبة، وشبه جزيرة سيناء. وخليج العقبة كان يسمى قبل الميلاد بخمسمائة عام: " خليج لحيان" نسبة لبني "لحيان" الذين كانوا يملكون تلك الأرض[١].

٥- وحدود الهلال الخصيب في الماضي لا تكاد تختلف عن حدوده في الحاضر، وسكان الهلال الخصيب من حوالي سنة ٣٥٠٠ق.م. - كنعانيين وعماليق وإرميين - هم أجداد سكانه العرب الذين عاشوا من بعدهم على أرض الهلال وتحت سمائه كما تؤكد ذلك أقوى البحوث أدلة وبراهين، فليس المد والجزر في حدود الهلال الخصيب إلا تعبير عن التطورات الجيولوجية لهذه الدهور الطويلة، ولكن كل التطورات الجيولوجية بجميع أشكالها وألوانها لم تفصم الهلال الخصيب عن جزيرة العرب.

٦- وإذا نحن ألقينا نظرة على الهلال الخصيب في خارطة شبه الجزيرة العربية نجده ينقسم إلى أربعة أقسام طبيعية : القسم الشرقي ويتكون من بلاد ما بين النهرين بواحتها وسهولها، والقسم الغربي ويتكون من جبال سورية الشامخة، ونجد القسم الأوسط وهو البادية يمتد بين العراق وسورية، ونجد القسم الشمالي يتكون من هضاب وجبال تفصل بين الهلال الخصيب وبقية غرب آسيا.

---

(١) شمال الحجاز، ص ١١٢ ، ١١٦ . ويمتد خليج العقبة أو خليج لحيان من جزيرة (نسا) أو (تاران)- واسم تاران يعني نوعاً من الطيور - يمتد هذا الخليج مسافة تقرب من مائة وثمانين كيلومتراً، ولقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

٧- ولعل عدم وجود فواصل طبيعية بين سورية والعراق، هو الذي جعل النفوذين العراقي والسوري يتقاسمان البادية تارة، وينفرد بها أحد القطرين تارةً أخرى منذ عهد "سرجون" الذي تقدم بجيوشه من الفرات ودجلة حتى بلغ البحر المتوسط، وهو الذي جعل الصراع عنيفاً بين "الحثيين" و"البابليين" و "الآشوريين"، وهو الذي جعل الخلاف مستمراً بين "الساسانيين" و "الرومانيين"، فالحدود التي تفصل بين سورية والعراق - طرفي الهلال الخصيب - حدود مائعة غير ذات فواصل طبيعية وحضارية وسياسية، فليست هناك فواصل من نوع ما[1].

ونحن إذا أردنا أن نرسم للهلال الخصيب صورة واضحة المعالم تفيدنا في معرفة تاريخ هذا القسم من الجزيرة العربية؛ فعلينا أن نساير الأحداث التي جعلت للعراق كياناً خاصاً، ولسورية كياناً خاصاً، ونبحث في جغرافية كل قسم على حدة. فإن ذلك أوضح للبحث وأنفع للقارئ الذي يريد أن يعرف تاريخ الجزيرة العربية على ضوء وضعها الجغرافي، ويعرف شكلها الجغرافي على ضوء أحداثها التاريخية.

---

(١) تاريخ سورية، لحتي ١/٦٣.

المبحث الثالث :

العراق : اسمه وحدوده وصفته :

١- آراء علماء الجغرافية واللغة في اسم العراق.

٢- الفوارق بين السكان واختلاف صفة الأرض.

٣- العداء بين سكان الجبال والسهول قديم جداً.

٤- حدود العراق الطبيعية والسياسية.

٥- نفوس العراق في الماضي والحاضر.

٦- تطورات الجيولوجية في العراق.

٧- نهرا العراق: دجلة والفرات ومجراهما.

٨- مدن العراق التاريخية والحديثة.

١- لقد وضع علماء اللغة والجغرافية اسم العراق على مائدة التحقق، فأبدى اللغويون آراءهم في أصله، فبعضهم قال: إن العراق كلمة عربية لها معانٍ كثيرة منها شاطئ الماء، وخصه نفر بشاطئ البحر. ومنها عراق المزادة، وهي الجلدة التي تجعل على ملتقى طرفي الجلد إذا خرز، ولتوافر أوجه الشبه بين هذا الجزء من البلاد العربية، وبين معاني هذه الكلمة العربية: عراق المزادة، سمي هذا القطر عراقاً. وكذلك أدلى الجغرافيون برأيهم، فلقد نقل ياقوت عن "الأصمعي" أن اسم العراق في الأصل: اسم فارسي - إيران شهر، أي كثير النخل والشجر، فعربه العرب، فقالوا العراق. أو هو في أصله العجمي "إيراه"[١] ومعناه الساحل، فأبدل العرب: الهاء بالقاف فقالوا: إيراق، ثم عرب كاملاً فقيل: العراق. وقيل أيضاً إن أصله "إيراف" بالفاء، ومعناه مفيض الماء[٢].

ويقول "ياقوت" في معجمه عن الجبال: (والجبال اسم علم للبلاد المعروفة اليوم باصطلاح العجم بالعراق. وهي ما بين "أصبهان" إلى "زنجان" و "قزوين" و "همذان" و"الدينور" و"قرميشين" و"الري" وما بين ذلك من البلاد الجبلية والكور العظمية. وتسمية العجم له بالعراق غلط لا أعرف سببه، وهو اصطلاح محدث لا يعرف في القديم)[٣]. ولعل هذا الاصطلاح الأعجمي تقصد به المنطقة التي كانت تتبع العراق إدارياً في العهود الإسلامية.

ولا أدري لماذا لم يلتفت "ياقوت" عندما تكلم عن الجبال لما قاله عن أصل كلمة "العراق" في اللغة الفارسية؟ فلقد قال: إن أصلها "إيران شهر"، وإن إيران شهر معناها

---

(١) لسان العرب، مادة (عرق)؛ المعجم، لياقوت ١٣٣/٦ ، ١٣٤.

(٢) الساحل: بالفارسية: (إيراه الملك). معجم ياقوت ١٣٤/٦.

(٣) معجم ياقوت ، مادة (الجبال) ٤٤/٣.

البلد الكثير النخل والشجر. وقال أيضاً: إن أصلاً ثانياً لاسم العراق يوجد في لغة العجم هو "إيراف" ومعناه مفيض الماء، فالبلاد التي قال إن العجم أطلقوا عليها اسم العراق، هي كثيرة الأشجار، وهي بلاد ذات فيوض. وإنني أرجح أن تسمية "بلاد ما بين النهرين" "عراقاً" سبقت تسمية منطقة الجبال عراقاً في الاصطلاح العجمي، وأن المناطق التي ذكرها ياقوت سميت عراقاً لارتباطها بولاية العراق. وعلى كل حال فإن اسم العراق أصبح يخص بلاد "ما بين النهرين". ومن المعروف أن العراقين هما "الكوفة" و"البصرة".

ويقول "ياقوت" أيضاً: إن العراق الذي افتتحه المسلمون في عهد "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه هو "السواد"، وحد السواد في معجم ياقوت: (من "حديثة الموصل" طولاً إلى "عبادان"، ومن "العذيب" بالقادسية إلى "حلوان العراق" عرضاً. أما العراق في العرف فطوله يقصر عن طول السواد، وعرضه مستوعب لعرض السواد)[١] وفي رأي "المدائني": (إن عمل العراق في أيام بني أمية، من "هيت"[٢] إلى "الصين" و"السند" و"الهند" و"الري" و"خراسان" و"سجستان" إلى "الديلم" و"الجبال"، و"أصبهان": سنه العراق)[٣]. ولعل هذا هو السبب في تسمية الجبال بالعراق كما رجحنا ذلك، ويقول بعضهم: إن العراق هو السواد[٤].

وأرض ما بين النهرين قبل أن تسمى عراقاً كان يطلق عليها أولاً: اسم: بلاد "سومر" و أرض "أكاد" ثم بلاد "بابل وآشور" ثم بلاد "كلدان" باسم قبيلة "بختنصر"، وأخيراً العراق.

---

(١) معجم البلدان، مادة (السواد) ١٥٩/٥ .

(٢) هيت بلد على الفرات.

(٣) معجم البلدان، مادة (عراق) ١٣٥/٦. ولعله يقصد بسنه بابه.

(٤) معجم ياقوت ١٣٥/٦.

٢- ولقد قسم المؤرخون - عرباً وغير عرب - سكان العراق من أقدم العصور إلى جبليين لهم صفاتهم الخاصة بهم، وإلى سهليين لهم صفاتهم الخاصة بهم. وكذلك قسم الجغرافيون أرض العراق إلى قسمين: جبلي وله طبيعة الجبال، وسهلي وله طبيعة السهول.

ونحن إذا تقصينا وحدة العراق الجغرافية والتاريخية نجدها تمتد إلى ما بعد غربي الفرات، ونجد دجلة يجري في أرض العراق العربي. فكثيرون الذين يسمون نهري دجلة والفرات: الرافدين. ونجد اسم بلاد ما بين النهرين، مرادفاً لاسم العراق. أما الجزء الذي هو قسم من جزيرة العرب فإننا نجد في "صفة جزيرة العرب" للهمداني: تنتهي حدود العراق عند ضفة الفرات الغربية. ونجد حدود العراق السياسية تتجاوز الفرات ممتدة نحو الشرق، ولذلك ثار خلاف بين جغرافيي العرب على حدود العراق، فبعضهم خلط الحدود الطبيعية بالحدود السياسية!!

وجاء في "موسوعة تاريخ العالم": (يمتد سهل ما بين النهرين - العراق الحديث - مسافة ستمائة ميل من المنحدرات الجنوبية لهضبة "أرمينيا" التي ينبع منها نهرا الفرات ودجلة حتى " الخليج العربي" الذي كان يصل في العصور القديمة إلى قرب بلدة "أور" على نحو ستين ميلاً شمالي الساحل الحالي، وينقسم هذا السهل إلى "آشور" في الشمال و "بابل" في الجنوب، والحد بينهما خط عرض (٣٤°). أما المدن الهامة في "آشور" في عصورها الأقدم من التاريخ، فهي المدن الملكية الأربع على نهر دجلة أو بالقرب منه، وأسماء هذه المدن هي: "كالاه" و "نينوى" و "دور شاروكين"، وهذه تسمى الآن خورساباد، و "إربل" السومرية هي: "إربل" المعروفة اليوم، وإربل المعروفة هي أقدم مدينة باقية في العالم[1].

---

(١) يقال: إن الآشوريين سموا باسم إلههم آشور، أو باسم أقدم عاصمة لهم، أو باسم أعلى جد لهم في رأي النسابين.

وأهم مدن شمالي بابل هي "بابل"، وبابل معناها: باب الإله، ومنها مدنها "بورسيا"، و"دلبات"، و"كش"، و"كثاه"، و"أدبس"، و"سيبار"، و"أكاد". وأهم مدن جنوبي بابل هي "نيبور"، و"آداب"، و"لجاش"، و"أما"، و"لارسا"، و"أرخ - أورك"، و"أور". وأغلب مدن بابل تقع على نهر الفرات[١]. وأكثر هذه المدن كانت عواصم لإمارات ودول قامت في بلاد ما بين النهرين قبل الميلاد.

ولقد احتل السومريون الإقليم الجنوبي "سومر" - في الألف الرابع قبل الميلاد[٢]. كما احتل "الأكاديون - الساميون" الإقليم الشمالي. وتقول موسوعة تاريخ العالم: (جاء إلى "بابل: في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد العموريون - الساميون من شمالي سورية، وأسسوا أسرة "حمورابي"، وجاء جماعة من سكان الجبال غير المتحضرين من الشمال الشرقي حوالي سنة ٢٢٧٠ق.م. - هم "الكوثيون". وقدم سنة ١٦٠٠ق.م. الكاشيون، وأخيراً هجم "الآراميون" الساميون على السهل الممتد على مجرى الفرات حوالي سنة ١١٠٠ق.م. ومن إحدى قبائلهم - أي الكلدانيين - أسرة بختنصر)[٣].

٣- ومما هو جدير بالملاحظة أن العداء بين "بابل" و "نينوى" قديم جداً، فقد ذكر المؤرخون العداء الذي كان بين سكان الجبال وسكان السهول في عصور ما قبل الميلاد وما بعده، ولقد استمر العداء دفيناً بين "الحمورابيين" و "الآشوريين" تثيره التوافه من الأحداث، ولا يزال كذلك يشعل الفتن من قبل الإسلام ومن بعده إلى اليوم.

---

(١) موسوعة تاريخ العالم ٥٢/١ . وفي غير موسوعة تاريخ العالم: (بابل) في اللغة السريانية معناها: النهر. وبابليون معناها النهر الكبير: بابل نهر، ويون كبير.

(٢) هذا رأي الموسوعة ٥٣/١ . وفي مصادر أخرى أن أقواماً سامية احتلوا قسماً من الجنوب غلبهم عليه السومريون ثم تغلب أخيراً الحمورابيون الساميون فطردوا السومريين وطمسوا صفحتهم.

(٣) موسوعة تاريخ العالم ٥٣/١.

ويصف لنا "ل. ديلابورت": إقليم بابل وصفاً جيولوجيًا واضحاً: (إن إقليم بابل الذي عرفه الكتاب الأقدمون: اليونانيون، والرومان ينطبق تماماً على ذلك السهل الذي كونه نهرا دجلة والفرات عند وصولهما إلى البحر، وكوناه من تراكم الرواسب التي تأتي موادها من جبال "أرمينيا" حيث يوجد منبعا هذين النهرين. وحدود هذا الإقليم الطبيعية هي: في الغرب الصحراء العربية حيث توجد البادية العربية، وفي الشمال السهل الأعلى لبلاد ما بين النهرين - حيث يوجد الآشوريون - يفصل بين هذا الإقليم وبين الآشوريين خط يبدأ من "حت" أي هيت على الفرات، ويبلغ دجلة على مسافة قليلة شمالي ملتقى "الأدهم". وفي الشرق التحصينات الأخيرة من التلال التي تكون الحد الحالي لبلاد "الفرس"، حيث توجد قبائل من أصول مختلفة استقرت في جميع الأودية ، ومن هنا يأتي الحجر والمعادن وخشب البناء. وفي الجنوب الخليج العربي، ومستنقعات لا تكاد تمتد الملاحة خارجها). وبعد أن تكلم عن السومريين والمنطقة التي كانوا يعيشون عليها انتقل بكلامه إلى الساميين فقال: (أما الساميون فكانت لهم مدن "بابل" و"سيبار" و"كيش" وأوبيسي" و"أكشاك" و"كوثا" و"أكد - أجادة". وهذه المدينة الأخيرة أسسها "سرجون" في القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد وأطلق اسمها على كل الإقليم: أرضاً وسكاناً)[1].

ويقول: "ول ديورانت"[2]: (وبلاد "بابل" بفضل ماء النهرين الغزير، وبكد الساميين أضحت جنة الساميين وحديقة آسيا، وكانت بابل من حيث تاريخها وجنس أهلها مزيجاً من تزاوج سلالتين: الأكديين والسومريين، وكانت الغلبة في السلالة الجديدة للأصل السامي الأكدي. وكان البابليون ساميين في مظهرهم سود الشعر سمر البشرة، رجالهم ملتحون، ويضعون على رؤوسهم أحياناً شعراً مستعاراً وكانوا رجالاً ونساءً على

---

(١) بلاد ما بين النهرين، ص ١٣ - ٢٠ وما بعدها.

(٢) قصة الحضارة ١٨٨/٢ وما بعدها. والذي يلفت النظر أن الشعر المستعار الذي يسمى اليوم: "باروكة" اتخذ من قبل الميلاد بأكثر من ألفي عام.

السواء يطيلون شعر رؤوسهم ويرسلونه ضفائر على أكتافهم)[١]. ويقول عن الآشوريين[٢]: (ونشأت دولة "آشور" حول أربع مدن ترويها مياه نهر "دجلة" وروافده، وهي "آشور" ومحلها "قلعة شرغات"، و"إربل" وهي "إربل" الحالية، و"الكلخ" وهي الآن "نمرود" و"نينوى" وهي "قويونجك" على الضفة المقابلة لمدينة الموصل. والآشوريون خليط من الساميين ومن قبائل غير سامية جاءت من الغرب. ولقد صاغت الآشوريين ظروفهم الخاصة فظلوا طوال حياتهم شعباً محارباً مفتول العضلات غزير الشعر كث اللحى معتدل القامة عابسة وجوههم ثقيلي الظل يطؤون بأقدامهم الضخمة عالم البحر المتوسط، ولعل هذه الصفات الخلقية هي نتيجة الحياة العسكرية الشاقة التي أرغمتهم عليها القبائل الجبلية). ويقول عن السومريين: (إنهم قصار القامة لهم أنوف شم مصفحة ليست كأنوف الأجناس السامية، وجباه منحدرة قليلاً إلى الوراء، وعيون مائلة إلى أسفل، وكان كثيرون منهم ملتحين، وبعضهم حليقين، وكثرتهم العظمى يحفون شواربهم، وكانوا يتخذون ملابسهم من جلود الغنم، ومن الصوف المغزول)[٣].

ويقول "هـ.ج. ويلز"[٤]: (وفي قريب من سنة ٢٧٥٠ق.م. كان قائد سامي عظيم هو "سرجون" قد فتح بلاد "سومر" وأصبح سيداً للعالم كله من "الخليج العربي" إلى البحر المتوسط. وبعد قرنين من الزمن انحطت الإمبراطورية التي أسسها "سرجون"، فوقعت البلاد في أيدي "العيلاميين"، فجاء شعب سامي جديد، هم "العموريون - الأموريون"، فوطد بالتدريج دعائم حكمه في سومر. واتخذ "الأموريون ـ الأرميون": "بابل" عاصمة لهم، وكانت حتى آنذاك مدينة صغيرة بأعالي النهر. ثم أصبحت عاصمة الإمبراطورية البابلية السامية في لغتها وسماتها).

---

(١) ما زالت هذه العادة في نجد إلى وقت قريب وموجودة الآن في البادية.

(٢) قصة الحضارة ٢/٢٦٤ وما بعدها.

(٣) قصة الحضارة ٢/١٥.

(٤) موجز تاريخ العالم، ص٦٦ .

يقول "جوردون تشايلد"[1]: (وأصبح "سرجون" بطلاً خيالياً تذكره الملاحم التي وجدت أقسام منها في "تل العمارنة"، ومنها الوثائق التي تتحدث عن "سرجون" الذي يفاخر بأنه جعل سفن "ملوخة - بلاد العرب" وسفن "ماجان" أي "عمان - بلاد النحاس" وسفن "ديمون - البحرين" تلقي مراسيها أمام "أكاد"، ويفخر ابنه "مانشتوسو" بأن سيطرته امتدت حتى مناجم الفضة، وأنه أخذ الحجارة من جبال البحر الأدنى).

ويقول "غوستاف لوبون"[2]: (ما جاد به نهرا الفرات ودجلة على أرض العراق من الخصب والرخاء لم يكن أقل مما أسبغه نهر النيل على أرض مصر، على أن معظم أرض ما بين النهرين اليوم ليس إلا صحراء اندفنت في جوفها بقايا المدن القديمة فصارت آكاماً). وعن الجنس قال: (يتعذر علينا جداً أن نعرف بالتدقيق أصل جنس سكان "كلدة"، أما الآشوريون فقد اتضح أنهم لم يكونوا من غير الساميين، والذي يظهر أن "الكلدانيين" كانوا منذ أقدم الأزمان ينقسمون إلى شعبين: "سومر" و "أكاد"، والذي يستنتج من بعض الافتراضات الكثيرة التي عمد إليها المؤرخون لحل هذه المسألة المعقدة هو أن "بابل" كانت مأهولة بخليط من الأجناس يتخللهم العنصر "الكوشي" ثم أخذ هذا الخليط يتجانس حتى طغى عليه العنصر السامي الذي كانت له الغلبة أخيراً).

فالسومريون هاجروا إلى العراق من بلد مجهول، هم أنفسهم يجهلونه، فلقد مضى عليهم زمن طويل وهم يتنقلون من بلد إلى آخر قبل أن يستقروا في بلاد ما بين النهرين.

٤- ونحن بعد أن عرفنا شيئاً مما قاله جغرافيو العرب عن العراق وحدوده، وعرفنا شيئاً مما قاله المستشرقون عن العراق وإطاره الجغرافي، وتاريخه القديم يظهر لنا أن حدود العراق في رأي المؤرخين العرب تتسع وتضيق حسب الأوضاع

(١) ماذا حدث في التاريخ، ص ١٤١.

(٢) بابل وآشور، ص ٩ - ١٨.

الإدارية، وإنا لنلمح ذلك في قول "المدائني" : (العراق هو بابل)، ولقد علق على قول المدائني ياقوت فقال : إن العراق هو السواد. وإن حدود السواد هي حدود العراق، مع الفارق الذي وضح فيما تقدم.

وعرفنا أن حدود العراق في مؤلفات المستشرقين تمتد شمالاً إلى هضاب أرمينيا حيث تنتهي سهوله شمالاً، وتنتهي في الجنوب عند مياه الخليج العربي، وتصل في ناحية الشرق إلى التلال التي كونت حداً طبيعياً بين العراق وبين إيران، ومن ناحية الغرب تحده بادية شمال الجزيرة العربية: بادية العراق وسورية.

علينا بعد هذا أن نبين الحدود التي اقتنع بها البحث، فالعراق هو الطرف الشرقي للهلال الخصيب. والهلال الخصيب هو القسم السادس من أقسام جزيرة العرب، فحدود العراق الطبيعية هي كما يرجح: يحده من الشمال نهر الفرات، وكذلك من الشرق، ويحده من الغرب البادية، ومن الجنوب العروض ونجد. ومن المفيد هنا أن نسترعي الانتباه إلى أن الحدود الطبيعية في مفهوم القدامى ليست هي مثل الحدود السياسية التي تشطر الوادي والجبل إلى قسمين. فمثلاً الحد الشرقي السياسي للعراق ليس هو الضفاف الغربية لنهر دجلة، بل هو مجرى دجلة كله إلى تلك التلال التي تفصل بينه وبين "إيران".

فحدود العراق السياسية في الوقت الحاضر، بما في ذلك حصة العراق من البادية، هي من الشمال تركيا، ومن الجنوب الخليج العربي، والكويت، و"المنطقة المحايدة بين العراق والمملكة العربية السعودية"، و "نجد" من المملكة العربية السعودية، ومن الشرق إيران من وراء نهر دجلة شرقاً، ومن الغرب "الأردن" و"سورية" ببواديها، وجزء من تركيا.

وحدود العراق السياسية - لم تتقيد في يوم من الأيام بحدوده التي رسمها له الجغرافيون القدامى، والتي نستشفها من وراء اسم "شط العرب"، فشط العرب - اسم

يطلق على الجزء الأخير من نهري دجلة والفرات. ويبلغ هذا الجزء الذي يتلاقى فيه النهران نحواً من ستين ميلاً.

فعلى ذلك إن المواضع التي تحد العراق من "بلاد فارس" شرقاً ابتداءً من الجنوب إلى الشمال هي: "خوزستان - عرب ستان" و"لورستان" و"كرمنشاه" و"كردستان" و"أذربيجان".

وألوية العراق: "الموصل"، و"الجزيرة"، و"الديلم"، و"أربيل"، و"كركوك"، و"السليمانية"، و"بغداد"، و"ديالى"، و"الكوت"، و"كربلاء"، و"الحلة"، و"الديوانية"، و"المنتفق"، و"العمارة"، و"البصرة"، و"البادية الشمالية"، و"البادية الجنوبية".

٥- ومن الطبيعي أن تختلف مساحة العراق باختلاف تحديده. فكلما اتسعت حدوده اتسعت مساحته، وكلما ضاقت حدوده صغرت مساحته، وكذلك عدد السكان يكثر ويقل تبعاً لمساحة الأرض. فإذا نقصت الأرض تنقص بسكانها، فأرض العراق ليست خلاء من السكان.

ولا شك في أن العراق كان منذ عصوره الأولى مزدحماً بسكانه ولا يزال إلى اليوم يزدحم بالسكان. فمن المرجح أن نفوسه حسب الإحصائيات في العصر الحاضر لا تزيد على عدد سكانه في العصور القديمة. فعلى أرض العراق تزاحم المهاجرون من الجزيرة العربية ومن جبال "أرمينيا" منذ أقدم العصور. وعدد نفوسه في الوقت الحاضر يقدر بنحو ستة ملايين.

٦- ويؤكد علماء الآثار أن صفة أرض العراق تطورت مع الزمن الطويل. فمن دراسة هؤلاء ظهر أن نهري دجلة والفرات لم يجتمعا في "شط العرب" في العصور القديمة، فلقد كانا في بداية التاريخ مستقلين يسير كل منهما في مجراه إلى أن يصب في "الخليج العربي". وكان بين مصبيهما نحو عشرين فرسخاً، وقد تجمع من رواسبهما مثلث يشبه دلتا النيل[١].

(١) بابل وآشور، لغوستاف لوبون، ص١٠ ؛ بلاد ما بين النهرين، ص١٤.

ولقد كانت فروع نهر الفرات كثيرة. ولقد حفر أمير "لاجاش" - ولاجاش مدينة قديمة تقدم ذكرها - قناة تصل بين النهرين، وكان من جرائها تحول مجرى دجلة نحو الشرق.

٧- ومياه دجلة المتدفقة على نقيض مياه الفرات المنسابة، لأن ارتفاع ضفاف دجلة لا تجعله ينساب هادئاً، ويبدأ فيضانه في أول مارس، ويبلغ الفيضان أشده في الأيام الأولى من شهر مايو، وينتهي حوالي منتصف يونية، وتوجد على شواطئه المستنقعات. أما الفرات فمياهه أقل، ويبدأ فيضانه متأخراً بنحو خمسة عشر يوماً، ولا ينتهي قبل شهر سبتمبر، وأما شطآنه فهي أقل ارتفاعًا، ولذلك ينتشر بسهولة في السهل ويضفي عليه فيضاناً مباركاً، ولقد فضل السكان الأولون ضفافه لإقامة مدنهم. ومجرى الفرات الحالي لا يصل إلى أطلال معظم مدن الماضي القديم[(١)].

فمعظم أرض ما بين النهرين أصبح اليوم صحراء دفنت في جوفها بقايا المدن القديمة، فصارت آكاماً وتلالاً. ولقد دلت المدن التي أظهرها الكشف الأثري على عمران فخم وحياة رغيدة دفنها الدهر تحت هذه الرمال، حتى إن الأرض التي كانت في ماضيها القديم ذات خصب وإنتاج وفير أصبحت كأنها سئمت الإنتاج، فإذا ما بعثت فيضانات الربيع الحياة فيها داهمتها رياح الصيف الملتهبة فعاد لها الشحوب والجفاف[(٢)]. ويقول: "غوستاف لوبون": (وفي شمالي "الموصل" حالت الجبال بين مجرى النهرين فاضطرا أن يخترقا منفذاً فيها حيث تتجمع المياه وتدور بين جدارين مرتفعين من حجارة سوداء شديدة الصلابة، وإن نقطة الانفصال بين المناطق "الكلدانية" و"الآشورية" ظاهرة من ممر طبيعي في أعالي بلدة "هيت" على الفرات، و"سمرة" على دجلة. وقد تقدم اسم "هيت" بلفظ "حت" في كلام "ل. ديلابورت"، وهذا المرتفع من الأرض

---

(١) بلاد ما بين النهرين، ص١٤ ؛ موسوعة التاريخ العام، ص٥٣.

(٢) بابل وآشور، ص ١٠.

الذي يشبه شاطئاً رملياً لبحر عظيم كان على ما يظهر في العصور القديمة ساحلاً حقيقياً ترتطم عنده أمواج البحر الذي يطلق عليه الآن اسم الأوقيانوس الهندي).

ويظن الكثيرون أن سهل العراق كان قبل التاريخ مغموراً بمياه الخليج العربي إلى مسافة أربعين أو خمسةً وأربعين فرسخاً[١]، وعند ذلك المرتفع الذي يفصل بين أراضي بابل وآشور تنتهي الأراضي الغرينية المستوية، وتبدأ حزون المراعي في شمالي العراق[٢].

٨- والمدن التاريخية في العراق كثيرة، فمدينة "أربيل" هي مدينة "أربلم" السومرية أقدم مدينة باقية في العالم، ومن أهم المدن التاريخية في شمال العراق المدن الآشورية التي منها "آشور" و "نينوى" و "كالاه". ومن أهم المدن البابلية في جنوب العراق "بابل" و"أكاد"[٣] ولقد سبق أن ذكرنا أسماء المدن التي دفنها الزمن في أوائل هذا البحث.

وأقدم مدينة عند المؤرخين العرب هي "سوق الثمانين" التي كانت مقر ولد نوح وأبنائهم والتي هاجر منها من هاجر من أبناء نوح إلى مشارق الأرض ومغاربها[٤].

وأما مدن العراق في الوقت الحاضر فأشهرها "بغداد" مدينة العباسيين وعاصمتهم، وعاصمة جمهورية العراق في الوقت الحاضر، و"الكوفة"، و"البصرة" و"كربلاء"، و"النجف"، و"الناصرية"، و"الموصل"، حاضرة الشمال، و"السليمانية"، و"كركوك"، و"أربيل" المدينة السومرية الأصل، و"البديع"، و"كوت العمارة"، و"العمارة"، و"بعقوبة".

---

(١) بابل وآشور، ص ١٢.

(٢) الرافدان، لستين لويد ؛ ترجمة طه باقر.

(٣) موسوعة التاريخ العام، ص ٥٢.

(٤) تاريخ الطبري ١/ ١٤٠.

البحث الرابع :

عصور العراق السياسية :

١- ماضي العراق السياسي خطير وعميق.

٢- سنو دول ما قبل الطوفان وما بعده.

٣- الدول العربية في عصر الساسانيين.

٤- أرض العراق قل أن تجف من الماء.

٥- هل العراق صنع الحضارة قبل مصر كما يقول الأثريون؟

٦- دول العراق من بداية تاريخه إلى اليوم.

١- للعراق ماض سياسي طويل وخطير بدأ من فجر تاريخ منطقة الشرق العربي، ففي التاريخ الديني، والتاريخ الديني عرفته في جزء "التاريخ العربي ومصادره" من هذه السلسلة "العرب في أحقاب التاريخ"، في هذا التاريخ ذكر العراق على أنه وطن "إدريس" و "نوح". وكذلك البحوث التي اعتمدت على الآثار ذكرت العراق على أن عصوره الذهبية سبقت الميلاد بأكثر من ثمانية آلاف عام، وعهود ما قبل ثمانية آلاف عام هي العصور الخيالية التي تحدث عنها الأثريون على ضوء ما وصلوا إليه من آثار، وتحدث عنها الكلاسيكيون العرب على ضوء ما جاء في الأخبار التي اعتمد عليها المفسرون في تأويل ما جاء في الكتب المقدسة عن "آدم" وتعبده عند البيت الحرام، وكيف وجد "إبراهيم" الكعبة على هيئة أكمة حمراء، وعن "إدريس"، ومعارف الإنسان وحضارته في عهد إدريس، وعن نوح وكفران أمته بأنعم الله، وعن طوفانه، وعن بيته في سوق الثمانين.

٢- وسنو دول ما قبل الطوفان في جدول بروسوس (٤٣٢،٠٠٠) أربعمائة واثنان وثلاثون ألف سنة، وسنو دول ما بعد الطوفان التي سبقت دولة مادي بلغت (٣٤٠٨٠) أربعة وثلاثين ألفاً وثمانين عاماً، ثم دولة مادي وقد بلغت سنوها (٢٢٤) مائتين وأربعة وعشرين عاماً، ثم الفترة التي لم يذكر عدد سنيها في جدول بروسوس والتي تشمل على ما يبدو: "العصر السومري". والسومريون هم الذين تغلبوا على سكان العراق العرب، ثم يذكر بروسوس عهد الساميين الذين استعادوا العراق بقيادة "سرجون"، وعهد الساميين الذين سادوا في العراق بقيادة زعيمهم ورائدهم "حمورابي"، ودولة أسرة حمورابي قامت بعد اضمحلال إمبراطورية سرجون الثاني بحوالي قرنين أو أكثر سنة ٢٤١٦ق.م. تقريباً. فمن حوالي سنة ٢٤١٦ق.م. تعاور على السيادة في العراق "الحمورابيون - البابليون" و"الآشوريون - النينويون". فأولاً كانت إمبراطورية "بابل" هي الدولة العظمى، وكانت من ولاياتها "نينوى" حاضرة بلاد آشور. ثم تألقت إمبراطورية "نينوى" الآشورية فصارت "بابل" حاضرة الكلدانيين ولاية آشورية. ثم قامت دولة

"بختنصر" الكلدانية، فدولة "دارا" الفارسية. ثم كان الغزو الإسكندري بداية التاريخ اليوناني في أطراف العراق. ثم دولة "الحضر" التي تحدث المؤرخون العرب عن ترفها في قصة غرام بنت ملك "الحضر" بالعاهل الفارسي، تلك القصة التي نستشف من وراء خيالها مدينة تاريخية تسمى "الحضر". وقيل: إن الحضر كان حصناً اتخذ قاعدة لدولة عربية عراقية قامت في الجزيرة تنازع السيادة عليها عاهلان: "الساطرون" الحضري، و "الضيزن" الضجعمي. و "الضجاعمة" بطن من "سليح"، وسليح جاءت مشارف الشام مع "التنوخيين" إخوانهم، وسليح ورثت تنوخ في مشارف الشام. وكانت الدولة منهم في "الضجاعمة" الذين انتقلوا من الشام بعد أن دالت دولتهم إلى العراق في "الحضر" قرب "تكريت". ويقول "سليمان الصائغ" في مؤلفه "تاريخ الموصل": إن قبائل "بني كلب" و "بني نمير" و "بني خفاجة" انتشرت قبيل الإسلام فيما بين الجزيرة والشام، وسكن "بنو تغلب" قريباً من "الموصل".

٣- فالحضر على ما نستشفه من أقوال القدامى مدينة قرب "تكريت" كانت تشبه الحصن بقلاعها وبروجها اتخذها "الضيزن" قاعدة لحكومته. والضيزن في أقوال القدامى ملك عربي واسع الطموح، اصطدمت أهدافه بمطامع "سابور بن أردشير"، فكانت حرب الأربع سنوات، وكانت قصة غرام ابنة الضيزن بسابور التي انتهت بتلك المأساة التي نقرؤها في المؤلفات العربية.

وتاريخ اللخميين في العراق تحدث عنه المؤرخون بشيء من التفصيل، والأخبار المفصلة قلّ أن تسلم من التناقض، فقليلة هي الأخبار المفصلة المتفق عليها. ومن الأخبار التي يكاد يجمع عليها المؤرخون العرب ما قالوه عن "جذيمة الأبرش" أو الأبرص، أو الوضاح، وأنه هو المؤسس الحقيقي[1] لدولة "آل نصر" في العراق الحقيقي، فهو الذي ثبت ووسع نفوذ أبيه

(١) دائرة المعارف، لفريد وجدي، مادة (عرب) ٢٤٦/٦ . والمضيرة بين بلاد الخانوقة - وقرقيسيا، والخانوقة، مدينة على الفرات قرب "الرقة". وقرقيسيا مدينة على نهر الخابور في أرض العراق.

"مالك بن فهم" ملك دولة "تنوخ" الذي اتخذ "المضيرة" عاصمة لدولته، مثلما كان "جفنة بن عمرو بن مزيقياء" المؤسس لدولة "الغساسنة" في الشام.

فدولة جذيمة الأبرش قامت في القرن الثالث الميلادي واشتملت على "السواد" ما بين "الحيرة" و"الأنبار" و"الرقة" و "عين تمر" و"القطقطانية" والقرى المجاورة لبادية الشام. ويقول "جرجي زيدان"(١): إن "جذيمة" معاصر لملكة تدمر "زينب"، وبذلك يكون من أهل القرن الثالث الميلادي. ويقول: إن "جذيمة" حكم ستين سنة، وإن "عمرو بن عدي" ورث ملكه. فبعملية حسابية بسيطة نعرف أن جذيمة الأبرش المؤسس ورث أباه سنة ٢٠٨م وأن ابن اخته "عمرو بن عدي" ورثه سنة ٢٦٨م واتخذ "الحيرة" حاضرة لدولته، فيكون "عمرو بن عدي" هو أول ملك عربي اتخذ الحيرة عاصمة، وأول ملك ذكره أهل الحيرة في كتبهم. والحيرة مدينة قديمة ذكرها نص يعود تاريخه إلى سنة ١٣٢م كانت في المكان الذي قامت فيه مدينة "الكوفة".

ولقد حفلت مؤلفات التاريخ السياسي بأخبار دول اللخميين وملوكهم الذين ارتبطوا بأحلاف مع دولة "المدائن" الساسانية فرضت عليهم نفوذ فارس، فكثيرة هي أخبار المناذرة اللخميين مع الأكاسرة الساسانيين، كما حفلت مؤلفات التاريخ الأدبي بأخبار الشعراء في بلاط النعمان وآبائه وحفدته، وبما لملوك الحيرة من هيبة ونفوذ على كثير من القبائل العربية، وبما لقصورهم من فخامة، مثل "الخورنق" و"السدير" وغيرهما، وبما يملكون من حمر النعم وسودها، وبما يتمتعون به من أبهة وحياة وارفة - بكل ذلك تحدث الشعراء، وفي كل ذلك ألفت القصص.

٤- وتاريخ العراق في بحوث المحققين دامٍ، كله صراع مروع وخصام شرس. فلقد شهدت أرضه مجازر الحروب والثورات من قبل أربعة آلاف عام، من قبل "بابل"

---

(١) العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان، ص ١٩٥ وما بعدها.

و"آشور" إلى عصر الجمهورية العربية العراقية. وشهدت صراع العنصرية العربية والفارسية من عصورها الجاهلية، فالصراع العنصري لم يفارق أرض الرافدين من عهد نوح، فالجبليون عنصر، والسهليون عنصر، والسومريون عنصر، والساميون العرب عنصر، والفرس عنصر، كل هذه العناصر ازدحم بها العراق واصطدم بعضها ببعض في أرضه وتصارعت على خيراته.

ولقد شهدت الحيرة وضواحيها أنواعاً من الطائفية، شهدت قبائل "تنوخ" العربية التي تجمعت حول الحيرة، وعن تنوخ تقدم الكلام في مبحث "العروض"، وطوائف "العباد"، والعباد اسم خاص بنصارى العرب في الحيرة، و "الأحلاف" هم غير تنوخ، وغير العباد. فالأحلاف أجناس مختلفة فارسية وغير فارسية استوطنت العراق.

ومثلما شهد العراق صراعاً مستمراً، شهد أيضاً صراعاً عقائدياً مستمراً، فلقد اجتمعت فيه قبل الإسلام: المجوسية الفارسية، واليهودية الإسرائيلية، والمسيحية الرومانية. ولقد عانى العراق من المذاهب العقائدية بعد الإسلام شيعة وسنة وخوارج ما عاناه، ولقد تداعت اليوم عليه المذاهب السياسية شيوعية ورأسمالية.

أجل! لقد كانت الخصومة العنصرية في العراق دامية من أقدم عصورها، من عهد السومريين والأكاديين إلى القرن الرابع عشر من الهجرة. فالفارق بين الآشوريين قبل الإسلام وبين العباسيين بعد الإسلام أن دولة آشور عربية في ثياب الشعوبية وحقدها، أما دولة العباسيين فقد بدأت شعوبية في ثياب عربية، ثم انتهت كما بدأت.

٥- ومن المعروف أن العراق كان من فجر تاريخه من مصانع الحضارة ومدارس العلم والأدب، وأن فجر التاريخ العراقي هو أول فجر لاح للباحثين. فعن حضارة ما قبل الطوفان في العراق تحدث المحققون وقالوا: إن العراق سبق مصر في تاريخ الحضارة. فـ"غوستاف لوبون" يقول: (كان الإغريق الراسخون في المدنية يقولون بأعلى صوتهم:

إنهم أخذوا مدنيتهم عن مدارس العلم القديمة التي ازدهرت فوق مجرى الفرات الأدنى في العصور القديمة، ولذلك كان يقول: "ديودورس" و"هيرودوتس" و"سترابون" و"أرسطو" وآخرون: إن نمو العقل البشري كان مترعرعاً وكاملاً فوق ضفاف الفرات قبل أن يولد ويظهر على ضفاف النيل)[1].

وعن مدارس الحيرة والأنبار، وعن الأدب السرياني، وعن الشعراء الذين كان بلاط اللخميين حافلاً بهم، وعن فحول شعراء الحيرة مثل "عدي بن زيد" تحدثت كتب التاريخ الأدبي، وليس عصر مدرستي الكوفة والبصرة عنا ببعيد.

٦- فتاريخ العراق الجغرافي والسياسي حفل بكل ما تحفل به تواريخ الأمم المتطورة، فلقد حفل تاريخه الجغرافي بالعناصر وحضاراتها، وحفل تاريخه السياسي بالدول والشرائع والنظم السياسية. فمن بداية التاريخ الحقيقي، في نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد بدأ عهد "حمورابي"، فحول هذا التاريخ قامت دولتان عراقيتان هما: دولة "بابل" ودولة "آشور"، ثم قامت دولة "بختنصر" الكلدانية، فدولة "دارا" الفارسية. ثم كانت الدول اليونانية في أطراف العراق، بعد الغزو الاسكندري في القرن الرابع قبل الميلاد. فمن عصر "دارا" سنة ٥٢١ق.م. إلى سنة ٢٠٨م، عصر "جذيمة الأبرش"، كان العرب في كر وفر مع دول العراق المستعمرة، إلى أن تغلب الساسانيون على "الضيزن" ملك الحضر، وارتبطت الحيرة سياسياً بالمدائن.

ثم أسفر صبح الإسلام، فتبع العراق "المدينة المنوّرة"، عاصمة الخلفاء الراشدين. ثم تبع "دمشق" عاصمة الخلفاء الأمويين. ثم كانت "بغداد" عاصمة العباسيين. ومن المعروف أن "الخلفاء العباسيين" لم يحكموا العالم الإسلامي جميعه. فقد استقل الأمويون بالأندلس من بداية التاريخ العباسي. وإن التاريخ العباسي مليء بالدول التي

(١) بابل وآشور، ص ٥٢ ؛ والجزء الأول من هذا المؤلف (التاريخ العربي وبدايته) ٣٣٢/١.

استقلت عن بغداد: دول "الأدارسة" و "الأغالبة" و "الطولونية" و "الطاهرية" والصفارية" و"البويهية" و"الحمدانية" و"الغزنوية"، فمنذ سنة ٣٣٤هـ لم تكن الخلافة العباسية أكثر من سلطة روحية، فمن الدول التي كان لها استقلال إداري ثم تطور في فترات إلى استقلال سياسي: دولة "بني حمدان" في الموصل سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م إلى سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م، وبنو حمدان من أصل عربي، لهم تاريخ حربي وأدبي في "حلب" سجله لهم شاعران في طليعة الشعراء الإسلاميين، هما "أبو الطيب المتنبي" و"أبو فراس الحمداني"، ومن تلك الدول دولة "بني مزيد"، وهم بطن من "أسد"، وقد قامت دولتهم سنة ٤٠٢هـ / ١٠١٢م إلى سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م، وقد انتشروا في سواحل "القادسية" على الساحل الأيسر لنهر دجلة، وأنشأوا "الحلة" واتخذوها مقراً لها، وأخيراً انقسمت الخلافة إلى قسمين: "عباسي" في بغداد، و"فاطمي" في القاهرة، ثم انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة، فأصبح أئمة بغداد يدعون من فوق منابرها للخليفة الذي ينصبه سلاطين مصر، في القاهرة.

وبعد قيام دولة "آل عثمان" صار العراق ولاية من ولايات الخلافة العثمانية يخضع لأستانبول إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، حيث نصب الملك "فيصل بن الحسين" ملكاً على العراق سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢١م. وفي سنة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م تطور نظام الحكم في العراق من ملكية إلى جمهورية بثورة "عبدالكريم قاسم"، ولا يزال العراق إلى اليوم جمهورية عراقية عربية.

ولسوف يأتي في نهاية هذا الفصل: الهلال الخصيب بيان بدول العراق من أقدم عصوره التاريخية إلى اليوم.

البحث الخامس :

وسط الهلال الخصيب : البادية :

١- "السماوة" و"الحماد" هما قسما بادية الهلال الخصيب.

٢- قدامى سكان بادية الهلال الخصيب.

٣- من تاريخ بادية الهلال الخصيب.

٤- بادية الهلال الخصيب رائع باسم ومنه مروع عابس.

٥- أين تقع "تدمر" درة بادية الهلال الخصيب، وتاريخها؟

٦- قبائل "إياد" أشهر قبائل بادية الهلال الخصيب في جاهلية ما قبل الإسلام.

٧- أقدم من ذكر تدمر.

٨- هيكل "بعل" أثر من آثار حضارة "تدمر".

١- والبادية، وأقصد بها بادية الهلال الخصيب، تنقسم إلى قسمين: شرقي عراقي يسمى السماوة، وغربي شامي يسمى الحماد. والبادية هذه بقسميها هي قلب الهلال الخصيب الذي كان يمد العراق وسورية بالقبائل التي كانت تعيش فيه، وبالقبائل التي كانت تصعد إليه من نجد، ومن الحجاز، آتية من كل فج من الجزيرة العربية، تشد أزر الدول العربية في العراق وفي سورية من عهد الحمورابيين في العراق، والفينيقيين في سورية إلى عهدي اللخميين في الحيرة، والغساسنة في البلقاء. فمثلما كانت صحراء سيناء معبر القبائل العربية لوادي النيل، كانت بادية الهلال الخصيب معبراً للعراق وسورية.

٢- وعرفت بادية الهلال الخصيب لدى قدماء العراقيين بأنها وطن "العموريين" أي الغربيين، وعرفت عند قدماء السوريين ببلاد "الآراميين" أي الجبليين، ويحد هذه البادية من الجنوب "نجد" وبعض من "الحجاز"، ومن الشمال المرتفعات التي ينحدر منها "الفرات"، ومن الشرق العراق، ومن الغرب سورية.

٣- ولبادية الهلال الخصيب تاريخ قديم وحافل، فلو نطقت رمال هذه البادية لتحدثت عن الكثير من أحداث لم نعرف منها غير اليسير مما شهدته "تدمر" وسجله "أذينة" و"زينب - الزباء". أجل! لقد رأت هذه البادية الرائع والمروع، فما أكثر ما تجندل الأبطال على أرضها فسالت دماؤهم على رمالها! وما أكثر ما نصبت على أرضها مضارب زهيت بأجمل ما تزهى به حياة البادية! وما أكثر ما نزلت في آكامها القوافل العربية محملة بالخيرات، فأضاءت ظلامها، وحركت سكانها، فرددت أوديتها حداء رعاة الإبل وحراس القافلة وسمر الركبان ونكاتهم!

فلقد قطعتها جيوش "سرجون" البابلي، و"سلمنصر" الآشوري، و"دارا" الفارسي، و"الإسكندر" اليوناني، ولقد أضاءتها حضارة "تدمر" ومفاخر "أذينة" وأمجاد "زينب - الزباء".

٤- ويقول الجغرافيون: ليس البادية جميعها صحراء، بكل ما تعنيه كلمة صحراء، فأرضها تشبه أرض نجد والعروض، فما ينبت في صحراء هذه البادية من الأعشاب الفقيرة والنباتات الشوكية التي لا تصلح لغير رعي الأغنام هو مثل ما ينبت في أرض نجد والعروض من الأعشاب والنباتات، ومثلما توجد في "القصيم" من نجد و"الأحساء" من العروض مياه ساخنة فيها رائحة الكبريت، توجد في بادية الهلال الخصيب عيون كبريتية، وكما كانت المراعي في نجد والعروض تبعث النزاع والخصام بين القبائل، كذلك اصطدمت القبائل بعضها ببعض في مراعي هذه البادية. ومثلما تقوم بعض الجبال الكلسية في نجد تقوم سلسلة جبال "تدمر" وسلاسل الهضبة الوسطى، ومثلما توجد في نجد والعروض واحات خصبة هناك واحة تدمر، وهي من أشهر واحات الجزيرة العربية، لذلك قال الجيولوجيون: إن هذه البادية هي امتداد لصحراء نجد.

٥- وعاصمة هذه البادية وزهرتها في ماضيها القديم هي "تدمر"، وتدمر تقع في طرف الهلال الخصيب، ولا تزال إلى اليوم مدينة عامرة، ولقد شبه الهلال الخصيب بمثلث رأسه تدمر في الشمال، وساقاه حدود العراق في الشرق، وحدود سورية الكبرى ومشارفها على البحر المتوسط في الغرب، وأوسع مناطق هذا المثلث يبلغ (٨٠٠) ميل. وتدمر - المحطة التجارية الكبرى - هي عاصمة "أذينة"، وأذينة الزعيم والقائد العربي الذي احترمه وخافه الروم اختلف المحققون في تاريخه وتاريخ عاصمته تدمر، متى بنيت؟ ومن بناها؟ فبعض المتقدمين يقول: إن "سليمان بن داود" النبي الملك هو الذي بناها. وبعض المتأخرين ينكر ذلك لأن منطقة تدمر تقع خارج مملكة سليمان بن داود، ولأن وجودها محطة تجارية يضر بتخطيط سليمان بن داود التجاري الذي استهدف إحياء اقتصاد فلسطين بتحويل تجارة الشرق العربي إلى البحر المتوسط عن طريق البحر الأحمر. ويقول بعض المتقدمين: إن الذي بناها هو "سام بن نوح"، ويستبعد بعض

المتأخرين ذلك، لأن تاريخ آثار هذه المدينة لا يصل إلى عهد سام بن نوح. ويقول: إن "أذينة" سيد تدمر تفصل بينه وبين سام بن نوح عشرات القرون. وآخرون من القدامى يقولون: (إن "تدمر" بنت حسان بن أذينة بن السميدع حفيد سام بن نوح" هي التي بنتها)، ولكن تسلسل نسب تدمر بنت حسان هذه تنقصه حلقات كثيرة حتى يصل إلى "سام بن نوح"، والأقرب للبحث هو أن: "تدمر بنت حسان بن أذينة"، سميت باسم مدينة جدها - أو لعل المدينة أطلق عليها اسم حفيدة أذينة عاهل البادية.

ويقول جرجي زيدان: (والظاهر أن القوافل كانت تمر بتدمر من القرن السادس قبل الميلاد)[1].

ويقول جواد علي: (أما تاريخ تدمر، فلا نعرف من أمره شيئاً يذكر يعود إلى ما قبل الميلاد، وأكثر ما كتب عن مدينة تدمر يعود إلى ما بعد الميلاد.

والواقع أن تاريخ هذه المدينة بباديتها إن كان قديماً جداً، فالذي يعرف منه ليس كله بقديم جداً. فما نعرفه عنها: أنها كانت - كما تقدم - ميدان تجمع القبائل العربية في غابر الزمن، وطريقاً لأعظم قوافل الجزيرة العربية. فمنها ومن العروض كان العرب ينقضون على "السومريين" في جاهلية ما قبل التاريخ مثلما كانت تنقض قبائل إياد على الفرس في جاهلية ما قبل التاريخ مثلما كانت تنقض قبائل إياد على الفرس في جاهلية ما بعد الميلاد لإنقاذ العراق العربي من نفوذ سومر وفارس. ولقد برزت "تدمر" تحت الشمس في عهد أذينة ثم زنوبيا - الزباء، وعهد أذينة كان في القرن الثالث من الميلاد.

ويقول جواد علي: (إن الروايات العربية لم تتجاوز بعصور العرب في هذه المنطقة ميلاد المسيح، وإن هذه الروايات مغلوطة، فلا يعقل أن يكون العرب لم ينزلوا هذه

---

(١) العرب قبل الإسلام، ص٩٩ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ٥/ ١٢

البادية إلا في ذلك العهد، فكل الدلائل تشير إلى أن وجودهم كان قبل هذا العهد، وربما كان قبل الألف الثاني قبل الميلاد. ولقد كانت هذه القبائل تهاجم "أرض ما بين النهرين" و"الشام"، وكانت مصدر رعب للحكومات المسيطرة على الهلال الخصيب، وكانت تتنقل في هذه البادية الواسعة غير معترفة بفواصل ولا بحدود)[١]. ويؤيد قول جواد علي ألف دليل ودليل، ولكن الذي ينقصه الدليل هو إجماع العرب على هذه الروايات التي لم تتجاوز بعصور العرب في هذه المنطقة ميلاد المسيح!!

ومن الروايات العربية التي أشار إليها جواد علي روايات تقول: إنه في هذه البادية تجمعت قبائل حلف "تنوخ"، وتنوخ في كتب اليونان "ثانويت"، ولتنوخ دول في مشارف العراق ومشارف الشام، ودولة تنوخ في العراق هي الدولة التي أسسها "جذيمة" وتوارثها اللخميون، وقد تقدم الكلام عنها، كما ورث "دولة تنوخ" في أطراف الشام "الضجاعمة"، ثم كان عهد الغساسنة ومؤسس دولتهم "جفنة"، وكذلك تقدم الكلام عن دولة الحضر في العراق.

٦- ومن أشهر القبائل التي نزلت في سواد العراق قبائل "إياد"، وقبائل "بكر وتغلب" التي استنصرت بهما حكومة المدائن على "إياد" والاستنصار ببعض العرب على بعض إستراتيجية المستعمرين من الزمن القديم، فلقد كانت فارس تستعين باللخميين وبالقبائل التي ترتبط بهم، كما كان الروم يستعينون بالغساسنة والقبائل التي ترتبط بهم، وأخيراً استنصر الحلفاء الشعوب العربية ضد الأتراك ومن والاهم، ولا تزال الدول الشيوعية تؤلب حديثي العهد بالسياسة والحرية على إخوانهم.

٧- ويقول "جرجي زيدان[٢]": (وأقدم من ذكر تدمر لؤلؤة بادية الشام هو صاحب سفر الأيام الثاني، فقد سماهم تدمر أو تدمور ويقول بعضهم: إن اسم تدمر مشتق من

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ١/١٢٤.

(٢)العرب قبل الإسلام، ص ٩٨.

التمر، فتدمر ذات نخل يغل تمراً. أما تاريخ الاسم في اللغة العربية فلم يذكر العرب تدمر إلا بعد الإسلام، ويشيد رواة الأخبار بتاريخ "أذينة" و"زنوبيا" أو زينب مع الروم، ويقولون عنه: إنه حافل بالمفاخر والأحداث الجسام. فلقد كان أذينة عاهل تدمر يلقب في دولة الروم بملك الملوك، ولقد خضعت سورية جميعها وآسية الرومانية لملك الملوك الذي ورثته زوجه "زينب" نفوذاً ودهاء وشجاعة. فصعدت تدمر إلى مستوى بابل ونينوى فترة غير طويلة من التاريخ، ولكنها لامعة. فلقد ازدانت بعمران وخلفت خطاً عربياً ولهجة تحدثنا عنهما في الجزء الأول من هذا الكتاب الذي صدر بعنوان: "التاريخ العربي وبدايته". وبلغت من الثراء ما بلغته في عصرها الذهبي.

٨- ومن آثار حضارة تدمر "هيكل بعل"، وهيكل بعل أو هيكل الشمس يصفه جرجي زيدان قائلاً: (إنه مربع يبلغ طول كل ضلع منه سبعمائة وأربعين قدماً، يحيط به سور علوه سبعون قدماً، وفيه من الأساطين الفخمة الباقية إلى الآن ما يزيد على مائة أسطوانة مصطفة صفوفاً منتظمة في أروقة على قممها نقوش يونانية. ويظن أن عدد الأعمدة كان يزيد على أربعمائة أسطوانة، واكتشفوا على تلك الآثار نقوشاً وخطوطاً سموها القلم التدمري[(١)].

ومثلما نسمع عن القوافل التجارية التي كانت تقطع فيافي بادية الهلال الخصيب في الزمن القديم نرى اليوم أنابيب البترول "التبلاين" التي تمتد عبر هذه البادية.

(١) العرب قبل الإسلام، ص ١٠٥، ١٠٦.

البحث السادس :

الطرف الغربي من الهلال الخصيب : سورية الكبرى :

٤- هرقل يودع سورية الوداع الأخير.

٢- اسم سورية هل هو مشتق أم مرتجل؟

٣- حدود سورية الكبرى.

٤- أوجه الشبه بين سورية و"تهامة" و"الحجاز – السراة" و"نجد".

٥- سورية الكبرى وحدة طبيعية يكمل بعضها بعضاً.

٦- جبال سورية وسهولها وأنهارها وبحيراتها ومصايفها وقلاعها وطرقها الداخلية.

٧- جبال شهرتها الأحداث.

٨- من آثار سورية آثار تعود إلى عصر الكهوف والحجارة.

١- "عليك السلام يا سورية، سلام مودع لا يرجو أن يرجع إليها أبداً". بهذه الكلمات الباكية ودع "هرقل" سورية، وهو يستحث جواده خوفاً من أن تناله سيوف المسلمين.

٢- وسورية التي ودعها هرقل اشتق اسمها في رأي البعض من "سورستان". ويقول "أبو الريحان" إن سورستان هي أرض العراق والشام، ويعلق ياقوت على ذلك بأن هرقل ودع سورية ولم يودع العراق، وعلى ذلك فإن سورستان أو سوريان هي بلاد الشام التي أسماها هرقل سورية[١].

وينقل "يوسف الدبس" عن الأسفار أن اسم سورية القديم هو آرام صوريا، ويقول: إن أول من سمى هذا القسم من البلاد العربية سورية هو "هيرودوت" اليوناني المولود سنة ٤٨٤ق.م.[٢]، واختار "الدبس" من الآراء التي أبديت في سبب هذه التسمية رأي القائلين بأنها سميت سورية نسبة إلى "صور"، فلقد كانت المصالح التجارية تربط بين اليونان والصوريين، فيكون أصلها صورية فأبدلت الصاد بالسين فأصبحت: سورية[٣].

وفي "تاريخ سورية" لفيليب حتي بحث عن أصل هذا الاسم: سورية، جاء فيه: (إن اسم سورية يوناني في شكله، وكان يطلق على لبنان، واستخدم اسم الجزء ليشمل البلاد كلها، وإنه لا صلة بين اسم سورية وبين إحدى مناطق شمالي الفرات المعروفة عند البابليين باسم "سورى". فلا صلة في الغالب في الاشتقاق بين "سورية" و"آسيريا". وإنه في العصور اليونانية وما بعدها توسع استعمال اسم "سورية" وأطلق على البلاد كلها، واستخدم بهذا المعنى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، فكانت فلسطين بالنسبة لـ "هيرودتس": قسماً من سورية، كما كانت كذلك بالنسبة للأتراك، واعتبر "وليم

(١) معجم ياقوت، مادة (سورستان) ١٦٩/٥.

(٢) لعله يقصد: هيرودوتس، المتوفى سنة ٤٠٦ق.م.

(٣) تاريخ سورية، للمطران الدبس ١١/١.

الصوري" وغيره من مؤرخي الحروب الصليبية فلسطين جزءاً من سورية[1]. ولبنان جزء من سورية كما تؤكد ذلك الصفة الجغرافية، فحدود سورية التي تحدث عنها "المطران الدبس" تشتمل على الأرض الممتدة من الإسكندرونة إلى مصر[2]. وإشارة "فيليب حتي" إلى إحدى مناطق شمالي الفرات التي كانت تسمى سورية تذكرنا بما قاله ياقوت عن "سورستان"[3]، وأنها أرض العراق وبلاد الشام، وإليها ينسب السريانيون، ولكن ياقوت خص طرف الهلال الخصيب الغربي باسم سورية، وكذلك فعل "حتي". فاسم "سيروس" بالنسبة للرومان يعني كل شخص يتكلم اللغة السريانية.

ويقول فيليب حتي في كتابه "لبنان في التاريخ": (إن أقدم اسم لسورية الكبرى فلسطين والشام ولبنان هو اسم "كنعان")[4].

٣- ويجمع الجغرافيون على أن حدود سورية الطبيعية أضيق من حدود هذا الاسم "سورى" الذي كان في بحوث اليونان مرادفاً لمملكة "آشور"، والذي كان بالنسبة للرومان يعني كل شخص يتكلم اللغة السريانية، والذي يظنه البعض أنه الأصل لاسم سورية.

فحدود سورية الكبرى في الجغرافية العربية هي كما ذكرها "الإصطخري": (يحدها من الغرب البحر المتوسط، وتحدها من الشرق البادية من "أيلة" إلى "الفرات" إلى حد الروم، وتحدها من الشمال بلاد الروم ويحدها من الجنوب تيه بني إسرائيل ومصر[5].

وقد فات الإصطخري أن يذكر بقية الحدود الجنوبية، وهي "خليج العقبة" و"السراة - الحجاز" و"نجد" مما يلي البادية السورية، وكذلك بقية الحد الغربي حيث تحدها من مصر شبه جزيرة سيناء.

---

(١) تاريخ سورية، لفيليب حتي ٦٢/١.

(٢) تاريخ سورية، للمطران الدبس ٢/١.

(٣) معجم ياقوت، مادة (سورستان) ١٦٩/٥.

(٤) لبنان في التاريخ، ص ٨٢ ؛ تاريخ سورية ٦٣/١.

(٥) المسالك والممالك، ص ٤٣.

ويضع المطران الدبس سورية الكبرى في حدود لا تختلف عن الحدود التي وضع الإصطخري سورية داخلها، فالدبس يجعل حدودها شمالاً آسيا الصغرى من خليج إسكندرونة إلى نهر الفرات، ويجعل: حدودها شرقاً نهر الفرات والبادية إلى بلاد العرب، ويجعل حدودها جنوباً تيه بني إسرائيل إلى تخوم "مصر"، ويجعل حدودها غرباً البحر المتوسط(١)، ولعل: "الإصطخري" هو مصدر المطران الدبس، فالدبس هو أيضاً لم يذكر بقية الحدود الجنوبية.

٤- وسورية الكبرى بباديتها تبدو لنا على المصورات الجغرافية سهولاً وجبالاً، وتبدو جبالها كأنما هي تتمة للحجاز - السراة. وتبدو سهولها كأنها هي تتمة لسهول تهامة وأغوارها، وكأنما باديتها تتمة لصحارى نجد كما سلف القول. فجبالها تمتد من جبال "الشراة" جنوباً إلى جبال "طوروس"، وساحلها الذي ينحصر بين جبالها الشاهقة وبين البحر من "شبه جزيرة سيناء" إلى "خليج الإسكندرونة" يشبه ساحل تهامة الذي يمتد من "عدن" إلى "خليج العقبة"، ومثلما يضيق ويتسع الغور التهامي في امتداده على شاطئ البحر الأحمر يضيق ويتسع الساحل السوري في امتداده على ساحل البحر المتوسط، وإن كانت جبال لبنان تدنو في بعض الأماكن من البحر أكثر من جبال السراة، وإن كانت جبال لبنان أكثر خصباً من جبال السراة لاسيما الشمالية والقريبة من البحر.

وسورية الكبرى في إطار حدودها التي رسمها الجغرافيون تشتمل على بعض ضفاف نهر الفرات الشمالية مع أن حدود سورية التي هي جزء من جزيرة العرب لا تتجاوز الفرات إلى شماليه، فما كان شمالي الفرات ليس هو من أرض الجزيرة العربية، وكذلك ما كان شرقيه. ولسنا في حاجة إلى إعادة ما سبق عن حدود الجزيرة العربية، وعن الحدود الإقليمية التي لا تستقر استقرار الحدود الطبيعية.

---

(١) تاريخ سورية، للدبس، ١/٢، ٣.

٥- وسورية الكبرى في إطارها هذا تمثل الإقليم الواحد المتواشجة مرافقه الطبيعية: أنهاره وينابيعه وبحيراته وجباله وسهوله وغياطه من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. وأنهار سورية - كما تبدو - صغيرة لا تصلح للملاحة ما خلا الفرات.

٦- وجبال سورية من أجمل جبال البلاد العربية، ومن أعرقها تاريخاً، تراها سلاسل جبلية شرقية وغربية متساندة تفصلها في بعض الأماكن السهول كسهل "البقاع"، كما أن هذه الجبال تفصل السهول بعضها عن بعض في بعض الأماكن مثل جبل "الكرمل". وأشهر سهول سورية: سهل "حلب"، و"الإسكندرونة"، و"اللاذقية"، و"جبلة"، و"إيناس"، و"عكار"، و"طرابلس"، و"الشويفات"، وسهل "العمق"، و"البقاع"، و"الزبداني". وأهم جبالها: جبال[1] "الأمانوس - اللكام"، و"الأقرع[2]"، و"العلويين" و"الدروز" و"الشيخ" و"الجولان". وجبال لبنان مشهورة بمصايفها. ومن مصايف الشام: "بلودان"، و"الزبداني".

والأنهار التي تجري في سورية فتغدق عليها الخير والبركة كثيراً ما أثر عليها امتناع المطر وقلة الثلوج التي تهطل على سورية ما خلا "الفرات" الذي ينبع من أرض غير سورية. والأنهار السورية تنقسم إلى أربع مجموعات:

١- الأنهار الساحلية.

٢- أنهار الأخدود الانهدامي.

٣- الأنهار ذات المصبات الداخلية.

٤- الأنهار العابرة.

---

(١) اليونانيون هم الذين سموا جبل اللكام: أمانوس.

(٢) كان يسمى: كاسيوس.

وأشهر أنهار سورية: "النهر الكبير الشمالي"، و"نهر الصنوبر"، و"نهر بيروت"، و"نهر البرغل"، و"نهر حريصون"، و"نهر السن"، و"نهر بانياس"، و"نهر مرقيا"، و"نهر الحصين"، و"نهر الأبرش"، و"النهر الكبير الجنوبي"، و"نهر عكار"، ونهر البارد"، و"نهر قاديشا"، و"نهر الجوز"، و"نهر إبراهيم"، و"نهر الكلب"، و"نهر الدامور"، و"نهر الفراديس"، و"نهر الزهراني"، و"نهر قويق"، و"نهر العاصي"، و"النهر الأسود"، و"نهر الليطاني"، و"نهر الحاصباني"، و"نهر الداني"، و"نهر الذهب"، و"نهر بردى"، و"نهر الأعوج"، و"نهر اليرموك"، و"نهر الأردن"، ثم "نهر الفرات" وروافده: "نهر الساجور"، و"نهر البليخ"، و"نهر الخابور"، ثم "نهر دجلة" الذي يجري حذاء خط الحدود السورية التركية وحذاء الحدود السورية العراقية، ويرفده من أنهار سورية "نهر السوفان". وقد اشتهر نهرا دجلة والفرات بأنهما عراقيان. وهذه الأنهار منها الكبير الذي ترفده أنهار، ومنها روافد تغذي الأنهار الكبيرة.

وفي سورية ينابيع تتفجر من جبال الشام ولبنان مثل: "العين الخضراء"، و"الفيجة" في الشام، و"نبع الصفا"، و"الباروق" في لبنان.

والبحيرات السورية تكثر في إقليم الشام، وأشهرها وأجملها: بحيرة "حمص"، وبحيرة "العمق"، وبحيرة "الخاتونية"، وبحيرة "العتيبية"، وبحيرة "الهجانة"، وبحيرة "سبخة جبرود"، وبحيرة "سبخة الجبول"، وبحيرة "سبخة المطبخ"، وبحيرة "مزيريب"، وبحيرة "بردى" في دمشق، وبحيرة "سبخة الليمونة" في لبنان. ولبحيرة بردى منظر رائع إذا ما جلست في شرفات منازل "بلودان".

وهذه البحيرات لا يعدو بعضها أن يكون شبه غدير، إذا ما قيس ببحيرات إقليم "فلسطين والأردن" مثل "بحيرة لوط" وبحيرة "طبريا" وبحيرة "الحولة". وفي إقليم لبنان توجد غير بحيرة "الليمونة" منابع الأنهار الصغيرة. وبحيرة "لوط - البحر الميت" ينخفض

مستواها عن سطح البحر بنحو (١٣٠٠) قدم[1]، وتحوي نسبة مرتفعة من "البرومين" و"البوتاسيوم" و"كلورات المغنسيوم".

والجبال السورية تراها عالية شامخة في كل ناحية من بلاد سورية، موشاة بالأشجار والحقول. بيد أن الجبال في بادية الشام قليلة وقصيرة بالنسبة لجبال لبنان المزدانة بأجمل المصايف العربية.

وأعلى جبال سورية: جبال "الأرز" في لبنان حيث ترتفع قمته "القرنة السوداء" عن البحر بنحو (٣٠٨٨) متراً. وفي قسم جبال الأرز ترى غابة الأرز التي شهدت أشجارها من أحداث الدهر الطويل صنوفها، ولا تكاد سلسل جبال لبنان الغربية يخلو جبل منها من قرى الاصطياف الأنيقة التي أجاد اللبنانيون تنسيقها، وبالغوا في فخامة قصورها وفنادقها.

وأجمل جبال سورية الكبرى وأروعها وأكثرها عمراناً وأجملها تنسيقاً جبال لبنان التي يتسلقها القطار الحديدي وتتسلقها السيارات القادمة من دمشق وحمص إلى بيروت وإلى تركيا، والذاهبة من بيروت إلى دمشق وحمص. فجبال لبنان لاسيما جبال "صوفر"، و"بحمدون"، و"عاليه" رصعت بأروع ما وصل إليه الفن المعماري من قصور شامخة ودور أنيقة وحدائق غناء، فلا يماثل هذه الجبال من جبال سورية غير تلك اللبنانية أيضاً الشمالية التي تقابل جبال "طريق دمشق بيروت" مثل: "ضهور الشوير" و"بكفيا" و"إهدن"، على أن في "الزبداني" و"بلودان" - ضاحيتي دمشق - من العمران والتنسيق والحدائق ما يماثل بعض جبال لبنان.

وأمنع جبال سورية وأوعرها مسالك جبال العلويين، فعلى سلسلة جبال العلويين أقيمت القلاع منذ عرف الإنسان الحصون والقلاع، للسيطرة على طرق المواصلات الساحلية،

(١) أسماء الأنهار والبحيرات والسهول والأودية مرجعها: "جغرافية الوطن العربي".

وعلى الممرات التي تنفذ إلى الداخل. ومن أشهر القلاع جبال العلويين: "قلعة صهيون"، و"قلعة المرقب"، و"برج صافيتا"، و"حصن الأكراد". ومن أشهر جبال فلسطين جبل "حرموق"، و"طابور"، وجبال "السامرة"، و"الخليل"، و"الشراة" الواقع في نهاية حدها الجنوبي.

ومن أشهر طرق الجزيرة القديمة الممتدة في سورية: الطريق الدولي التاريخي الذي كان يصل ما بين "الدلتا" المصرية المشرفة على البحر المتوسط وبين شواطئ "الخليج العربي" باب الشرق القديم، ذلك الطريق الذي كانت تجوبه قوافل التجار وتسير عليه جماعات المهاجرين وجحافل الغزاة المحاربين من قبل خمسة آلاف عام إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، وبهذا الطريق القديم تتصل طرق الجزيرة العربية الآتية من الحجاز وتهامة ومن نجد والعروض، ومنه تتفرع الطرق إلى داخل سورية.

٧- وأشهر جبال سورية في التاريخ جبال فلسطين التي تضم آثار "إبراهيم" عليه السلام ومعاصريه والذين سبقوه من الشعوب إلى استعمار فلسطين وتحضيرها من جنوبي الجزيرة العربية ومن شرقيها، وآثار أنبياء "بني إسرائيل" وحواريي المسيح وأتباعه.

ولم تكن جبال "الجولان" أو مرتفعاته خاملة الذكر في مضي سورية ولكنها اليوم - وقد أصبحت ميدان تضحية في سبيل الأرض المغتصبة - أكثر جبال سورية ومرتفعاتها شهرة في عالمنا الحاضر، كما عرف جبل "الشيخ" من كان لا يعرفه!! بعد المعارك المجيدة التي خاضها العرب ضد إسرائيل.

٨- ومن الآثار التي ظهرت في سورية آثار عاصرت أقدم الآثار في بلاد ما بين النهرين ، العراق، فكما ظهرت آثار في العراق وصل بتاريخها الأثريون إلى عصور ما قبل الطوفان، فلقد وجدت في كهوف "جبل الكرمل" آثار الإنسان الذي كان يسكن الكهوف، ولقد ظهرت في طبقات أرض فلسطين آنية خزفية تدل في شكلها على أنها من النوع البدائي لصناعة الخزف.

البحث السابع :

تجزئة سورية في الماضي والحاضر :

١- الرومان قسموا سورية على نحو ما قسمها الحلفاء.

٢- وعد بلفور أمر من التقسيم.

٣- مساحات إقليم سورية حسب التقسيم.

٤- سورية الكبرى حقيقة لا يمكن دحضها.

١ - هذه هي سورية التي عرفت في التاريخ منذ عهودها القديمة إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، وهذه حدود سورية منذ كانت ولاية رومانية إلى نهاية الدور العثماني[١]. وحدود سورية في العهد الروماني تمتد من الفرات شمالاً إلى مصر.

وعلى أساس هذه الحدود تعالت أصوات ساسة العرب تطالب بوحدة سورية الكبرى، تلك الأصوات التي ضاعت أخيراً بين رنين الذهب وقعقعة السلاح.

فلم تنته الحرب العالمية التي خاض غمارها العرب في صفوف الإنجليز والفرنسيين قبل أن ينتهي "سايكس وبيكو" مندوبا هاتين الدولتين لتقسيم الهلال الخصيب، وبعد انتهائهما من التقسيم قرر مؤتمر "سان ريمو" وضع سورية والعراق تحت الانتداب الفرنسي والإنجليزي، وبعد كثير من الأحداث الدامية انتهى أمر سورية الكبرى إلى هذه التجزئة: سورية وفلسطين ولبنان والأردن أخيراً[٢]. وهذه التجزئة لم يبتدعها الإنجليز والفرنسيون، بل سبقهم إليها الذين استعمروا سورية في عصور ما قبل الإسلام.

٢ - وبعد هذه التجزئة أصبح للشام اليوم حدود تفصلها عن لبنان وعن فلسطين، كما أصبح للبنان وفلسطين حدود تفصلهما عن الشام. وأمرّ من هذه التجزئة وعد "بلفور"، فوعد "بلفور" هو أول أمل تبلور لمطامع العنصرية الصهيونية في فلسطين.

٣ - ولقد وزعت هذه التجزئة سورية الكبرى التي لا تزيد مساحتها على (٧٧٩، ٣٣٣) كيلو متراً مربعاً على هذا النحو: مساحة الجمهورية السورية: (٣٧٩، ١٨٤) كيلو متراً، مساحة الجمهورية اللبنانية (١٠٤٠٠) كليو متر مربع. ثم مساحة لواء الإسكندرونة الذي عملت فرنسا إبان استعمارها لسورية على ضمه لتركيا (٥٠٠٠) كيلو متر مربع، ثم مساحة فلسطين المغتصبة (٢٧٠٠٠) كيلو متر مربع، ثم مساحة شرقي الأردن (١٠٧٠٠٠) كيلو متر مربع[٣].

(١) تاريخ سورية، لحتي ٦٣/١.

(٢) الثورة العربية الكبرى، لأمين سعيد.

(٣) راجع كتاب جغرافية الوطن العربي، ص ٤٨، ويلاحظ المجموع في جغرافية الوطن العربي يبلغ (٤٧٩ و ٣٣٣)كم٢ فقط.

٤- وتجزئة هذا القسم من البلاد العربية تقتضينا أن نبحث في أقاليمها التاريخية: فلسطين، وشرق الأردن، والشام، ولبنان.

فنحن مع اعتقادنا أن هذا القسم الذي جعل سورية ثلاث مناطق:

١- منطقة فلسطين والأردن.

٢- منطقة سورية.

٣- منطقة لبنان، هو تقسيم سياسي توجد أشباه ونظائر في تاريخ سورية القديم، نعتقد أيضاً أن التقسيم السياسي - مهما كانت عوامله وأسبابه، ومهما ركزت دعائمه وثبت بنيانه - هو عرضة للتحول والتطور، ثم هو لا يؤثر على شيء في الحدود الطبيعية أو في الوحدة العنصرية أو في المقدرات الأساسية للوطن المشترك، فإذا كانت للتقسيم مظاهره الخارجية، فهذه المظاهر مهما طال بها الزمن فلا بد لها أن تنصهر في بوتقة الواقع التاريخي لتظهر مرة ثانية في شكل واحد، فكما قسمت سورية في ماضيها القديم على صورة دول في الشمال، ودول في الوسط ودول في الجنوب فإنها كانت وما زالت سورية الموحدة في عنصرها وفي تاريخها وفي أهدافها وفي آلامها وفي آمالها.

ونحن مع اعتقادنا في كل هذا نرى أن البحث في كل قسم من أقسام سورية على حدة يفرضه الواقع السياسي، ثم هو يظهر معالم سورية الجغرافية مفصلة، ويفيد بحثنا في عناصر البلاد العربية ودولها وسياستها. ونحن بعد أن عرفنا سورية - على النحو الذي مر بنا - لسنا بملزمين لإعادة الصفات الطبيعية التي جاءت في وصف سورية العام في كلامنا عن أقاليمها.

البحث الثامن :

أقاليم سورية الكبرى :

أ- الإقليم الأول : فلسطين والأردن :

١- فلسطين والفلسطينيون.

٢- الفلسطينيون: عرب ومستعربة.

٣- حدود هذا القسم : فلسطين والأردن.

٤- مناطق هذا القسم.

٥- المدن التاريخية.

٦- فلسطين ميدان حروب منذ القدم.

٧- ازدحمت فلسطين بالسكان وبالحضارات وبالعقائد.

١- فلسطين: اسم يوناني أطلق على هذا الجزء من سورية الممتد من البحر المتوسط إلى بادية الشام. وأول من أطلقه هو "هيرودوت". أما الاسم العبري للأراضي التي تقع غربي نهر الأردن فهو كنعان[١].

وبعض الجغرافيين العرب يقولون: إن اسم فلسطين هو في الأصل: اسم ولد من حفدة "نوح" سميت فلسطين باسمه، ويسلسلون نسبه إلى نوح فيقولون: فلسطين بن سام بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام[٢]!! ويقول فيليب حتي: اسم فلسطين أتى من اليونانية، وأن أصله اليوناني هو: فلسطيا، ويقول أيضاً: (إن هذا الاسم متصل بذكرى الفلسطينيين - الهنود الأوربيين الذين هاجروا إلى المنطقة الساحلية في القرن الثالث قبل الميلاد)[٣].

٢- ويقول جواد علي: (إن العماليق هم سكان فلسطين القدامى، وإن من ذريتهم أبناء فلسطين الحاليين)[٤]. والجمع بين ما يقوله فيليب حتي، وما يقوله جواد علي، يقتضينا أن نعتبر الفلسطينيين القدامى خليطاً، منهم العرب العاربة من أبناء الكنعانيين، ومنهم العرب المستعربة، ومنهم أبناء المهاجرين من شواطئ "بحر إيجة".

٣- هذا القسم فلسطين وشرق الأردن يحده اليوم من الجنوب: المملكة العربية السعودية، وخليج العقبة، وسيناء. ومن الشرق: بادية العراق. ومن الشمال: سورية ولبنان. ومن الغرب: البحر المتوسط وسيناء. ويقول ياقوت الحموي: فلسطين هي آخر كور الشام، وقصبتها "القدس"، ومن مشهور مدنها "عسقلان"، و"الرملة"، و"غزة"،

---

(١) موسوعة تاريخ العالم ٦٣/١.

(٢) معجم البلدان، لياقوت، مادة (فلسطين) ٢٩٦/٦.

(٣) تاريخ سورية ٦٢/١.

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي ٣٥١/٢.

و"أرسوف"، و"قيسارية"، و"نابلس"، و"أريحا"، و"عمان"، و"يافا"، و"بيت جبرين"[١].

ومن هذا القسم: فلسطين التي احتلتها إسرائيل.

٤- وهذا الإقليم ينقسم إلى أربع مناطق، هي كالآتي:

(١) السهل الساحلي ويسير محاذياً للساحل.

(٢) الهضبة الغربية ويقسمها "سهل جزريل"، وسهل جزريل يقال عنه: إنه المفتاح الإستراتيجي لغزو "كنعان".

(٣) وادي الأردن، وفي هذه المنطقة بحيرة لوط التي تنخفض عن مستوى البحر بمقدار (٦٠٠) قدم، كما يقولون.

(٤) هضبة الأردن وتشقها عدة أودية، ولقد ذكرنا أنهار هذا الإقليم عندما تكلمنا عن أنهار سورية الكبرى، مثل اليرموك[٢] والأردن.

٥- وفلسطين تزخر بالمدن التاريخية، فمن مدنها مدن يرجع تاريخ إنشائها إلى ما قبل التاريخ كمدينة "حبرون" التي كانت تسمى قرية أربع، وكمدينة "شكيم" التي تسمى الآن "نابلس"، والتي نزلها إبراهيم عليه السلام[٣]، وكمدينة القدس التي بناها ملك اليبوسيين العربي "ملكيصادق"[٤]، ومن مدن فلسطين مدن كنعانية بدأت أسماؤها بأسماء عبرية في أيام بني إسرائيل. ومن مدن فلسطين التاريخية التي لا تزال عامرة إلى اليوم مدينة "راموت جلعاد" وهي: الصلت [السلط]، و"ربة عمون" وهي عمّان، و"حشبون" وهي "حسبان"، و "كيرمواب" وهي "الكرك".

---

(١) معجم ياقوت، مادة (فلسطين) ٣٩٦/٦.

(٢) موسوعة تاريخ العالم ٦٣/١.

(٣) راجع تاريخ سورية، للدبس ١٥٥/١، ١٠/٢/١.

(٤) راجع تاريخ القدس، لعارف باشا، ص ١١.

٦- وفلسطين من الأقاليم القلائل التي ما فتئت منذ أن سكنها الإنسان ميداناً للأحداث والحروب. فقد شهدت أرضها حروب الإرميين والحثيين، وحروب العماليق والإسرائيليين، وحروب الفراعنة والآشوريين، وحروب اليونان والفرس الكاشانيين، وحروب الأنباط والرومانيين، والفتوحات الإسلامية، والغارات الصليبية. وهاهي ذي أرضها اليوم مجزأة، منها حكومة شرق الأردن، ومنها غزة التابعة لمصر، والتي أصبحت من الأرض المحتلة، ومنها فلسطين المغتصبة، وهي القسم الذي احتله اليهود بسلاح الاستعمار الغربي ونفوذه، وها هم أولاء أهلها اليوم مشردون في كل بلد عربي.

هكذا تجد فلسطين اليوم إذا بحثت عنها في خارطة العالم العربي ممزقة تحاول إسرائيل فصلها عن تاريخ العربي القديم وصبغها بلون غير عربي مما لم يتم لدولة أنبياء إسرائيل. فشعب موسى الذي تبعه من مصر هو من أمة "يوسف بن يعقوب" وأمة يوسف إسرائيليون من أبناء إسرائيل وساميون عماليق من سكان مصر الأقدمين وممن اختلط بهم، وشعب "داود" و"سليمان" في فلسطين منهم العرب الذين كانت لهم شخصيتهم ومكانتهم في دولة بني إسرائيل الفلسطينية، ومنهم حفدة الذين فروا مع موسى من مصر. وكانت قيادة الجميع في أيدي أنبياء بني إسرائيل حفدة يعقوب. فلم تكن دولة أنبياء بني إسرائيل دولة عنصرية.

٧- وإقليم فلسطين من الأقاليم القلائل التي اكتظت بالسكان منذ عصورها القديمة، فهو من أجمل المناطق جواً، وهو من أحسن المناطق مركزاً في زمن الحضارات القديمة. فهو همزة الوصل بين الكنعانيين في الشمال، وبين ثمود وعاد وجرهم ومعين وسبأ حمير في الجنوب، وبين الحمورابيين والآشوريين في الشرق، وعماليق مصر في الغرب، ولا تزال فلسطين تحتفظ بميزاتها من عصورها الماضية إلى عصرها الحاضر.

وفي أرض فلسطين: البيت المقدس ثالث المساجد التي تشد الرحال إليها، وفيها مقدسات اليهود والمسيحيين، وفلسطين مهاجر "إبراهيم" الذي كان يدعو الناس فيها: (أن اعبدوا الله رب العالمين)، وبلد يعقوب وبنيه، وعيسى وحوارييه. وهي قبل ذلك: مهد من مهود العروبة من بداية تاريخها.

فلا غرو أن اكتظت جبالها وسهولها بالسكان من قديم الزمان، ولا غرو أن رأينا الظنون تؤيد القائلين بأن سكان فلسطين في عهودها الغابرة لا يقل عددهم عن سكانه اليوم الذين يزيدون على (٢،٨٠٠،٠٠٠) مليونين وثمانمائة ألف على ما تذكره إحصائيات الجغرافيين إلى ما قبل بضع سنوات.

ولقد كان سكان فلسطين قبل سنة ١٩٤٨م يبلغ عددهم حوالي مليون وثمانمائة وواحد وتسعين ألفاً على النحو الآتي:

١،١٢٠،٠٠٠ مسلم.

٠،١٥٥،٠٠٠ مسيحي.

٠،٦٠٠،٠٠٠ يهودي.

٠،٠١٦،٠٠٠ عناصر مختلفة.

١،٨٩١،٠٠٠

أما بعد عام ١٩٤٨م فقد اختلف الحال، وليس هناك إحصاء حقيقي بعد هجرة الفلسطينيين بفعل الحروب العربية اليهودية.

ب- الإقليم الثاني: الشام : الجمهورية العربية السورية :

١- لماذا سمي الشام شاماً واليمن يمناً؟

٢- أقدم اسم للشام كان يقال للشام: الطور.

٣- طبيعة أرض الشام.

٤- أشهر مدن الشام قديمة حديثة.

٥- حدود الشام في مؤلفات العرب القديمة وفي مؤلفات المستشرقين الحديثة.

٦- سكان الشام في تاريخ السياسة والأديان.

٧- ليس للطائفية في الشام – الجمهورية السورية – صفة كالتي في لبنان.

١- كثيرون جداً أولئك الذين يطلقون اسم الشام على سورية، وينسبون السوريين إلى الشام فيقولون: شامي بدون همزة، وشآمي بالهمزة، من العصر الجاهلي، ويذكرون أسباباً لهذه التسمية. ولقد تقدم الكلام عن وجهة نظر الذين يطلقون اسم يمن على الجنوب، فمن كان في "تبوك" مثلاً يسمى المدنيين والمكيين يمنيين لأنهم في جنوبي تبوك، وكذلك وجهة نظر الذين يطلقون اسم شام على الشمال. فسكان "جازان" مثلاً يسمون المدنيين والمكيين شاميين!! فعلى ذلك المدينة ومكة وكل ما هو جنوبي المتكلم يسمى يمناً، والمدينة ومكة وكل ما هو شمالي المتكلم يسمى شاماً.

٢- أما أقدم اسم للشام وفلسطين والأردن ولبنان فهو اسم "كنعان" كما يقول "حتي" في كتابه: "لبنان في التاريخ"[1]، ويقال: إن أصل كلمة شام هو "سام" نسبة إلى "سام بن نوح". وجاء في معجم ياقوت: اسم"سورية" أقدم من اسم شام. وجاء فيه: ويقال لجميع بلاد الشام: "الطور"، ولعل هذه التسمية لكثرة أشجار جبال الشام، فلا يقال للجبل: الطور إلا إذا كان ذا شجر[2].

٣- ولقد تحدثنا فيما تقدم عن طبيعة أراضي الشام وخصبها، وعن أنهارها وبحيراتها، وعن جبالها وسهولها، وعن بحارها وشواطئها، وعن باديتها الحمادة التي تترامى في شرقي سورية إلى حدود العراق، وينحدر قسم منها إلى الجنوب، وعن التاريخ الذي عمرت فيه جبال الشام وسهولها وشواطئها وباديتها، وتحدثنا عن إقليم

---

(١) كتاب لبنان والتاريخ، ص ٨٢.

(٢) معجم ياقوت ٢١٨/٥ ومادة (طور): ٦٧/٦/٢. ويقال: إن جبلاً يسمى (الطور) يشرف على (نابلس) يحج إليه (السامريون) ويعتقد فيه (اليهود)، ويزعمون أن (إبراهيم) أمر بذبح (إسماعيل) فيه. أما جبل الطور المشهور فهو في (مصر) وعليه كما يقول المؤرخون كان الخطاب الثاني للنبي (موسى) عليه السلام عند خروجه من مصر ببني إسرائيل. ويقصدون بمصر سيناء. ويقول (ياقوت): في لسان (النبط) كل جبل يقال له طور، فإذا كان عليه شجر قيل: طورسينا.

الشـام، وقلنـا: إنـه مـن الأقاليم التي تتأثر اقتصادياتها بالأمطار، لأن سورية تعتبر بلداً زراعياً، فالـزراعة مـن أهـم مـوارد الشـام منذ أقدم العصور، وإن كان السوريون عرفوا الصناعة من زمن بعيد فإذا لم تغذ أنهارها الأمطار والثلوج يقل ماؤها فيقل عطاء أرضها، وسورية كما رأيتها شديدة الحر صيفاً ما عدا جبالها، شديدة البرد شتاءً ما عدا أغوارها.

٤- وأكثر مدن الشام الموجودة اليوم هي مدن قديمة، وأكثر مدن الشام القديمة هي مدن تاريخية تقلبت عليها دول وشعوب كان لها شأن في تطور التاريخ العربي.

فمدينة "دمشق" يرجع تاريخها إلى عصر "الآراميين"، ومدينة "حلب" وتسمى في الآثار "كالب، وحلبون" يرجع تاريخها إلى عصر "الحثيين"، و"حماة" يرجع تاريخها إلى عصر الكنعانيين، ومن مدن الشام القديمة مدن دفن عمرانها منذ الماضي البعيد مثل مدينة "قرقميش"[(١)] القديمة، ومدينة "قادش" جنوبي "حمص"، ومدينة "سامعل". ومن مدنها القديمة مدن لا تزال باقية مثل دمشق وغيرها من المدن التي تقدم ذكرها، ومن مدن الشام مدن تفوق شهرتها واقعها مثل "المعرة" فمدينة "المعرى" اليوم لا تزيد على كونها قرية من قرى الشام الكبيرة. ولقد مررت بها في طريقي من "بحمدون" إلى "حلب". ومن أمهات مدن "الشام" في معجم ياقوت "منبج". وأشهر مدن سورية اليوم حواضر المحافظات، وحواضر المحافظات تتبعها قضاءات. وحواضر محافظات الشام هي: "دمشق"، و"حمص"، و"حماة"، و"اللاذقية"، و"الحسكة"، و"حلب"، و "دير الزور"، و"السويداء"، و"درعا".

٥- والشام عند جغرافيي العرب تعني سورية الكبرى بكاملها، بل أكثر من سورية الكبرى، فحدود الشام في معجم ياقوت: (من"الفرات" إلى "العريش"، وأما عرضها فمن

---

(١) موسوعة تاريخ العالم ١/ ٧٨.

"جبلي طيئ" من نحو القبلة إلى "بحر الروم" وما بشآمة ذلك من البلاد)[1]. وحدود الشام في المسالك والممالك: (أن غربي الشام بحر الروم، وشرقيها البادية من "أيلة" إلى "الفرات"، ثم من الفرات إلى حد الروم. وشماليها بلاد الروم. وجنوبيها حد مصر، و"تيه بني إسرائيل"، وآخر حدودها مما يلي مصر "رفح" ومما يلي الروم: الثغور)[2]، ومن هذه الثغور التي ذكرها الإصطخري: "ملطية" و"طرسوس".

وحدود الشام عند غير العرب - هي كما جاء في "موسوعة تاريخ العالم": (كلمة سورية - التي استعملها "هيرودوت" لأول مرة - يقصد بها جميع المنطقة بين الفرات والساحل الشرقي للبحر المتوسط جنوبي سلسلة جبال طوروس. وكذلك "سترابون"، وهذا يتفق مع حدود المقاطعة الرومانية: سورية).

وجاء في موسوعة تاريخ العالم: وتقتصر سورية بمعناها الضيق على هذا الجزء الشمالي الشرقي فقط من هذه المنطقة، أي باستبعاد فلسطين وفينيقيا، منذ قسم "هادريان" المقاطعة الرومانية إلى فلسطين، وفينيقيا، وسورية، صارت سورية تستعمل بمعناها الضيق، ولم تكن سورية أبداً وحدة سياسية مستقلة. على أنها كانت مرة واحدة فقط، وبصفة عامة: بلاد الآراميين[3].

والشام - أو سورية بمعناها الضيق - في الوقت الحاضر هي الجزء الشمالي الشرقي من سورية الكبرى الذي انتزع منه لواء الإسكندرونة[4]، يحدها من الشمال تركيا، ومن الجنوب المملكة الأردنية الهاشمية ولبنان، ومن الشرق والشرق الجنوبي العراق، ومن الغرب البحر المتوسط ولبنان وفلسطين.

---

(١) معجم البلدان، لياقوت، مادة (الشام) ٢١٩/٥.

(٢) المسالك والممالك، للإصطخري، ص ٤٣.

(٣) موسوعة تاريخ العالم ٧٨/١.

(٤) الإسكندرونة : اسمها القديم: (إيسوس) . لبنان في التاريخ، ص١٣.

٦- وسكان الشام في عصورها الطويلة يزيد عددهم وينقص تبعاً لتطوراتها السياسية، فسكان الشام في عصر "البيزنطيين" يزيدون على سكانها في عهد الفينيقيين، ولا يبعد أن يكون سكانها في عهد "آل عثمان" الذين اتخذوا "القسطنطينية" عاصمة أقل من سكانها عندما كانت دمشق عاصمة الأمويين.

ثم هناك الهجرات من سورية وإليها منذ عصورها الأولى إلى اليوم، ففي سورية اليوم الكثير من الذين هاجروا إليها مثل الأرمن والشركس، والآشوريين، والمغاربة الذين أصبحوا سوريين بطول الإقامة. وفي خارج سورية في البلاد العربية، وفي أفريقية، وفي الأمريكتين وفي أستراليا ودول أوربة سوريون مهاجرون.

وإذا لم يسجل التاريخ للشام في حدودها هذه شأناً في تاريخ الأديان مثلما كان شأن جبال فلسطين وسهولها التي شهدت إبراهيم وموسى وخلفاءهما، فلقد سجل لها شأناً في سياسة الهلال الخصيب، وفي اقتصاده. فلقد كانت في الماضي مركز تجمع الإرميين الآتين من الشمال، وتجمع الساميين الآتين من الجنوب والشرق، مثلها مثل بلاد ما بين النهرين في تجمع العناصر. وما زال الهلال الخصيب يستقبل ويودع المهاجرين إليه ومنه. وبفضل خصب أرض الشام وموقعها من الطرق التجارية ومرافئها على شاطئ البحر المتوسط لمع مكانها في اقتصاد المنطقة وتجارتها وصناعتها.

٧- وسكان الشام - الجمهورية السورية في العصر الحاضر - خليط، منهم الدرزي والعلوي والمغربي. ومنهم الكردي والتركي والأرمني. وفيهم جاليات يهودية ومسيحية، ولكن الطائفية ليس لها صفة رسمية في إدارة الدولة كتلك التي للطائفية اللبنانية، وليس أكراد سورية على خلاف مع عربها، مثل أكراد العراق ونزاعهم القديم مع عرب العراق. غير أن الطائفية أخذت تظهر في الانقلابات الثورية التي يستفيد منها تارةً الدروز وتارةً العلويون.

ويقدر عددهم اليوم - سكان سورية - تخميناً بنحو أربعة ملايين ونصف المليون.

جـ- الإقليم الثالث: لبــــنان

١- رواية غريبة يصف بها "ياقوت" جبل لبنان.

٢- كما نقف حيارى إزاء بعض أقوال القدامى نجد أمامنا من تحقيقات المتأخرين ما هو غير مقبول.

٣- اسم كنعان يطلق على سورية الكبرى جميعها.

٤- نقاش في أصل اسم كنعان ومعناه .

٥- لبنان الإقليم الذي لا صحراء فيه.

٦- النعرة الجبلية وأثرها في حياة اللبنانيين.

٧- الطائفية العقائدية صفة رسمية في الدولة.

٨- سلاسل جبال لبنان.

٩- اللبنانيون مزارعون من الدرجة الأولى، وملاحون ممتازون.

١٠- أروع مناظر لبنان الطبيعية.

١١- مدن لبنان.

١٢- ما عرفناه عن لبنان.

١٣- أسباب تصاعد عدد سكان لبنان.

١٤- عصور لبنان من بداية التاريخ.

١- جاء في معجم ياقوت: (أن لبنان هو جبل مطل على "حمص" يجيء من "العرج" الذي بين "مكة" و"المدينة" حتى يتصل بالشام ، فما كان منه في "فلسطين" فهو جبل "الحمل"، وما كان بـ "الأردن" فهو جبل "الجليل"، وما كان بدمشق فهو جبل "سنير"، وما كان بـ "حلب"، و"حماة" و"حمص" فهو "لبنان"، ثم يتصل بـ "أنطاكية" و"المصيصة" فيسمى: "اللكام"، ثم يمتد إلى "بحر الخزر" فيسمى: "القبق")[١].

٢- وفي بعض ما يجيء في روايات القدامى نظر، مثل ما قيل عن هذا الجبل الذي يأتي من العرج. فالمعروف أن جبال "الحجاز - السراة" تصل إلى جبال "شراة الشام"، ومن جبال "الشراة" تبتدئ جبال سورية. فلعل ياقوت يقصد أن جبال سورية هي امتداد لجبال الحجاز!!

وعن اسم لبنان يقول "حتي": (اسم لبنان مشتق من اللفظ السامي "لابن". ومعناه: البياض، وأطلق اسم لبنان على السلسلة الغربية التي هي لبنان الأصل، لأن الصخور الكلسية البيضاء والثلوج تغطي أعاليه)[٢]، وقال أيضاً: لبنان اسم عرف منذ العهد الروماني أطلق على سلسلة الجبال الغربية، أما السلسلة الشرقية فاسمها "إسليبانوس"، أي لبنان المقابل")[٣].

وفي بعض ما يجيء في تحقيقات المتأخرين نظر، مثل ما قيل في اسم لبنان السامي وأنه في الأصل: "لبن"، ويعني البياض[٤]. فلبن في معاجم اللغة العربية اسم جبل من جبال "هذيل" بتهامة. وقيل: الصحيح لبن من أرض "اليمامة"، وهو وادٍ فيه

---

(١) معجم ياقوت، مادة (لبنان) ٧/ ٣٢٠.

(٢) تاريخ سورية ١/ ٢٣.

(٣) لبنان في التاريخ، ص ١٤.

(٤) المصدر نفسه.

نخل لبني "عبيد بن ثعلبة"[(١)]، فليس في جبال تهامة ثلج يشبه اللبن في بياضه، وليس لون النخل بأبيض، فلعل الفينيقيين الذين كان منهم من يسكن "اليمامة" نقلوا اسم وادي اليمامة "لبن" إلى وطنهم الثاني مع الأسماء التي نقلوها إلى هناك، تلك الأسماء التي تداولتها الأجيال.

ثم من المعروف أن اللغة العربية التي ألفت فيها المعاجم لغة سامية، ومن المرجح أن اللغة العربية هي أم اللغات السامية. فـ "لَبَن" و "لِبْن" و"لُبن" في معاجم البلدان واللغة العربية اسم لجبال وأودية غير بيضاء مثل اللبن أو الثلج.

ويقول "حتي": (وكلمة لبنان هي سامية، ولكنها تظهر في الوثائق "المسمارية" وهي أقدم من الوثائق "العبرية" و"الأوغاريتية")[(٢)]، ويقصد "حتي" بالوثائق الأوغاريتية: الوثائق التي اكتشفها "شيفر" الفرنسي في قصر "أوغاريت" الملكي قرب "اللاذقية"، تلك الوثائق التي وجدت باللغة الفينيقية مكتوبة بأحرف مسمارية، يرجع تاريخها إلى سنة ١٤ق.م.[(٣)].

٣- ويشرك "حتي" لبنان مع فلسطين والشام في اسم كنعان، ويعلل ذلك بفلسفة "فيلولوجية" كما يقول[(٤)]، وتعليل "حتي" مبني على أن كلمة "كنعان"، وكلمة "فينيقية" تعني كلتاهما: "المرجان" وأن صناعة المرجان كانت منتشرة في سورية جميعها بما فيها لبنان، ولذلك يشك "حتي" في أن اسم كنعان سام وأنه يدل على الأرض المنخفضة، وأن الكنعانيين سموا باسم أرضهم المنخفضة وهم في جبال سورية ولبنان وفلسطين المرتفعة[(٥)]. وباسمهم سميت تلك الجبال وسهولها وشواطئها.

---

(١) معجم ياقوت ٣٢١/٧.

(٢) تاريخ سورية ٦٢/١.

(٣) المنجد، قسم الأدب والعلوم، ص ٤٧.

(٤) الفيلولوجيا: علم اللغات.

(٥) لبنان في التاريخ، ص ٨٢.

ولقد سبق أن قلت في الجزء الأول من هذا المؤلف "العرب في أحقاب التاريخ" الذي صدر بعنوان "التاريخ العربي وبدايته": (أما في غير تحقيق "حتي"، فإن اسم "كنعان: سام[1] أطلق على سكان الخليج العربي القديم) وأوكد هنا رأيي وأقول: إنه لا يستبعد أن يكون الاسم السامي "كنعان" معناه الأرض المنخفضة، فأرض الخليج العربي منخفضة بالنسبة لنجد ولبنان وبادية الشام، فكلا القولين مبني على تعليل فيلولوجي. ولذلك أنا لا أسير مع شكوك "حتي" في المعنى السامي لكلمة "كنعان".

٤- فما جاء في بحث "حتي" عن اسم "فينيقي" وعن إطلاق الإغريق هذا الاسم على جماعة الكنعانيين، وعن أن هذه التسمية "فينيقية" أصبحت مرادفة لكلمة كنعاني[2] يتفق بعضه مع ما جاء في كتاب تاريخ سورية للدبس، فلقد جاء في كلام "الدبس" عن اسم لبنان أنها كانت تسمى "فونيقي وفينيقي". وأن "فينيقي" أخذ من كلمة "بون أو فون المصرية"، وأن اسم "فينيقي" صحب "الكنعانيين" من الخليج العربي، وأنه كما انتقل اسم فينيقي مع الكنعانيين من الخليج نقل الكنعانيون بعضاً من أسماء مدنهم وجزرهم إلى سورية مثل "صور" و"إرواد"[3]، ولعل اسم "لبنان" كذلك انتقل من "اليمامة" إلى تلك الجبال.

٥- ولبنان البلد العربي الوحيد الذي تندر فيه الصحارى، وتندر فيه القبائل الرحل. وجبال لبنان التي نراها اليوم في حلتها العمرانية القشيبة كانت في الماضي كشقيقاتها "جبال السراة" في الحجاز، وفي عسير، وفي اليمن. وكالجبل الأخضر في عمان، وكجبلي أجأ وسلمى في نجد، لا تتمتع بأكثر مما وهبتها لها الطبيعة، وبأكثر من جهد الإنسان البدائي، ولكن التطورات السياسية في الشرق العربي جعلت جبال لبنان تسبق أخواتها في الحضارة الحديثة، وسكان جبال لبنان في الماضي كسكان الجبال في عمان وفي اليمن

(١) العرب في أحقاب التاريخ ١/١٥٥.

(٢) لبنان في التاريخ، ص ٨٣.

(٣) تاريخ سوريا، للدبس ١/٢٦٥، ٢٦٧.

وفي الحجاز وفي نجد، كانوا ينعمون بالحياة المتحررة من قيود الحضارة وبالحرية البعيدة عن الأخطار. فالجبال بطبيعتها وعرة المسالك، والجبال بارتفاعها طيبة المناخ. والجبال المرتفعة الوعرة تبعث في سكانها النشاط والصلابة وتمنحهم المنعة والثبات. وجبال لبنان في ماضيها الإسلامي لم تعجب شاعر العرب "المتنبي".

ولقد كانت جبال لبنان المنيعة في عصورها الماضية ملجأ لكل من يعتز بحريته ويضن بعقيدته[1]. ولقد كانت مناعة جبال لبنان باعثاً على اعتزاز اللبناني بجباله.

٦- ولقد تطور اعتزاز اللبناني بمناعة جباله إلى نعرة جبلية ترتبت عليها سلبية بين سكانها الذين عاشوا من أقدم عصورهم وحدات منعزلة، وما زالت الفواصل الطبيعية مؤثرة على وحدة لبنان الجغرافية وعلى كيانه القومي. ولقد تطورت هذه النعرة بفعل سياسة الاستعمار إلى نعرة مذهبية في وقتنا الحاضر، فانقسم الشعب اللبناني على نفسه مسلمين: سنيين، وشيعة، ودروز؛ ومسيحيين: مارونيين[2] ويعاقبة[3] والسريان الأرثوذكس، وملكيون "الكاثوليك".

٧- وعلى أساس هذا الانقسام وزع الدستور اللبناني الوظائف الرئيسة في الجمهورية اللبنانية، فرئاسة الجمهورية للطائفة المارونية، ورئاسة الوزراء للمسلمين السنيين، ورئاسة مجلس النواب للمسلمين الشيعة، إلى غير ذلك.

٨- وجبال لبنان تتكون من سلسلتين: السلسلة الغربية، وهي التي أطلق عليها اسم لبنان أولاً، أما السلسلة الشرقية فقد سميت: "لبنان المقابل"، ويفصل بين هاتين السلسلتين السهول مثل سهل "البقاع"، وعرض هذا السهل يتراوح بين ستة أميال إلى

---

(١) تاريخ سورية، لحتى ٣٨/١.

(٢) تنسب الطائفة المارونية إلى القديس "مارون" المتوفى حوالي سنة ٤٠١م، وهي تعتقد المشيئة الواحدة، عقيدة هرقل الروماني.

(٣) اليعاقبة: هم الذين يقولون بالطبيعة الواحدة، وهم لا يتفقون في كثير مع السريان الأرثوذكس.

عشرة أميال، وسلسلة الجبال الغربية أكثر مطراً من السلسلة الشرقية وأقل جفافاً وأكثر إنتاجاً، ولهذه الفوارق أصبح سكان لبنان الغربي أكثر من سكان لبنان الشرقي.

٩- ويعتمد اللبناني في زراعته على الأمطار التي تكثر في فصل الشتاء، وتكاد تكون معدومة في فصل الصيف. وقد لا تسقط أمطار حتى في فصل الشتاء، وكل بلد لا يحظى بأمطار موسمية مضطر ألا يتوسع في زراعته أكثر مما تجود به سماؤه، وتحتفظ به الأرض، وعلى هذه القاعدة كيَّف اللبناني زراعته حسب تجاربه وخبرته بطبيعة أرضه وسمائها. على أن حقول لبنان تنتج من الفاكهة أفضل مما تنتجه حقول أي بلد في جزيرة العرب ما عدا فاكهة "المانجو" التي امتازت بها مصر، وما عدا "التمر" الذي امتاز به العراق والأحساء والحجاز. وعرف لبنان في عصره الفينيقي بجودة أخشابه، فلقد كانت غابات لبنان ثرية بالخشب الممتاز، كما كانت أشجارها مصدراً فياضاً لمادة الطلاء والصمغ اللازمين لصناعة السفن الشراعية، ولقد وجد الكنعانيون في أخشاب لبنان وفي صمغ أشجاره ما حقق لهم التفوق في ملاحة البحر المتوسط أكثر مما كانت عليه ملاحتهم في الخليج العربي.

١٠- وتشهد خلجان ساحل لبنان الجبلية ومصاب الأنهار العميقة على براعة الملاح الكنعاني. وإذا ما سرت من "بيروت" إن "طرابلس الشام" فإنك تسير بين حقول الموز والبرتقال على يمينك والبحر المتوسط عن شمالك وإذا ما أخذت تصعد الجبال من "طرابلس" قابلتك غابات من أشجار الزيتون[١].

وأروع ما يعجب به المصطاف في لبنان اليوم غابات الأرز التي تحيط بقمم جباله: قمم "الميزاب" و"القرنة السوداء" و"ظهر القضيب"، وكذلك مغارتا "قاديشا" و"جعيتا" فإنهما من النوادر.

(١) لقد كانت رحلة جميلة تلك الرحلة التي قمت بها من بيروت إلى جبال الأرز، فرحم الله المتنبي، لو عاش إلى عصر السيارة والكهرباء لغير رأيه في جبال لبنان ولصوَّرها بريشة الشاعر العبقري.

١١- وجاء في موسوعة تاريخ العالم أن لبنان إلى العصر الروماني كان مجموعة مدن منتشرة على طول ساحل البحر المتوسط غربي جبل لبنان، وشمالي جبل الكرمل. وأهمها من الجنوب إلى الشمال كما ذكرت في خطابات "تل العمارنة" في القرن الرابع عشر ق.م. هي: "عكا"، و"صور - الصخرة"، و"صيدا"، و"بيروت"، و"بيبلوس"، و"جبيل"، و"سميراء"، و"إرواد"، و"أوجاريت"، و"رأس شمرة" الواقعة قرب "دولاوديسيا" أي "اللاذقية"[(١)]. ويقول فيليب حتي: وتعتبر ("جبلة الجبيل"، أول مدينة ألقى التاريخ عليها الأضواء)[(٢)]، وإخال فيليب حتي - يقصد هنا تاريخ لبنان. إذ ليست "الجبيل" أول بلد ألقى التاريخ العربي العام الأضواء عليه.

ويقول مؤرخو لبنان: إن هذه المدن التاريخية برغم تجاورها، وبرغم اشتغالها بالتجارة، وبرغم اتصالها الجغرافي = غير متجاوبة في حياتها السياسية، ومن عدم التجاوب انبعثت الطائفية التي ما انفكت تؤثر في لبنان، فالوحدة اللبنانية ما زالت عليلة بالنعرة العقائدية، وما زال رجال الإصلاح يعالجون القومية بما لديهم من تجارب لاسيما بعد أن رحل عنهم الاستعمار فأصبحت بأيديهم مقاليد أمورهم. فلعلهم يوفقون في يوم قريب إن شاء الله للقضاء على الطائفية التي غرستها أوروبا القديمة، فأدمت اللبنانيين، مثلما دعمت أمريكا الجديدة اليهود، فمزقت الفلسطينيين.

١٢- ولقد عرفنا من البحث عن اسم لبنان أنه جزء من سورية الكبرى، وأن أول شعب كبير توطن لبنان هم الكنعانيون الذين باسمهم سمي لبنان بلاد كنعان وفينيقية، أما حدود لبنان السياسية في الوقت الحاضر فيحده من الشمال والشرق الجمهورية السورية، ويحده من الجنوب القسم المحتل من فلسطين، ويحده من الغرب البحر المتوسط.

---

(١) موسوعة تاريخ العالم ٧٢/١.

(٢) لبنان في التاريخ، ص ٨٥.

ولقد عرفنا من أوصافه الطبيعية أن سكانه في الماضي تكتلوا في مدنه الساحلية. أما في جباله فقد تناثروا هنا وهناك، ومن الطبيعي أن الفضل في انتشار العمران في بعض قمم جبال لبنان وعلى كل سفح من سفوحها يرجع إلى وسائل المواصلات الحديثة والطرق المعبدة، ومن الطبيعي أن انتشار العمران وتعبيد الطرق وسهولة المواصلات زادت نسبة سكان جبال لبنان.

١٣- وشيء آخر يزيد في إحصاء سكانه اليوم وهو التنافس على كسب الأغلبية بين المسيحيين والمسلمين، فما زال الإحصاء في لبنان يشمل المهجريين من سكان لبنان مهما طالت فترة هجرتهم عن لبنان.

وسكان لبنان يقدرون اليوم بنحو مليون ونصف مليون (١٫٥٠٠٫٠٠٠) بالنسبة لإحصاء سنة ١٩٥٤م، أما إذا ما اعتبرنا معدل الزيادة سنوياً (٥٥١١) نسمة فقد يصل الإحصاء إلى مليون وسبعمائة ألف. وإذا كان إحصاء لبنان في الوقت الحاضر يدخل فيه المهاجرون وكل من ولد مسيحياً حياً كان أو ميتاً - كما يؤكده المطلعون - فإن تقدير عدد سكانه في عصوره الفينيقية والرومانية لا يرتفع إلى هذا الرقم بحال من الأحوال على ما يظنه البعض. فعلى ذلك فإن سكان سورية الكبرى يقدر عددهم تخمينًا اليوم بتسعة ملايين على النحو الآتي:

٢٫٥٠٠٫٠٠٠ فلسطين وشرق الأردن.

٤٫٥٠٠٫٠٠٠ سورية.

١٫٧٠٠٫٠٠٠ لبنان.

٨٫٧٠٠٫٠٠٠ تقريباً.

ولعل سكان سورية الكبرى اليوم في حدود هذا التقدير يزيدون على عددهم في عصورها الذهبية قبل الإسلام وبعده، فتصاعد سكان العالم بهذه الطفرة ظهر في المائة سنة الأخيرة، كما هو معروف.

١٤- ويقسم تاريخ لبنان الحقيقي في عصور ما قبل الإسلام إلى عصرين:

الأول : ويبدأ مع الكنعانيين في الألف الثالث قبل الميلاد ، ثم الكلدانيين والآشوريين ، فالفرس.

الثاني : العصر اليوناني الروماني، ويبدأ مع غزو "الإسكندر الكبير" سنة ٣٣٣ق.م. وينتهي بالفتوحات الإسلامية التي بدأت في غربي الهلال الخصيب من عهد "أبي بكر الصديق" رضي الله عنه.

وكما قلنا من قبل سنقدم بياناً عاماً لدول الهلال الخصيب قبل الإسلام وبعده بالترتيب الآتي:

أولاً: بلاد ما بين النهرين : العراق.

ثانياً: سورية الكبرى.

البحث التاسع :

عصور الهلال الخصيب ودوله :

أولاً : عصور بلاد ما بين النهرين : العراق.

١- دول بابل.

٢- دول آشور.

٣- إمارات ذكرها تاريخ العراق القديم.

٤- العراق في العصور الإسلامية من الفتح الإسلامي إلى اليوم.

٥- التطور السياسي من عصر المغول إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ثانياً: عصور سورية الكبرى:

٦- عصور سورية من قبل التاريخ إلى ما بعد الفتح الإسلامي.

٧- دول ذكرها تاريخ سورية القديم.

٨- العصور الإسلامية.

٩- ملخص تواريخ الدول الإسلامية في سورية.

أولاً : بلاد ما بين النهرين : العراق:

(أ) دول بابل في الجنوب.

(ب) دول آشور في الشمال.

١- الدول البابلية قبل الإسلام:

- من عام ٢٤٥٠ إلى عام ٢٢٧٠ق.م.	الإمبراطورية الأكادية وعاهلها الأول "سرجون"، وامتدت حدود هذه الإمبراطورية عبر العراق إلى شمالي "سورية" وإلى البحر المتوسط.
- من عام ٢٢٧٠ إلى عام ٢١٤٥ق.م.	حكم الكوثيون البرابرة أبناء الجبال الشرقية: بابل نحواً من ١٢٥ عاماً.
- من ٢١٤٠ إلى ٢٠٣٠ق.م.	إمبراطورية "أور" وعاهلها "أور - نامو".
- من ٢٠٣٠ إلى ١٩٠٠ق.م.	أسرة "سن" وأسرة "لارسا".
- من ١٩٠٠ إلى ١٦٠٠ق.م.	الإمبراطورية الحمورابية[1].
- من ١٦٠٠ إلى ١١٥٠ق.م.	غزا الكاشيون بابل وحكموها ٤٥٠ عاماً.
- من ١١٤٦ إلى ١١٢٣ق.م.	دولة "نبوخذنصر" التي أبادها الآشوريون.
- من ١١٠٠ إلى ٩٠٠ق.م.	غزو القبائل الآرامية بابل، أو استعادة القبائل العربية بابل.

(١) هذا التسلسل حسبما جاء في موسوعة تاريخ العالم، أما في غيرها من المصادر فعصر الحمورابيين يبدأ من سنة ٢٢٢٤ق.م. راجع العرب في أحقاب التاريخ ، الجزء الذي صدر باسم (التاريخ العربي وبدايته) ٣٣٩/١ ؛ موسوعة تاريخ العالم ٥٥/١ وما بعدها.

- من عام ٩٠٠ إلى عام ٦٢٥ق.م.	أصبحت بابل جزءاً من الإمبراطورية الآشورية، فيما عدا فترات قصيرة كانت تخرج فيها عن النفوذ الآشوري.
- من ٦٢٥ إلى ٥٣٨ ق.م.	الإمبراطورية الكلدانية، وأبرز ملوكها: "بختنصر".
- من ٥٣٨ إلى ٣٣٢ ق.م.	بابل تحت الحكم الفارسي.
- من ٣٣٢ إلى ٣٢٣ ق.م.	بابل تحت حكم الإسكندر.
- من ٣٢٣ إلى ١٧١ ق.م.	حكومة "سلوقس"، لعله من أسرة سلوقوس.
- من عام ١٧١ ق.م. إلى عام ٢٢٦م.	حكومة البارثيين. أسرة "أرساسيد".
- من عام ٢٢٦م إلى ٦٤١م.	دول عربية: "الحضر" وغيرها، وأخيراً "اللخميون" الذين ارتبطت سياستهم بالدولة "الساسانية".

٢- دول "آشور" قبل الإسلام كالآتي:

- من عام ٢٦٠٠ إلى عام ٢٠٠٠ ق.م.	كانت آشور جزءاً من الإمبراطورية الأكادية.
- من عام ١٩٢٠ إلى ١٨٥٠ ق.م.	استقلت "قبادوقيا" فحكمها ملوك وطنيون.
- من عام١٨٣٠ إلى ١٨١٠ ق.م.	كانت آشور تحت حكم بابل.

- من عام ١٨١٠ إلى ٧٨٢ ق.م. استقلت آشور وأصبحت دولة تزاحم "بابل".

- من عام ٧٨٢ إلى ٧٤٥ ق.م. انتاب دولة آشور الضعف في القرن الثامن قبل الميلاد.

- من عام ٧٢٥ إلى ٦٢٥ ق.م. برزت آشور إمبراطورية عظمى حكمت بابل ووصلت جيوشها إلى مصر.

- في سنة ٦٠٥ ق.م. زالت إمبراطورية آشور من وجود الشرق الأوسط بصورة سريعة كأن لم تكن، فلم يعد للشعب الآشوري تاريخ سياسي بعد سنة ٦٠٥ قبل الميلاد.

٣- ولقد برزت في العراق إمارات صغيرة سامية وغير سامية مثل دولة "الحوريين"، و"الميتانيين"، وغيرهما من الحكومات التي تحدث المؤرخون الكلاسيكيون عنها، واكتشف المنقبون آثارها.

٤- أما في العصور الإسلامية ففي سنة ١٣هـ / ٦٣٤م بدأت الفتوح الإسلامية تزيل الحواجز الاستعمارية التي فصلت العراق عن الجزيرة العربية. وأخذت الدول الإسلامية تتسلسل حلقاتها على النحو الآتي:

- من عام ١٣هـ / ٦٣٤م إلى ٤١هـ/ ٦٦١م. من عهد أبي بكر بدأت الفتوحات الإسلامية في العراق، وقد تم فتح العراق سنة ١٩هـ، وارتبط بالمدينة في عهد الراشدين.

- من عام ٤١هـ/ ٦٦١ إلى ١٣٢هـ/ ٧٥٠م. ارتبط العراق بدمشق عاصمة الخلفاء الأمويين.

- من عام ١٣٢/٧٥٠ إلى ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. كانت بغداد العراقية قاعدة الخلفاء العباسيين.
- من عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م إلى ٦٥٩هـ/١٢٦١. كانت كارثة المغول وعقابيلها.
- من عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م إلى ٩٢٣هـ/١٥٦٧م. ارتبط العراق اسمياً بالقاهرة عاصمة العهد العباسي الثاني.

٥- وارتباط العراق بمصر طور من الأحداث السياسية فيما بعد المغول، تلك الأحداث التي شملت العراق وسورية ومصر على النحو الذي سنلخصه في الفقرة الآتية:

في سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م دمر "هولاكو" الخلافة العباسية في بغداد، وبقي العالم الإسلامي بلا خليفة إلى سنة ٦٥٩هـ، حيث بويع "المستنصر بالله أبو القاسم" في القاهرة، ولم يكن الخلفاء العباسيون القاهريون يتدخلون في أمور الحكم، بل كان سلطانهم في أغلب عهود خلفائهم لا يزيد على سلطان ملكة بريطانيا في الوقت الحاضر. فقصارى ما وصلوا إليه أنهم كان يكلفون ببعض المهمات وأكثرها في الشئون الدينية، وكانت أسماؤهم تذكر مع سلاطين "مصر" الحكام الحقيقيين في الخطب والعملة ما خلا الخليفة "المستعين بالله" فقد انتخبه الأمراء الجراكسة: خليفةً وسلطاناً سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م ولكنه خلع في سنة ٨١٧هـ / ١٤١٤م.

وبقيت الخلافة العباسية في مصر من ٦٥٩هـ إلى سنة ٩٢٣هـ، حيث استولى على مصر السلطان العثماني "سليم" سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، ومَدَّ نفوذه على البلاد العربية ما عدا "بغداد" التي كانت - مع ما استولى عليه الفرس من القطر العراقي - في حكم الإيرانيين، فبقيت خارجة على حكومة العثمانيين إلى سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م حيث انتزعها السلطان "مراد" الرابع من يد شاه إيران "صفي" الأول.

ولقد استمرت دولة "آل عثمان - الأتراك" نحواً من ثمانية عشر وأربعمائة عام من سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م إلى سنة ١٣٤١هـ / ١٩٢٢م حيث جرد "وحيد الدين" من السلطنة وانقرضت الدولة العثمانية.

وفي سنة ١٣٤٠هـ / ١٩٢١م أصبح الملك "فيصل بن الحسين" الأول ملكاً على العراق، وفي سنة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م كانت ثورة "عبد الكريم قاسم" الدامية التي قلبت الحكم في العراق من ملكية يمينية إلى جمهورية يسارية، ولا يزال العراق إلى اليوم جمهورية[1]. ينتابها حيناً بعد آخر انقلاب عسكري.

هذا مسلسل تاريخي لدول العراق من بداية تاريخه، وقد حرصنا على ذكره ملخصاً لنرى أن دول العراق من فجر تاريخه إلى اليوم دول عربية ما عدا تلك الدول التي ظهرت في عصور الجاهلية الأولى والثانية، والتي ذكرت في هذا المسلسل وما عدا الدول التي استولت على العراق في العصور الإسلامية، مثل "بني بويه" "أتابكة" الموصل، والأتابكة مماليك، ومؤسس دولة الأتابكة التي حكمت "الموصل" و"حلب" وغيرهما هو "عمادالدين زنكي"؛ على أن الإمارات والدول التي قامت في العراق وسورية بقيادة رؤساء غير عرب، وسيوف غير عربية لم تخرج العراق وسورية عن عروبتهما، بل عرب الهلال الخصيب المسلمون هم الذين عربوها فكانت في واقعها دولاً إسلامية عربية.

ثانياً : سورية الكبرى:

٦- ولقد لخص "فيليب حتي" تاريخ شعوب سورية في خمسة أقسام قال عنها إنها رئيسة، وهي:

(١) عصر ما قبل التاريخ.

---

(١) تاريخ الدول الإسلامية، ومعجم الأسر الحاكمة، ومصادر غيرها.

(٢) الدور السامي الذي بدأ بالأموريين حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م. وانتهى بسقوط الإمبراطورية البابلية الجديدة أو "الكلدانية" في سنة ٥٣٨ ق.م. وقد أضاف "حتي" الدور الفارسي إلى هذا الدور، فقال: وتبعته سيادة الفرس.

(٣) العصر اليوناني الروماني الذي بدأ بفتوح "الإسكندر الكبير" في سنة ٣٣٣ ق.م. وانتهى بالفتوحات العربية ما بين سنة ٦٣٣ إلى ٦٤٠م.

(٤) الدور العربي الإسلامي الذي استمر حتى الفتح العثماني في سنة ١٥١٦م / ٩٢٢هـ.

(٥) الدور العثماني الذي انتهى بنهاية الحرب العالمية الأولى.

وعلق "حتي" على هذه الأقسام بقوله: وفي خلال هذا التاريخ الطويل لم تكد سورية تشهد فترة واحدة كانت كلها دولة مستقلة بمفردها تحت حكم جماعة من حكامها الوطنيين[(١)].

٧- وجاء في "موسوعة تاريخ العالم" أن شعوباً تتكلم السامية عرفت بالساميين جاءت في موجات متتابعة، منذ عصر البرونز سنة ٣٠٠٠ ق.م.، وأن أهم غزاة سورية من غير الساميين[(٢)] كانوا من "الحوريين" ومن "الحثيين" ومن "الفلسطينيين" الإيجيين[(٣)]، وهم جماعة من شعوب بحر "إيجة"، ولعل الموسوعة تعنى بالساميين: الكنعانيين واليبوسيين والعماليق والإرميين، وجاء في "موسوعة تاريخ العالم" أيضاً أن "اليهود الخابيرو" - في خطابات تل العمارنة - يبدأ تاريخهم في أوائل القرن الرابع عشر، والإسرائيليين سنة ١٢٠٠ ق.م. ولعل الموسوعة تقصد دولة بني إسرائيل، فعصر

(١) تاريخ سورية، ص ٦١.

(٢) موسوعة تاريخ العالم ١/ ٦٤.

(٣) لقد تكررت الإشارة إلى أن "جواد علي" وكثيراً من المؤرخين يؤكدون أن الفلسطينيين الذين يسكنون فلسطين هم من حفدة العماليق سكان فلسطين القدامى.

"موسى" ما بين سنة ١٥٠٠ وسنة ١٣٠٠ ق.م. ودولة بني إسرائيل لم تقم في فلسطين إلا بعد وفاة موسى بزمن طويل. ثم تقول الموسوعة: والعرب سنة ٥٠٠ ق.م. ، ولعل الموسوعة تقصد بالعرب دولة "النبط"[١] ، فلقد جاء في تاريخ سورية: يظهر الأنباط لأول مرة في القرن السادس ق.م. في شرق الأردن[٢]. فالذي يجب أن يلاحظ هو أن شعوب فلسطين العربية أقدم من دولة النبط العربية وأقدم من الفلسطينيين الذين قال عنهم: "حتي": (وكان الفلسطينيون أقوى المنافسين الذين كان على العبرانيين أن يقاتلوهم لامتلاك البلاد. والفلسطينيون من المجموعات الخمس لشعوب بحر "إيجة" نزحوا إلى سورية في القرن الثالث عشر ق.م.[٣]!! فمن قبل ذلك بكثير قامت دول سورية من الشعوب العربية: عمليقية، وإرمية، وكنعانية، وفلسطينية، وعندما جاء اليهود إلى فلسطين اندلعت حروب طاحنة بينهم وبين الفلسطينيين جميعهم عرباً وغير عرب من الجاليات التي جاورت العرب، ويقول "المطران الدبس": (وفي "سفر العدد" قيل: إن جواسيس "موسى" قالوا عند عودتهم: رأينا أيضاً بني" عناق - العمالقة" مقيمين بأرض الجنوب، والحثيين واليبوسيين والأموريين مقيمين بالجبل، والكنعانيين مقيمين عند البحر وعلى عدوة الأردن)[٤]، واليبوسيون يقول عنهم "عارف باشا العارف" في كتابه "تاريخ القدس": (إن اليبوسيين هم بناة القدس الأولون، كانت القدس على عهدهم تدعى: "يبوس"، وكان شعبها اليبوسي بطناً من بطون العرب الأوائل نشأ في صميم الجزيرة العربية وترعرع في أرجائها، ثم نزح عنها مع من نزح من القبائل الكنعانية

---

(١) موسوعة تاريخ العالم ٦٤/١.

(٢) تاريخ سورية، ص ٤١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٦ . كان الجدير بفيليب أن يسمي هؤلاء المهاجرين من بحر إيجة: الإيجيين بدلاً من الفلسطينيين كما سمى المؤرخون اليهود العبريين لأنهم عبروا فلسطين من "أور" العراقية وقيل من مصر. ولم يسموا فلسطينيين؛ بل هم مهاجرون إلى فلسطين.

(٤) تاريخ سورية، للدبس ١٥٦/١ ، ص ١١٢ ، جزء ١.

فاستوطنوا هذه الديار، وأغلب الظن أن ذلك حدث حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد)[١]، وعن الكنعانيين قال "فيليب حتي": (وكان الكنعانيون الذين أسماهم اليونانيون بالفينيقيين فيما بعد ثاني جماعة سامية أدَّتْ دوراً هاماً في تاريخ سورية بعد الأموريين. والأموريون أو العموريون أول شعب سامي هاجر إلى سورية)[٢]. أما "الحثيون" فيقال إنهم من شعوب آسية الصغرى عاصمتهم "كركميش"، كانت مملكتهم تحوي القسم الأكبر من بلاد الأناضول"، واتسعت مدة طويلة إلى "حلب"، وتوطن منهم جماعات لا يستهان بها، وقد بلغ الحثيون أوج مجدهم حوالي سنة ١٣٨٠ قبل الميلاد تحت قيادة ملوك جبابرة نافسوا مصر وآشور[٣].

وهكذا نجد هذه الشعوب - ما خلا الحثيين - عربية يرجع تاريخها في تحقيق المؤرخين المستشرقين والأثريين والمؤلفين العرب إلى ما قبل ألف ومائتي عام، سبقت الميلاد بكثير، ونجد من الضروري التعليق على موسوعة تاريخ العالم بذكر الشعوب التي سبقت اليهود إلى فلسطين، فالشعوب السامية التي ذكرها جواسيس "موسى" - كما يقول الدبس - ليست بأول شعوب سورية السامية العربية التي أشار إليها المؤرخون من المستشرقين ومن العرب.

ومن جدول "فيليب حتي" يظهر أن سورية عاشت في ظل دول عربية، قامت بينها دول غير عربية مثل: "الحثيين" و"الإسرائيليين"، وأن من بعد الدور السامي الذي انتهى سنة ٥٣٨ ق.م. ساد النفوذ الفارسي على سورية إلى فتوح الإسكندر الكبير سنة ٣٣٣ ق.م. ومن بعد الفتوح الإسكندرية بدأ الدور اليوناني والروماني إلى الفتوحات الإسلامية ما بين سنة ٦٣٣هـ إلى ٦٤٠م.

---

(١) تاريخ القدس، لعارف باشا، ص ١١.

(٢) تاريخ سورية، ص ٧٠، ٨٥.

(٣) المنجد، من جزء الأدب والعلوم، ص١٥١؛ لبنان في التاريخ، ص ٦٧.

ومن جدول "فيليب حتي" يتبين أن سورية عربية أرضاً وسكاناً من بداية تاريخها، وأن العصر "الفارسي" والعصر "الروماني" لم يغيرا حدودها الطبيعية التي تقدم ذكرها، ولم يسلبا سكانها عروبتهم، كما لم تتأثر عروبة سورية بالحثيين والإسرائيليين. ولسوف تستمر فلسطين عربية مهما أطال الأمريكيون عمر الاحتلال الإسرائيلي.

٨- أما في العصور الإسلامية فلقد جاء في "تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة": (كانت مصر وسورية تشكلان في التاريخ الإسلامي على العموم حكومة واحدة)، أو في أكثر عهودهما الإسلامية على الأصح. فقد فتح المسلمون سورية في الفترة من سنة ١٣هـ إلى سنة ١٧هـ (٦٣٤-٦٣٨م) وفتحوا مصر سنة ٢٠هـ / ٦٤١م. فتعاقبت الدول الإسلامية على مصر وسورية - كما سيأتي - إلى الحرب العالمية الأولى. ولقد كان من نتائج الحرب العالمية الأولى التي وقعت بين سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م وسنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م أن نصب الملك "فيصل بن الحسين" ملكاً على الشام سنة ١٩٢٠م / ١٣٣٩هـ ولكنه لم يلبث أن أطاحت فرنسا بحكومته العربية في العام نفسه، فدخلت سورية تحت الانتداب الفرنسي. وفي سنة ١٣٣٩هـ / ١٩٢٠م أقام الفرنسيون حكومة لبنان الكبير رسمياً، هذا غير التقسيمات الداخلية مثل: حكومة الدروز والعلويين داخل حكومة سورية. وهكذا انتهى مصير سورية إلى استعمار فرنسي مطبق، وفي سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م تم جلاء الإنجليز والفرنسيين عن سورية بعد عرض الأمر على "مجلس الأمن"(١)، ومن ذلك التاريخ أصبحت سورية وأصبح لبنان جمهوريتين عربيتين، ثم كان اتحاد سورية مع مصر سنة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م ولكن لم تلبث سورية أن انفصلت عن مصر، فعادت جمهورية عربية سورية. أما "الأردن" ففي سنة ١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م نصب "عبدالله

---

(١) تاريخ الدول الإسلامية والأسر الحاكمة ١١٧/١ وما بعدها.

ابن الحسين" أميراً على "شرقي الأردن". ولقد ارتبط الأردن بعجلة الاستعمار البريطاني بعد زوال ملكية الشريف فيصل بن الحسين الدمشقية. وفي سنة ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م سمي شرقي الأردن المملكة الأردنية الهاشمية، واندمجت الضفة الغربية من نهر الأردن في شرقي الأردن.

٩- فعلى ضوء هذه الخلاصة التاريخية يمكننا أن نقول: إن عصور سورية الإسلامية هي:

(١) عهد الخلافة الراشدية من سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م إلى سنة ٤٠هـ/ ٦٦١م وقد تم فتح سورية سنة ١٧هـ.

(٢) عهد الخلافة الأموية من ٤١هـ/٦٦١م إلى ١٣٢هـ/٧٥٠م.

(٣) عهد الخلافة العباسية من ١٣٢هـ/٧٥٠م إلى ٦٥٦هـ/١٢٥٨م.

(٤) من ٦٥٦هـ/١٢٥٨ إلى ٩٢٣هـ/١٥١٨م عهود ملوك وسلاطين عرب وغير عرب مثل: "السلاجقة" و"الأيوبيين" الذين حكموا سورية في سورية ومن مصر، وحكموا مصر في مصر ومن سورية، وقد انتهى أمر سورية للعثمانيين سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٨م. ولقد كانت سورية في فترات انفصالها عن بغداد تدعو لأمراء المؤمنين أينما كانوا.

(٥) عهد آل عثمان الأتراك من سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٨م إلى سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م حيث هزمت تركيا وتخلت عن البلاد العربية.

(٦) عهد الاستعمار الإنجليزي في فلسطين الذي خلف الصهيونية، والاستعمار الفرنسي في سورية الذي مزق سورية إلى "جمهورية لبنان" و"دمشق" و"حلب" و"دولة العلويين". ولقد بدأ من سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م إلى سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م حيث جلا في هذا التاريخ الاستعمار عن الأردن وسورية ولبنان.

الفصل التاسع

مصر العمليقية العربية : القسم السابع من أجزاء الجزيرة العربية

البحث الأول : مصر العمليقية جزء من جزيرة العرب.

البحث الثاني : أقسام مصر العمليقية وحدودها.

البحث الثالث : عصور مصر العمليقية العربية.

البحث الأول :

مصر العمليقية : جزء من جزيرة العرب :

١- القدامى هم الذين قالوا: إن جزيرة العرب أو شبه جزيرة العرب تشمل مصر.

٢- مصر هذه ليست هي أرض جمهورية مصر العربية جميعها.

٣- بلبيس نهاية الحد لمصر التي تعتبر القسم السابع من أقسام الجزيرة العربية.

٤- الأدلة بين يدي القارئ.

أولاً: اسم مصر:

٥- اسم مصر في معاجم اللغة.

٦- اسم مصر في التاريخ القديم.

ثانياً: جغرافية مصر العمليقية وحدودها:

٧- جغرافية مصر العمليقية.

٨- مقتطفات من أقوال القدامى والمتأخرين ناقشها البحث.

٩- ليس الجغرافي العربي وحده هو الذي جعل مصر هذه من جزيرة العرب.

ثالثاً: سكان مصر العمليقية:

١٠- العنصر العربي في مصر.

١١- العرب عاشوا في مصر من فجر تاريخها.

١٢- المؤرخ العربي مقتنع بعربية المصري في مصر العرب.

١٣- يقين القدامى وشك المتأخرين.

١٤- دراسات المستشرقين المتأخرة سارت في مجرى أقوال قدامى العرب.

١٥- لغة مصر القديمة سامية.

١٦- ملامح سكان مصر.

رابعاً: مصر في القصص القرآني:

١٧- الصفة العربية التي تبدو على مصر في قصص الأنبياء.

١٨- موقع مصر التي ذكرت في القصص القرآني.

١٩- نتائج وأدلة.

١- لست أنا وحدي وباعتقاد مجرد من أي دليل أقول: إن الجزيرة العربية اشتملت على جزء من وادي النيل المصري، وإن هذا الجزء هو القسم السابع الذي تتم به أقسام جزيرة العرب. فلقد تقدمني من قال من قبل مثل ما أقول الآن: إن بعضاً من مصر جزء من الجزيرة.

٢- ولست أقصد بهذا القسم، القسم السابع: إقليم مصر جميعه من "أسوان" إلى البحر المتوسط، كما لم يقصد ذلك من تقدمني في البحث عن مصر العربية، إنما أنا أعني الجزء الشمالي الممتد من خليج العقبة شرقًا إلى النيل غربًا، وضفة النيل الشرقية الممتدة من البحر المتوسط شمالاً إلى "بلبيس" جنوبًا. فهذا الجزء هو الذي أدخله جغرافيو العرب في نطاق الحدود التي وضعوا الجزيرة العربية داخلها، وهذا الجزء هو الذي استوطنه من قبل التاريخ قبائل العرب، وهذا الجزء هو الذي ربط المؤرخون تاريخه القديم جداً بتاريخ جزيرة العرب القديم جداً، وهذا الجزء هو الذي تقدم الكلام عنه عندما تكلمنا عن الجزيرة العربية وحدودها المائية، وعندما تحدثنا عن مدينة "بلبيس" وقناة "أمنيس تارایاني".

٣- فبلبيس مدينة قال عنها "أبو الفداء": (قصبة الحوف[١]، يمر بها من الأنهار الآخذة من النيل حال زيادته: نهر يعرف بـ"بحر منجا")[٢]، وبلبيس بلدة فوق القاهرة تحضرت فيها قبائل العرب، وفيها أسكن يوسف أباه يعقوب وإخوته، وفيها توفي الخليفة "العزيز الفاطمي". وقرب "بلبيس" تقع قناة "أمنيس تارایاني" كما تقول دائرة المعارف الإسلامية[٣]، وبلبيس التي ذكرتها دائرة المعارف الإسلامية تقع فوق القاهرة

---

(١) الحوف: اسم موضع بناحية "عمان"، والحوف بمصر حوفان: الشرقي والغربي وهما متصلان ويشتملان على بلدان وقرى كثيرة. معجم ياقوت ٢/٣٦٧.

(٢) تقويم البلدان، لأبي الفداء، طبع باريس، ص ١١٩.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية.

على بعد عشرة فراسخ من الفسطاط، والفسطاط في الوقت الحاضر جزء من القاهرة، والقاهرة تظهر على الخريطة في حذاء خليج السويس، فعلى ذلك يرجح البحث أن قناة أمنيس تراياني كانت تصل النيل بخليج السويس كما وصلت قناة السويس اليوم ذلك الخليج بالبحر المتوسط.

٤- وإني أضع بين يدي القارئ أدلة البحث الواحد تلو الآخر، لأنني أريده أن يتابع معي الموضوع جملة وتفصيلاً، ليصل إلى الدعامة التي قام عليها اعتقاد الذين قالوا إن النيل يكمل حدود الجزيرة العربية المائية. وهذه الأدلة هي كالآتي:

أولاً: اسم مصر:

٥- المصر في اللغة العربية معناه الحاجز بين الشيئين، ونص بعضهم على أنه الحد في الأرض خاصة، وفي هذا القسم السابع: مصر العمليقية العربية، حد فاصل يبرر تسميته مصراً، ففيه "البرزخ" الذي يفصل بين البحرين، وفيه النيل الذي يفصل بين "صحراء ليبيا" وبين "الصحراء العربية". فإذا كان العرب أطلقوا اسم "القلزم" على البحر الأحمر، لأن القلزمة ابتلاع الشيء، ولأن البحر الأحمر ابتلع فرعون وقومه. فلا يبعد أن يكونوا هم الذي أطلقوا اسم "مصر" على هذا الجزء، لأنه حجز بين البحرين، وحجز بين الصحراوين. والمصر في اللغة أيضاً الكورة، وتمصر المكان إذا صار مصراً، وإذا صار مصراً فإما أن يقصد به مدينة بعينها فيمنع من الصرف لأنه أصبح علماً مؤنثاً، وإما أن تقصد به بلد من البلدان فلا يمنع من الصرف.

وإذا كان العرب سموا أرض نجد نجداً لارتفاعها فلماذا لا يسمون هذا الجزء مصراً لكثرة أمصاره؟ فشواطئ البحرين المتوسط والأحمر في هذا الصقع تمصرت من أقدم الأزمان[1].

---

(١) اللسان، مادتا (مصر) و(القلزم)؛ المعجم، مادة (مصر) ٧١/٨.

فعلى ذلك فإن هذا الجزء الممتد من خليج العقبة إلى النيل قد توافرت فيه معاني الكلمة العربية "مصر" الدالة على الحجز والدالة على التمصر، وعلى ذلك فإن "ابن سيده" كان واقعياً عندما استغرب تسمية مصر باسم "مصر بن حام" فقال: فلا أدري كيف كان ذلك[1]؟

أما كيف كان ذلك فقد أشار إليه "المسعودي" بقوله[2]: (وأسمت العرب الأقطار التي وصل إليها نفوذ "مصر بن حام" ما بين "أسوان" و"اليمن" و"أيلة" و "فرسيسة" - أسمتها كلها: مصر، نسبةً إلى "مصر حفيد حام"). وما أشار إليه المسعودي وضحه "ابن خلدون" بقوله: (فاستفحل ملك "مصر بن حام" فشمل ما بين "أسوان" و"اليمن" و"العريش" و"أيلة" و"فرسيسة" فسميت كلها أرض مصر، نسبة إلى عاهل تلك الدولة مصر بن حام[3]، ولكن الذي لم يوضحه المؤرخون هو: هل مصر بن حام هذا عربي أو غير عربي؟ وما في تاريخ "ابن خلدون" يوضح لنا أن اسم مصر اسم أطلق على منطقة واسعة، منها مصر، مثله مثل اسم "إثيوبيا" الذي أطلق على منطقة تمتد من "الحبشة" في أفريقية إلى "عمان" في جزيرة العرب، ويرجح البعض أن اسم مصر آشوري، وما يرجحه هذا البعض لا يضعف القول بأن اسم مصر عربي، فلغة آشور سامية، واللغة العربية هي أم اللغات السامية كما تقدم. فالذي يبدو للبحث بعد هذه المقدمة أن اسم "مصر" عربي، وأن اسم مصر أطلق أولاً على أرض ما في الجزيرة العربية أخذ المحققون يبحثون عن مكانها في شمال الحجاز الغربي، وفي فلسطين المتاخمة لسيناء، وفي سيناء، وفي دلتا النيل، وفي الصحراء العربية شرقي وادي النيل، أولاً يستبعد أن يكون هذا الاسم قد اختصت به "سيناء" وشمالي الضفة الشرقية لوادي النيل، ثم عم

(١) اللسان، مادة (مصر).

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٠٩/١.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١٠٩/١ و ما بعدها.

إقليم مصر جميعه على نحو ما عم اسم "أفريقية" الذي أطلقه العرب أولاً على بلاد "البربر"، ثم عرفت به القارة جميعها، فهي تعرف اليوم باسم قارة "أفريقية"[1].

٦- ولقد قال بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ (البقرة /٦١): إن مصر هي الشام[2]، والشام تشمل فلسطين وسيناء[3] في معاجم البلدان. وعن اسم مصر العربي أخذ الأثريون يبحثون في المواضع التي حامت حولها ظنون المؤرخين العربي، فلقد جاء في تحقيقات الأثريين: أن أرضاً تتاخم "آدوم"[4] يقال لها: مصرى، وأن مصرى التي ورد اسمها في النصوص الآشورية والتي عين ملوك آشور حكاماً من قبلهم عليها هي تلك الأرض التي تتاخم آدوم، وهي التي نصب عليها "أدبئيل" من قبل الآشوريين، وهي التي أسماها الآشوريون مصر[5]. ويرى "موسل": أن إمارة "أدبئيل" في "سيناء"، وأن إمارته بلغ نفوذها مدينة "غزة"، و"دومة الجندل"[6]، فإذاً اسم مصر أطلق أولاً على سيناء من الإقليم المصري كما رجحنا ذلك في الفقرة السابقة.

ومصر العمليقية التي تحدث عنها المؤرخون تمتد من سيناء شرقاً إلى غربي الدلتا غرباً، ومن البحر المتوسط شمالاً إلى جنوبي "بلبيس". ومصر هذه داخلة في حدود الجزيرة العربية المائية التي تحدث عنها الجغرافيون العرب كما تقدم، ومأهولة بقبائل عربية من أقدم العصور.

---

(١) المنجد، قسم الآداب والعلوم، ص ٢٧.

(٢) تفسير ابن جرير ٢٢٩/١.

(٣) معجم ياقوت، مادة (شام) ٢١٩/٥.

(٤) آدوم: منطقة تشمل جميع تخوم كنعان الجنوبية من البحر الميت إلى خليج العقبة. تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي ٣٧٥/٢.

(٥) المصدر نفسه ٤٠٩/١ وما بعدها.

(٦) تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي ٣١٠/٢ وما بعدها.

ومصر التي تحدث عنها العرب هي في كلام بعضهم - كما يظهر - تعم شمال ساحل البحر الأحمر شرقيه وغربيه، فلقد جاء في معجم "ياقوت": (وهذا البحر هو "بحر القلزم" وهو داخل في أرض مصر بشرقيه وغربيه، فالشرقي منه أرض "الحوراء" و"طبة" و"النبك" وأرض "مدين" وأرض "أيلة" فصاعداً إلى "المقطم" بمصر - ولعل ياقوت يقصد إلى ما يحاذي المقطم بمصر - والغربي منه ساحل "عيذاب" إلى بحر القلزم إلى المقطم، والبحري منه: مدينة "القلزم" و"جبل الطور"، وبين "القلزم" و"الفرما" مسيرة يوم[1].

وهذا الذي جاء في معجم ياقوت - وإن كان فيه شيء من الاضطراب - هو على كل حال يبين لنا كيف بدأ اسم مصر يشمل الإقليم المصري المعروف اليوم باسم جمهورية مصر العربية. فمصر العمليقية قبل الإسلام هي من سيناء والدلتا إلى جنوبي بلبيس، أما مصر العربية بعد الإسلام فهي من أسوان إلى الدلتا وسيناء.

أما اسم الوادي جميعه من "أسوان" إلى البحر المتوسط الذي سبق اسم مصر، فيقول الباحثون: (إن وادي النيل من "أسوان" إلى "الدلتا" كان يسمى في اللغة المصرية القديمة: "كيمي"أي الأرض السوداء[2]. وكانت "الدلتا" مصر السفلى مملكة، ومصر العليا مملكة. وإن قدماء المصريين قسموا عالمهم إلى قسمين: "الأرض السوداء"، وعنوا بها وادي النيل و "الأرض الحمراء"، وأرادوا بها الصحراء، ويقولون إن الوادي بعد أن قامت فيه مملكتا الوجه البحري والوجه القبلي، لقب بأرض القطرين[3].

---

(١) معجم ياقوت، مادة (مصر) ٧٢/٨.

(٢) موسوعة تاريخ العالم ٤٥/١.

(٣) تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ص٦، ٧.

ويقول ياقوت في معجمه: إن اليونانيين كانوا يطلقون على القطر المصري اسم "مقدونية"[(١)]، ويقول "عبد الفتاح محمد وهيبة" نقلا عن مصادره: (إن اسم "أخت" أي الأرض الطيبة خلف اسم "كيمي"، وإن مصر عرفت في العصر الإغريقي باسم "إيجيبتوس" الآشورية الأصل، ربما نسب إلى بلدة "جوريتس" التي عرفت فيما بعد باسم "قفط" أو "منف"، وإن اسم "مصر" العربي - منذ دخول العرب وادي النيل - قضى على كل الأسماء التي سبقته، فاسم مصر هو الذي دام إلى اليوم). ولقد تقدم التعليق على اسم مصر في تضاعيف هذه الفقرة[(٢)]، فاسم مصر عربي أطلق على أرض عربية.

ثانياً: جغرافية مصر العمليقية وحدودها:

٧- لابد للبحث هنا من الإشارة إلى جغرافية مصر العمليقية وإلى ما سبق أن نقلناه من كلام جغرافيي العرب ومؤرخيهم القدامى الذين إذا تكلموا عن جزيرة العرب وحدودها جعلوا هذا القسم مصر العربية جزءاً منهما فقالوا: (حتى بلغ: قلزم[(٣)] مصر، وخالط بلادها، وأقبل النيل في غربي هذا العنق مستطيلاً معارضاً للبحر معه. حتى دفع في بحر مصر والشام). ولقد تقدم الكلام عن ذلك مفصلاً، وأوضح هناك أن العرب لا يقصدون إخراجها من جزيرة العرب. وإنما البحث في حاجة لأن يبين أن سكوت جغرافيي العرب عن مصر والهلال الخصيب جعل الكثيرين من المؤرخين في العصر الحاضر يظنون أن جغرافيي العرب أخرجوا مصر والهلال الخصيب من جزيرة

---

(١) المعجم، مادة (مصر)، ص ٦٩.

(٢) دراسات في جغرافية مصر، ص ١٥ ، ١٦، وإلى الآن اسم مصر في اللغة الإنجليزية إيجبت.

(٣) القلزم: قلعة يرجع عهدها إلى البطالمة، أسماها العرب القلزم، قيل مدينة قرب السويس. دائرة المعارف الإسلامية ٢٩٨/١٢ ، مادة (سويس)، ومعجم ياقوت، مادة (مصر).

العرب، ومنهم "جواد علي"[1] الذي يقول عن الهلال الخصيب: (هذه المنطقة العربية التي شاء العلماء الإسلاميون إخراجها من جزيرة العرب وعدها من غيرها)، مع أن جواد علي يعترف (بأن باطن الهلال الخصيب من الناحية الطبيعية وحدة لا يمكن فصلها عن الجزيرة العربية من الناحية التاريخية أيضاً)[2]، وكذلك طرفا الهلال الخصيب، مع أن جواد علي مع ظنه هذا يتحدث عن أرض الهلال الخصيب ومصر العمليقية على أساس أنهما أجزاء من بلاد العرب قبل الإسلام.

٨- ولقد قلت من قبل عندما تحدثت عن حدود جزيرة العرب، وعن أقسامها: إن "ابن السائب" وإن "الهمداني" كانا في طليعة الذين مدوا حدود جزيرة العرب من الفرات إلى النيل، كما كانا في طليعة الذين اقتصروا أجزاء الجزيرة على خمسة أقسام ليس منها مصر والهلال الخصيب، وإن "ابن السائب" و "الهمداني" كما أعرفهما أنا وتعرفهما أنت ويعرفهما الكثيرون معنا هما مصدر من مصادر التاريخ العربي وجغرافيته، ولقد بينت أنهما لم يقصدا في كلامهما عن أقسام الجزيرة العربية إخراج الهلال الخصيب ومصر من بلاد العرب، كما بينت أن "الأصمعي" الذي يقول: إن جزيرة العرب هي الأرض التي لم يبلغها ملك فارس، لا يعني أن أرض "اليمن" وأرض "العروض" ليستا من الجزيرة العربية، لأن النفوذ الفارسي بلغهما. وأكدت لك أن أولئك الذين بالغوا في قولهم فحصروا جزيرة العرب في مكة والمدينة وقرياتهما، إنما يقصدون الأقسام التي ظلت نقية من الشوائب التي خالطت عروبة العراق ومصر وسورية واليمن والعروض، مثل قولهم كمثل قول "ابن العلاء": ما لسان حمير بلساننا، ولا لغتهم بلغتنا، فالذي يقصده "ابن العلاء" أن لغة حمير مشوبة بلغات "أمهرية" وغير أمهرية،

(١) جواد علي ٢/٢٨١.

(٢) راجع بحث "حدود جزيرة العرب" وبحث "أقسامها" من هذا الكتاب.

فلا يصلح الاستشهاد بها ، وهذا لا يخرجها عن كونها لغة عربية. ولقد علمنا مما تقدم أن سورية عندما كانت ولاية رومانية امتدت حدودها إلى شمالي "تبوك" و"جبلي طيئ"، فهل ما يتاخم "تبوك" و"جبلي طيئ" شمالاً أراضٍ غير عربية؟!

ولعل من الأسباب التي جعلت بعض المؤرخين والجغرافيين يخرجون العراق وسورية ومصر من جزيرة العرب استحالة الاطلاع على جميع النصوص والمصادر، وبطبيعة الحال أن النصوص التي ظهرت بعد عصورهم والتي نشرتها مطابع العصر الحاضر هي في آسيا وأوربا وأمريكا ، فلو أن "أبا الفداء" اطلع على ما قيل عن قناة "أمنيس ترایاني"[(١)] لما أخرج شبه جزيرة سيناء ودلتا النيل من جزيرة العرب، ولو أنه عاش إلى اليوم لجعل حد الجزيرة العربية غرباً "قناة السويس"، كما جعل حدها الشرقي والشمالي نهر الفرات[(٢)]، بل ربما غير أبو الفداء رأيه لو أنه اطلع على ما قاله ياقوت ومن جاء بعد ياقوت، فلقد رأينا ما قاله ياقوت عن "بحر القلزم" وأنه داخل في أرض مصر بشقيه.

وعندما تحدث "برستد" عن جغرافية شمال وادي النيل قال" (ويلي جبال وادي النيل صحارى قاحلة اخترقها النيل منذ القدم، ففي الجهة الغربية صحراء "ليبيا"، وفي الجهة الشرقية صحراء العرب")[(٣)] وعندما تكلم "جرجي زيدان" عن العرب[(٤)] قال: (وكان وادي النيل هو الفاصل الطبيعي بين ليبيا في الغرب وبلاد العرب في الشرق.

---

(١) أمينوفيس: اسم لعدة فراعنة ، منهم من دخلت جنوده الشام وفلسطين ولبنان والسودان. المنجد، قسم الأدب والمعارف، ص٣٧؛ وفي الموسوعة الميسرة ثلاثة فراعنة سموا "أمنتحب - أمينوفيس"، ص٢٢٧ .

(٢) تقويم البلدان، لأبي الفداء ، طبع باريس، ص٧٧.

(٣) تاريخ مصر في أقدم الأزمنة ، برستد، ص٣.

(٤) تاريخ العرب، ص٣٩.

وكان المصريون يسمون "الجبل الشرقي" الذي يحد النيل في الشرق جبل العرب أو بلاد العرب ويسمون الجبل الغربي جبل ليبيا).

ونحن إذا ألقينا نظرة على المصور الجغرافي للشمال الشرقي من الجزيرة العربية نرى المعالم الطبيعية تؤيد إلى حد بعيد ما ذهب إليه جغرافيو العرب الذين مدوا حدود الجزيرة في الشمال الشرقي إلى النيل، فليس هناك سدود قائمة تحجز بين أراضي الجزيرة العربية شرقي "أيلة"، وبين أراضي "سيناء"، وليس هناك فواصل قبل قناة السويس تحجز صحراء سيناء عن صحراء أفريقية غير النيل.

إن الصورة التي رسمها العرب لجزيرتهم على شكل طائر أحد جناحيه "البصرة" وجناحه الثاني مصر العمليقية تصبح مبتورة الجناح الغربي إذا ما فصلنا مصر العمليقية عن الجزيرة[١]. وإذا نحن فصلنا شبه جزيرة سيناء عن جزيرة العرب يظهر شمال الحجاز والعقبة على هيئة كتف بتر ساعده. وإن هذه الصورة تؤيد للبحث قول الذين مدوا حدود الجزيرة العربية من الفرات إلى النيل، ورأي الذين يقولون: إن الصحراء الواقعة شرقي النيل هي صحراء عربية، فليس من طبيعة الأرض أو في مناخها أو في سمات سكانها وعناصرهم، ما يتعارض مع ما قاله هذا الرعيل الأول من جغرافيي العرب ومؤرخيهم.

٩- وليس الرعيل الأول من جغرافيي العرب ومؤرخيهم هم وحدهم الذين قالوا إن شرقي النيل من بلاد العرب. بل قال مثل قولهم مؤلفو التاريخ القديم من عهد الفراعنة والآشوريين والفينيقيين، كما جاء في تاريخ العرب لجرجي زيدان نقلاً عن "هيروديتس": (أما في التاريخ القديم على عهد الفراعنة والآشوريين والفينيقيين، فكانوا يريدون بالعرب أهل البادية في القسم الشمالي من جزيرة العرب وشرقي وادي

(١) معجم ياقوت، مادة (مصر) ٨/ ٧٠؛ كتاب الصحراء لجوتيه، ص٢.

النيل في البقعة الممتدة بين الفرات في الشرق والنيل في الغرب، ويدخل فيها بادية العراق والشام، وشبه جزيرة سيناء وما يتصل بها من شرقي الدلتا، والبادية الشرقية بمصر بين النيل والبحر الأحمر[1].

ويؤكد جرجي زيدان: (أن العرب كانوا يدخلون برية سيناء، وفلسطين، وسورية في جزيرتهم)، ويقول: (على أننا إذا أردنا بجزيرة العرب البلاد التي يسكنها العرب على الإطلاق فنرى حدودها تختلف باختلاف العصر والدول، فقد كانت في الزمن القديم تمتد من ضفاف "الفرات" شرقاً إلى ضفاف "النيل" غربًا) [2].

فنحن إذا قابلنا أقوال جرجي زيدان بما قاله العرب نجد قول العرب الذي يجعل قسماً من النيل حداً لجزيرة العرب، متفقاً مع ما كانت عليه البلاد التي يسكنها العرب في القديم. ونحن إذا ما قابلنا أقوال جرجي زيدان بما يقوله جواد علي: (هذه المنطقة العربية التي شاء العلماء الإسلاميون إخراجها من جزيرة العرب، وعدها من غيرها)، يظهر لنا أن اشتغال جواد علي بالنصوص الأثرية جعله لا يبحث في جغرافيتها بقدر ما بحث جرجي زيدان. فلو أنه عني بجغرافية الهلال الخصيب ومصر العمليقية لما قال: إن العلماء الإسلاميين شاءوا إخراج الهلال الخصيب من جزيرة العرب ولاقتنع بعروبة مصر العمليقية. فالعلماء الإسلاميون لم يخرجوا الهلال الخصيب من جزيرة العرب لا جغرافياً ولا تاريخياً، والعلماء الإسلاميون أدخلوا مصر العمليقية في جزيرة العرب جغرافياً وتاريخياً.

ولقد سقنا في بحث "جزيرة العرب وحدودها" وفي بحث "الهلال الخصيب" المتقدمين في هذا الجزء الأدلة التي تثبت هذه الحقيقة.

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان، ص ٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٧.

فلا غرو!! إن اعتبر المؤلف الذي يكتب اليوم في جغرافية جزيرة العرب وتاريخها الجاهلي مصر العمليقية قسماً من جزيرة العرب، اقتناعاً بما بين يديه من أقوال قدامى الجغرافيين والمؤرخين، وبما بين يديه من تحقيقات المتأخرين مستشرقين وأثريين، فشرقي مصر السفلي في بحوث الأكثرية من هؤلاء وأولئك جزء من جزيرة العرب.

ولا غرو!! إن كان المؤلف الذي يكتب اليوم في جغرافية أفريقية وفي تاريخها الذي ولد في القرن العشرين عملاقاً يعتبر مصر الجنوبية إقليماً من أقاليم أفريقية، اقتناعاً بما يجده من نصوص، فجنوب مصر من صميم أفريقية.

ولا غرو!! إن اعتبر المؤلف الذي يكتب اليوم في جغرافية البلاد العربية وتاريخها الإسلامي الأراضي الممتدة من الخليج إلى المحيط أرضاً عربية استوطنتها شعوب عربية تجمعها آمال واحدة في مصير واحد. مثل ما استوطنت مصر جميعها من أسوان إلى البحر المتوسط قبائل وشعوب متواشجة المقدرات والمصير.

ثالثاً: سكان مصر العمليقية:

١٠- من المعروف أن المؤرخين القدامى الذين تحدثوا عن أنساب العرب البائدة يجمعون على أن ضفاف النيل الشمالية والشرقية عمرت بالعماليق العرب من قبل التاريخ، مثلما سكن ضفافه الجنوبية النوبيون، والغربية البربر. فعندما يذكر ابن جرير الطبري منازل العماليق بعد أن تفرقوا من "سوق الثمانين"[١] يقول: (فعمليق أبو العماليق. وكان أهل عمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر منهم). وكذلك عندما يذكرهم ابن قتيبة يقول[٢]: (والعماليق أمم تفرقوا في البلاد منهم فراعنة مصر

(١) تاريخ الطبري ١٤٠١/١٤٣.

(٢) المعارف، لابن قتيبة، ص٢٧.

والجبابرة)، وعندما ذكرت دائرة المعارف الإسلامية "إرم ذات العماد" استأنست برواية المسعودي التي تقول: إن الإسكندر أقام الإسكندرية على أطلال مدينة "شداد بن عاد"، فقالت: (ولا ينتهي تاريخ هذه المدينة بحادثة الأحقاف، فقد رغب "شداد" أن يبني ما يماثلها في موضع الإسكندرية، فلما أسس الإسكندر مدينة الإسكندرية بعد ذلك وجد آثار بناء عظيم ذي أعمدة كثيرة من الرخام على أحدها نقش اسم شداد بن عاد بن شداد بن عاد) [1]. وجاء في تفسير الطبري: أن بعض المفسرين يعتقد أن إرم ذات العماد مدينة، وأن هذه المدينة هي الإسكندرية[2].

١١- قد يكون ما جاء في كلام المسعودي، وما جاء في تفسير الطبري وتاريخه، وما جاء في "معارف" ابن قتيبة و "عيونه" عن العرب وتاريخهم القديم هو: عرض للروايات التي جاءت في تفسير الآيات التي قصّت خبر "موسى" مع العبد الصالح، وخبر "هود" مع قومه عاد، وعرض للروايات التي جمعها من هنا وهناك الذين شغلوا بأنساب العرب البائدة، والذين شغلوا بمنازلهم، وأكثر هاتيك الروايات امتزجت بالخيال وامتزج الخيال بها كما يقول "ابن خلدون": (وإنما هذا من خرافات القصاص). ولكن على كل حال أن ما جاء في مصادرنا العربية يشير إلى أن أكثرية المؤرخين بما فيهم ابن خلدون[3] مقتنعون بوجود العرب في شمالي مصر من أقدم العصور. فلو كان واحد من الذين قالوا بوجود العرب في شرقي النيل غير مقتنع بوجود العرب على شواطئ مصر الشمالية والشرقية لأبدى ما يساوره من شك في صحة ما يرويه من أقوال وأخبار أراد من تسجيلها الفائدة والنفع مثلما أبدى ابن خلدون شكه في "إرم ذات العماد".

---

(١) راجع المسعودي ٢/ ٤٢١ ؛ دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، ص٦٣٢ وما بعدها.

(٢) تفسير الطبري ٣٠/ ١١١ . وراجع بحث (إرم ذات العماد) في الجزء الأول من هذا الكتاب الذي صدر بعنوان (التاريخ العربي وبدايته).

(٣) تاريخ ابن خلدون ١/ ٢٨ ، ٤٢.

فالمؤرخون العرب، حتى الأوائل الذين بدأوا بتسجيل التاريخ قبل أن يتأخروا عن إبداء شكوكهم والإدلاء بآرائهم في أمهات المسائل. فاقتناعهم ليس من عبث الوليد الذي لا يلتفت إليه. فنحن لا نقبل الشكوك التي تسلطت على المفاهيم في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على عواهنها. ففي تلك الفترة انتشرت ظنون غير مقتنعة بكل ما جاء في التحقيقات التي سبقتها معتبرةً الكثير من أهم الأحداث التاريخية ضرباً من الخيال.

١٢- فمن القرن التاسع عشر اشتد التعارض بين الشك واليقين في نتائج ذات قيمة بالنسبة لأحداث الماضي وناسه، ومن تلك النتائج ما جاء في بحث المطران الدبس عن فرعون "إبراهيم"، وعن رأي "فيكورو" الذي أيد يقين قدامى العرب الذين يقولون: إن فرعون "إبراهيم" عربي تطبع بأخلاق المصريين وعاداتهم وأطوارهم، في الوقت الذي ينفي وجود "إبراهيم" و"موسى" ويعتبرهما أبطال روايات خيالية.

١٣- ومن الأدلة التي رد بها "المطران الدبس" على الذين ينكرون سامية فراعنة "إبراهيم" و"يوسف" نقوش يرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية عشرة تمثل رئيس عشيرة سامية مع أسرته يرحب بهم فرعون مصري بحفاوة وإجلال(١).

ومما يرجح عمليقية فراعنة "إبراهيم" و"يوسف": أن مسرح قصص إبراهيم ويوسف وموسى يمتد من شبه جزيرة سيناء إلى الدلتا شمالاً، ومنها إلى بلبيس جنوباً، ويؤكد أن مصر التي نحن بصدد البحث عنها، تمتد من "أيلة" إلى النيل، وأن أدلة الرد على الشك تثبت أن العرب تبوأوا مصر من أقدم العصور، وتثبت أن المحققين من المفسرين والمؤرخين العرب، مقتنعون بعروبة هذا القسم الذي كان مركزاً حساساً بالنسبة للنشاط العربي السياسي والاقتصادي في عصوره عبر التاريخ.

---

(١) تاريخ سورية، للدبس ١٢/٢/١ ، ٦٦.

ويقول المطران الدبس: (كثر المهاجرون من سورية إلى مصر في عهد الملوك الرعاة لأنهم سوريون أصلاً، فكان المهاجرون يجدون في مصر قوماً من طينتهم لم ينسوا ذكر أصلهم ولغتهم، وكثيراً ما فتحت قصور مصر في تلك الأعصر لعمال سوريين، وكانت كل حرب أو مجاعة في سورية تحمل أفراداً بل جاليات وعشائر برمتها على المهاجرة إلى مصر فتلقاهم الملوك للرعاة وحواشيهم بالمعزة والترحاب[(١)].

ولعل هذا مما جعل الفراعنة من غير العنصر العربي ينقمون من الرعاة العرب الذين امتزج بهم الإسرائيليون حفدة يعقوب، فيذبحون الأبناء ويستحيون النساء، إلى أن جاء الإسلام فأزال غل العنصرية وبغضاءها.

فالاقتناع الذي تراه واضحاً في أقوال المؤرخين القدامي، والذي كانت له الغلبة أخيراً وأسفر عنه نقاش القرن التاسع عشر الميلادي تراه أيضاً ماثلاً في تحقيقات المؤرخين في القرن العشرين. فلقد جاء في كتاب "العرب قبل الإسلام" لجرجي زيدان: (فالساميون وجدوا في مصر من عهد قديم جدًا من القرن الأربعين أو الخمسين قبل الميلاد). وجاء فيه: (أن لعرب شبه جزيرة سيناء وما يليها سيادة وحكومة من أقدم الأزمنة) ومما قاله جرجي زيدان: (ولعل القحطانيين في الأصل ساميون أو عرب نزلوا الحبشة بطريق الصحراء الشرقية المصرية لأنها كانت قسماً من جزيرة العرب)، ومما قاله أيضاً: (أما في التاريخ على عهد الفراعنة والآشوريين والفينيقيين، فكانوا يريدون بالعرب: أهل البادية في القسم الشمالي من جزيرة العرب وشرقي وادي النيل في البقعة الممتدة بين النيل والبحر الأحمر، ويدخل فيها "بادية العراق والشام" وشبه جزيرة سيناء وما يتصل بها من شرقي الدلتا والبادية الشرقية بمصر بين النيل والبحر الأحمر)[(٢)].

---

(١) المرجع السابق ٦٦/٢/١.

(٢) العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان، ص ٣٩ ، ٦٨ وما بعدها ، ، ٧٢ ، ٧٤ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ولقد تقدم الكلام عن الساميين في الحبشة ، والحبش في اليمن.

ويظن "جواد علي" في تاريخه أن مواطن العماليق تقع بين كنعان ومصر في برية سيناء وتيه بني إسرائيل[١]. ويؤكد عروبة سكان الضفة الشرقية للنيل في كلامه عن حروب "دارا" مع الفراعنة بقوله: (وقد كان العرب ينزلون شرقي النيل إلى البحر المتوسط وأرض سيناء منذ القدم، فالعرب كانوا من قدماء سكان مصر، لا كما يتصور بعضهم من أنهم دخلوا مصر في الفتح، والمعروف أن "الهكسوس" الذين حكموا مصر كانوا من العرب في رأي كثير من العلماء، بل في نظر قدماء المصريين، كما حكى ذلك الراهب المصري المؤرخ "مانيتو" في كتابه المؤلف باليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد)[٢]، ويقول "جواد علي" عن طور سيناء: (إنها موطن عربي ومقر ملوك عرب).

فبحوث هذين المؤرخين تؤكد بأسلوب وأدلة البحث الحديث ما قاله البخاري والطبري وابن قتيبة بأسلوب وأدلة بحث المتقدمين.

١٤- ومن أشهر المستشرقين الذين وصلوا إلى ما وصل إليه المؤرخ العربي: "هومل"، فقد أكد في بحثه الذي وضعه عن الساميين ومهدهم ما قاله العرب عن الأماكن التي عمرها الساميون، والدول التي أقاموها فقال: (إن قدماء المصريين من أصل سامي، وإنهم أخذوا حضاراتهم عن البابليين الذين استعمروا مصر)[٣]. ونقل "محمود كامل" عن المستشرقين الأثريين، فقال: (إن من الأثريين من يقول: إن الذين أسسوا الأسرة الأولى في مصر عام ٣١٠٠ ق.م. وخلفوا "قبور أبيدوس" و "نجادة" شعب غازٍ جاء من آسيا، فعلم المصريين استخدام الذهب والنحاس والبرونز وفن البناء بالطوب وأدخل الكتابة، وأصبح الجنس الحاكم)[٤].

---

(١) تاريخ العرب، لجواد علي ٣٥٠/٢ ، ٣٥٢ ، ٣٦١.

(٢) المصدر نفسه ٣٤٢/٢ ، ٣٥٩.

(٣) الدولة العربية الكبرى، لمحمود كامل المحامي، ص٥٣.

(٤) المصدر نفسه ،ص ٣٩.

١٥- وتحدث "برستد" أستاذ علم الآثار المصرية عن سكان مصر الأقدمين فقال[١]: (والمعروف أن أقواماً ساميين من عرب آسيا غزوا وادي النيل، وعمموا فيه لغتهم، فصبغوه بصبغتهم كما هو ظاهر من النقوش القديمة. وبالرغم مما اعترى اللغة من تغيير وتحريف باختلاط السكان فقد حافظت على ساميتها. ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن هذه اللغة وجدت كاملةً على الآثار منذ أقدم عصورها. أما تاريخ الهجرة السامية الأولى فيرجع تاريخها بلا مراء إلى ما قبل العصور التاريخية).

وتحدث "برستد"[٢] أيضاً عن مصر فقال: (ومع مضي الزمن كان سكان الدلتا أسبق في الحضارة من سكان الجنوب، وكان هذا السبق في الدلتا سبباً في أن النظام قام فيها قبل أن يقوم في جنوب وادي النيل).

فعلى ذلك أن المؤرخين - عرباً ومستشرقين - متفقون جميعهم أن العناصر الرئيسية التي تقابلت في وادي النيل هي العرب من الشرق، والليبيون من الغرب، والنوبيون والحبش من الجنوب. فمن المتفق عليه أن كل عنصر من هذه العناصر كان يشكل الأغلبية في الجهة التي عمرها، ومن المتفق عليه أن الصحراء الشرقية عمرها العرب من أقدم العصور، فأصبحت تسمى باسم "الصحراء العربية"، وأصبحت معالمها تسمى "بأسماء عربية". ومما قاله الجميع: إن أراضي "الدلتا والسويس" وسيناء حوت آثاراً عربية قديمة.

١٦- ومن الطبيعي أن يكون لامتزاج هذه العناصر المختلفة - سامية، وبربرية، وحامية أثر في ملامح المصريين، وأثر في لغة المصريين، وهذا هو الذي جعل مؤلفي موسوعة تاريخ العالم يقولون: (المصريون في أصلهم خليط من عدة عناصر، وتتصل

(١) تاريخ مصر من أقدم الأزمان إلى الفتح الفارسي، ص١٧.

(٢) انتصار الحضارة، ص ٦٤.

اللغة المصرية باللغات السامية ولغات البربر، كما تتصل بدرجة أقل بلهجات الجالا والصومال)[1].

وهذا هو الذي جعل "جون ويلسن" يقول: (كان المصريون القدماء ذوي صلة بالساميين، ولكنهم لم يكونوا ساميين حقيقيين. وكانوا ذوي صلة بالحاميين، ولكنهم لم يكونوا حاميين حقيقيين)[2]، وهذه هي النتيجة الحتمية لكل شعب خليط في كل صقع من أصقاع المعمورة. فلابد للاختلاط العنصري من أن ينجب أمة مزيجاً. وهذا هو الذي نشاهده اليوم في سكان وادي النيل لاسيما القاهريين، على أن هناك فارقاً بين سكان الصعيد وبين سكان الدلتا بالنسبة للعناصر السامية في الشمال والشرق، والنوبية في الجنوب، والليبية في الغرب. وهذا هو السر في اختلاف لغة مصر العليا عن مصر السفلى بشكل يتعذر معه على سكان الوجه البحري أن يفهموا كلام سكان الوجه القبلي. وهذا المزيج الذي نشاهده في سكان القاهرة نشاهده في كل مدينة في جزيرة العرب وفي غيرها اختلطت فيها الأجناس.

وهذا الاختلاف في لغة سكان الوادي اعترفت به الآثار المصرية، فلقد نقشت على أحد نصوص الدولة الوسطى قصة مصري مغترب جاء فيها: (إن كلماتك تسبب الحيرة عند سماعها، ولا يوجد مترجم ليفسرها، إنها مثل كلمات شخص من مستنقعات الدلتا يتحدث إلى شخص آخر من جزيرة أسوان)[3].

رابعاً: مصر في القصص القرآني:

١٧- إذا رجعنا إلى قصص القرآن الكريم نجد مصر ذكرت في قصة يوسف وفي قصة موسى - عليهما السلام - ونجد مصر في قصة يوسف قريبة من منازل

(١) الموسوعة ١/٤٥.

(٢) الحضارة المصرية، ص ٤٩.

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٦ (الهامش) .

يعقوب التي قيل إنها بالعربات[1] من فلسطين، وقيل إنها كانت بأرض حسمى[2].

ولقد احتار الباحثون في قصة يوسف أين يضعون مصر يوسف؟ فياقوت[3] يقول: إن مدينة يوسف وموسى هي "عين شمس"، ويقول عبد الوهاب النجار[4]: إنها هي "صان" ببلاد الشرقية قرب "بحيرة المنزلة"، وتؤكد غالبية المؤرخين العرب أن دولة مصر كانت من عهد إبراهيم إلى ما بعد عهد يوسف، دولة عمليقية، وأن دولة العماليق كانت قريبة من أرض مدين.

والسياق في قصة يوسف يرجح لنا ما قاله الباحثون عن مصر يوسف وأنها في شمال النيل الشرقي، لأننا إذا علمنا أن المسافة بين مدينة "الفرما"[5] التي دخل من أبوابها أبناء يعقوب - كما يعتقد أهلها - و"السويس والقاهرة كانت القوافل تقطعها في ثلاثة أيام[6]، وقدرنا المسافة بين "الفرما" ومنازل قوم يعقوب بثلاثة أيام نجد أن المسافة التي على المسافر أن يقطعها من منازل يعقوب إلى مدينة يوسف لا تنقص عن عشرة أيام، هذا إذا قدرنا المسافة بين منطقة "الدلتا" ومنازل يعقوب على أساس تقدير المسافة بين القاهرة والسويس، وعلى أساس أن حاضرة مصر يوسف هي "عين شمس" أو "صان". أما إذا بعدنا بمدينة يوسف عن الدلتا في الوجه القبلي فإن المسافة

(١) عربة موضع بفلسطين، وعربات جمع عربة وهي بلاد العرب. المعجم، مادة (عربات) و(عربة) ١٣٧/٦، وقد تقدم الكلام عن عربة في البحث عن أصل اسم (عرب).

(٢) حسمى. راجع الحجاز من هذا الكتاب.

(٣) المعجم ٢٥٦/٦.

(٤) قصص الأنبياء، ص ٢٢٢.

(٥) الفرما: مدينة قديمة بين العريش والفسطاط على البحر الشرقي (تنيس) بينها وبين القلزم أربعة أيام وهي أقرب موضع بين البحرين. المعجم، مادة (فرما) ٣٦٨/٦. وهي المدينة ذات الأبواب المذكورة في القرآن: ﴿ يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ (يوسف/ ٦٧) كما يقول ياقوت.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية ٣٩٩/١٢، مادة (السويس).

تصبح طويلة يصعب على إخوة يوسف قطعها مراراً في فترة قصيرة. وإذا قربنا بمدينة يوسف وجعلناها عند قناة السويس حيث ظهرت آثار المدينة التي سخر الفراعنة لبنائها أتباع "موسى" فإن المسافة تقل، فلا تتعب العودة ثانية وثالثة أبناء يعقوب.

ولقد حاول "المطران الدبس" أن يثبت أن مدينة "يوسف" في مصر - في رده على المستشرقين الذين قالوا: إن مصر يوسف وإبراهيم - هي مدينة عربية في أرض عربية عبر سيناء، متخذاً من المجاعات التي تمر بمصر في السنين التي يحبس المطر فيها عن منابع النيل دليلاً يؤكد أن عاصمة يوسف[1] في وادي النيل.

ونحن لا يمكننا أن ننكر المجاعات التي تحل بمصر إن جف الوادي أو إذا انخفض كثيراً عن مستواه الطبيعي، وفي قصة يوسف عن السنين التي يغاث الناس فيها، والسنين التي يحرمون فيها من الغيث، ما يبرر حدوث مثل تلك المجاعات، ولكننا نسأل هل من المنطق أن يلجأ الحجازيون الذين يسكنون أرض "مدين" إلى مصر البلد الذي يموت أهله جوعاً ليمتاروا منه، ويتركوا سورية التي تمد مصر في مجاعاتها بالحبوب؟! فمما قاله "البغدادي" عن مجاعة مصر: (وانجلى كثير من أهل مصر إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا في البلاد أيادي سبأ)[2]، فالسنون العجاف في قصة يوسف بلغت سبع سنين.

ولذلك يرى البعض أن قصة التقاء يوسف بإخوته وأبيه حدثت بعد السنين العجاف، بيد أن هذا الافتراض لا يبعد مصر يوسف عن منازل يعقوب وبنيه ولا يمحو الملامح العربية عن مصر يوسف.

(١) تاريخ سورية ٧٦/١ وما بعدها.

(٢) دراسات في الجغرافية المصرية، ص٣٨، ٣٩؛ تاريخ الطبري، طبع دار المعارف، ٣٤٨/٢.

وكذلك مصر في قصة "موسى" نجدها لا تبعد كثيراً عن "مدين" بلاد "شعيب"، فالباحثون في قصة موسى فسروا ما جاء في القرآن الكريم، معتمدين على المصادر التي وصلت إليهم وعلى اجتهادهم فقالوا: إن المصريين كانوا متحمسين في بحثهم عن "موسى" بعد أن انتصر للذي هو من شيعته فقتل خصمه، وإن "موسى" عندما عرف أنه مطارد فر هارباً حتى بلغ أرض شعيب، فالقصة كما يظهر من سياقها ترجح الظن بأن "رعمسيس" هو فرعون موسى، وهو الفرعون الذي سخر بني إسرائيل في بناء مدنه.

ومدن رعمسيس تحدث عنها "فردينند دي لاسبس" في خطبته التي نشرت في باريس سنة ١٨٦٧م قائلاً: (إن شركة القناة البحرية وجدت أخربة مدينة رعمسيس التي ذكرها الكتاب، وإن عمال الشركة صنعوا لبناً لمباني مدينته الإسماعيلية من التراب الذي كان العبرانيون يصنعون منه لبناً لمدن رعمسيس)[١]، ومن هذا استدل على أن "يعقوب" أقام في الدلتا من الوادي بعد هبوطه، وقرب الوادي من الشمال قبل هبوطه مصر.

١٨- ولعل هذه الملامح العربية التي تبدو على مصر في قصص الأنبياء، وفي الأسفار، هي التي جعلت "ونكلر" يقول: (إن ما ورد في التوراة عن مصر لا يعني مصر التي نعرفها، بل مقاطعة في شبه جزيرة العرب، فما ورد عن إقامة العبرانيين في مصر لا يعني أنهم أقاموا في مصر الأفريقية، بل في هذه الأرض العربية، وإن فرعون هو اسم ملك هذه المقاطعة، وقد يعني "الفرع أو الفارع"، وأن القصة الواردة في التوراة عن "إبراهيم" و"إسحاق" واتصالهما بفرعون لا تعني فرعون مصر، بل ملك مصر العربية) - وقد أيد "ونكلر" أقواله هذه بأدلة من العهد القديم[٢].

---

(١) تاريخ سورية، للدبس ٢/٢/٩٨.

(٢) لعله يعني: اسم فرعون.

ولعل الذي دفع "ونكلر" لهذا الظن الذي خطأه الكثير امتداد نفوذ بعض دول مصر إلى فلسطين والساحل الشرقي للبحر الأحمر[1] ، وامتداد نفوذ بعض دول الساحل الشرقي للبحر الأحمر وفلسطين إلى مصر. فلقد امتد نفوذ الفراعنة إلى سورية ، وعبر نفوذ العماليق والآشوريين صحراء سيناء إلى مصر. ولكن من المؤكد أن قرية شعيب كانت خارج نفوذ فرعون موسى، وأن أرض يعقوب كانت خارج نفوذ يوسف في زمني يوسف وموسى.

أما مشيخة "أدبئيل"، وكلمة عرب وما يقوله المستشرقين ومنهم "ونكلر" و"موسل": إن الآشوريين يقصدون بها الأعراب، ومواطنهم في طور سيناء وفي شرقي مصر وفي جزيرة العرب[2] ،وأنه لا يستبعد أن يكون أدبئيل ضم إلى مملكته شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية من وادي النيل غرباً كما ضم الأراضي التي تقع غرب سيناء إلى "دومة الجندل" وإلى "دمشق" = فلقد تقدم ما قيل عن دولة أدبئيل ودولة مصر الحامية ، وما تقدم عن دولة الحامية وأدبئيل العربية لا محل له هنا.

١٩- وأما النتيجة المتفق عليها فهي أن العرب الذين سادوا في القسم الشمالي الشرقي من وادي النيل قبل الإسلام هم الذين سادوا مصر جميعها بعد الإسلام، وأن العرب الذين تمصرت حضارتهم وتمصرت لغتهم، وتمصر تاريخهم قبل الإسلام، استطاعوا أن يعربوا الحضارة المصرية، ويعربوا اللغة المصرية، ويعربوا التاريخ المصري بعد الإسلام، فأصبح الشعب المصري العزيز بالإسلام وبمبادئه وبحضارته عضواً يضعف ويقوى مع الجسم العربي لا فرق بين السينائي وبين الأسواني في عروبتهما ، وفي مبادئهما ، وفي الهدف والمصير.

---

(١) تاريخ العرب، لجواد علي ٤٠٩/٢ ، ٤١٠ ، ٢٩١/٢.

(٢) المرجع السابق ٣١٠/٢ ، ٣١١.

البحث الثاني :

أقسام مصر العمليقية وحدودها :

١- حدود مصر العمليقية.

٢- حدود مصر السياسية حسبما نقل عن "سترابون" و"بطليموس".

٣- أقسام مصر العمليقية.

أولاً: شبه جزيرة سيناء:

٤- طبيعة شبه جزيرة سيناء.

٥- ثروة شبه جزيرة سيناء

٦- شبه جزيرة سيناء كانت في ماضيها القديم سوقاً تجارياً وثقافياً .

ثانياً: الصحراء العربية:

٧- المتناقضان: الخصب والجدب يتصافحان.

٨- طبيعة الصحراء العربية.

ثالثاً: الدلتا:

٩- صفة الدلتا أو مصر السفلى: السكان والأرض.

١٠- الدلتا هي : مصر يوسف.

١١- أول من استعمر الدلتا هم العرب.

١٢- عدد سكان مصر العمليقية في قديم الزمان.

١٣- مدن مصر العمليقية القديمة.

١- الآن - وبعد أن استعرضنا فيما تقدم أدلة الذين قالوا إن الأرض الممتدة غربي خليج العقبة هي الأرض التي حملت اسم مصر، وهي الأرض التي عرفت العرب قبل أن يعرف العالم تاريخها - يجدر بنا أن نلخص حدودها الطبيعية، وحدود مصر العمليقية التي اعتبرناها قسماً سابعاً من أقسام الجزيرة العربية، كالآتي: شمالاً يحدها البحر المتوسط، وجنوباً "قناة أمنيس ترایاني"، وهي الآن خط وهمي، وشرقاً خليج العقبة والبحر الأحمر، وغرباً النيل.

٢- أما حدود مصر العمليقية السياسية، فالحدود السياسية - كما هو معروف - لا تتقيد بالحدود الطبيعية، فلقد مر بنا أن مصر العمليقية هذه كانت في زمن من الأزمنة تمتد إلى "دومة الجندل" وإلى البادية حتى تبلغ حدود دمشق، وتشتمل على شبه جزيرة سيناء، وعلى دلتا النيل وعلى شرقي مصر وغربيها إلى أسوان.

٣- ومصر العمليقية في حدودها الطبيعية التي تقدمت تتألف من ثلاثة أقسام (أ) شبه جزيرة سيناء. (ب) الدلتا. (ج) القسم الشمالي من الصحراء الشرقية المعروفة اليوم بالصحراء العربية.

أولاً: شبه جزيرة سيناء:

٤- وصل تحقيق "جواد علي" إلى أن اسم "العربية الحجرية" اسم أطلق على شبه جزيرة سيناء، وعلى المملكة النبطية وعاصمتها "بطرا - بترا"(١)، بالقصر. ولعل جواد علي بقوله هذا يشير إلى ما جاء في القاموس الكلاسيكي لـ"وليم سميت" عن أقسام بلاد العرب الثلاثة التي منها: بلاد العرب الصخرية، وبلاد العرب الصخرية تشمل مع ما تشتمل عليه شبه جزيرة سيناء. فشبه جزيرة سيناء بلاد جبلية متحجرة تندر فيها الرمال وتربتها غير خصبة(٢) وأعلى جبالها : "جبل أم شومر"، و"جبل موسى"، و"جبل

(١) جواد علي ١/ ١٢٠ ، والبتراء بالمد: موضع في قلب الحجاز. معجم ياقوت ٢/ ٥٥ ، ٣١١.

(٢) تاريخ العرب - عصر ما قبل الإسلام، وتاريخ العرب، لجرجي زيدان، ص ٣٨.

سربال"[1]، وأشهر أوديتها: وادي "فيران" في الغرب، ووادي "العريش" في الشمال. والقسم الشمالي يؤلف هضبة كلسية تسمى صحراء التيه[2]. ومما جاء في دائرة المعارف الإسلامية عن السويس وأنها اشتهرت بحكم ما يكتنفها من ظروف طبيعية باسم "الحجر" يظهر أن العربية الحجرية تشمل البرزخ، ومنطقة السويس[3].

٥- ولقد اشتهرت شبه جزيرة سيناء بمناجم النحاس والفيروز في "وادي مغارة" الواقع في الجنوب قريباً من "مدينة الطور"، ولقد استخرج سكان سيناء الأقدمون نحاسها وزمردها وباعوه في أسواق الشرق الأدنى[4]، وفي شبه جزيرة سيناء يوجد أكسيد الحديد مختلطاً بأكسيد المنجنيز[5]، ولقد ظهر فيها البترول أيضًا.

٦- وشبه جزيرة سيناء من مناطق الجزيرة العربية التي كانت قبل الجفاف خصبة كثيرة المياه كثيرة الأشجار، والتي كانت ذات مكانة تجارية هامة بالنسبة لموقعها من الطرق التجارية في العصور الغابرة وبالنسبة لموقعها من البحرين: الأحمر والمتوسط. فلقد كان في شبه جزيرة سيناء وفي الأراضي التي حولها يجتمع التجار من جنوب الجزيرة العربية ومن شرقها ومن أفريقية وشواطئ البحر المتوسط.

ومثلما كانت شبه جزيرة سيناء سوقاً تجارياً يتوافد إليه التجار من مختلف الأصقاع: معين وسبأ، ومكة والمدينة والحجر وجبلي طيئ واليمامة وعمان وبابل وآشور، وفينيقيا وسواحل أوربا وشواطئ أفريقية ووادي النيل، يحملون إليه نفائس

---

(١) تاريخ سورية، للدبس ١٢٣/٢/١ ؛ تاريخ العرب، لجرجي زيدان، ص ٣٨.

(٢) جغرافية الوطن العربي، ص ٣٢.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، مادة (سويس) ١٢ / ٣٩٨.

(٤) تاريخ العرب، لحتي ٤١/١، والمغارة الكهف وقد اشتهرت في الجغرافية بهذا الاسم المغارة: كهوف في سورية على بعد (٨٤) كيلومتراً من "حلب" فيها آثار قديمة، وهي بطبيعة الحال غير هذه.

(٥) تاريخ ما قبل التاريخ، لعبد الله حسين، ص ٨٧ ؛ جغرافية الوطن العربي، ص ٣٣٥.

ما تنتجه بلادهم ويختارون منه ما تفتقر إليه أسواقهم، كذلك كانت سوقاً ثقافياً تتلاقى فيه معارف هاتيك الشعوب وثقافتها ولغاتها.

ففي هذه السوق الثقافية نشأت "أبجدية سيناء" التي انتقلت إلى سورية، وانتقلت إلى الحجاز وإلى نجد والتي ربطت بين "هيروغليفية الفراعنة" و "سامية" الفينيقيين، فلقد امتازت شبه جزيرة سيناء باحتوائها على أقدم مثال لكتابة الأبجدية(١).

ثانياً: الصحراء العربية:

٧- ليس هناك فارق بين الصحراء العربية وبين بادية الوادي الخصيب وشمالي نجد والحجاز، والصحراء العربية المقصودة هي الصحراء الشرقية من وادي النيل، فالبحر الأحمر - كما يقولون - نتج عن تطور جيولوجي فصل بين صحراء شمالي أفريقية وصحراء شمالي جزيرة العرب، فرمال الصحراء الشرقية العربية تتاخم النيل من ناحية الشرق كما تتاخمه الصحراء الممتدة من ليبيا إلى مصر من ناحية الغرب. وإنك لترى الرمال وقد ترامت على أطراف الوادي الخصيب كأنما تستنشق عبير الزهور يحمله إليها النسيم العليل، حتى قيل عن ذلك: يخيل للإنسان أن في إمكانه أن يضع إحدى قدميه في الأرض الريانة المزدانة بزهورها وكرومها، ويضع قدمه الأخرى على الرمال الظامئة المستعرة سهولها وهضابها!! مثلما ترامت رمال الصحراء الصفراء على مياه خليج السويس والبحر الأحمر، كأنما هي تلتمس الراحة من عبث الرياح، حتى ليخيل للإنسان أن في إمكانه وضع إحدى قدميه في مياه البحر والقدم الثانية على رمال الصحراء الساكنة بتأثير رطوبة البحر وتلاطم أمواجه.

فكثير هم أولئك الذين وصفوا النيل وكيف شق لنفسه مجاري عندما أشرف على البحر كأنما هو يستغيث بالبحر من رمال الصحارى التي تهاجمه من الشرق ومن

(١) تاريخ العرب، لحتي ٩٢/١.

الغرب، فعلى بعد نيف ومائة ميل من البحر المتوسط يتفرع النيل إلى عدة فروع فيشكل مثلثاً أطلق عليه اليونان اسم "الدلتا" نسبة إلى أحد أحرفهم الهجائية المثلث الشكل.

٨- وفي الصحراء العربية سلسلة جبال جرانيتية يتراوح ارتفاعها من ألف وخمسمائة إلى ألفي متر، وتكتنز صخور الصحراء الشرقية العربية معدن الذهب[١]، كما يوجد في أرضها الزنك والرصاص والكبريت والبترول وملح الطعام، ومن أهم أوديتها: "وادي طرفة" و"وادي عربة"[٢].

وموارد الصحراء الشرقية لا تزال إلى اليوم غير كافية لتسد رمق سكانها القليلين كأن النيل ليس بواديها، وكأن الذهب الدفين في الأرض ليس من حقها، وكأن إمكانيات سكان الوادي غير قادرة على التعاون مع سكان الصحراء للانتفاع من مواردها الطبيعية.

ثالثًا: الدلتا:

٩- كل من كتب عن مصر يقول: إن وادي النيل يقسم نفسه إلى منطقتين متباينتين هما: مصر السفلى أي الدلتا، ومصر العليا أي الصعيد. فوادي مصر السفلى واسع تنتشر حقوله في أرض الدلتا الفسيحة. وفي أرض الدلتا بقية من مستنقعات ما زالت باقية تذكر بما كانت عليه الدلتا في عصورها القديمة عندما كانت أجمات تحيط بها مستنقعات، وعندما كانت شبه خليج بحري[٣] امتلأ تدريجياً بغرين النهر. ومستنقعات الدلتا عفى الزمان على أكثرها فلم يبق غير القليل الذي ينتظر أن يجيء دوره في ألوف السنين القادمة على حد قول "برستد".

---

(١) مصر من أقدم العصور، ص ٣.

(٢) جغرافية الوطن العربي، ص ٣٢٨؛ خريطة الإقليم المصري السياسية في المنجد.

(٣) مصر من أقدم العصور، ص٣.

ولقد أتمت "قناة السويس" الحاجز الذي أقامته البحيرات، فانعزلت حقول الدلتا ومستنقعاتها عن صحراء شبه جزيرة سيناء بصورة لا تختلف عن انفصال مصر العمليقية عن بقية الوادي، قبل أن تندفن قناة "أمنيس ترایاني" وتزول من وجود الملاحة المصرية.

١٠- ويأسف "جون ويلسن" على ما خربته الرطوبة في الدلتا من حضارة الماضي القديم، لأن الدلتا كانت محور الاتصال بين مصر والحضارات الأخرى، وينقل عن التوراة أن الدلتا هي الأرض التي عاش عليها بنو إسرائيل، وأن عواصم الإمبراطوريات المصرية قامت على أرض الدلتا، وأن "طيبة" لم تكن غير عاصمة إقليمية تظهر أهميتها في أوقات خاصة من السنة.

ويؤكد جون ويلسن: (أن الحضارة المصرية ليست إلا مزيجاً من التأثيرات الآسيوية وتأثيرات من شعوب البحر المتوسط)[١].

وقبل "جون ويلسن" تحدث ياقوت الحموي عن "الفرما" فقال: إنها مدينة بين العريش والفسطاط كثيرة العجائب، كان بها مقطع الرخام، وإن "أحمد بن المدبر" قد أراد هدم أبواب "الفرما" الحجرية الواقعة في شرقي حصن الفرما، فمنعه أهلها لاعتقادهم أن هذه الأبواب هي التي جاء ذكرها في القرآن الكريم: ﴿ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾[٢] (يوسف/ ٦٧).

١١- ويرى "جون ويلسن" أن العنصرين العربي والليبي تزاحما على سهول الدلتا الخصبة، وأن معين العنصر العربي في جزيرة العرب أفاض على سهول الدلتا مهاجرين أقدم تاريخاً وأكثر عدداً من المهاجرين الذين انحدروا من جبال طرابلس وتونس والجزائر، فالجزيرة العربية ما فتئت من أقدم الأزمان تتمخض عن مهاجرين يذبون عن وطنهم في شرقي الجزيرة الشمالي، هناك في العراق، ومهاجرين يذبون عن

---

(١) الحضارة المصرية، ص ٤٨، ٤٩.

(٢) المعجم ٦/٣٦٨.

وطنهم في غربي الجزيرة الشمالي، هناك في مصر العمليقية، حتى ضربت بهجرات شعوبها الأمثال: (نجد أم، والعراق داية)، فكما كانت نجد معيناً لا ينضب من القبائل العربية التي أخذت تدفع عن أرضها في الهلال الخصيب العناصر التي أقبلت من الشمال ومن الشرق، كذلك كانت سيناء معيناً لا ينضب وطرقاً لا تخلو من القبائل العربية التي أخذت تدفع عن أرض مصر العمليقية الشعوب التي أقبلت من الجنوب والغرب، ومن أقدم الشعوب العربية السينائية قبيلة "سراسين"(١). ولقد خلّف العرب مدناً كشف عنها تنقيب الأثريين، وخلفوا تاريخاً حاولت الأسر الحاكمة الجنوبية أن تطمسه بمختلف الوسائل.

أما وادي مصر العليا، الصعيد، فيمتد من جنوبي القاهرة إلى شلال "أسوان"، ولقد انتهى مدلول اصطلاح مصر السفلى ومصر العليا الإداري من عهد المماليك، ولكن اصطلاحه الجغرافي لا يزال باقياً. ولقد كانت مصر العليا تنقسم إلى ثماني مديريات هي: الجيزة، بني سويف، الفيوم، المنيا، أسيوط، جرجا، قنا، أسوان. ويقسم "ياقوت" الصعيد إلى ثلاثة أقسام: الصعيد الأعلى، وحده أسوان وآخره أخميم. والصعيد المتوسط يمتد شمالاً حتى "البهنسا". والصعيد الأدنى الذي يمتد إلى "الفسطاط". وتقول دائرة المعارف الإسلامية عن كور الصعيد: (وإذا قارنا قائمة الكور التي احتفظ بها "المقريزي" بالقائمة التي أوردها "هيروقليس" وجدنا أن الخلافات بين القائمتين تافهة لا يعتد بها: فقد اضمحلت بعض المدن بمرور الزمن. وحلت محلها مدن أحدث عهداً - مثال ذلك "أسوان" حلت محل "فيلة"، وخلفت "المنيا" "البهنسا" التي أصبحت الآن بلدة تافهة الشأن، و"سوهاج" اليوم هي "جرجا" الأمس كما يقول المصريون.

ويختلف وادي مصر العليا عن وادي مصر السفلى، فوادي النيل يضيق في جنوبي القاهرة ويتسع في شماليها. وسكان "مصر العليا" في العصر الإسلامي خليط من

(١) العرب في التاريخ، لبرنارد لويس، المقدمة.

الأقباط اليعاقبة، ومن المسلمين. وأكثر سكان "مصر السفلى - الدلتا" من العرب وجاليات أكثرها من البحر المتوسط. أما مصر "العليا - الصعيد"، فأهم القبائل العربية التي استقرت في الصعيد قبيلتا "بلي" و"جهينة"، وقد تغلغلت القبائل العربية في أفريقية عن طريق مصر، ومن هذه القبائل "بنو هلال" و"بنو سليم" - على أن أسماء هذه القبائل قد درس وأصبحت حفدتهم تعرف بأسماء جديدة مثل: "فادية"، و"معزة"، و"بني واصل"، و"أصطواني"، و"بني كنز". وبنو كنز لا يزالون يقيمون في منطقة "أسوان" باسم "كنوز"، وتقول دائرة المعارف الإسلامية: (لم يعد ثمة أثر لقبائل البربر التي صحبت الفاطميين إلى مصر) وتقول: (ولا شك أن تقدم العرب صوب أقاليم الصعيد قد عوقه قتال مرير اشترك فيه عرب الصعيد المسيحيون، كان هو السبب في نشأة القصة التاريخية المعروفة بـ "فتوح البهنسا"، فلقد بدأ فتح الصعيد سنة ٢٣هـ وتم سنة ٣١هـ. ولقد أجرى العرب تعداد السكان سنة ١١٢هـ تولاه "الوليد بن رفاعة" والي مصر بنفسه).

ويبدو تقدير نفوس وادي النيل المصري بالنسبة لأجيالها من عهد الفراعنة إلى عصر الجمهورية ضرب من المحال. فنحن إذا ما رجعنا إلى بعض قوائم الإحصاء من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٧٥م نجدها كالآتي:

- سنة ١٨٨٢م بلغ إحصاء نفوس مصر ٦٫٨١٨٫٠٠٠
- سنة ١٨٩٧م بلغ إحصاء نفوس مصر ٩٫٧٣٤٫٤٠٥
- سنة ١٩٠٧م بلغ إحصاء نفوس مصر ١١٫٢٨٧٫٣٥٩
- سنة ١٩١٧م بلغ إحصاء نفوس مصر ١٢٫٧٥٠٫٩١٨
- سنة ١٩٥٥م بلغ إحصاء نفوس مصر ٢٣٫٤٤٠٫٠٠٠

وفي سنة ١٩٧٥م أخذ الرقم يتسلق السلم من الثلاثين مليون إلى الستة والثلاثين مليوناً، وعما قريب سيتضاعف هذا الرقم، فهل حدثت أسباب في عهود مصر

القديمة كالتي حدثت ما بين سنة ١٨٨٢ وسنة ١٩٧٥م أي في مدة قرن نشأ عنها ازدياد عدد السكان على مثل هذا النحو[1]؟ على أنه من الملاحظ أن التعاون العالمي في كفاح الأوبئة مثل الكوليرا والطاعون والجدري سبب مهم في زيادة عدد سكان العالم. فمن الصعب معرفة عدد سكان مصر في عصورها الخوالي، وأصعب من هذا تخمين عدد سكان مصر العمليقية وحدها دون باقي الإقليم.

١٣- وكذلك من الصعب التحدث عن المدن العربية في هذا القسم مصر التي زهت في عصورها الخوالي، فمما مر بنا عندما بحثنا في الملامح العربية التي تبدو على مصر العمليقية في القصص القرآني وفي الأنباء التي تنسب إلى الأسفار، ظهر لنا مدى الجدل في تلك المدن ومواقعها، ولا تزال أقوال المؤرخين العرب القدامى والجغرافيين عن "الإسكندرية" وبناتها الذين سبقوا الإسكندر المقدوني، وعن "الفرما" وسكانها العرب وتمرها العجب، موضوع نقاش الباحثين في التاريخ العربي القديم وتحقيقاتهم.

وإنني لا أستبعد أن تكون كل مدينة وقرية في مصرنا هذه تقوم على أنقاض مدينة تاريخية فيها آثار عربية، مثل: "بلبيس"، و"الإسماعيلية"، و"المنصورة"، و"المحلة الكبرى"، و"دمياط"، و"طنطا"، و"الإسكندرية"، و"بنها"، و"سمنود"، وفي "سيناء"، و"القنطرة"، و"العريش"، و"القصيمة"، و"الطور". فالمدن التي بناها العماليق العرب كثيرة، فلقد قطعوا في فنون البناء شوطاً بعيداً، ولقد كانوا يستخدمون فنانين في بناء المدن على النمط المصري، وينحتون تماثيل لعظمائهم أسبغوا عليهم الملامح العربية. ولقد دفن الفراعنة الذين جاءوا بعد دولة "العماليق - الهكسوس" معالم حضارتهم، فقبرت آثارهم في باطن الأرض، وقامت على حطامها مدن وقرى، دفنها الزمن أيضاً، وسيدفن الزمن مدن اليوم لتقوم في مكانها مدن الغد البعيد.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٢٠٥/١٤ وما بعدها ؛ خريطة العالم العربي.

البحث الثالث :

عصـور مصر العمليقية العربية :

أولاً : عصور مصر قبل الإسلام.

ثانياً: دول مصر بعد الإسلام.

أولاً: عصور مصر قبل الإسلام:

حرر "جيمس هنري برستد" في كتابه: تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، بياناً بالأسر التي حكمت مصر جاء فيه:

يعتبر عام ٣٤٠٠ ق.م. نهاية عهد ما قبل الأسر وبداية عهد الأسر، ففي سنة ٣٤٠٠ ق.م. جلس على عرش مصر الملك "مينا". وفي بحوث بعض المستشرقين أن الأسر التي حكمت في سنة ٣٤٠٠ ق.م. سامية. ومن سنة ٣٤٠٠ ق.م. إلى سنة ١٧٨٨ ق.م. حكمت مصر أسر. ويظن أن من هذه الأسر "أسراً سامية ونوبية"، وقد يكون بعضها ذا صلة بغير الساميين والنوبيين.

- ومن سنة ١٧٨٨ ق.م. إلى سنة ١٥٨٠ ق.م.	حكم العماليق مصر.
- ومن سنة ١٥٨٠ إلى ١٣٥٠ ق.م.	دولة الأسرة الثامنة عشرة.
- ومن سنة ١٣٥٠ إلى ١١٥٠ق.م.	الأسرة التاسعة عشرة .
- ومن سنة ١١٥٠ ق.م. إلى ٦٧٠ ق.م.	تعاورت أسر ضعيفة على عرش مصر؛ ولذلك وصف "برستد" هذه العصور بعصور الاضمحلال.
- ومن ٦٧٠ ق.م. إلى ٦٦٢ ق.م.	العهد الآشوري في مصر.
- من سنة ٦٦٢ ق.م. إلى ٥٢٥ ق.م.	عصر الإصلاح - كما يقول برستد[١].
- من سنة ٥٢٥ ق.م. إلى ٤٠٤ ق.م.	مصر تحت الحكم الفارسي - كما تقول موسوعة تاريخ العالم.
- من سنة ٤٠٤ ق.م. إلى ٣٣٢ ق.م.	استقلت مصر إلى حد ما عن ملوك فارس.

(١) إلى هنا ينتهي النقل عن بيان برستد من كتاب تاريخ مصر من أقدم العصور، ص ١٢ ، ٤٠٣ وما بعدها. ويعتمد البحث على مصادر أخرى.

- من سنة ٣٣٢ ق.م. إلى ٣٢٣ ق.م.	مصر تحت حكم الإسكندر الأكبر.
- من سنة ٣٣٢ ق.م. إلى ٣٠ ق.م.	عهد البطالسة في مصر.
- من سنة ٣٠ ق.م. إلى ٦٣٩م	عهد الرومان. على أن مصر لم يتم فتحها الإسلامي إلا في سنة ٦٤١م/٢١هـ(١).

وكثير من المؤرخين من يعتبر البطالسة والبيزنطيين دولة واحدة يذكرها باسم الدولة الرومانية(٢).

ثانياً: عصور مصر بعد الإسلام:

تلك هي دول مصر قبل الإسلام، وتلك هي عهودها أجملناها فيما تقدم. أما مصر بعد الإسلام فنجمل عهودها فيما يلي:

١- من سنة ١٨هـ/٦٣٩م إلى سنة ٤٠هـ/٦٥٦م	عهد الخلفاء الراشدين. ولقد تم فتح مصر سنة ٢٠هـ.
٢- من سنة ٤١هـ/٦٦١م إلى ١٣٢هـ/٧٥٠م	عهد الخلفاء الأمويين.
٣- من سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م إلى ٣٥٨هـ/٩٦٩م	عهد الخلفاء العباسيين.
٤- من سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م إلى ٥٦٧هـ/١١٧١م	عهد الخلفاء الفاطميين.
٥- من سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م إلى ٥٦٩هـ/١١٧٤م	دعا الأيوبيون في مصر لخلفاء العباسيين في بغداد.
٦- من سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م إلى ٦٥٠هـ/١٢٥٢م	عهد صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين.

---

(١) تاريخ مصر إلى الفتح العثماني ١/١٩١.

(٢) تاريخ سورية ١/٦١.

٧- من سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢ إلى٩٢٣هـ/١٥١٧م	عهد الخلافة العباسية في مصر. وقد تداخل تاريخها مع تاريخ دولة المماليك، ولكن النفوذ الحقيقي كان في الغالب للمماليك.
٨- من سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م إلى سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م	كانت مصر ولاية، ثم خديوية مرتبطة بالدولة العثمانية.
٩- من سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م إلى سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م	الاحتلال الفرنسي أو احتلال نابليون.
١٠- من سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م إلى سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م	كانت مصر في مهب الثورات والانقلابات وفي حرب مستمرة بين المماليك ومحمد علي الذي تؤيده أستانبول.
١١- من سنة ١٢٢٦هـ ١٨١١م إلى سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٤م	استقلت مصر دولة حكمها محمد علي وأبناؤه خديويو مصر على أن ارتباطها الاسمي بالعثمانيين كان مستمراً.
١٢- من سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٤م إلى سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م	أصبحت مصر مستعمرة بريطانية.
١٣- من سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م إلى سنة ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م	كانت مصر دولة ملكية مستقلة ولكنها كانت مرتبطة ببريطانيا بمعاهدة تجعل للإنجليز نفوذاً سياسياً على مصر.
١٤- من سنة ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م إلى الوقت الحاضر	صارت مصر جمهورية عربية اسمها الرسمي اليوم "جمهورية مصر العربية". وقد وقعت في عام ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م اتفاقية الجلاء.

هذه عهود مصر في عصور ما بعد الإسلام. وعهود مصر قبل الإسلام وبعده التي ذكرناها هي سلطات دول، في بعض الحقب تكون فعلية، وتكون اسمية في بعضها. فهناك دول قامت في مصر ودول بسطت نفوذها على مصر من الخارج. والنفوذ الخارجي يكون فعلياً في بعض الحقب ويكون اسمياً في بعضها مثل نفوذ فارس وآشور والبيزنطيين قبل الإسلام، ونفوذ عواصم الخلافة بعد الإسلام، ثم هناك دول قيدت خلفاء القاهرة: فاطميين وعباسيين، بنفوذها. وهناك دول انفصلت عن القسطنطينية فلم ترتبط بها غير ارتباط اسمي.

فمن الدول التي ظهرت في مصر في عصور الخلافة العباسية والفاطمية والعثمانية التركية: الدولة "الطولونية" من سنة ٢٥٤ إلى ٢٩٢هـ / ٨٦٨ إلى ٩٠٥م، والدولة "الإخشيدية" من سنة ٣٢٣ إلى ٣٥٨هـ / ٩٣٥ إلى ٩٦٩م .. ودول "المماليك" التي تسلطت في العصر "الأيوبي" والعصر العباسي في مصر[1]، ودولة محمد علي.

---

(١) الولاة الذين حكموا في صدر الإسلام إلى سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م أكثر من تسعين والياً منهم: "أحمد ابن طولون" الذي استقل بمصر إدارياً سبعة وثلاثين عاماً، عاد بعدها الولاة العباسيون إلى مصر إلى أن قامت الدولة الإخشيدية سنة ٣٢٣هـ/٩٣٥م خمسة وثلاثين عاماً، ثم تربع الفاطميون على عرش مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، ولقد انتهى عهد الفاطميين على يد صلاح الدين الأيوبي ابتداءً من سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م وانتهى اسمهم كلياً سنة ٥٦٩هـ /١١٧٤م. كما انتهى عهد الأيوبيين خلفاء صلاح الدين على يد المماليك سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م، على إن بعض المماليك كانوا ينصبون معهم: أيوبياً ملكاً شكلياً في بداية أمرهم ثم نصبوا خليفة عباسياً. وأول مملوك اعتلى عرش مصر هو "أيبك" الملك المعز سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م وفي سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م انتقل الحكم من المماليك الأتراك إلى المماليك السلاجقة، وأول سلاطين السلاجقة هو "الظاهر برقوق" سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م على أن المماليك لم يناموا عن ملك مصر. فكانت لهم دول في عهد السلجوقيين. ومماليك مصر هم الذين نصبوا الخلفاء العباسيين في مصر، فلقد نصب "بيبرس" أول خليفة عباسي "أبا القاسم المستنصر بالله"، على أن سياسة الدولة وإدارتها كانت في يد المماليك، ولقد كانت صلات مماليك مصر بسلاطين آل عثمان تصفو تارة وتتعكر تارة، فلقد نشبت حروب كثيرة بين "بايزيد =

فهذه الدول المصرية الإسلامية من بداية الفتح الإسلامي، كانت وما زالت هدف بحوث عني بها المؤرخون العرب، وفي مقدمتهم المصريون، منذ بدأ العرب يدونون تاريخهم. فقدموا للمكتبة العربية مؤلفات مختلفة الأحجام والبحوث والأسلوب والقدرة على التلخيص والتحقيق، ففي المكتبة العربية موسوعات تشتمل على دول مصر الإسلامية مثل: "السلوك" للمقريزي و"النجوم الزاهرة".

وفيها مؤلفات شتى حصر الباحثون تحقيقاتهم في عصر وال، أو ملك من ولاة مصر وملوكها مثل: "عمرو بن العاص" و"صلاح الدين الأيوبي" و"محمد علي". أو في عصر دولة من دولها مثل دولة: "الطولونيين" و"المماليك" مما يجده الباحث في كل مكتبة عربية.

أما هنا فلا متسع في هذا الجزء "التاريخ العربي وجغرافيته" لمؤلفات تحتاج إلى من يتفرغ ليحصرها ويلخص موضوعاتها، ففي تاريخ كل قطر من الأقطار العربية وضعت مؤلفات ومؤلفات ما زال عددها يزداد، وما زالت المطابع تجدد طبعات القديم منها منقحة مضافة إليها تحقيقات وشروح.

وإننا نكتفي بهذا القدر من جغرافية الجزيرة وتاريخها الجغرافي إلى أن نلتقي إن شاء الله في الجزء الرابع - "التاريخ العربي وشعوبه"، فنستودعك الله.

= الثاني" العثماني، وبين"قايتباي" المصري إلى سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، ثم فتح "السلطان سليم" مصر فظلت ثلاثمائة سنة تقريباً ولاية تركية ثم تطورت خديوية مرتبطة بالدولة العثمانية. وقد استمرت مصر خديوية من عهد "محمد علي" سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م إلى آخر عهد "عباس الثاني - حلمي" سنة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م، ثم صارت أخيراً مستعمرة إنجليزية: سلطنة فملكية انتهت بعزل الملك "فاروق" وخلع ابنه "أحمد فؤاد" وقيام الجمهورية العربية المصرية . ولا تزال حكومة مصر جمهورية تنوعت أسماؤها، فهي اليوم: جمهورية مصر العربية.

نهاية المطاف

١- كل جزء من كتاب "العرب في أحقاب التاريخ" قائم بذاته.

٢- الدوافع لتأليف هذا الجزء: "التاريخ العربي وجغرافيته".

٣- في هذا الجزء نتائج لم أرها في غيره.

٤- من أهداف هذا المؤلف: جمع النصوص ومناقشتها وتبويبها.

٥- في جغرافية الجزيرة العربية حقائق من الواجب إظهارها.

٦- ما وصل إليه البحث في جغرافية الجزيرة العربية هو قليل من كثير.

٧- القصد من وضع هذا المؤلف بعد ما سبقه من المؤلفات.

١ - لعلك أيها القارئ الكريم، بعد أن قلبت صفحات هذا الجزء من كتاب "العرب في أحقاب التاريخ" الذي صدر بعنوان "التاريخ العربي وجغرافيته"، وطالعت ما شئت أن تطالعه من فصول وبحوث - توافق على ما قلته لك في المقدمة عن أجزاء هذا المؤلف، وأنها ليست مثل سلسلة الموضوعات التاريخية التي يؤلفها المؤرخون قدامى ومعاصرين. فكل جزء من "العرب في أحقاب التاريخ" مؤلف قائم بذاته، كما رأيت.

٢ - وعرفت الحوافز التي استحثتني على أن أفرد لجغرافية الجزيرة العربية القديمة وللإطار الموضوعة فيه أقسام هذه الجزيرة أو شبه الجزيرة مجلداً خاصاً بجغرافية الجزيرة العربية التاريخية، تلك الحوافز التي أشرت إليها في المقدمة، والتي منها سؤال ما فتئ يردده الكثيرون: هل بلاد العرب الأولى جزيرة أم شبه جزيرة؟ وللإجابة عن هذا السؤال اضطر البحث أن يقوم بجولة مع الجغرافيين القدامى حول مهد العرب، انتهت بجواب يرفض وضع "الهلال الخصيب" و"مصر العمليقية" خارج الأرض العربية، في الوقت الذي لم يعترض على قول الذين يعتقدون أن مهد العرب هو جزيرة، ولم يرفض أيضاً رأي الذين قالوا إنه شبه جزيرة، إلى غير ذلك مما بينته في البحوث التي مررت بها، فالحدود المائية التي تحدث عنها القدامى والتي تمتد في الغرب الشمالي والشمال، والشرق الشمالي جعلت لكل من القولين مبرراته بالنسبة لمجرى النهرين النيل والفرات اللذين أتم القدامى بهما حدود جزيرة أو شبه جزيرة العرب. فمجاري هذين النهرين، وقناتاهما "الدار" و "أمنيس تارایاني" يراهما البعض: صالحة لأن تجعل عرين العرب: جزيرة، وفي رأي الآخرين هي حدود شبه جزيرة تبدأ حدودها شمالاً من جنوبي مجرى الفرات، وفي رأي بعضهم من جبال "طوروس". أما الجماعة التي أخرجت العراق وسورية ومصر العمليقية من بلاد العرب الأولى، فهؤلاء تخطوا الصواب بجعلهم حد بلاد العرب الشمالي خطأ وهمياً ويمتد من جنوبي خليج

العقبة إلى "الخليج العربي" ماراً بجنوبي بادية الشام والعراق. فإخراج مصر العمليقية والهلال الخصيب من جزيرة أو شبه جزيرة العرب هو في مقدمة تلك الحوافز التي جعلتني أعنى ببحث جغرافية الجزيرة العربية القديمة. فإخراج الأرض العربية الممتدة ما بين الفرات والنيل انبنى على نصوص لم يقصد أصحابها ما فهمه الذين بتروا من جسم الكنانة أعضاء فعالة وغالية، فأصحاب النصوص التي لم تذكر الهلال الخصيب، ومصر العمليقية مع الأقسام الخمسة: تهامة، والحجاز، ونجد، والعروض، واليمن، لم يقصدوا نفي عروبة مصر وسورية والعراق، عندما لم يذكروا الهلال ومصر مع أقسام الجزيرة العربية الخمسة: اليمن والعروض ونجد والحجاز وتهامة. إنما هم أرادوا بهذه الأقسام الخمسة الأرض التي لم تخضع للاستعمار الفارسي والروماني كما خضع الهلال الخصيب ومصر. فلو أنهم قصدوا غير ذلك لما أدخلوا الهلال الخصيب، ومصر العمليقية في إطار جزيرة العرب. ولقد حرص البحث كما رأيت على أن يقدم ما وصل إليه من أدلة تثبت هذه الحقيقة التي لم يعرها كثير من الباحثين في تاريخ الجزيرة العربية وفي جغرافيتها اهتمامه. وحرص على أن يقدم مهد العروبة حسب صفته الطبيعية التي حدد العرب على أساسها جزيرتهم.

٣- وإخالك قد مررت ببحوث استرعت انتباهك لأنها وصلت إلى نتائج لم أرها فيما اطلعت عليه من المؤلفات التي وضعت في جغرافية البلاد العربية وتاريخها القديم، ولم أر من الضروري ذكرها جميعها، لأن ذكر النتائج جميعها يحيد بنا عن الغرض من هذه الكلمة الأخيرة: "نهاية المطاف"، فلقد أطلت علينا في أكثر فقرات فصول الكتاب حقائق قد تكون بحوث هذا المؤلف قد انفردت ببعضها، فالدليل هنا على كل حقيقة من تلك الحقائق أكبر من هذه الكلمة. ولقد تبلورت نتائج لم يعن بجمعها محقق من المؤلفين، وكل نتيجة تقف منفردة سيستهدفها النقد، لذلك حرصت على

إيضاح الأدلة ومصادرها ليستطيع الناقد أخذ فكرة عنها وإبداء رأيه فيها، فالنقد بمعناه الصحيح ضروري في مثل هذه البحوث لسلامة تاريخنا من الشوائب التي ما زلنا في حاجة إلى إزالتها لنتبين طريق المستقبل على ضوء حقائق الماضي وتجاربه، فلقد أمرنا الله أن نسير في الأرض وننظر عاقبة الذين سبقونا.

فمن هاتيك النتائج على سبيل المثال:

١- الخطأ في فهم أقوال القدامى، فكثير من أقوال القدامى من جغرافيين ومؤرخين شط بها فهم بعض الذين يكتبون اليوم في التاريخ العربي وجغرافيته بعيداً عما قصده القدامى. من ذلك ما عناه القدامى من قولهم: فصارت جزيرة العرب خمسة أقسام: اليمن والعروض ونجد والحجاز وتهامة، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في المقدمة وفي صدر هذه الكلمة، ولعلك قنعت بالأدلة التي قدمها لك البحث وظهر لك أثر هذا الخطأ وأسبابه.

٢- عدم تجاوز حرفية النص إلى حقيقته، مثل قولهم: عكاظ بأعلى نجد قريباً من عرفات! فلقد رأيت معي كيف وقف بعض الكتاب حيران متعجباً - يتساءل: كيف يكون "عكاظ" بأعلى "نجد" وفي الوقت نفسه يكون قريباً من عرفات؟ ورأيت كيف حكم ذلك البعض بتخطئة "ابن حبيب" و"محبر" ابن حبيب، قبل أن يرجع إلى مصطلحات قدامى الجغرافيين؟ فلو أنه رجع إليها لعلم أن العرب أسموا جبال السراة حجازاً ونجداً وجلساً، والخطأ في كثير من القضايا يجر إلى أخطاء، وعلى ذلك أخطأ ذلك البعض عندما أخذ يجزم معتمداً على فهمه هذا النص: "عكاظ بأعلى نجد" أن سوق عكاظ بنجد، على أنه لو تعمق في دراسة مصطلحات الجغرافيين القدامى لعلم أن المقصود بنجد في هذا النص هو "السراة - الحجاز"، وأن أرض عكاظ من الحجاز، وأن سوقها من أسواق مكة.

٣- تاريخ سوق عكاظ. ما دمنا قد تحدثنا عن سوق عكاظ فلا بأس من تذكير القارئ بالنتيجة التي وصل إليها البحث في بداية هذه السوق ونهايتها، فلقد تواضع الباحثون في العصر الحاضر على أن أبعد تاريخ عرف لهذه السوق يزيد بضعة أعوام على السنة الخامسة عشرة من عام الفيل، وتواضعوا على أن هذه السوق استمرت إلى أن نهبها الحروريون سنة ١٢٩هـ، إلى غير ذلك مما قيل عن عكاظ، وبالرجوع إلى التاريخ الجاهلي وأحداث "الحجاز - السراة" التي نجدها في مصادر التاريخ الجاهلي، أو نقرؤها على نقش أظهرته معاول الأثريين، وأخرى في سطور رواية مغلفة بالخيال، أو نجدها في باطن إشارة إلى حدث من أحداث التاريخ، ونجد قليلاً من الباحثين هم الذين تكبدوا متاعب التحقيق في مثل قصة امرئ القيس بن حجر الواردة في النصوص العربية "وامرئ القيس" صاحب نص النمارة التي أشار إليها النص الأثري، و"غزوة الفيل" التي تحدث عنها القرآن، وشهود النبي صلى الله عليه وسلم سوق عكاظ كما أخبر صلى الله عليه وسلم، إلى غير هذه النصوص التي كان على الذين تحدثوا عن سوق عكاظ استيعابها، في سبيل معرفة بداية سوق عكاظ الأدبي ونهايته.

إن النصوص التي نوهت بشهود النبي صلى الله عليه وسلم سوق عكاظ لا تقصد بتنويهها أن بداية السوق كانت في تلك السنوات، فتاريخ سوق عكاظ قديم جداً، وسوق عكاظ انتقلت من موضع إلى آخر مراراً، كما رأيت في الكلام عن سوق عكاظ، وإنما الجديد هو الموضع الذي كانت تعقد فيه السوق بين "مكة" و"الطائف" بعد عام الفيل، أين هو؟

وكذلك النصوص التي تحدثت عن الحروريين الذين نهبوا سوق عكاظ سنة ١٢٩هـ لا تقصد أن السوق الأدبي استمر حتى سنة ١٢٩هـ وأن حجاج مكة في الإسلام كانوا يقيمون في عكاظ شهراً كما كان يفعل الجاهليون، وأن الشعراء المسلمين كانوا

يعرضون أشعارهم في عكاظ ويتفاخرون بالأنساب ويتنابذون، حجاجاً ملبين الدعوة رجالاً وعلى كل ضامر. فسوق عكاظ هذه انتهت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يبق في عكاظ بعد تحريم مكة على الجاهليين غير حوانيت كان الحجاج القادمون إلى مكة والصادرون عنها يعرجون عليها، ويتمارون منها. ولكنهم لا يقيمون فيها أكثر مما يقيمون في أية مرحلة من مراحل طريقهم.

فلو أن الذين أخذوا بظاهر النص الذي تحدث عن غزو الحرورية رجعوا إلى تاريخ الأدب العربي، وإلى سير فطاحل شعراء الإسلام؛ لعلموا أن الحقيقة هي غير ما يبدو على ظاهر النص، ففي مقدمة أسباب الخطأ التسرع في الإدلاء بالرأي، وأول أسباب التسرع: اعتداد الباحث بمنطقه، والاعتداد بالمنطق يغري به حسن ظن الذين يلقون قياد اقتناعهم إلى الأسماء التي تحيط بها هالة من الألقاب تنوعت الوسائل في العصر الحاضر للوصول إليها.

هذه أمثلة من الحوافز التي دفعتني للتأليف في التاريخ العربي وجغرافيته، وإيضاح ما أمكن إيضاحه عن أقسام الجزيرة السبعة، واسم كل قسم وحدوده ومدنه وحضاراته ودوله، وكيف رجح البحث قول الذين جعلوا الهلال الخصيب ومصر العمليقية جزأين من جزيرة العرب؟ ولقد حرصت على جمع ما وصلت إليه من نصوص فصولاً مبوبةً وبحوثاً تقابل القول العربي بالنص الأثري وتقارن منطق القدامى بفهم المحققين: عرباً ومستشرقين.

٤- وجمع النصوص في فصول مبوبة ومقابلتها ومناقشة الاعتقاد القديم بالرأي الحديث، مهمة لا أدعي أنني أوفيتها حقها كاملاً، فلا يبعد أن تكون هناك شوارد، ولا يبعد أن يكون ممن قرأوا الكتاب من يراني قد تورطت في مثل المآخذ التي نبهت إليها في بحوث في الكتاب، لذلك أرجو كل من يتفضل بقراءة الكتاب وتبدو له وجهة

نظر فيما ورد فيه ألا يتأخر في إبداء ما يعتقد أنه الحقيقة والصواب، فأنا لم أؤلف هذا الكتاب، وأتحمل مشاق البحث ومشاكله، وتكاليف الطبع والنشر إلا رغبةً في إزالة الغبار الذي ما زال عالقاً بتاريخنا القديم، والشكوك التي نشرتها بحوث تعمد أصحابها شراً لتاريخنا، فوفق جهدهم في بعض المسائل وأخطأه التوفيق في غيرها.

فاللبس الذي لف الكثير من الحقائق هو الذي دفع الباحثين في كل جيل لإزالة الغموض عن وقائع التاريخ بمنطق الزمن الذي يعيشون فيه. والباحثون الذين تطوعوا لتخليص الحقائق من الشكوك لم يدع واحد منهم أنه القادر على إزالة كل لبس.

٥- وفي جغرافية الجزيرة العربية في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام حقائق كثيرة تحتاج إلى إزالة اللبس عنها، مثل السبب الذي من أجله اكتفى العرب بذكر الأقسام التي لم يبلغها ملك فارس، فهذا السبب لا يلزمنا بعدم الاعتراف بعروبة الهلال الخصيب ومصر العمليقية التي لم يزل عنها ملك فارس وسلطان الروم إلا بعد الإسلام.

٦- فمن المبالغة أن يزعم البحث أنه ذكر في هذا الجزء كل ما ورد عن جغرافية الجزيرة وتاريخها، وجمع كل ما يجب أن يجمع من أقوال القدامى عرباً وغير عرب التي قيلت عن أقسام الجزيرة العربية جملةً وتفصيلاً، ورد كل قضية إلى حقيقتها، فلكل إقليم من كل قسم تاريخ جغرافي تطور عبر الأجيال، فلتاريخ "عمان" - على سبيل المثال - في الجنوب أبعاد وعمق. ولتاريخ فلسطين - في الشمال - جوانب وأطوار من الصعوبة بمكان إيضاح كل ركن فيها ولون منها، فمن الصعوبة بمكان الوصول إلى نهاية الأبعاد وأبعد الأعماق لكل قسم وإقليم من أقسام الجزيرة وأقاليمها في مجلد واحد مثل هذا المجلد "التاريخ العربي وجغرافيته"، فمن المؤكد أن هناك جوانب أغفلها البحث، وأعماقاً لم يصل إليها مكتفياً بما قدم من ألوان وخطوط حاول جهده أن

يرسم بها صورة عامة مجملة لجغرافية الجزيرة العربية القديمة على مصوراتها الحديثة.

٧- وأنا عندما أقرر هذه الحقيقة أعلن أن الهدف الأول لهذا المؤلف: "العرب في أحقاب التاريخ" هو جمع المنثور عن بداية التاريخ العربي ومصادره وجغرافيته وأممه ودوله، في العديد من المؤلفات التي وصلت إليها، وتأليف ما جمعته بحوثًا وضحت في الجزء الأول: "بداية التاريخ العربي"، وبحوثاً وضحت في الجزء الثاني: "مصادر التاريخ العربي"، وبحوث هذا الجزء التي ألفت في "التاريخ العربي وجغرافيته".

فقبل أن أقدم رجلاً وأؤخر الثانية في طريق الكتابة في العرب في أحقاب التاريخ بحثت عن مؤلف وضع في بداية التاريخ العربي، وعن مؤلف وضع في مصادر التاريخ العربي، وعن مؤلف وضع في الجغرافية التاريخية لجزيرة العرب شمل ما قيل عن العرب والعربية أرضاً وسكاناً وتاريخاً من غابر عصورها إلى راهن حاضرها. وتكلم عن حدودها وأقسامها وأسمائها وثرواتها التي تحدث عنها القدامى والمتأخرون من الكلدان والروم واليونان والعرب، إلى غير ذلك مما - لعلك - رأيته في فصول وبحوث فرضتها على البحث أهداف ألمحت إلى بعضها في صدر "التوطئة" وفي فقرات هذه الكلمة "نهاية المطاف" لهذا الجزء.

أقول بحثت عن مؤلفات وضعت خصيصاً لبداية التاريخ العربي ومصادره وجغرافيته، فلم أجد فيما وصل إليه بحثي مؤلفات وضعت لبداية التاريخ ومصادره خصيصاً، وإنما وجدت لكل إقليم تاريخًا خاصًا به مثل سورية والعراق والحجاز ونجد، على أن أكثر التواريخ الإقليمية لا تستوعب التاريخ الجاهلي والإسلامي، فهي إذا تحدثت عن التاريخ الجاهلي تحدثت لماماً.

ووجدت مؤلفات أساتذة التاريخ العربي مثل" ابن جرير" ، و"ابن كثير" ، و"ابن خلدون" ، وغيرهم ممن تقدمت ترجمتهم في الجزء الثاني "التاريخ العربي ومصادره" تفتقر إلى مقابلة الرواية بالنصوص الأثرية ، وليس هذا نقص في جهد أولئك الأعلام الذين لا يزال لهم الفضل على التاريخ العربي والمؤرخ الحديث. وإنما هو نتيجة لتأخر اكتشاف النصوص التي ظهرت بعد عصورهم، والتي كان للمطران الدبس، وجرجي زيدان، وجواد علي، ومن سار في الطريق فضل جمعها ومقابلة الرواية القديمة بالنص الحديث ، وتعريب ما وصلت إليه بحوث المستشرقين، ولأن هدف "ابن جرير" وذلك الرعيل هو جمع الروايات التي وصلت إليهم مشافهةً أو مراسلة أو في قصاصة ونص مدفون وتنسيقها على قدر ما وصلت إليه أساليب التأليف في عصورهم، وحفظها ذخيرة لطلاب التاريخ مع ما فيها من تناقض.

على أن ما أصاب المؤلفات القديمة التي تحدثت عن تاريخ العرب قبل الإسلام أصاب البحوث الحديثة التي تفرغت للتاريخ الجاهلي ، فكما كان "ابن جرير" حريصاً على جمع كل ما وصل إليه علمه من أخبار الملوك والدول، كان "جواد علي" حريصاً على ذكر كل ما اطلع عليه من أقوال المستشرقين أثريين ومؤرخين، وذكر أكثر ما اطلع عليه من رواية الذين أسماهم الكلاسيكيين. وكما كان ابن جرير قليل التعليق وإبداء الرأي كان جواد علي قليل التعليق وإبداء الرأي، فهو عندما تحدث عن تاريخ "سوق عكاظ" أشار إلى قول "ابن عباس" عن الآيات التي نزلت في اتجار الحجاج دون أن يستوعب ما يوجب التعليق استيعابه. شأن الرجل الذي يخشى أن يفوته ذكر شيء من النصوص التي تجدها مزدحمة في مواضع من أجزاء مؤلفه.

وجواد علي لم يتناول بالبحث في مؤلفه: بداية التاريخ العربي، وهو لم يخص مصادر التاريخ العربي، ولم يخص جغرافيته بأجزاء كالأجزاء التي خص بها الأديان

وغيرها؛ على أن هذا لا يعتبر نقصاً في مؤلفه، فلكتابه أهداف وصل إليها المؤلف مؤدياً الواجب الذي فرضه على مؤلفه: العرب قبل الإسلام.

ولعل "جرجي زيدان" أكثر ترتيباً في مؤلفه، ولعل كتابه "العرب قبل الإسلام" هو الأول في نوعه. على أنه كان من الاختصار بحيث لم يتسع لكثير من فصول التاريخ القديم الجديرة بالذكر. ومما لا شك فيه أن جرجي زيدان بمؤلفه العرب قبل الإسلام أدى المهمة التي تطوع لها. أما "المطران الدبس" فقد كتب في تاريخ سورية بمنطق المطران وعقلية الجيل الذي عاش فيه. على أن "تاريخ سورية" للمطران الدبس يعتبر مرجعاً للذين يؤلفون في ماضي سورية القديم، لم ينقص من قيمته مؤلف فيليب حتي الحديث "تاريخ سورية" أو مؤلفه "لبنان في التاريخ".

بيد أن المطران الدبس، وجرجي زيدان، وجواد علي، وفيليب حتي، لم يلتفتوا لبداية التاريخ العربي في العصور الجاهلية، ولم يعينوا العصر الذي بدأ به، ولم يقدموا مؤلفات متكاملة لمصادر تاريخ الشرق العربي الذي تحدث عن "إدريس" وعالم ما قبل التاريخ، ولا مؤلفات متكاملة لجغرافية هذا الشرق في عصورها القديمة تسلط الأضواء على معالمها في الجغرافية الحديثة، تلك المعالم التي أرجو أن تكون بحوث هذه الحلقة استطاعت أن تبين بعض الشيء المعالم التي اعتمد عليها القدامى في تحديد الجزيرة العربية. وفي تقسيمها: يمنها، ونجدها، وحجازها، وتهامتها، وعروضها. ثم الهلال الخصيب، ومصر العمليقية. والهلال الخصيب اصطلاح أطلقه أخيراً "برستد" على العراق وسورية الكبرى وباديتهما وعروضهما. ومصر العميليقية اصطلاح لوحت بها المؤلفات التي وضعت في جغرافية الجزيرة العربية وتاريخها القديم، اقتنع به البحث عندما أطلقه اسماً على سيناء والدلتا والضفة الشرقية من البحر المتوسط شمالاً إلى جنوبي قناة "أمنيس ترایاني" في شرقي النيل جنوباً، وهذه هي الأرضون التي

أدخلها الكثير من الجغرافيين والمؤرخين القدامى، ومن الجغرافيين والمؤرخين المتأخرين، داخل الإطار المائي لجزيرة العرب كما رأيت.

فمن المعروف أن المعالم الطبيعية من النادر أن يمحوها الزمن، فهو إن حطم بعضها قل أن يزيل أثر ما حطمه عن الوجود، فلئن انفصلت صحراء الجزيرة عن الصحراء شمالي أفريقية قبل ملايين السنين، إن طبيعة الصحراوين ما زالت تدل على الواقع القديم. فالمعالم الطبيعية خالدة مهما لونتها الجغرافية السياسية. والمعالم الطبيعية وحدها لا تبرر قيام وحدة سياسية، والمعالم الطبيعية وحدها لا تقف عقبة في طريق الوحدة السياسية، فالحجاز من قعرة اليمن إلى أطراف الشام لم يكن في يوم من الأيام وحدة سياسية منفصلة عن تهامة، واليمن القديم الذي تحدث عنه العرب على أنه الأرض الممتدة من "عمان" إلى "نجران" حيث يلتوي إلى "عدن"، وتحدث عنه غير العرب على أنه الأرض الواقعة في جنوبي الجزيرة العربية في حدود لا تتجاوز التحديد العربي أطلقوا عليها اسم يمنات، فاليمن هذا أو اليمنات لم تنفصل أرضه سياسياً عن السراة الجنوبية التي من حواضرها: "صنعاء- أزال"، و"صعدة - جماع"، ولم تنفصل عن تهامة الجنوبية التي من حواضرها "الحديدة" و"اللحية"، وإن كان لتهامة اليمن وضع إداري في تاريخها القديم ميزها في بعض حقب التاريخ.

لذلك لا غرابة أن لاقى البحث كثيراً من المصاعب في الوصول إلى شيء من الجغرافية القديمة. والتعرف إليها في مصورات جغرافية العصر الحديث، وعلى ذلك التزمت بإنشاء بحوث قد تكون طويلة، ومملة للقارئ المستعجل، ولكنها ضرورية للمتقصي المتفرغ لمعرفة التطور الجغرافي في أرض تصدرت أنباؤها تاريخ العصور الخوالي، وما زالت بعقائدها ومقدساتها وثرواتها تتصدر التاريخ العالمي.

وإنني أختم هذه الكلمة "نهاية المطاف" بالضراعة إلى الله أن يعيد أمجاد العروبة بما أسبغه على أرضها من نعم كانت وما زالت طاقة أمجادها في أحقاب التاريخ.

على أنني مهما أفضت في هذه الكلمة "نهاية المطاف" فإن غير الممكن أن أشير إلى كل خبر وتحقيق، وبحث في هذا الجزء، وإن مما يؤدي الغرض الذي من أجله وضعت كلمة "نهاية المطاف": الإشارة إلى بعض أمهات قضايا التاريخ العربي وجغرافيته التي ناقشتها في هذه الحلقة.

فالله أسأل التوفيق والصبر والأجر فيما أديته وأؤديه؛ لواجب فرضته على نفسي فهو الملهم، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

فإلى الحلقة الرابعة "التاريخ العربي وشعوبه"، ففيها سألتقي بك إن شاء الله.

الخرائط

"خرائط" هذا الجزء من كتاب "العرب في أحقاب التاريخ" مقتبسة من خرائط المعاجم والمؤسسات، وقد وضعناها لإيضاح بحوث هذا الجزء : "التاريخ العربي وجغرافيته"، وموضوعاتها هي :

١- خريطة قدامى شعوب الجزيرة العربية.

٢- خريطة شعوب الجزيرة العربية في فجر الإسلام .

٣- خريطة المملكة العربية السعودية.

٤- خريطة الدرع العربي .

٥- خريطة الكويت .

٦- خريطة قطر .

٧- خريطة الإمارات العربية المتحدة .

٨- خريطة سلطنة عُمان .

٩- خريطة البحرين .

١٠- خريطة اليمن.

١١- خريطة الهلال الخصيب .

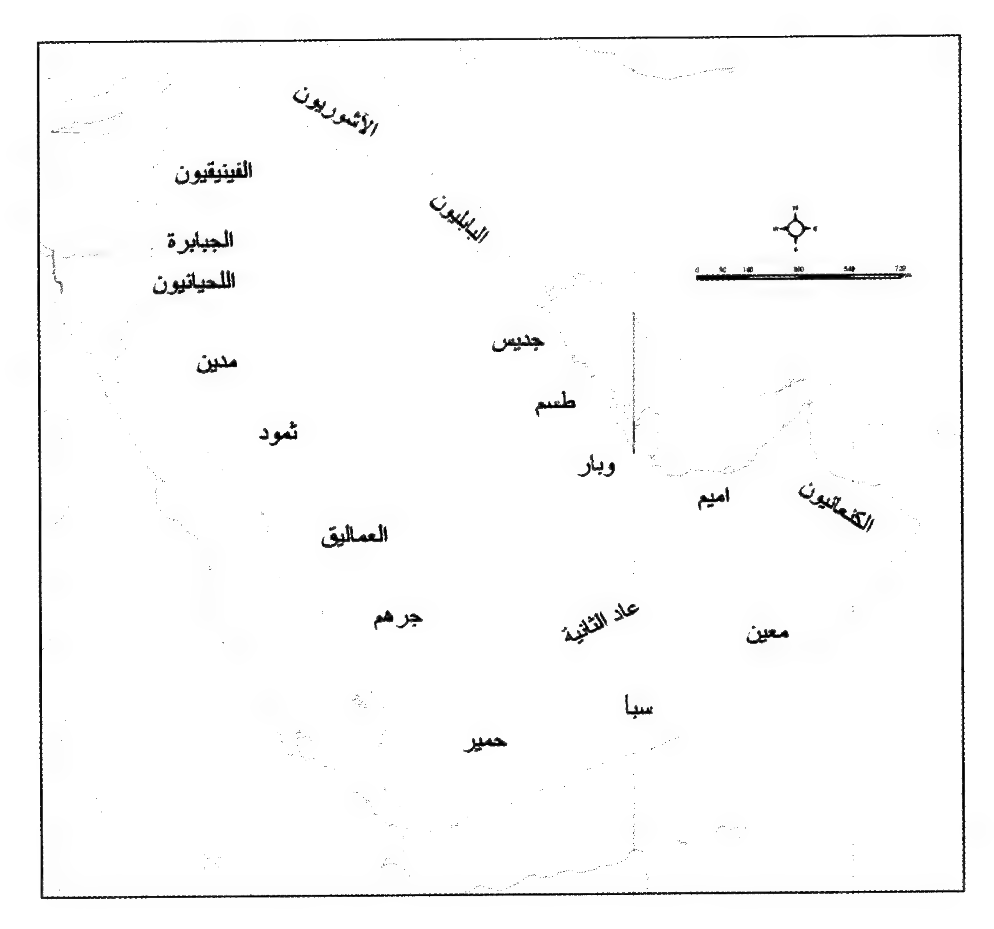
١٢- خريطة العراق .

١٣- خريطة سورية .

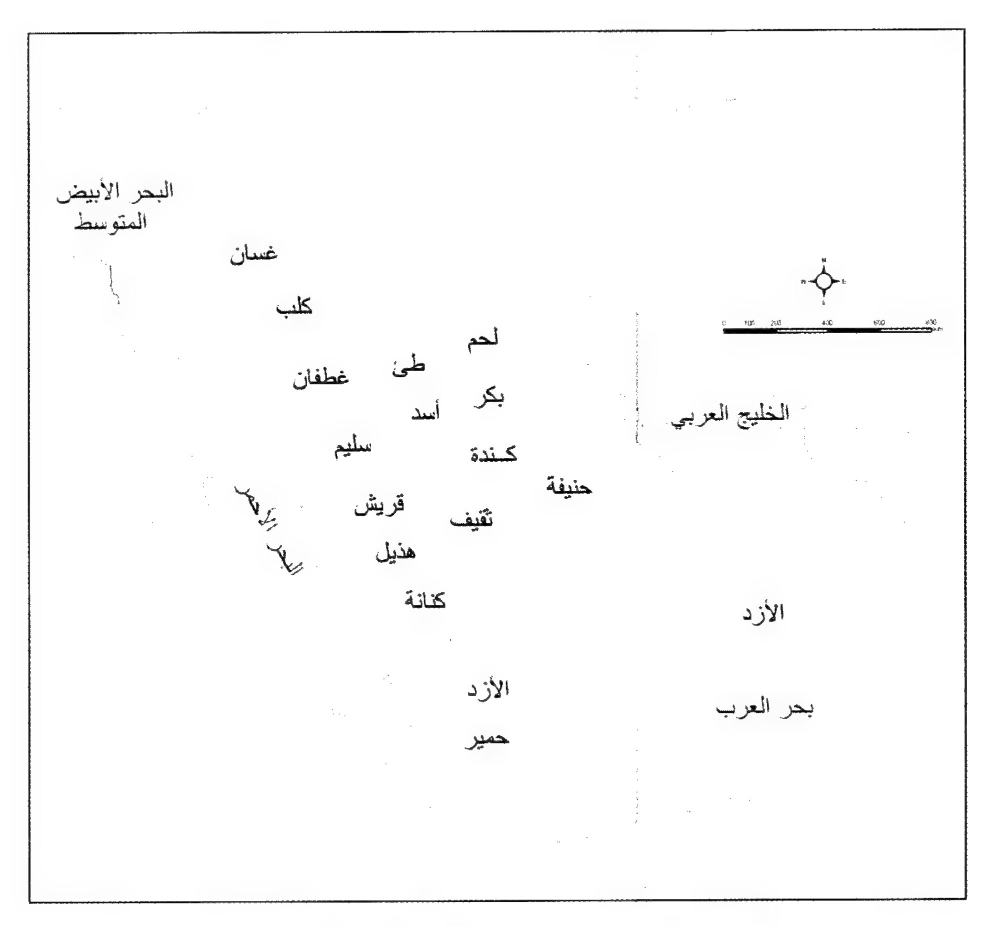
١٤- خريطة لبنان .

١٥- خريطة الأردن وفلسطين .

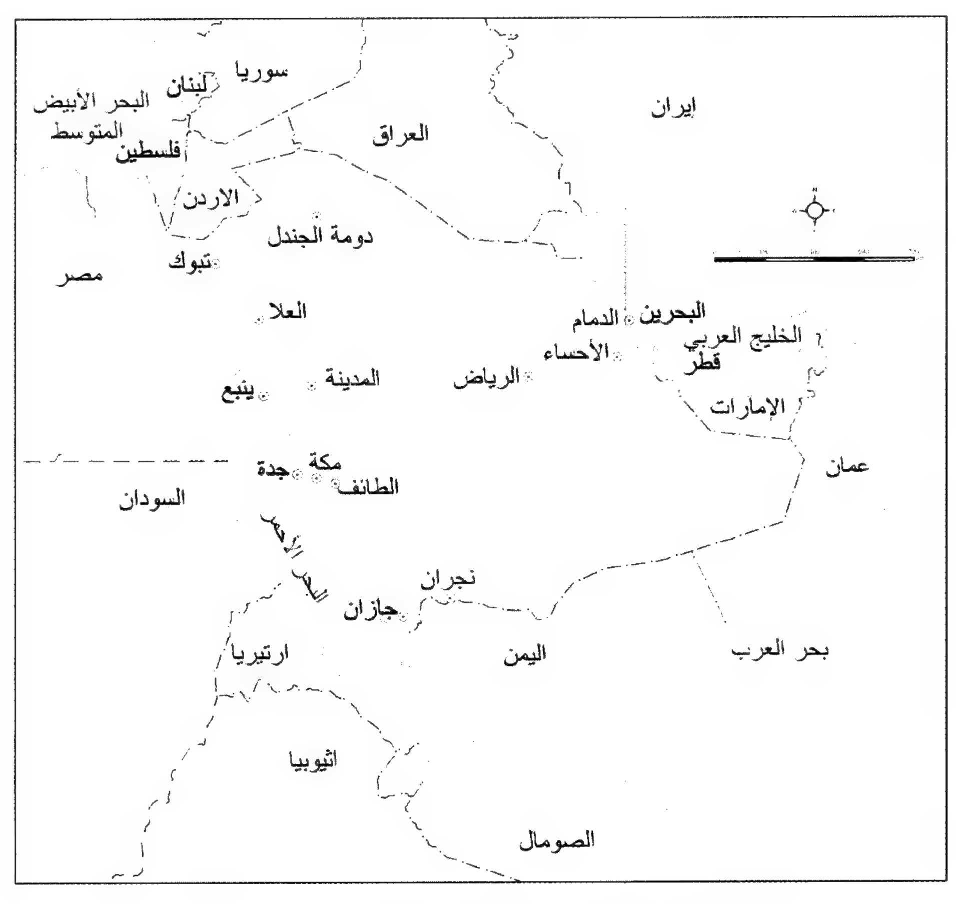
١٦- خريطة الوجه البحري وشمالي الوجه القبلي من جمهورية مصر العربية .



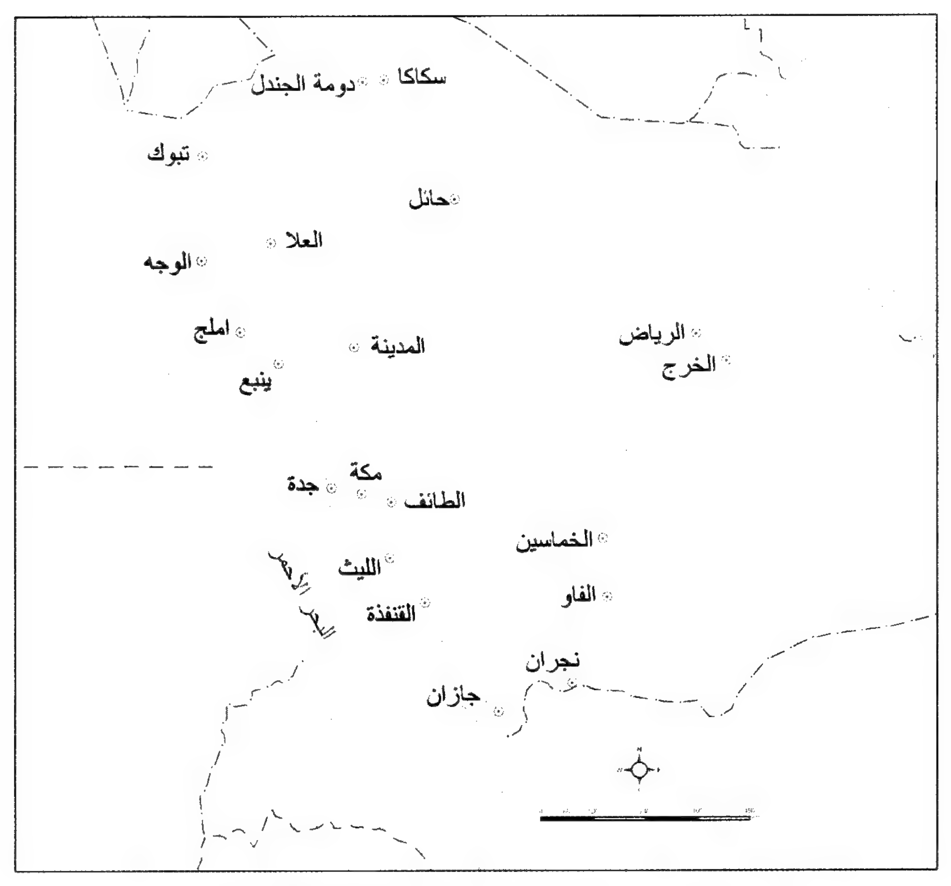
قدامى شعوب الجزيرة العربية



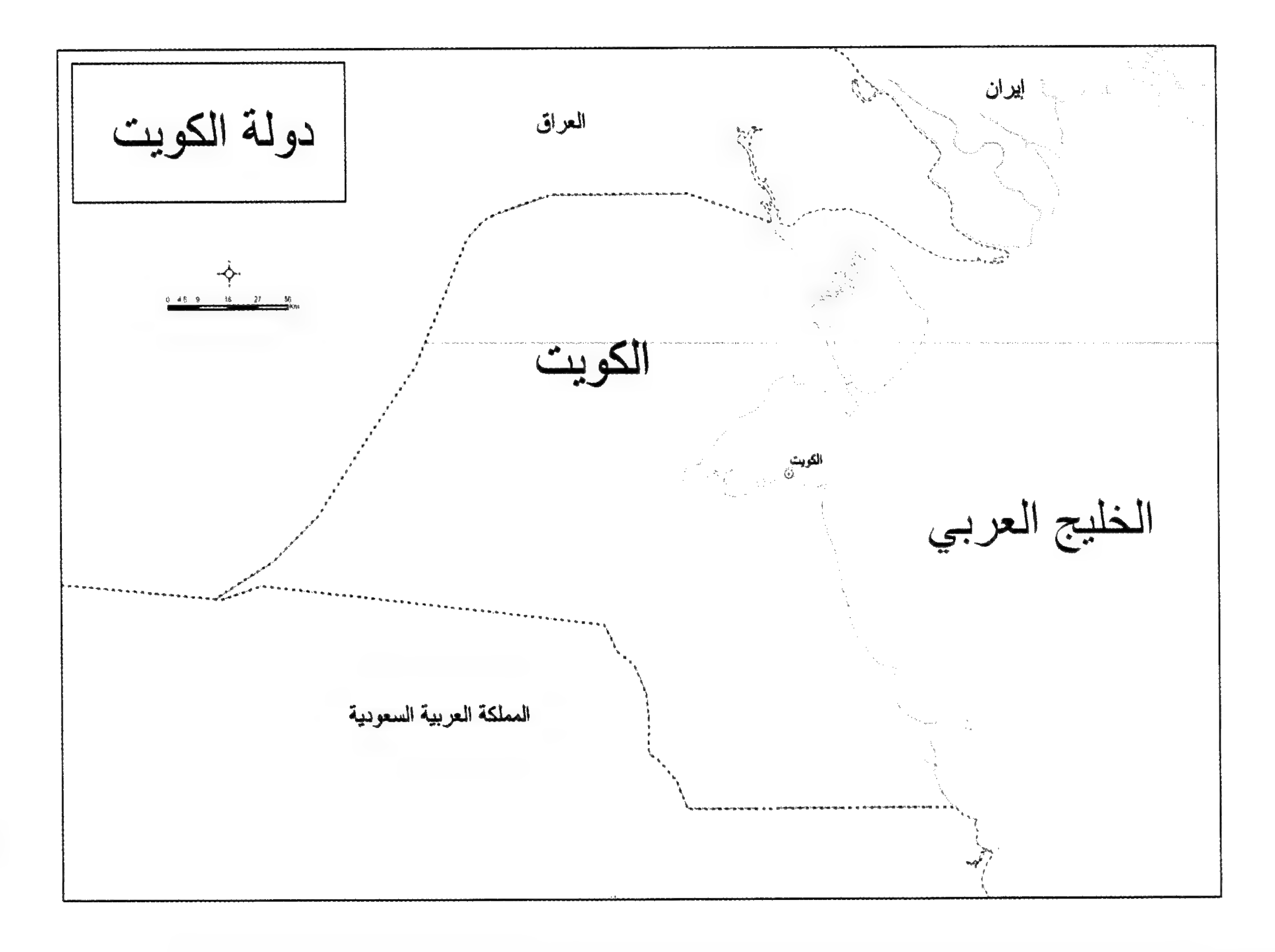
شعوب الجزيرة العربية في فجر الأسلام

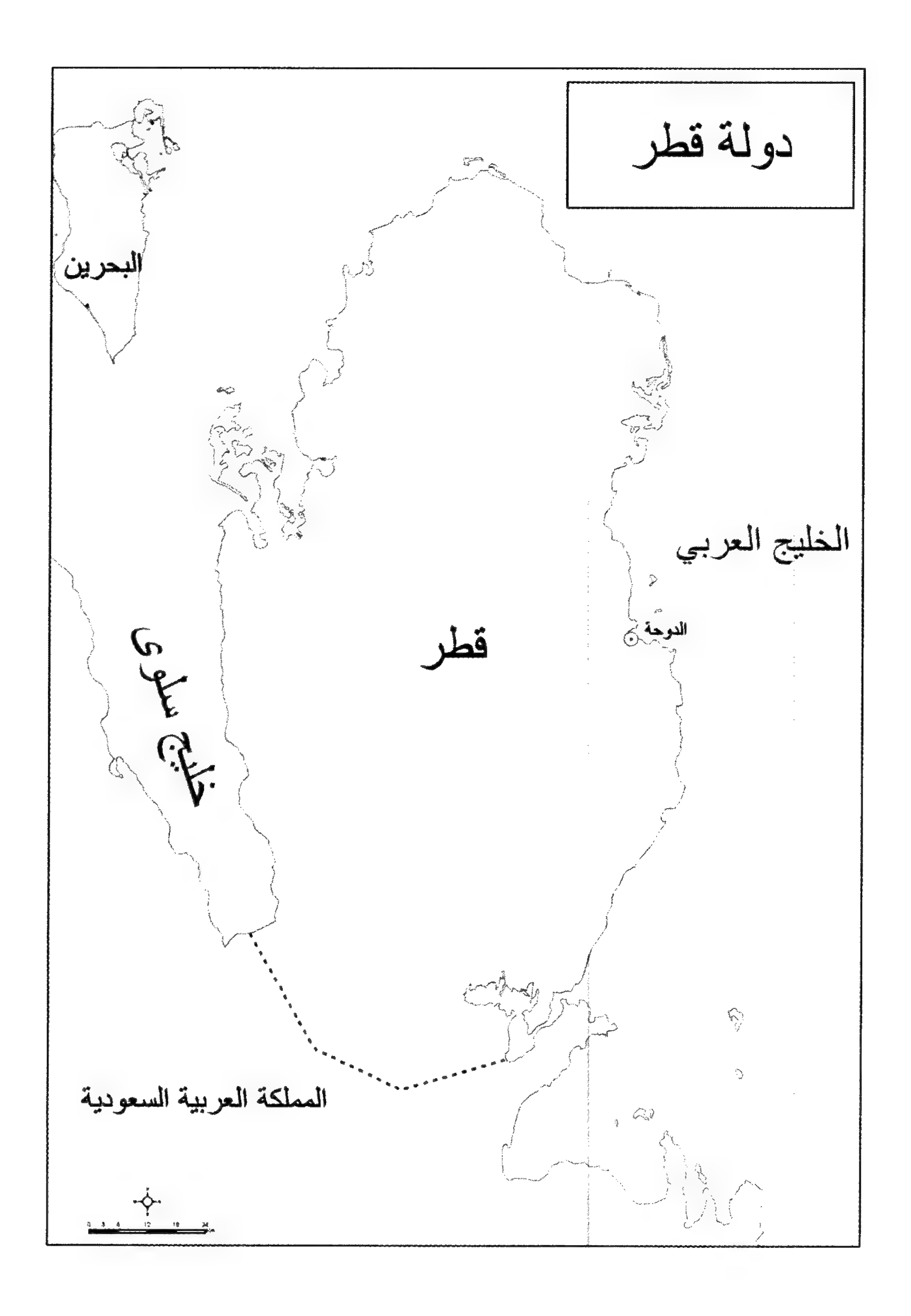


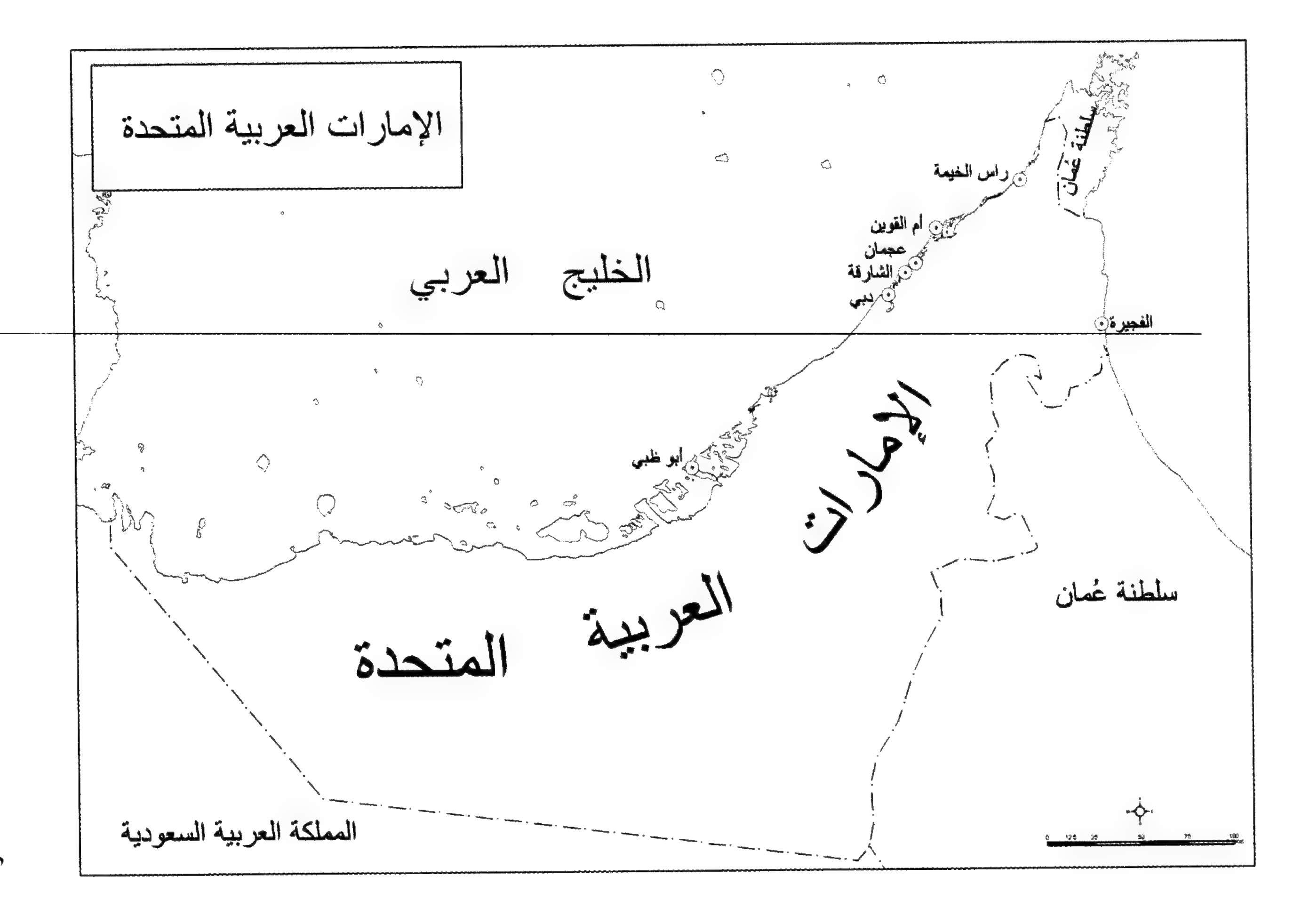
المملكة العربية السعودية

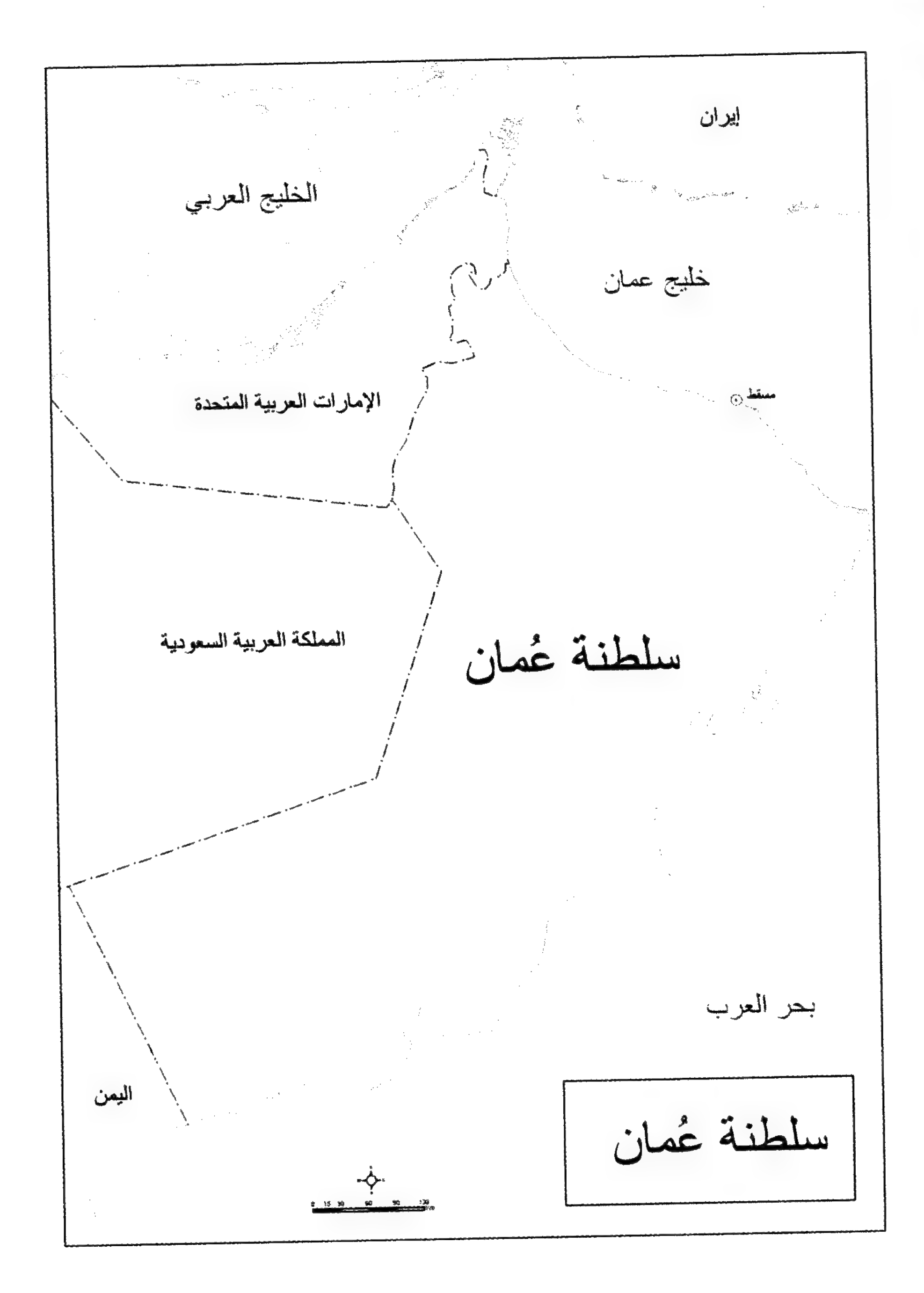


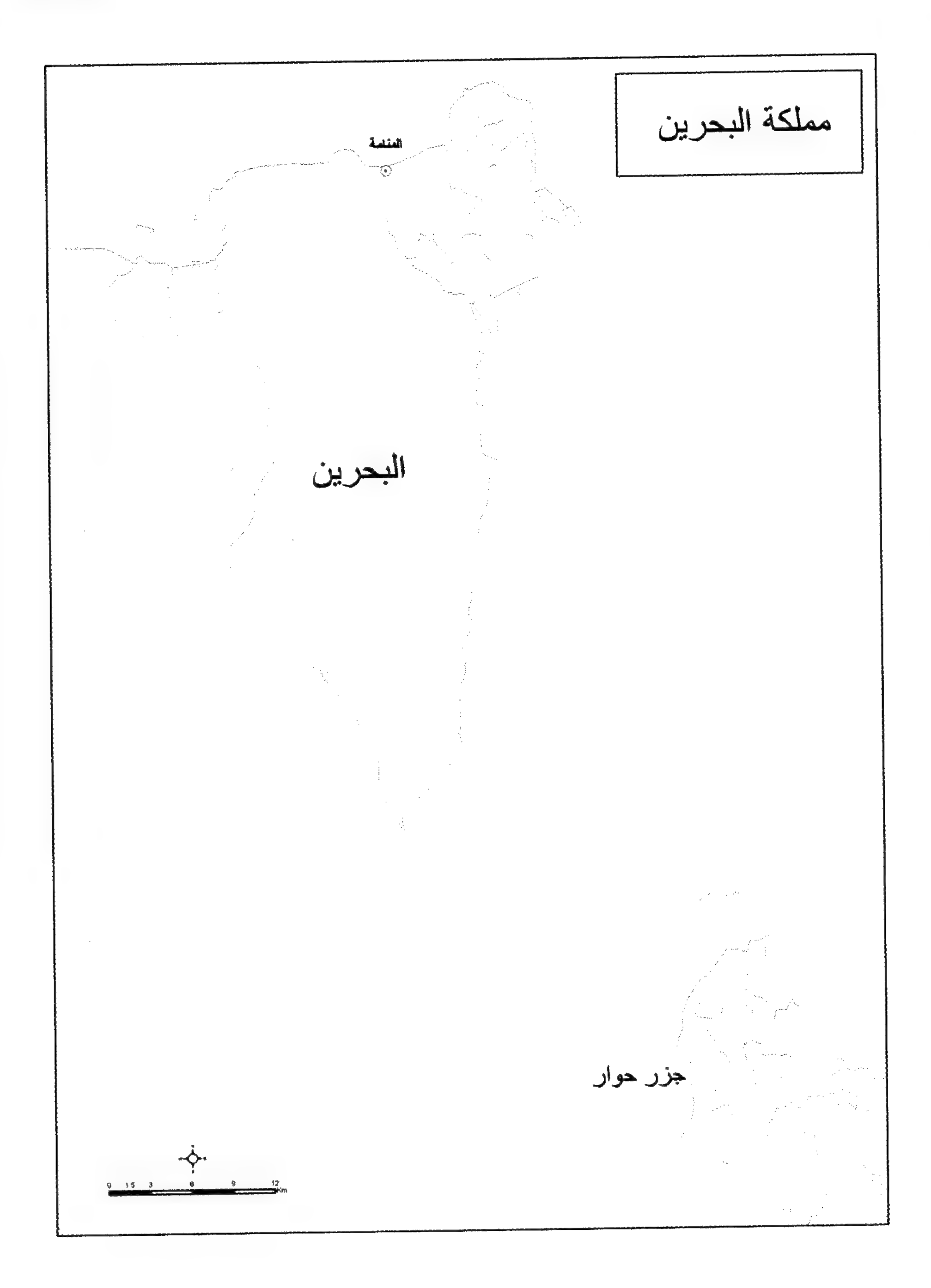
الدرع العربي- منطقة المياه الجوفية القديمة

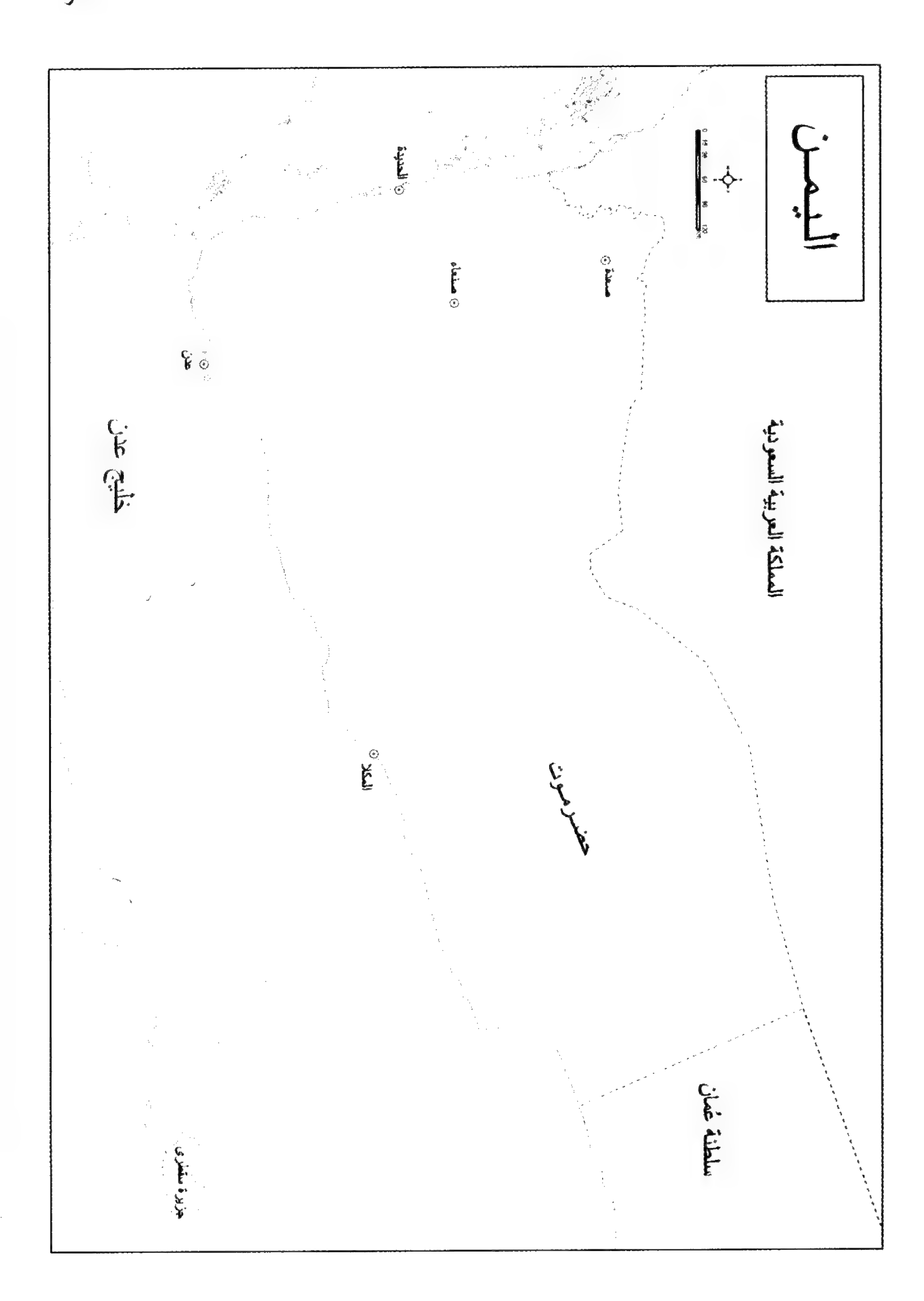

دولة الكويت
العراق
إيران
الكويت
الكويت
الخليج العربي
المملكة العربية السعودية

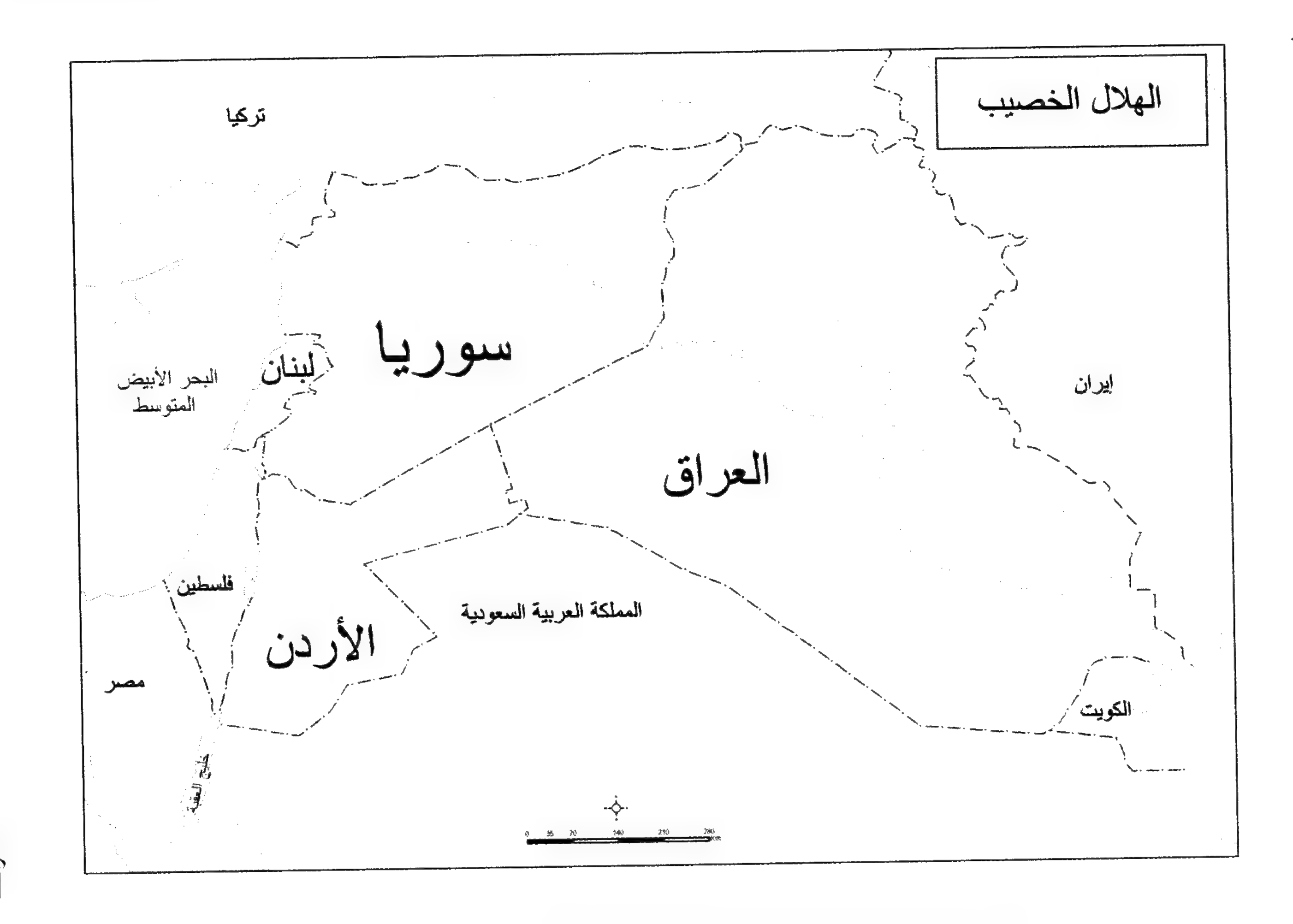

دولة قطر
البحرين
الخليج العربي
الدوحة
قطر
خليج سلوى
المملكة العربية السعودية

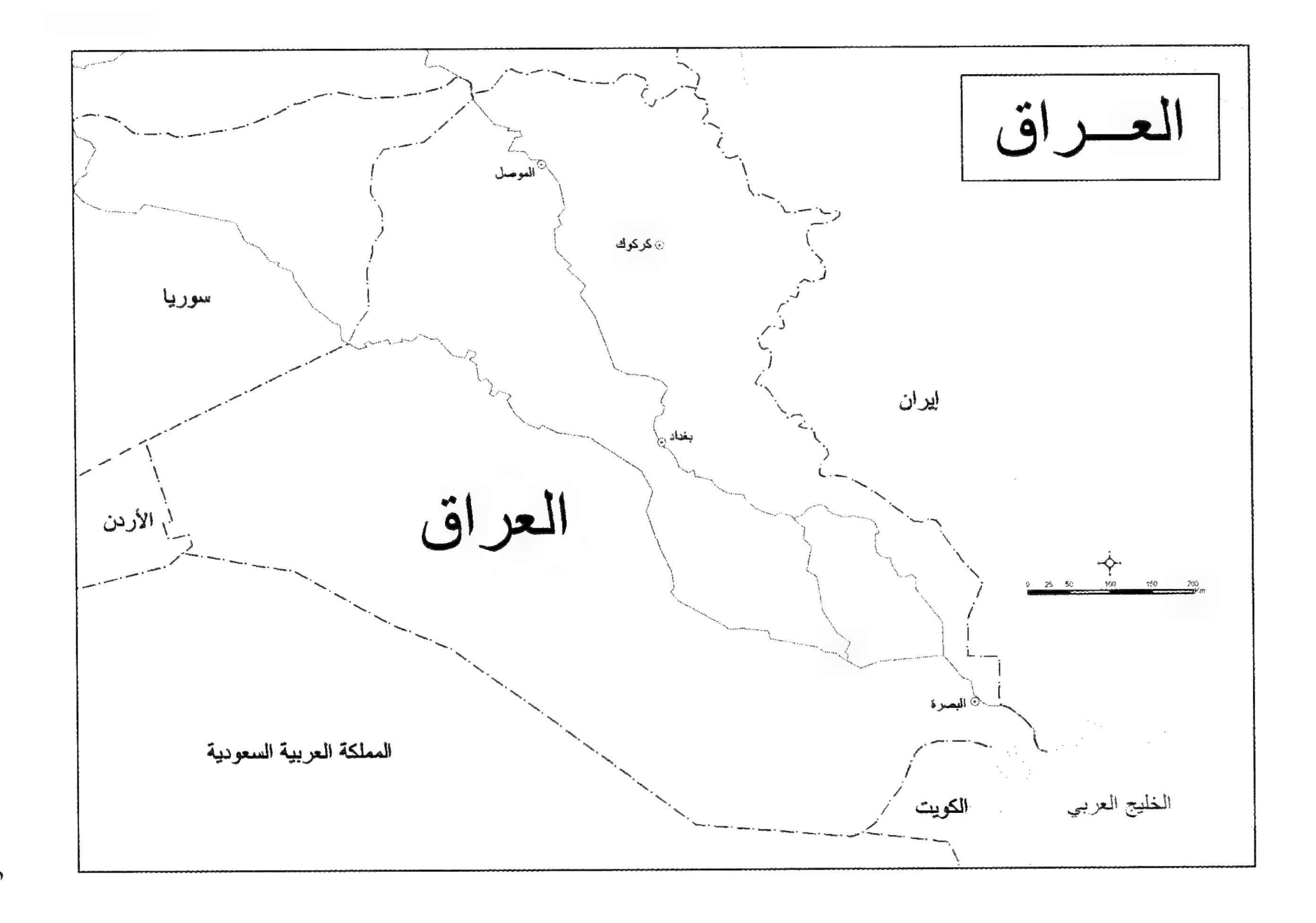

الإمارات العربية المتحدة
الخليج العربي
راس الخيمة
أم القوين
عجمان
الشارقة
دبي
الفجيرة
سلطنة عمان
أبو ظبي
الإمارات العربية المتحدة
سلطنة عُمان
المملكة العربية السعودية


إيران
الخليج العربي
خليج عمان
مسقط
الإمارات العربية المتحدة
المملكة العربية السعودية
سلطنة عُمان
بحر العرب
اليمن
سلطنة عُمان

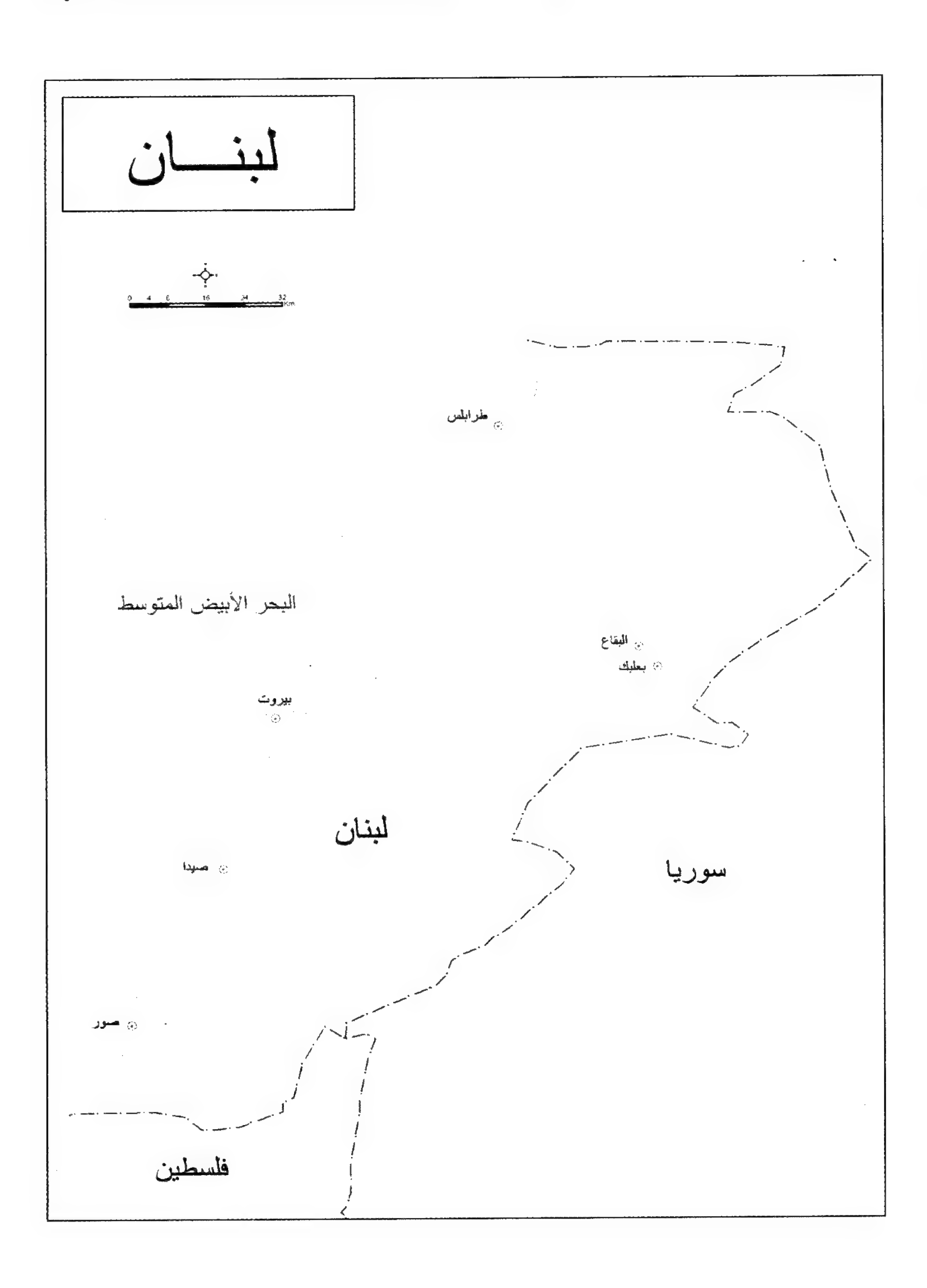

مملكة البحرين
المنامة
البحرين
جزر حوار
0 1.5 3 6 9 12
Km

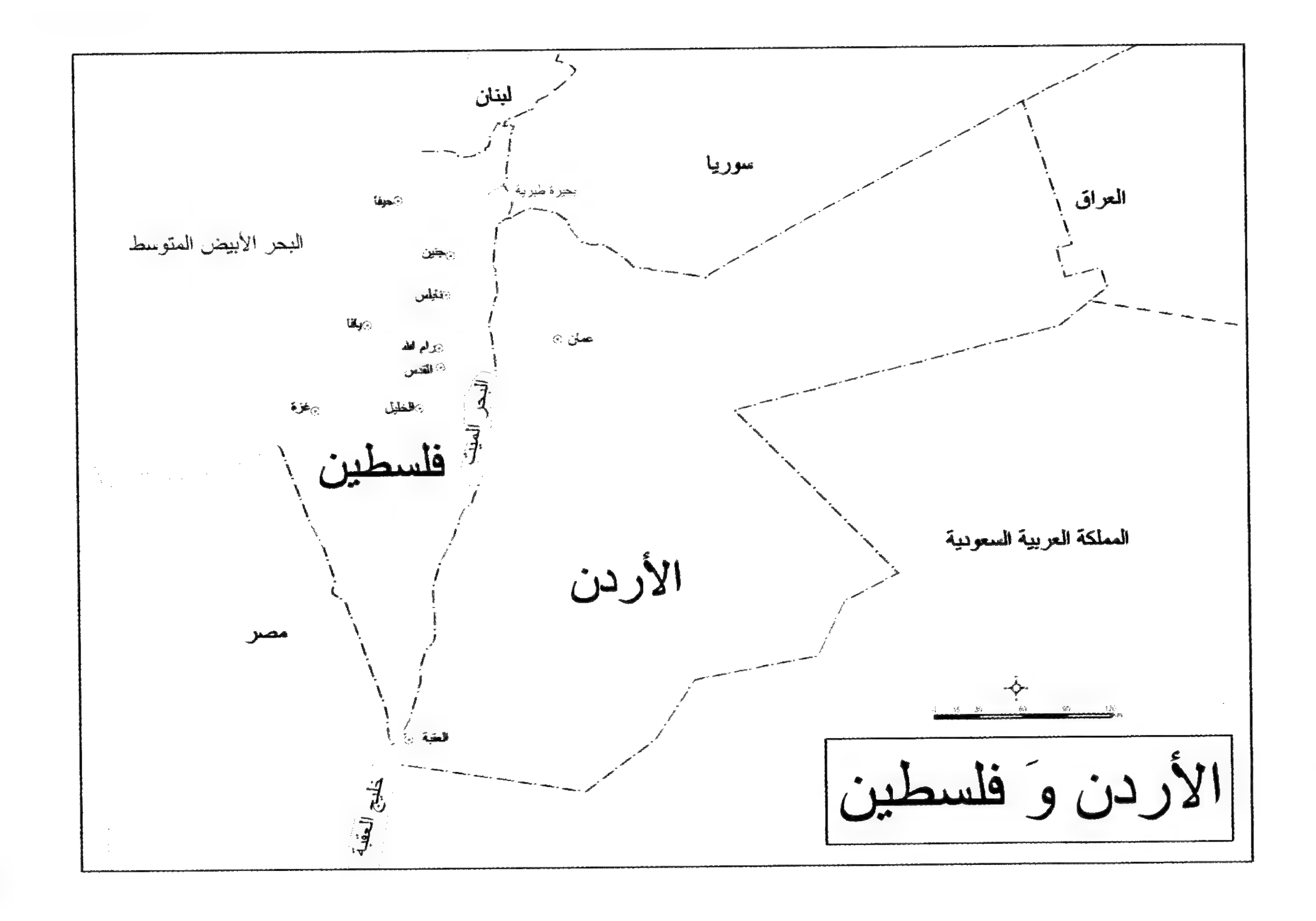

اليمن
المملكة العربية السعودية
صعدة
صنعاء
الحديدة
عدن
خليج عدن
حضرموت
المكلا
سلطنة عمان
جزيرة سقطرى

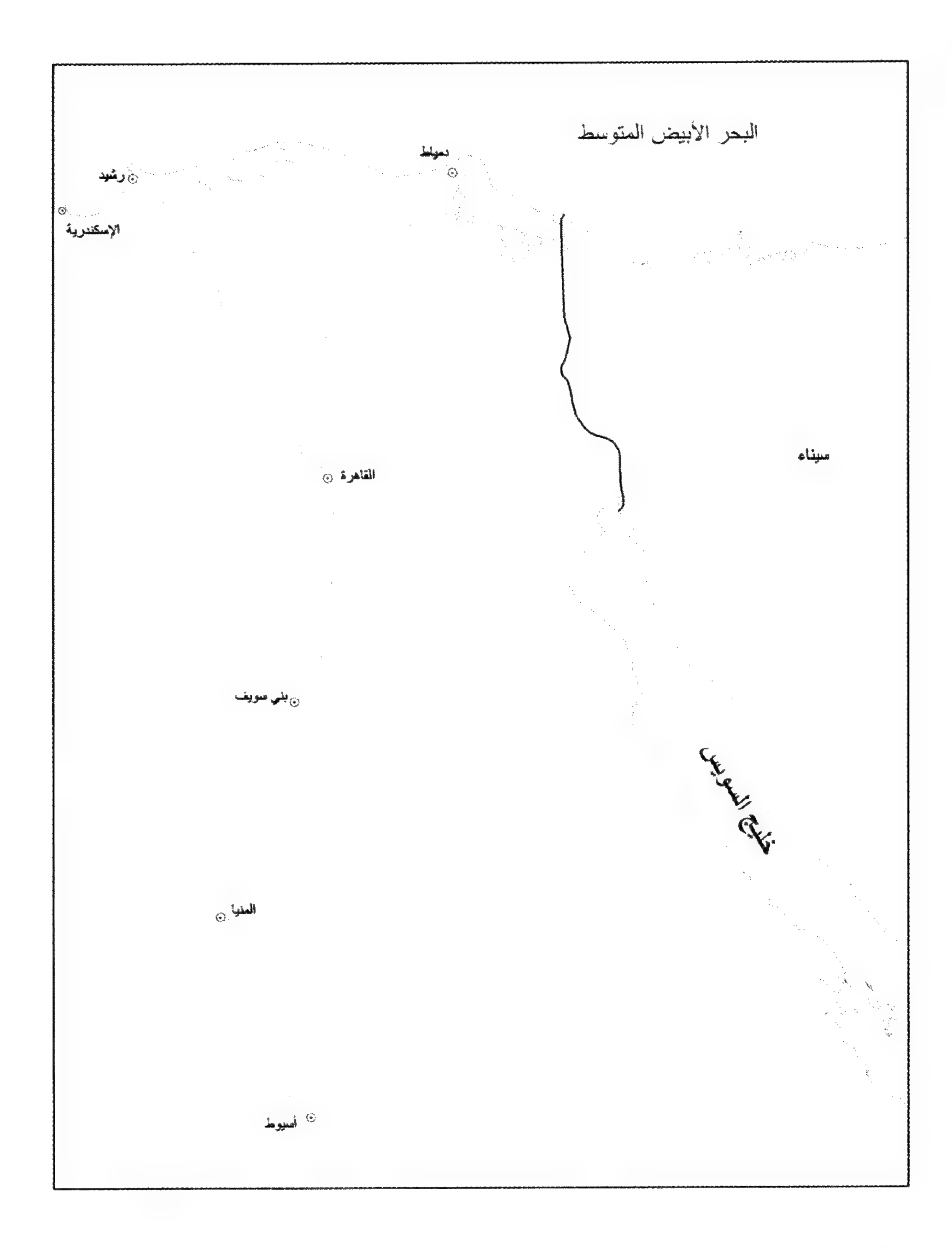

الهلال الخصيب
تركيا
سوريا
لبنان
البحر الأبيض
المتوسط
العراق
إيران
فلسطين
الأردن
المملكة العربية السعودية
مصر
خليج العقبة
الكويت
0 35 70 140 210 280
Km


العــراق
الموصل
كركوك
سوريا
إيران
بغداد
الأردن
العراق
البصرة
المملكة العربية السعودية
الكويت
الخليج العربي
0 25 50 100 150 200 Km


تركيا
حلب
اللاذقية
حماة
سوريا
العراق
البحر الأبيض
المتوسط
لبنان
دمشق
فلسطين
الأردن
0 15 30 60 90 120
Km
الجمهورية العربية السورية


لبنان
طرابلس
البحر الأبيض المتوسط
البقاع
بعلبك
بيروت
لبنان
صيدا
سوريا
صور
فلسطين


الأردن وَ فلسطين
لبنان
سوريا
العراق
بحيرة طبرية
حيفا
البحر الأبيض المتوسط
جنين
نابلس
يافا
رام الله
القدس
عمان
غزة
الخليل
البحر الميت
فلسطين
الأردن
المملكة العربية السعودية
مصر
العقبة
خليج العقبة


البحر الأبيض المتوسط
دمياط
رشيد
الإسكندرية
سيناء
القاهرة
بني سويف
خليج السويس
المنيا
أسيوط

الفهارس

١- فهرس الآيات القرآنية .

٢- فهرس الأحاديث الشريفة .

٣- فهرس الكتب الواردة في متن الكتاب .

٤- فهرس الأشعار .

٥- فهرس الأعلام .

٦- فهرس الأماكن .

٧- فهرس القبائل والأمم والشعوب .

١- فهرس الآيات القرآنية

٢- فهرس الأحاديث الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
"إن الشيطان يئس أن يعبد في جزيرة العرب"	٤٤
"الإيمان يمان"	٣١١
تلك أمكم يا بني ماء السماء	٣١
"حمي الوطيس"	٩٨
"كان يعرض عليه القرآن في كل رمضان مرة إلى سنة وفاته ..."	١٢
"المدينة المنورة أحب البقاع إلى الله ..."	١١٩
"يا رسول الله إن رأيت أن تجعل الدهناء حجازًا بيننا وبين بني تميم ..."	٩١

٣٢- فهرس الكتب الواردة في متن الكتاب

٤- فهرس الأشعار

	القائل	الصفحة
لها رسغ أيد مكرب	مجهول	٦٧
وصلنا إلى عثر وفي دار وائل بهاليل منها سادة وأسود	عمر بن زيد	٢٩٤
يعلو المخارم بين السهل والفرط	قتيبة الجرمي	٢١٤
وقد أنجدن من ذات طوق	رؤية بن العجاج	٢١٦
ركبًا أناخوا موهنًا بالنبك	مجهول	٢٩٨
وعربة دار لا يحل حرامها من الناس إلا اللوذعي الحلاحلُ	أبو طالب بن عبد المطلب	٢٣
بكى حارث الجولان من فقد ربه وحوران منه خائف متضائلُ	النابغة الذبياني	٨٠
أبت أجأ أن تسلم العام ربها فمن شاء فلينهض لها من مقابلِ تبيت لبوني بالقرية آمنًا وأسرحها غبًا بأكناف حائلِ	امرؤ القيس ابن حجر	٢٢٩
نقاتل ما بين العروض وختعما	لبيد بن أبي ربيعة العامري	٢٣٥
إن القصيم بلد محمه أنكد أفنى أمة فأمه	مجهول	٢٢٨

٥- فهرس الأعلام

(ت)

(ج)

(ح)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

٦ - فهرس الأماكن

(ث)

(ج)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ص)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

٧٧- فهرس القبائل والأمم والشعوب

(ب)

المصادر والمراجع العربية

- **الإسكندري، عمر :**

تاريخ مصر إلى الفتح العثماني (الطبعة الثانية ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م).

- **الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي :**

المسالك والممالك (تحقيق محمد جابر الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م).

- **الأصفهاني، أبو الفرج :**

الأغاني (تصحيح أحمد الشنقيطي، ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م).

- **الألوسي، محمود شكري بن عبدالله :**

بلوغ الأرب في أحوال العرب (الطبعة الأولى ١٣١٤هـ/١٨٩٦م).

- **الأنصاري، عبدالقدوس :**

تاريخ مدينة جدة (الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م).

- **البركاتي، شرف بن عبدالمحسن :**

الرحلة اليمانية لصاحب الدولة أمير مكة الشريف حسين (الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

- **ابن بشر، عثمان بن عبدالله النجدي الحنبلي :**

عنوان المجد في تاريخ نجد (تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، الرياض).

- **البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز :**

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (تحقيق مصطفى السقا، الطبعة الأولى ٦٤-١٣٧١هـ/ ٤٥-١٩٥١م).

- **ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف :**

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (تحقيق محمد فهيم شلتوت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م).

- **الجراحي، إسماعيل محمد العجلوني :**

كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م).

- **حتي، فيليب :**

- لبنان في التاريخ منذ أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر (ترجمة أنيس فريحة، مراجعة نقولا زيادة، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م).
- تاريخ العرب المطول (الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م)
- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين (ترجمة جورج حداد وآخرين، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م).

- **حسين، عبدالله :**

تاريخ ما قبل التاريخ (الطبعة الثانية، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م).

- **حماد، خيري :**

عبدالله فيلبي : قطعة من تاريخ العرب الحديث (الطبعة الأولى ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م).

- **حمزة، فؤاد :**

البلاد العربية السعودية (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م).

- **الحموي، ياقوت بن عبدالله :**

معجم البلدان (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م).

- **ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد :**

تاريخ ابن خلدون (مطبعة الرحمانية ١٣٥٥هـ).

- **دائرة المعارف الإسلامية** (إعداد وتحرير إبراهيم زكي خورشيد ، وأحمد الشنتناوي، وعبدالحميد يونس) (القاهرة).

- **زامباور، إدوار فون :**

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي (ترجمة د. زكي محمد حسن وآخرين، القاهرة).

- **الزركلي، خيرالدين :**

الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (بيروت).

- **زيدان ، جرجي :**

- العرب قبل الإسلام .

- **سعيد أمين :**

أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م).

- **السلمي، عرام بن الأصبغ :**

- أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى (تحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الأولى، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م).

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير :

- جامع البيان عن تأويل القرآن (راجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر ، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م) .

- تاريخ الرسل والملوك . (تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ١٣٨٠-١٣٨٩هـ/ ١٩٦٠-١٩٦٩م).

- العارف ، عارف باشا :

تاريخ القدس (١٣٧١هـ/ ١٩٥١م).

العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر :

فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري (تحقيق وتصحيح عبدالعزيز بن باز، ومحمد فؤاد عبدالباقي، ومحب الدين الخطيب، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م).

- علي ، جواد :

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٧١-١٣٧٨هـ/ ٥٢-١٩٥٩م).

- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد :

تقويم البلدان (عني بتصحيحه وطباعته ماك كوكين ديسلان، ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م).

- ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري :

المعارف

- القلقشندي :

نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب .

- كحالة ، عمر رضا :

جغرافية جزيرة العرب (راجعه وعلق عليه أحمد علي، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

- **المثنى، أبو عبيدة معمر بن المثنى :**

مجاز القرآن (تحقيق محمد فؤاد سيزكين، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م).

- **مجلة العرب، عدد رمضان ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.**

- **مدني، أمين :**

التاريخ العربي وبدايته (دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م).

- **المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي :**

- التنبية والإشراف (دار الصاوي ، ١٩٥٧هـ).
- مروج الذهب ومعادن الجوهر (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

- **معلوف ، لويس :**

المنجد في اللغة والأدب والعلوم (الطبعة الخامسة عشرة، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م).

- **المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد :**

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (تحقيق دي غويه، ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م).

- **المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي :**

السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق محمد مصطفى زيادة، وسعيد عبدالفتاح عاشور، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).

- **ابن منظور، محمد بن مكرم :**

لسان العرب (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م).

- **موسل، ألويس :**

شمال الحجاز (ترجمة عبدالمحسن الحسيني ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م).

- **النجار، عبدالوهاب :**

قصص الأنبياء (١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م).

- **ابن هشام، أبو محمد عبدالملك :**

السيرة النبوية (تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي، مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م).

- **الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب :**

- الإكليل (تحقيق أنستاس الكرملي، ١٣٥١هـ/ ١٩٣١م).
- صفة جزيرة العرب (تحقيق محمد عبدالله بن بليهد ، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م).

- **هيكل، محمد حسين :**

حياة محمد (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

- **الواسعي، عبدالواسع بن يحيى :**

تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٦م).

- **اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح :**

تاريخ اليعقوبي (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م).

وأشار المؤلف إلى أنه استعان ببعض المراجع الأجنبية التي ترجمت إلى اللغة العربية وهي :

١- كتاب (حضارة بابل وآشور)، تأليف (غوستاف لوبون)؛ نقله إلى العربية . (محمود خيرت).

٢- كتاب (الخليج العربي)، تأليف (جان جاك بيريبي)؛ نقله إلى العربية (نجدة هاجر) و(سعيد الغز).

٣- كتاب (الحضارة المصرية)، تأليف (جون ويلسن)؛ نقله إلى العربية (أحمد فخري).

٤- كتاب (موجز تاريخ العالم)، تأليف (هـ. ج. ويلز)؛ نقله إلى العربية (عبدالعزيز توفيق جاويد).

٥- كتاب (بلاد ما بين النهرين)، تأليف (ل. ديلابورت)؛ نقله إلى العربية (محرم كمال).

٦- كتاب (التاريخ العربي القديم)، تأليف (ديتلف نيلسن) و (فرتز هومل) و (ل. رودو كاناكيس) و (أدولف جرومان)؛ نقله إلى العربية (فؤاد حسنين علي).

٧- كتاب (موسوعة تاريخ العالم)، أصدره (وليام لانجر)؛ نقله إلى العربية (محمد مصطفى زيادة).

٨- كتاب (قصة الحضارة)، تأليف (ول ديورانت)؛ نقله إلى العربية (زكي نجيب محمود).

٩- كتاب (تاريخ اللغات السامية)، تأليف (إسرائيل ولفنستون).

١٠- كتاب (تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي)، تأليف (جيمس هنري بريستد)؛ نقله إلى العربية (حسن كمال).

١١- كتاب (روح الحضارة العربية)، تأليف (هانز هيترش شيدر).

١٢- كتاب (انتصار الحضارة)، تأليف (جيمس هنري بريستد) نقله إلى العربية (أحمد فخري).

١٣- كتاب (العرب في التاريخ)، تأليف (برنارد لويس) نقله إلى العربية (نبيه أمين فارس، ومحمود يوسف زايد).

١٤- كتاب (ماذا حدث في التاريخ)، تأليف (جوردون تشايلد) نقله إلى العربية (جورج حداد).

١٥- كتاب (الرافدان)، تأليف (ستين لويد) نقله إلى العربية (طه باقر).

IND

شركة مطابع نجد التجارية

تلفون : ٤٤٨٨٠٢٤ - ٤٤٨٨٠٢٦ فاكس : ٤٤٨٠٧٥٥